THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL LIBRARY

OU_190297

UNIVERSAL LIBRARY

قصص القرآن

تأليف

محمد أحمد جاد المولى بك
مفتش أول اللغة العربية

محمد أبو الفضل إبراهيم
المدرس بالمدارس الأميرية

علي محمد البجاوي
المدرس بالمدارس الأميرية

السيد شحاتة
المدرس بالمدارس الأميرية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفين

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الثانية : ١٣٥٨ - ١٩٣٩

مطبعة الاستقامة بالقاهرة
شارع نوبار باشا ١٢

فهـــرس
كتاب قصص القرآن

	الصفحة
المقـــدمة	
آدم	١
نبأ ابنى آدم	٧
نوح	١٣
هود	٢١
صالح	٢٦
إبراهيم	٣٣
إبراهيم وآية البعث	٣٣
إبراهيم يتلطف فى دعوة أبيه	٣٦
إبراهيم يحطم الأصنام	٣٨
إبراهيم يلقى فى النار	٤٥
إبراهيم والنمروذ	٤٧
إبراهيم يهدى قومه عن طريق الحوار	٥٠
إبراهيم فى مصر	٥٣
إسماعيل	٥٦
نبع زمزم	٥٩
إسماعيل الذبيح	٦٢
إسماعيل وجرهم	٦٥
بناء الكعبة	٦٨
لوط	٧١
يعقوب	٧٨
يوسف	٨٥
يوسف بين إخوته وأبيه	٨٥
يوسف فى الجب	٩١
يوسف وامرأة العزيز (١)	٩٥
يوسف وامرأة العزيز (٢)	١٠٠
يوسف السجين	١٠٥
خروج يوسف من السجن	١٠٨
يوسف عزيز مصر	١١٣
اللقاء	١٢٣
شعيب	١٢٩
موسى	١٣٤
ولادة موسى وتربيته	١٣٤
خروج موسى من مصر	١٣٧
موسى ينزل أرض مدين	١٣٩
موسى يصاهر الشيخ	١٤١
موسى الرسول	١٤٥
معجزات موسى	١٥٠
عناد فرعون	١٥٦
خروج بنى إسرائيل من مصر	١٦١
مواعدة موسى	١٦٦
التيه	١٧١
البقرة	١٧٣
موسى والخضر	١٧٥
طالوت	١٨٢
بين طالوت وداود	١٩٣
داود	١٩٩

الصفحة

فتنة داود ١٩٩
سليمان ٢٠٤
سليمان وبلقيس ٢٠٤
سليمان والنملة ٢٠٩
حكمة سليمان ٢١٠
سليمان على عرش أبيه ٢١٢
قضاء الله فى بنى إسرائيل ٢١٥
عزير ٢٢٣
صراع بين الحق والباطل ٢٢٦
أيوب ٢٣١
يونس ٢٤٠
زكريا ويحيى ٢٤٥
مريم ٢٥٠
عيسى ٢٥٧
عيسى الوليد ٢٥٧
نبوة عيسى ٢٦٤
المائدة ٢٦٩
النهاية ٢٧٤
ذو القرنين ٢٨٠
أصحاب الكهف ٢٨٣
أصحاب الأخدود ٢٩٠
سيل العرم ٢٩٦
أصحاب الفيل ٣٠٠
بلال ٣٠٨

الصفحة

الإسراء ٣١١
الهجرة ٣١٨
بدر ٣٣١
العتب فى الفداء ٣٤٩
أحد ٣٥٢
بنو النضير ٣٦١
الأحزاب ٢٦٦
قصة الإفك ٣٧٤
المنافقون ٣٨١
نبأ الفاسق ٣٨٧
الفتح ٣٨٩
الرؤيا ٣٨٩
الصلح ٤٠١
نقض العهد ٤١٢
نصر مبين ٤٢١
يوم حنين ٤٢٩
المسلمون بين الهزيمة والنصر ٤٢٩
الثلاثة الذين خلفوا ٤٣٤
مسجد الضرار ٤٤٣
المباهلة ٤٤٧
المجادلة ٤٥١
التحريم ٤٥٥
زينب بنت جحش ٤٦٠

(تم الفهرس)

المراجـــع

(١) القرآن الـكريم

(٢) التفاسير الآتيــة :

الطبرى — الـكشاف — الفخر الرازى — أبو السعود.

البيضاوى — الألوسى — تفسير المنار

(٣) السيرة النبوية لابن هشام

(٤) السيرة الحلبية

(٥) المثل الكامل

(٦) حياة محمـــد

(٧) نور اليقين

(٨) قصص الأنبياء (الطبعة الثـانية)

(٩) البداية والنهاية : لابن كثير

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

امتاز قَصَصُ القرآن الكريم بسموّ غاياته، وشريف مقاصده، وعلو مراميه: اشتمل على فصول فى الأخلاق مما يهذب النفوس، ويجمّل الطباع، وينشر الحكمة والآداب؛ وطرقٍ فى التربية والتهذيب شتّى؛ تساق أحيانا مساق الحوار، وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار، وتارة مذهب التخويف والإنذار؛ كما حوى كثيرا من تاريخ الرسل مع أقوامهم، والشعوب وحكامهم، وشرح أخبار قوم هُدوا؛ فمكّن الله لهم فى الأرض، وأقوام ضلُّوا؛ فساءت حالهم، وخربت ديارهم، ووقع عليهم العذاب والنكال؛ يضرب بسيرهم المثل، ويدعو الناس إلى العظة والتدبر.

كل هذا قصَّه الله فى قول بيِّن، وأسلوب حكيم، ولفظ رائع، وافتنان عجيب؛ ليدل الناس على الخلق الكريم، ويدعوَهم إلى الإيمان الصحيح، ويرشدَهم إلى العلم النافع، بأحسن بيان، وأقوم سبيل؛ وليكون مثلَهم الأعلى فيما يسلكون من طرق التعليم، ونبراسَهم فيما يصطنعون من وسائل الإرشاد.

ولكنه ـ على كريم مقاصده، وتنوّع مذاهبه، وافتنان طرقه ـ قد وجد من أبناء هذا العصر من يهجره إلى غيره، ويتركه إلى سواه، مما وضعه الناس من قصص فيها الحق والباطل، وفيها الصحيح والزائف...

هذا على الرغم من أن القرآن الكريم يعمر المدارس والمساجد ، والمنازل والمجالس ، ولا يجد منهم من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولعل هذا لم يصدر منهم عن سوء نية ، أو قصد العُزوف عن الإفادة من كتاب الله القويم ؛ ولكن قد يقع كثيراً أن يخفى عليهم فى القصة معنى ، أو يُغَمَّ عليهم لفظ ، أو يعوزهم التأويل ، فلا يجدوا ضالتهم فيما بين أيديهم من كتب التفسير ، سهلة المنال ، ميسورة الجنى ؛ لأن بعض المفسرين جعلوا همهم بيان المذاهب النحوية والنكات البلاغية فى محكم الآيات ، وبعضهم عُنى بالأحكام واستنباطها ، وآخرين وقفوا جهدهم على الشؤون الكونية والمناحى الفلسفية والتدليل عليها ، إلى غير ذلك من وجوه البحث والشرح للقرآن .

نعم ، إن هناك بعضا من المفسرين نهجوا فى تأويل القصة تأويلا صالحا ، وسلكوا مسلكا مقبولا ؛ ولكن هذا لا يخرج عن نتف متفرقة ، وآراء مبعثرة لا تسد حاجة قارئ لا صبر له على تشعّب الآراء ، ولا جلد عنده على مراجعة كتب القدماء .

ولِمَا رأيناه من إقبال الناس على قراءة القصص ، ولِما شاهدناه من انصرافهم عن قصص القرآن ــ على ما فيه من شريف المقاصد والأغراض ــ وضعنا هذا الكتاب قصصا شتى فى ضوء القرآن وهَديه ، وعلى طريقته الحكيمة ؛ من الاقتصار على بسط موضع العبرة ، إلا أن يكون موضعا يحتاج إلى بيان ، أو إشارة يعوز فيها القارئ التَّوضيح ،

وجلوناه فى ثوب أدبى ، وأسلوب سائغ ؛ ولم نخرج فيما كتبناه عن آراء انتخلناها من كتب التفسير المشهورة ، وأخبار رويناها عن ثقات المؤرّخين .

وغرضنا من هذا أن نحبب إلى الناشئين والناشئات أسلوب الموعظة القصصية فى القرآن ، وأن نحملهم على الاستفادة من هديه وقويم نهجه .

والله نسأل أن يرزقه من قبول الناس وانتفاعهم به قدر ما قصدنا به ؛ وما أملنا منه إلّا ابتغاء وجه الله ؟

المؤلفون

رجب سنة ١٣٥٦هـ
سبتمبر سنة ١٩٣٧م

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

ظهرت منذ عامين الطبعة الأولى من كتاب « قصص القرآن » ، فاستقبله العالم الإسلامى والعربى استقبالا حسنا ، وأطرته الصحف ، وأثنت عليه أقلام العلماء والأدباء ، وقدّرته وزارة المعارف والمعاهد الأجنبية فقررته فى مدارسها ؛ ولقد حسبنا كل هذا تحيّة كريمة لما قصدناه من تيسير النفع بالقرآن الكريم ، وتقريب ما اشتمل عليه من قصص حكيم .

وها نحن أولاء نقدّمه للقراء فى طبعته الثانية ، ممتازا بزيادة ضبط وتنقيح ، راجين أن يطّرد به النفع والتيسير ؟

المؤلفون

أغسطس سنة ١٩٣٩ م
جمادى الآخر سنة ١٣٥٨ هـ

آدم عليه السلام *

خلق الله الأرض فى يومين ، وجعل فيها رَوَاسِيَ من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، ثم استوى إلى السماء ، فقال لها وللأرض : ائْتِيَا طَوْعًا أو كَرهاً ، قالتا : أتينا طائعين ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجل مسمى ، ثم خلق ملائكته الذين يسبحون بحمده ، ويقدّسون اسمه ، ويخلِصون فى عبادته .

ثم شاءت إرادته ، واقتضت حكمته أن يَخْلق آدم وذرّيته ، ليسكنوا فى الأرض ويَعْمُروها ، فأنبأ ملائكته أنه سيُنشئ خلقاً آخر ، تعمُر بهم الأرض ، وينتشر نسلُهم فى أرجائها ، فيأكلون من نَبتها ، ويستخرجون الخيراتِ من باطنها ، ويخلُف بعضهم بعضاً فيها .

ولمـا كان الملائكةُ يجهلون حكمة استخلافه (1) ، ولا يعلمون سبب خلقه — وقد ألهمهم الله أن آدم وذرّيته سيكونون دونهم تقوى وطاعة ، وأقل منهم عبادة وضراعة — سألوا الله قائلين : « أَتجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ، وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ » ، قالوا ذلك رغبة فيما يزيل شبهتهم، ويَنزع الوساوس من صدورهم ، وامتدّ رجاؤهم إلى رحمة الله أن تستخلفهم فى الأرض ؛ لأنهم أسبق إلى رعاية نعمته ، وأوْلَى بمعرفة حقه ؛ ولم يكن سؤالهم ذلك اعتراضا على فعله ،

---

* القرآن الكريم - سورة البقرة: الآيات من ٢٩ - ٣٩

(١) استخلفه : جعله خليفة .

ولا شكا فى حكمته ، ولا طعنا فى خليفته أو ذرّيته ؛ لأنهم أولياؤه المقرّبون ، وعبادُه المكرَمون ؛ لا يسبِقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون .

أجابهم الله بما اطمأنت له قلوبهم ، وهداهم فى حَيْرتهم ، فقال : « إنى أعلمُ مالا تعلمون » ، وأعرِف من حكمة استخلافه مالا تدركون ، فسأخلق ماأشاء ، وأستخلف من أريد ، وسترون بعدُ ماخفِى عليكم واستتَر عنكم ، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى ، فَقَعُوا له ساجدين .

سوّى الله آدم من طين من صلصال من حَمَإٍ مَسْنُون [١] ، ثم نفخ فيه من رُوحِه ، فسرَت فيه نسمة الحياة ، وصار يتحرّك بإرادته ، ويَشعر بحواسه ، ويُدرك بعقله ، ثم غمره الله بفضله ، وأفاض عليه من نوره ، وعلّمه أسماء الكائنات كلّها ، ثم عرض هذه الكائنات على الملائكة ، فقال : أَنبِئُونِى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ؛ إظهاراً لعجزهم ، وبياناً لقصور علمهم ، وأن آدم بذلك أَوْلَى وأجدر ، وخلافته أحق ألّا تُنكَر .

بُهتوا لما وُجهوا به ، وأُسقِط فى أيديهم حينما حاولوا البحث فى طوايا نفوسهم ، وأرادوا الرجوع إلى سابق علمهم ؛ فلم يجدوا إلى الجواب سبيلا ، فأقرّوا بعجزهم ، واعترفوا بقصور علمهم ، وقالوا : سُبْحَانكَ [٢] لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَاعَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الْحَكِيمِ .

ولما كان آدمُ قد اغترف من فيض ربه ، واقتبس من نور علمه ، فعلّمه هذه الأسماء ، ورسخت قدمُه فى معرفتها ، أمره الله أنْ ينبئهم بها

(١) الحمأ : الطين الأسود . المسنون : المصوّر

(٢) نقرّ لك بالعبودية .

عجزوا عن معرفته ، ويخبرهم بما قَصُرت مداركهم عن علمه ؛ بياناً لفضله ، وإظهاراً لحكمة استخلافه ، فأخبرهم خليفة الله بما عجزوا عنه ، فناداهم ربهم : « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » .

حينئذ تبيّنوا فضله ، وأدركوا سر خلقه ، وظهرت لهم حكمة استخلافه .

ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا ؛ اعترافاً بما منح اللهُ آدمَ من علم ، وآثره به من معرفة ، وإذعاناً لما بَهَرَهُمْ من حكمة الله البالغة ؛ أما إبليس ، فقد خالف أمر ربه وازدرى آدمَ وترفع عليه ، فأبى واستكبر ، وكان من الكافرين .

قال الله لإبليس يسأله عن سبب امتناعه ، وَيَسْتَنْبِئُه حكمة تخلفه : «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ؟»

فزعم أنه خير من آدم عنصراً ، وأزكى منه جوهراً ، وظن ألا أحد يباريه فى علوّ قدره ، ولا يَسْتَشْرِف إلى سموّ مكانته ، وقال : أنا خيرٌ منه ، خلقتنى من نار وخلَقْتَه من طين .

جهر بالعصيان ، وصرح عن المخالفة والبهتان ، مستكبراً عن أمر ربه ، مستنكفاً أن يسجد لمن خلقه بيده ، فصار من الكافرين .

فجازاه الله على عصيانه ، وعاقبه على مخالفته ، وناداه قائلا له : « اخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّين »

سأل إبليسُ ربه أن يُنْظِرَه[1] إلى يوم الدين ، وأن يَمُدَّله فى الحياة حتى

(١) أنظره : أمهله .

يوم يبعثون ، فأجاب الله سُؤْلَه ، وقال له : إنك من المُنْظَرِينَ ، إلى يوم الوقتِ المعلوم .

ولما استجيب سُؤْله ، وتحققت رغبته ، لم يشكر للهِ فضلَه ؛ بل قابل نعمته بالكُفران ، وفضله بالجحود والنكران ، وقال : فبما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لهم صِراطك المستقيم ، مترصداً لِغَوايتهم ، جاهداً فى إضلالهم ، ولآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجدُ أكثرَهم شاكرين .

قال الله لإبليس خِذلاناً وطرداً : امْضِ لسبيلك الذى اخترته ، وسر فى طريق الشر الذى أردته ، واستَفْزِزْ من استطعت منهم بصوتك ، وأَجْلب عليهم بخَيْلك ورَجِلِكَ ، وشارِكْهم فى الأموال والأولاد ، وعدْهم المواعيدَ الكاذبة ، ومَنِّهم الأمانىَ البعيدة ، فلن اخلّيَ بينك وبين مَن صحت عقيدته ، وقويت عزيمته من عبادى المخلصين ، ولن أجعل لك عليهم سلطاناً ؛ فقلوبهم عنك منصرفة ، وآذانهم لقولك غير مصغية .

أما ما اعتزمتَه من إغواء الناس وفتنتهم ، فحسابك عليه عسير ، وجزاؤك على اقترافه عظيم ، ولَأَمْلَأَنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين .

طرد الله إبليسَ من رحمته ، وأبعده عن نعمته ، وأقبل على آدم فأسكنه وزَوْجَه الجنةَ ، وحذّرهما الشيطانَ وكَيده ، وأمرهما ألّا يسمعا له قولا ، أو يطيعا له أمراً ؛ لئلا يخرجا من الجنة ، ويُحْرَمَا نعيمها ، وأباح لهما أن يأكلا من الجنة رغداً حيث شاءا ، وأطلق لهما العِنان فى اجتناء مايريدان من ثمارها ، ونهاهما أن يَقْرَبا شجرةً من بين أشجارها الكثيرة ؛ ولِيُزِيلَ كل إبهام فى شأنها ، وشكٍّ فى معرفتها : أشار إليها ،

تعييناً لهـا ، وإبعادا لكل ريب قد يتسرب إلى نَفْسَيْهما ، وتوعّدهما بالدخول فى زُمرة الظالمين إنْ قَرُبَاها ، أو تناولا شيئاً من ثمارها ، ووعدهما أن يَمُدَّ لهما فى أسباب النعيم ، إن اجتنبا الشجرة التى نهاهما عنها ، فلا يمسهما فى الجنة جوعٌ أو عُرى ، ولا ينالهما ظمأ أو نَصَب ، فقال : « ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ » . « إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى » .

سكن آدم الجنة ، وصار يتمتع بما فيها من كل ما تشتهى الأنفس ، وتَلَذُّ الأعين . ولعله كان يتنقّل بين أشجارها ، ويتفيّأ ظلالها ، ويقتطف من أزهارها ، ويتفكّه بثمارها ، ويَرْتوِى من عذب مياهها ؛ وشاركته هذه المُتْعَةَ زوجتُه ، وعاشا كذلك مدة يرشفان مناهل السعادة . حَزَّ ذلك فى نفس إبليس ، وعزّ عليه أن يَنْعَم آدم وزوجُه ، وهو مطرود من رحمة الله ، مبعَد عن جنته ، فعزم على الثأر من آدم ، وحرمانه مما يتمتع به من نعيم ، فدَلَف إلى الجنة وحدثه فى سر وخفاء ، وأوهمه بأنه لهما صادق الودّ ، مخلص فى النصح ؛ ثم جدَّ فى استمالتهما إليه ، فلم يترك سبيلا لذلك إلا وَلَجه ، أو باباً إلا طَرَقه ؛ وأظهر له ولزوجه عطفَه عليهما ، وإشفاقَه من زوال نعمتهما ، وخوفه من تقويض عرش سعادتهما ، فقال : « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ » .

ولمـا يئس من متابعتهما لرأيه ، وخضوعهما لمشورته ؛ أقسم أنه لهما من الناصحين ، لا يقصد إلى ضررهما ، ولا يريد النكاية بهما ؛ ليؤكد صحة قصده ، وصوابَ رأيه ؛ ولا شك أنه أكثر وألحّ ، وتمادى فى إغوائه

والحلف ؛ فاغترا بقوله ، وافتتنا بزُخرف لفظه ، ومعسول وعده ، وتابعا رأيه ، وزلا بإغوائه .

فلما خرجا عن أمر ربهما ، سلبهما نعمته ، وحرمهما جنته ، وناداهما ربهما : « أَلَمْ أَنْهَكُمَا عن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ، وأَقُلْ لَكُمَا إنّ الشيطانَ لكما عدوٌّ مُبين ؟ »

أنابا إلى الله ، وندما على فعلتهما ، وقالا : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإنْ لَمْ تَغفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنكونَنّ من الخاسِرِينَ » قال : « اهْبِطُو بعضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومتاعٌ إلى حِينٍ . »

تاب الله عليهما ، وغفر لهما زلتهما ، فأثلجَ ذلك صدرَهما ، وقَرَّت به عينُهما ، وانبثق الأمل فى نفسيهما بالبقاء فى الجنة ، والتمتع بنعيمها ؛ وقد علم الله ما جال بخاطرهما ، ووقف على ما تطلّعت إليه نفسُهما ، فأمرهما بالهبوط منها ، وأنبأهما أن العداوة بينهما وبين إبليسَ ستظلّ قائمةً : ليحذَرا فتنته ، ولا يُصْغِيا إلى إغوائه ، فقال : اهبطوا منها جميعا ، بعضكم لبعض عَدُوٌّ فإما يأتينّكم منى هُدى ، فمن اتَّبع هداى فلا يَضل ولا يشقى .

فجعل له مأربا فى الحياة ، وأملا يسعى إليه ، وأخبره أنه قد انتهى طور النعيم الخالص والراحة التامة ، وأنه بعد خروجه من الجنة وحرمانه نَعيمَها قد دخل فى طور له فيه طريقان : هدى وضلال ، إيمان وكفر ، فلاح وخسران ؛ فمن اتبع هدى الله الذى شرَعه ، وسلك الصراطَ المستقيم الذى حدّده ، فلا خوف عليه من وسوسة الشيطان وإغوائه ؛ ومن أعرض عن ذكر الله ، وحاد عن سبيله ، فسيكون عيشُه ضنكا ، وسيكون من الذين ضلّ سعيُهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعاً .

نبأ ابني آدم *

بدأ نظام الحياة يستكمل حينما تهيّأت حواء لتستقبل أولادها: أولَ زهرة تفتحت فى رياض الإنسانية، وأول نفحة من نفَحات البشرية، وبهم تأنس وتسعد مع زوجها آدم؛ وقد كانا شديدى الحب والشغف أن يريا فلذاتِ أكبادِهما تَدِبّ على ظهر البسِيطة، وأن تمتلئ جوانب الأرض بنسلهما يمشون فى مناكبها ويأكلون من رزق الله؛ ولقد كان آدم حَفِيًّا بأبنائه، وحواءُ مستبشرةً بقدومهم رغم ماقاست من أهوال وآلام تلقاها الأم دائمـا فى مثل هذه الحال، إلا أنها لاتلبث حتى يمسحها بلسمُ العطف والحنان بيده، فإذا هى قريرة العين، باردة الفؤاد.

وضعت حواءُ توأمين: أحدهما قابيل وأخته، والآخر هابيل وأخته؛ وشبّ الإخوة فى رعاية الأبوين، وتبادلوا ودّ الإخاء، وشربوا محض العطف من الوالدين، حتى ملأتهم نضارة الحياة، وقوةُ الشباب: فنزع البنتان إلى منازِع النساء، وانبعث الولدان يضربان فى الأرض كسبا للرزق، وابتغاءً للخير؛ فكان قابيل من زرّاع الأرض، وكان أخوه من رعاة الأغنام.

لَانَ للأخوين مهادُ الحياة، وسهل عيشها، وعذُب مذاقُها، وانتشر رواق السلام والأمان على هذه الأسرة السعيدة الطاهرة. وعلى امتداد

* القرآن الكريم - سورة المائدة: الآيات من ٣١ - ٣٥.

الزمن ، وتتابع فَسْحة الأجل ، قويت فى كلا الفتيين غريزةُ الرجولة ، ومال إلى أن تكون له زوجةٌ ؛ ليسكنَ إليها ، ويطمئنّ بصحبتها ؛ وتعلقت نفسه بذلك الأمل الحلو المعسول ، وراحت تتفقّده وتتلمّس كل سبيل حتى تصلَ إليه ؛ وقد تعلقت إرادة الله ـ جلّت حكمته ـ منذ الأزل ، أن يُمتحَن بنو آدم على ظهر البسيطة ، فيكثر المال والبنون ، وتأخذ الأرض بهجتها وتزّين ، كما جرى القدر ألّا يكون الناس أمةً واحدة ؛ بل لابد من التكاثر ، والتباين فى العديد والمنزَع ، والنوع والخِلقة ، والسعادة والشقاء ؛ فأوحى الله تعالى إلى أبى البشرية أن يزوّج كلّ فتى من فتييه بتَوْأم أخيه ؛ حتى يكونَ لباسا لها ، وتكون لباساً له .

بهذا أوعز آدم إلى أبنائه ، راجياً أن يكون قولُه الفصلَ ؛ ولولا جموح النزعة البشرية ، وانسياقها إلى مهاوى البَوار والخسران ، لكان للأب ماتمنَّى .

والغريزة الإنسانية قوامها الحرصُ والطمع ؛ فمن كبح جِماح شهوته ، وكسر حدّة سطوته ، وجعل لعقله سلطاناً على هواه ، فأولئك هم الذين أكرمهم الله فى الدنيا والآخرة ؛ وأمّا من ترخّص لشهواته ، وانفلت من عقله زمام هواه ، فهو مِنَ الأخسَرِين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعا . ذلك محك الطبيعة الإنسانية ، وممتحَن النفس البشرية فى هذه الأرض .

بعد أن أسرّ آدمُ بمكنون صَدْرِه إلى ابنْيه ؛ ثار قابيل ، ولم ينزل على إرادة أبيه ؛ لأن نصيبه أقلُّ جمالا من نصيب أخيه ؛ فنفس عليه ،

ولم يرض بالقسمة ، وودّ لو تكون توأمته من نصيبه دون سواه .

وقد كان الجمال الخِلْقِىُّ - ومازال - ريحاً هوجاء تتقاذف النفسَ البشرية؛ وقد تُورِدها موارد الحتف والهلاك .

كان الجمال سبباً للشقاق بين الأخوين ، والمَوْجِدَة ، والحفيظة : فجمح أحدُهما عن طاعة أبيه : فنقض ما كان قد أبرم ، وفَصم ما كان قد أحكم .

هبّت على الأب رياح عاصفة مادارت يوما فى خلَده ولاحُسبانه ، وتوزّعت نفسه بين رغبة ابنيه ، والإبقاء على السلام بينهما والأمان ، إلى أن هداه الله إلى مخرَج يسدّ به مَهَبّ الريح ؛ فطلب إليهما أن يقرِّب كلاهما قُرْبانا إلى الله ؛ فأيهما تُقُبِّلَ قربانُه كان أحقّ بما اشتهى وأراد ؛ فقدّم هابيلُ جملا من أنعامه ، وقدّم قابيل قمحا من زراعته ؛ وكلٌّ منهما يترقرق فى صدره فيْضُ الأمل ، راجيا أن يظفَر بقَصَب السبق ، وأن يحوز أعواد الرهان .

وكان هابيل موفور الحظ موفّق الخطوات ؛ فتُقُبِّل قربانُه ، ولم يُتَقَبَّل قربان أخيه ؛ لأنه لم ينزل على حكم أبيه ، ولم يخلص النية فى قربانه .

بعد ذلك أُسْقِط فى يد قابيل ؛ إذ انطفأ أمله ، وراح ضحية الأثرة والحقد ، وانبعثت شروره ، وامتدّت نوازيه ، فتوعّد أخاه ، وقال : لأقتلنّك حتى لاأصاحبَك شقياً وأنت سعيد ، ولا أؤاخيك مبسوط الأمل وأنا مضطهدُ العاطفة ، كاسف البال ؛ فقال هابيل لأخيه ؛ والحسرة تُقَطِّع فؤاده : كان أولى لك - ياأخي - أن تتعرف موضع الداء فتحسِمَه ، وأن تَتَحَرّى مسالك السلامة فتنبعث إليها ؛ لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين .

وكان هابيل رجلا رزقه الله بسطة فى العقل والجسم : من الذين حُمِّلوا الأمانه فصانوها ، ووُهِبوا الحكمة فأجلُّوها ، يؤثر رضا الله ويتعشق طاعةَ الأبوين ويرضى بقسمة ربه ، ويرى أن الحياة متاع زائل ، وعَرَض حائل ؛ وكان شديد الإشفاق على أخيه ، دائبَ النصح له والرُّعوى عليه ؛ وكان كذلك يرى فى نفسه قوّةً من قوة الله ، فما يَضِيرُه تهديد قابيل ، وهو غِرٌّ مفتون ذو أَثَرةٍ وذو عصيان ؟ ولكنه ترك المقادير تجرى فى أعنَّتها ، وما تعلقت مشيئته بسوء لأخيه ، ولا اختلجت نفسه ليُلحق أذى بأخيه ؛ لأن الله الذى خلق الطهارة طبعه عليها يوم طُبِع ، فهو يخاف الله ربَّ العالمين .

اتجه بعد ذلك هابيل بالنصح الى أخيه عَلَّ كلماتِه يكون فيها الشفاء من داء الحقد والحفيظة ، فقال : ياأخى إنك لجائر ، مائل عن طريق الصواب ، آثم فى عزمك ، بعيدٌ عن جادة الحق فى رأيك ؛ فأوْلَى لك ثم أولى أن تستغفر الله ، وأن ترجع عن غيّك ؛ أمَا وإن عقدت عزمك ، وصممت فى رأيك ، وكنت فى تدبيرك ماضياً لا محالة ؛ فإنى لأترك الأمر لله ، مخافةَ أن يلحَقنى إثم ، أو يتعلقَ بنفسى أثرٌ لعصيان ؛ فَتَحَمَّلْ وحدَك الإثمَ فتكون من أصحاب النار ؛ وذلك جزاء الظالمين .

لم تكن آصرة الأخوة شفيعةً أمام ذلك الحقد المتقد فى صدر قابيل ، ولم يكن مبعث الحنو والرحمة والعطف ليهدّئَ من ثورة ذلك البركان الثائر ، ولم تكن مخافة الله ولا رعاية حقوق الأبوين رادعةً لتلك النفس التى كانت أولَ من أجرم على ظهر البسيطة من الناس .

فى ساعةٍ من ساعات الفلك الدائر ، ولنزوةٍ حقيرة من نزوات النفس الجامحة وقعت الواقعة ؛ فراح هابيل قتيلا بيد أخيه ، فريسةَ الحمق والجهالة والغرام .

ذوى عُود الأخ النضير ، وانطفأ مصباحه ، وغاب عن الأفق الذى كان يطالع أباه فيه ؛ فاستوحش آدم ، وراح يتفقد ابنه هابيل عَلّه يقف له على أثر ، أو يَبُل أُوام شوقه بخبر ؛ فسأل قابيلَ عن أخيه ، فردّ عليه فى لهجة الفاجر الكفّار ، ردًّا ملؤه الخفة والطيش ، وقال : ما كنت وكيلا عليه ؛ ولكن آدم عرف بعْدُ أن ابنه قد قتل ، فسكت على همّ وتبريح ، وكبت فى نفسه تلك الشعلة التى هاجت حزنا على فقيده وإشفاقا على أخيه

أقول للنفس تأساءً وتعزيةً إحدى يدىّ أصابتنى ولم ترد

ولقد كان هابيل أولَ من قُتِل على ظهر الأرض ، وما عرف قابيلُ كيف يوارى جُثَّة أخيه ، فحمله فى جراب على ظهره ، وظل مضطربا حائرا قَلِقَ النفس مُلْتَاعَ الفؤاد ؛ كيف لا ، وقد غدت نفسُه مَيدانا تختصم فيه الحفيظة والعاطفة ؛ فبات معذَّبا نابىَ المضجع ، موسد الهم والخزى والعار ؟

أرْوَح (١) الميت ، وناء قابيل بحمله ، ولم يدر كيف السبيل ؟

هنا لابدّ أن تهبط رحمة الله ، رعايةً لحق تلك الجثة الطاهرة ، وسنًّا لدستور الخليقة ، وإبقاءً على كرامة آدم وولديه ؛ وهنا كذلك لابدّ أن يكون درس قاس يتلقاه ذلك الغِرّ المأفون . وما هو بأهل لوحى الله ،

(١) أروح : فاحت رائحته .

ولا لإلهام الله ؛ بل لا بد أن يكون تلميذاً للغراب ! يتضاءل فهمُهُ أمام حُنكةِ ذلك الحيوانِ الأسود المنبوذ ! وتفنى شخصيته بجانب ذلك الدرس المؤلم الذى يتلقاه ذليلا ، صغيرَ النفس ، معذبَ الفؤاد .

بعث الله غرابين فاقتتلا : فقتل أحدهما صاحبه ، ثم حفر له بمنقاره ، وواري جثته تحت التراب . هنا تحرَّكت إنْسانية قابيل فقال : « يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أنْ أكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ » !

نوح *

ظل قومُ نوح يعبدون الأصنام دهراً طويلا واتخذوها آلهة يرجون منها الخير ، ويستدفعون بها الشر ، ويردّون كل شيء في الحياة إليها ؛ ودعَوْها بمختلف الأسماء : تارة وَدًّا[1] وسُوَاع ويَغُوث ، وتارة يَعُوق ونَسْرا ، على حسب ما يُملى عليهم الجهل ، ويزين لهم الهوى ، فأرسل الله إليهم نوحا - عليه السلام - وكان رجلا فَتِيقَ اللسان ، واضح البيان ، رزين الحصاة[2] ، بعيد الأناة ؛ رزقه الله صبرا على الجدل ، وقدرة على تصريف الحُجَج ، وبصَرا بمسالك الإقناع . دعاهم إلى الله فأعرضوا ، فأنذرهم بالعقاب فَعَمُوا وصَمُّوا ؛ ورغّبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا ؛ ولكنه ناضلهم وجادلهم ، ثم صابرهم وطاولهم ؛ فمدّ لهم حبل أناته ، وأفرغ عليهم معسول كلماته . ولم يَضعُف في إيمانهم رجاؤه ، ولم يَدَع اليأس يسلك سبيلا إلى قلبه ؛ بل أخذ يَفتنّ في الدعوة ، ويجاهد في إبلاغ الرسالة ؛ فدعاهم ليلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ؛ ووجه نظرهم إلى سر الوجود ، وإبداع الكائنات : لَيْلٌ دَاج ، وسماءٌ ذاتُ أبْراج ، وقمر يسبح ، وشمس تسطع ، وأرض فجّر خلالها الأنهار ، وأنبت فيها الزروع والثمار . كل هذا يتحدث بلسان فصيح ، وينطق ببرهان صحيح ، عن إله واحد ، وقدرة فذة عجيبة .

---

* القرآن الكريم - سورة هود : الآيات من ٢٦ - ٤٩

(١) ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر : أسماء أصنام انتقلت عن قوم نوح إلى العرب (٢) الحصاة : العقل والرأى .

وهكذا ظل يناضل ويساجل ، ويقيم الحجج ، ويبسُط البراهين ، حتى آمنت له شِرْذمة قليلون ؛ استجابوا لدعوته ، وصدّقوا برسالته . أمّا الذين طبع الله على قلوبهم فلم يؤمنوا ، وسبقت لهم الشّقوة فلم يهتدوا ـ وكانوا من عرانين [١] القوم وذوى الشرف الصاعد فيهم ـ تمالئوا عليه ، وتظاهروا على الاستهزاء به وتسفيه رأيه .

قالوا : ماأنت إلا بشر مثلنا ، وواحد منا ، ولو أراد الله أن يبعث رسولا لبعثه مَلَكا ، ولكنا أَصْخْنَا لقوله ، وأجبناه لدعوته ؛ ثم ماهؤلاء الأراذل من طَغام الناس وحُثالتهم ، وأهل الصناعات الخسيسة والحِرَف الدنيئة الذين انقادوا إليك بَادِىَ الرأى [٢] من غير أن يُمَحِّصُوا آراءهم ،أو ينضجوا أفكارهم ؟لو كان خيراً ماسبقنا إليه هؤلاء، ولو كان حقا ماتقول لكُنا ـ ونحن أولو الفطنة والزَّكانة ، وأصحاب الأذهان الصافية ، والأحلام الراجحة ـ أسبَقَ إلى الإيمان بك، والاقتداء بهداك .

ثم لجّوا فى الجدل ، وأمعنوا فى المراوغة ، وقالوا : وما نرى لك يانوح ولصحبك علينا من فضل ؛ لافى العقل والحِجَا . ولا فى بُعدالنظر ، ولا فى رعاية المصالح، ولامعرفة المَعَاد وخاتمة المطاف ؛ بل نظنُّكم كاذبين .

فأجابهم نوح ـ وسفاهة قولهم لم تَصْدَعْ صَفَاة [٣] حلمه ، ولم تُثِرْ قطاة رأيه وعقله [٤] ـ أرأيتم لو أننى كنتُ على بيِّنةٍ من ربى ، وحجةٍ شاهدة بصدق دعواى ، وآتانى رحمة منه وفضلا ، فعمِى عليكم القَصْدُ ،

---

(١) عرانين : جمع عرنين . وهو السيد الشريف (٢) بادى الرأى : من غير تعمق فى الفكر (٣) لم تصدع صفاة حلمه : لم تخرجه عن حلمه .
(٤) لم تثر قطاة رأيه وعقله : لم تغير مألوف رأيه وعقله .

واشتبه الأمر، وحاولتم ستر الشمس بأكفكم، أو طمْس النجوم بأيديكم؛ فهل أستطيع لكم إلزاما، أو أملكُ لحملكم على الإيمان سلطانا ؟

قالوا: يانوح لئن أردت لنا هداية وتوفيقا، ولئن أردت منا نصرا وإعزازا؛ فاعْمِد إلى هؤلاء الأوزاع (١) الذين آمنوا بك فأقصِهم عن حظيرتك، وانبِذهم عن حماك؛ فإننا لانستطيع أن نجرى فى عنانهم، أو نسير على أسلوبهم، أو نُقْرَن فى الاعتقاد بهم؛ وكيف نستجيب لدين يستوى فيه الشريف والمشروف، والملك والسوقة ؟

قال لهم: إنها دعوة عامة شاملة لكم جميعا؛ يستوى فيها نبيهكم وخاملكم، مَشْهُورُكم ومغموركم، الأغنياء منكم والفقراء، المرءوسون والرؤساء؛ وهبونى أجبتكم إلى مطلوبكم، وحققت بطردهم مرغوبكم؛ فمن الذى أعْتَمِدُ عليه فى نشر الدعوة وتأييد الرسالة؟ وكيف أطْرُدُ قوما نصرونى وقد لَقِيتُ منكم الخذلان، ووَصَلَتْ كلماتى إلى قرارةِ نفوسهم، وما صادفت منكم إلا الجحود والنكران؛ وهم مابرحوا قُوّاما على الدين، داعين إلى الله؟ ثم كيف يكون حالى معهم بين يدى الله إذا خاصمونى وحاجُّونى، وشكَوْا إلى الله أنى قابلت خيرهم بالكنود، وإحسانهم بالجحود ؟! ألا إنكم قوم تجهلون.

ولما اشتد بينهم وبينه الجدل، وانفرجت مسافة الخُلْف؛ سئموا منه وضاقت صدورهم به وقالوا: «يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

(١) الأوزاع: الأخلاط من الناس.

فهزئ بهم نوح وقال : إنكم تُسرِفون فى الجهل، وتمعِنون فى الحمق ؛ ومن أنا حتى آتيكم بالعذاب ، أو أصده عنكم ؟ وهل أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فأبلغكم ما أمرتُ به : أبشركم بالثواب مرة ، وأنذركم العذاب أخرى ؟ ألا إن مَرَدَّ كل شيء إلى الله : إن شاء هداكم ، وإن شاء استعجل فآذاكم ، وإن شاء أملَى لكم ليزيدَ فى عقابكم ، ويُمعِنَ فى النكاية بكم .

* * *

والأنبياء ـ لكى يؤدوا رسالتهم على وجهها الكامل ـ رَزقهم الله صبراً على الإيذاء ، وجلَداً على الخصام ؛ كما وَسَّع فى رُقعةِ أحلامهم ، وماد(١) لهم فى حبال رجائهم ؛ لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولا لمن كفر عذرٌ بعد الأنبياء . ونوح كان من أولِى العزم من الرسل ؛ مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، صابراً على أذاهم ، صامداً لاستهزائهم ، يرصُد فيهم بَرْق الأمل ، ويَشيم منهم بارق الإيمان(٢) ؛ ولكنهم ما ازدادوا على الأيام إلا عتوًّا ، وما بلغت دعوتُه منهم إلا نفوراً ؛ فعاد حبل الرجاء بالياً ، ووجه الأمل أسوَدَ كالحاً ؛ ففزع إلى الله شاكياً ملتجئاً ، مستعيناً مستهدياً فى هؤلاء الذين عجزت حيلته فيهم ، ويكاد الأملُ ينقطع فى إيمانهم ! فأوحى الله إليه : « إنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

ولما رأى نوح أن الله قد حقَّت كلمتُه ، وقضَى وحيُه : انه لن

(١) ماد : مدّ (٢) يتطلع إلى إيمانهم .

يؤمن أحدٌ بعدُ . وأنه قد طبِع على قلوبهم ، ووُضِعَتْ عليها الأقفال ، فلم يعودوا يخضعون لبرهان ، أو يذعِنون إلى إيمان ؛ نَفِد صبرُه ، وقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً[1] ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً » .

فاستجاب الله دعاءه ؛ وأوحى إليه : « أنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » ، فاتخذ مكاناً قَاصِياً عن المدينة ، وأعدَّ الألواح والمسامير وأخذ يعمل ، ولكنه لم يَنْجُ من سخرية القوم واستهزائهم .

قال بعضُهم : إنك يانوح كنتَ تزعُم قبل اليوم أنك نبي ورسول فكيف أصبحت اليوم نجاراً ؟ أزَهِدْتَ فى النبوة أم رغبت فى النجارة ؟

وقال غيرهم : مابالُ سفِينتِك تصطنعها بعيدةً عن البحار والأنهار ؟ أأعَدْدت الثيران لجرّها أم كَلَّفت الهواء حملها ؟ ولكنه أعرض عن استهزائهم ، ومر كريما على لغوهم ، وقال : « إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » ؛ وانصرف إلى السفينة يقيم ألواحها ، ويصل أجزاءها ، حتى استوت سفينةمكينة ذات ألواح ودُسُر[2] ، وانتظر نوح ما يكون من أمر الله ، فأوحى إليه : إذا جاء أمرنا ، وظهرت آياتنا؛ فاعمِد

---

(١) ديارا : أحداً (٢) دسر: مسامير .

إلى سفينتك ، وخذ من آمن معك من قومك وأهلك ، واحمل معك من كلّ زوجين اثنين حتى يبلغ أمر الله .

وتفتّحت أبوابُ السماءِ بالماء ، وتفجّرتْ عُيونُ الأرض ، وبلغ السيلُ الزُّبَى ، ثم جاوز القيعانَ والرُّبا ؛ فهُرع نوح الى السفينة ، وحمل ما أمر الله بحمله من الإنسان والحيوان والنبات ، وسارت باسم الله مجراها ومرساها : مرة هى فى ريح رُخاء ، وآونة فى زَعْزَع نَكْباء ، والأمواجُ تفتح بين طياتها للكافرين قُبُورا ، والزَّبَدُ يَخِيطُ لهم أكفانا ؛ يغالبون الموت والموت يغلبهم ، ويصارعون الموج ولكن الموج يصرعهم ، حتى طوتهم الأمواه طىّ السر فى الفؤاد .

وأشرف نوح فوق ظهر السفينة فرأى ابنه كنعان ـ وكانت شِقوة الله قد غلبت عليه فاعتزل أباه ، ورغب عن دينه ـ رآه يخوض اللجج ، ويدافع الموج ؛ ويحاول أن يعتصم بجبل يُنْجيه ، أو ربوة تُنقِذهُ ؛ ولكن الحِمام منه يدنو ، والغرق يقترب ، فرقت له كبده ، ولانت أعطاف رحمته ، وهاج موضع الإشفاق والحب فيه ، فناداه ، لعل نداءه يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن ، أو يلمس ناحية الشعور فيه فيذعن : إلى أين يابنى ؟ إنك تفر من قضاء الله وقَدره إلى قضاء الله وقدره ، هلمّ إلى السفينةِ مؤمناً ، فيلتئمَ شملُك بأهلك ، وتَنْجُوَ ببدنك ، « وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكافرينَ » .

ولكن هذه الكلماتُ لم تصل إلى قرارةِ وجدانه ، ولم تجاوز شِغاف قلبه ، وحسب أنه قادر على أن يحذر المكروه ، ويفلت من يده

القدر . فقال : إليك عنى . فانى سآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنى من المَاء.

قال نوح ـ وقد أشجاه الهمُّ ، وغلبه الوجدُ : يابنى إنه «لَا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ» . ثم فَصَلَ بينهما الموج ، وحجز السيل ، ولم يعد بعدُ يرى ابنه : فلذةَ كبده وحُشاشَةَ قلبه ؛ فاعتلج صدرُه همًّا ، واتجه إلى الله ملجإِ الملهوف وغَوْثِ المكروب ، وقال : رب إن ابنى من أهلى ، وقد وعدتَ ووعدُك الحق ، أنك تنجينى ومن آمن مِن أهلى ، وأنت أحكم الحاكمين .

فأوحى الله إليه : يانوح إنه ليس من أهلك ، ولا من خاصة عشيرتك : فقد سبقت له الشَّقَاوَةُ ، وحقَّت عليه كلمة الكفر ؛ فلا تعدّ من أهلك إلا من آمن بك ، وصدّق برسالتك ، واستجاب لدعوتك ؛ هذا الذى تعدُّه حقا من أهلك ، وهو الذى وعدتك بإنجائه ، وإنقاذ حياته «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ» ، أما من جَحَد برسالتك ، وكذّب بكلمات ربك ، فانه خارجٌ عن أهلك ، منبوذ من شفاعتك ، وإن كان بينك وبينه رحم مَاسّة ، أو نسب جامع . وهو لابد وارد حوض المنيّة ، مشرفٌ على الغاية المحتومة ، وإن اعتصم بجبل ، أو أوَى إلى ركن شديد ؛ فأياك بعدها أن تسألنى عن شىء لاتعلمه ، أو تجادلنى فى أمر لا تدركه ، «إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» .

وحينئذ أدرك نوح أن العطف أذهله عن الحق ، والإشفاق سَتَر عنه الصواب ؛ وكان أولى به أن يَبسُط كفيه شكراً لله على ماخصه وقومه المؤمنين من النجاة ، وعلى ما أوقعه على الكافرين من الغرق

والهلاك ؛ فالتجأ إلى الله مستغفرا من ذنبه ، مستعيذا من سخطه ، وقال : « رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ؛ وحال الموج بينه وبين ابنه فكان من المغرَقين .

ولما بلغ الشوط غايته ، وطُويت صحيفة القوم الظالمين ؛ كفَّت السماء ، وابتلعت الأرض الماء ، ورست السفينة على جبل الجودِى ، وقيل بُعْداً للقوم الظالمين .

وقيل لنوح : اهبط بسلام إلى الأرض أنت ومن آمن معك من قومك ؛ تحفُّكم البركة ، وتكلؤكم العنايةُ : عنايةُ الله .

هود *

أقامت عاد بالأحقاف مابين اليمن وعمان؛ رَدَحا من الزمن فى بُلَهْنِيَةٍ من العيش، ورَغَدٍ من الحياة: حباهم الله نِعَماً وافرة، وخيراتٍ جليلة؛ ففجّروا العيون، وزرعوا الأرض، وأنشئوا البساتين، وشادوا القصور، ومَنَحهُم فوق ذلك بَسْطَةً فى أجسامهم، وقوة فى أبدانهم، وآتاهم مالم يُؤتِ أحدا من العالمين. ولكنهم لم يفكروا فى مبدإ هذا الخلق، ولم يحاولوا التعرّف إلى مصدر هذه النعم؛ وغاية ماوصلت إليه عقولهم، وارتاحت إليه طباعهم أنِ اتخذوا أصناما لهم آلهةً يَعْنُون لها بجباههم، ويعفرون فى ثراها خدودَهم، ويتوجهون إليها بالشكر كلما وقعوا على خير، ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضير.

ثم إنهم بعد ذلك عَتَوْا فى الأرض؛ فأذل القوى منهم الضعيف، وبطش الكبير بالصغير؛ فأراد الله - هداية للأقوياء، وتمكينا للضعفاء، وتهذيبا للنفوس مما ران عليها من الجهل، ورفعا للحجب التى تراكمت على بصائرهم - أن يرسل إليهم رسولا من أنفسهم؛ يحدثهم بلغتهم، ويخاطبهم بأسلوبهم، ويرشدهم إلى خالقهم، ويبين لهم سفاهة عبادتهم؛ رحمة منه وكرما.

وكان هود رجلا من أوسطهم نسبا، وأكرمهم خُلقاً، وأرْجَحِهم حِلْمًا، وأرحبهم صَدْراً؛ فاختاره الله ليكون أمينَ رسالته، وصاحب دعوته؛ لعله يهدى هذه العقول الضالّة، ويقوّمُ مِن هذه النفوس المعوجة.

---

* القرآن الكريم - سورة هود: الآيات من ٥١ - ٦٠

فصدع بالأمر، واضطلع بالرسالة، وادَّرَعَ بما يَدَّرِعُ به صاحب كلِّ دعوة؛ عَزْمٌ يُقلقل الأجبال، وحِلْمٌ يهزم الجهَّال؛ وخرج عليهم منكراً أصنامهم، ومسفِّها عبادتهم.

قال: ياقوم ما هذه الأحجار التى تَنْحِتُونها ثم تعبدونها وتلجئون إليها؟ ماخطرها وما غناؤها؟ وما ضررها، وما نفعها؟ إنها لاتجلب لكم نفعا، ولا تدفع عنكم شراً؛ إنْ هذا إلا ازدراء لعقولكم، وامتهان لكرامتكم؛ ولكن هناك إلها واحدا حقيقاً بأن تعبدوه، وربا جديرا بأن تتوجهوا اليه؛ هو الذى خلقكم ورزقكم، وهو الذى أحياكم، وهو الذى يميتكم؛ مكَّن لكم فى الأرض، وأنبت الزرع، وبسط لكم فى الأجسام، وبارك لكم فى الأنعام؛ فآمنوا به، واحذروا أن تعموا عن الحق، أو تكابروا فى الله فيصيبكم ماأصاب قوم نوح؛ وماعهدُهم منكم ببعيد.

قال ذلك هود، وهو يرجو أن تصل كلماته الى أعماق نفوسهم فيؤمنوا، أو تنفذ الى عقولهم فيفكروا ويهتدوا؛ ولكنه رأى وجوهاً ساهمة، وعيوناً حائرة؛ أنْ سمعوا كلاما لم يكونوا قبلُ قد سمعوه، وأُلقى اليهم قولٌ لم يألفوه، قالوا: ماهذا الذى تَهْذِى به وتخوض فيه؟ وكيف تريدنا أن نعبد الله وحدَه من غير شركاء؟ إننا نعبد هذه الأصنام لتقرِّبنا اليه وتشفع لنا عنده.

قال: ياقوم إنما الله واحد لاشريكَ له، وعبادتُه وحدَه هى جوهرُ العبادة ومُصاصُها، ومخها ولبابها، وهو قريب غير بعيد؛ أقرب إليكم من حبل الوريد. أما هذه الأصنام التى تعبدونها زلفى اليه أو شفاعةً عنده فهى تبعدكم عنه من حيث ظننتم أنكم إليه تَقْرُبُون، وتَدُلُّ على جهلكم فى

الوقت الذى تظنون أنكم تعلمون و تفهمون .

فأعرضوا وقالوا : ما أنت إلا سفيه طائش الحلم، تسفّه عبادتنا ، و تعيب علينا ما وجدنا عليه آباءنا ؛ ما أنت من بيننا ؟ وما مَيْزَتك عن واحد منا ؟ أنت تأكل كما نأكل ، وتشرب كما نشرب ، وتجرى فى حياتك على أسلوب كالّذى نجرى عليه ؛ فلِمَا اختصك الله بالرسالة ، وآثرك بالدعوة ؟ ما نظن إلا أنك من الكاذبين .

قال هود : ياقوم ليس بى سفاهة عقل ، ولا حماقة رأى ، ولقد عشت فيكم دهراً طويلا فما أنكرتم على شيئا ، وما جربتم علىّ حمقاً ولا طيشاً ، وما الغريب فى أن يختص الله واحدا من قومه برسالته ويحمّله دعوته ؟ إنما الغريب أن يترك الناس سُدًى من غير رسول ، وفوضى لا وازع لهم ولا رادع ؛ على أنى لست بيائس من إيمانكم ، ولا ضائق الصدر بسفهائكم ، ففكروا بعقولكم ، وانْفُذوا إلى الحقائق ببصائركم تروا أن الله واحد فى كل شىء : فى هذا النظام العجيب ، والخلْق الغريب ، والفلك الدائر ، والنجم الثاقب

وفى كل شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

فآمِنوا به واستغفروه يرسل السماء عليكم مِدْرارا ، ويُمددكم بأموال فوق أموالكم ، ويَزدكم قوّة إلى قوّتكم ، ولا تتولّوْا مُجْرِمين .

واعلموا أنكم بعد موتكم تبعثون ، مَنْ عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ؛ فتدبّروا لأنفسكم ، واحتاطوا لآخرتكم ، وقد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم ، وإنى لكم به نذير مبين .

قالوا : لاشك أنَّ واحدا من آلهتنا قدمسّك بسوء فخولِطْتَ فى عقلك ،

ودُخل عليك فى تفكيرك ؛ فأصبحت تهذى بكلمات لاحقيقة لها إلا فى خَلَدِك ، ولا ظل لها إلا فى تفكيرك ، وإلا فما الاستغفار الذى يرسل الله بعده السماء ، ويمد بالمال ، ويزيد فى القوة ؟ وما يوم البعث الذى تزعم أننا نعود فيه بعد أن نصبح عظاما نَخِرَةً ، وجُثثا بالية ؟ هيهات هيهات لما تعِد وتزعُم ، وما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر .

ثم ما العذاب الذى تعدنا به ، وتتوقع أن نلقاه ؟ إننا لن نذعن لما تقول ، ولن نرجعَ عن عبادة آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

فلما تبيّن هود العنادَ فى أحاديثهم ، والإصرارَ فى ثنايا أقوالهم ، قال لهم : إنى أُشهِدُ الله أنى قد بلّغت وما قصّرت ، وجاهدت وما أحجَمْت ، وسوف أظل على هذا البلاغ ، وذاك الجهاد ، ولا أبالى جمعكم ، ولا أخاف بطشكم ، فكيدونى كيدا ، أو أجمعوا بى بطشا ، إنى توكلت على اللهِ ربى وربّكم ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم .

وظل هود يدعو والقومُ معرِضُون . وفيما هم على هذه الحال : شَامُوا سحابا أسود يعترض السماء ، فاستشرف القوم إليه ، وخفّوا إلى رؤيته سِراعا ، وقالوا : هذا سحاب عارض سَيُمْطِرُنا ؛ ثم تهيئوا لاستقباله ، وأعدّوا حقولهم لنزوله ، ولكن هودا قال لهم : ليس هذا سحاب رحمة ، وإنما هو ريح نِقْمة ، هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم .

وماراعهم إلا أن رأوا رحالهم ودوابهم التى فى الصحراء ، تحملها الرياح على أجنحتها القوية ، وتقذف بها إلى مكان بعيد ! فداخلهم الفزع ،

وأدركهم الهلَع ، وهُرعوا سراعا إلى بيوتهم، يُغلقونها عليهم ، ظنا أنهم بذلك ينجون ؛ ولكن البلاء كان عاما ، والخطبَ شاملا ؛ إذ حملت الريح رمال الصحراء ، وظلت سبع ليال وثمانية أيام متتاليات ؛ أصبح القوم بعدها صَرْعَى كأَنَّهم أعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَة ؛ وعَفا ظلُّهم ؛ ودرس رسمهم ، وامّحى من التاريخ أمرُهم : « وَمَا كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأهْلُهَا مُصْلِحُونَ » .

أما هود فقد آوى إليه صحبه ومن آمن به ، وظلوا بمكانهم ، تهزِم حولهم الرياح ، وتَسْفِي الرمال ، وهم آمنون مطمئنون ، حتى هدأت الريح ، وصفا الحال ، ثم انتقل إلى حضرموت ، وقضى بعدها البقية الباقية من عمره .

صَالِح*

هلكت عاد بذنوبها ، فأورث الله ثمودَ أرضَهم وديارهم ، فخلفوهم فيها ، وعمَروها أكثرَ مما عمَروها ، وفجَّروا العيون ، وغرسوا الحدائق والبساتين ، وشادوا القصور ، ونحتوا من الجبال بيوتا ؛ ليأمنوا غوائل الدهر ، ونوائب الحدَثَان . وكانوا فى سَعَةٍ من العيش ورغَد ، ونعمة وترَف ، ولكنهم لم يشكروا الله ، ولم يَحْمَدُوا له فضله ؛ بل زادوا عتوًّا فى الأرض وفسادا ، وبُعْدًا عن الحق واستكبارا ، وعبدوا الأوثان من دون الله ، وأشركوا به ، وأعرضوا عن آياته ، وظنوا أنهم فى هذا النعيم خالِدُون ، وفى تلك السَّعة متروكون .

بعث الله إليهم صالحا من أشرفهم أصلا ، وأوسَعِهم حلما ، وأصفاهم عقلا ؛ فدعاهم إلى عبادة الله ، وحضّهم على توحيده ؛ فهو الذى خلقهم من تراب ، وعَمَر بهم الأرض ، واستخلفهم فيها ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنة ؛ ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام من دونه ، فهى لا تملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولا تغنى عنهم من الله شيئا .

ذكّرهم بأواصر القربى التى تربطه بهم ، ووشَائِجِ النَّسب التى تصل بينه وبينهم : فهم قومه وأبناء عشيرته ، وهو يحب نفعَهم ، ويسعى فى خيرهم ، لا يضمر لهم سوءًا ، ولا يريد بهم شرا ، وأمرهم أن يستغفروا الله ، ويتوبوا

* القرآن الكريم — سورة هود : الآيات من ٦٢ — ٦٩

إليه مما اقترفوا من ذنب ، واجتَرَحُوا من إثم ؛ فهو لمن دعاه قريب ، ولمن سأله مخلصاً مجيب ، ولمن أناب إليه سميع .

صُمّت منهم الآذان ، وغُلِّفَت القلوب ، وعَمِيت الأبصار ، فأنكروا عليه نبوّته ، وهَزِئوا بدعوته ، وزعموا له أنها نَابِيَةٌ عن الحق ، بعيدة عن الصدق ؛ ثم لاموه فيها ، وأنّبوه على صدورها منه ، وهو الراجح عقلا ، الصائبُ رأياً ، وقالوا : ياصالح ، عهدناك ثاقبَ الفكر ، مصيبَ الرأى ، وقد كانت تلوحُ عليكَ مخايلُ الخير ، وأمارات الرشد ، وكنا ندخرك لمُلِمّات الدهر ، تضىءُ ظلماتها بنور عقلك ، وتَحُل مُعْضِلَاتِها بصائب رأيك ، وكنا نرجو أن تكون عدتَنا حين يَحْزُبُ الأمر ، ويشتد الخطب ؛ فنطقت هُجراً ، وأتيت نُكراً ، ماهذا الذى تدعونا إليه ؟ أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ؛ وقد درجنا عليه ، ونشأنا مستمسكين به ؟ إننا لفى شك مما تدعونا إليه مُرِيب ؛ لانطمئن إلى قولك ، ولا نثق بصدق دعوتك ، ولن نَتْرُكَ ماوجدنا عليه آباءنا ، ونَميلَ مع هواك وزيغِك .

حذرهم مخالفته ، وأعلن فيهم رسالته ، وذكّرهم بما أَسْبَغَ اللهُ عليهم من نِعَمِه ، وخوّفَهُمْ بأسه وبطشه ، وأبان لهم أنه لا يقصد من وراءِ دعوته إلى نفع ، ولا يَطْمَحُ فى مغنم ، أو يتطلع إلى رياسة ، وهو لم يسألهم أجراً على الهداية ، ولا يطلب جزاءً على النصيحة ، وإنما أجره على الله رب العالمين ؛ دَرْءًا لكل شبهة قد تَسَاوِر نفوسهم ، ودفعاً لكل شك قد يجول فى خواطرهم .

آمن به بعض المُسْتَضْعَفِين من قومه ، أما الملأ الذين استكبروا

فأصَرُّوا على عنادهم ، وتمادَوا فى طغيانهم ، واستمسكوا بعبادة أوثانهم ، وقالوا له : إنك قد خولطت فى عقلك ، وضاع صوابك ، وما نظن إلا أن أحداً قد سلط عليك شيطانه ، أو أعْمَلَ فيك سحره ، فأصبحت تهرف بما لا تعرف ، وتنطق بما لا تفقه ، فلست إلا بشراً مثلنا ، وما أنت بأشرفنا نسباً ، أو أفضلنا حسبا ، أو أوسعنا غنى وجاها ، وفينا من هو أحقّ منك بالنبوّة ، وأجدَرُ بالرسالة ؛ فما حَمَلَكَ على انتهاج هذه الطريق ، وسلوك تلك السبيل ، إلا رغبتُك فى تعظيم نفسك ، وتطلعُك إلى الرياسة على قومك !

حاولوا صدَّه عن دينه ، وصَرْفَه عن دعوته ، وزعموا له أنهم إن اتّبعوه حادوا عن الصراط المستقيم ، وخالفوا الطريق القويم ، فأعرض عن بهتانهم ، ولم يستمع إلى غَوَايتهم ، وقال : ياقوم إن كنتُ على بَيِّنَة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، ثم اتبعتُ طريقَكم ، وسرتُ فى سبيلِكم ، وَعَصَيْتُ ربى ، فمَنْ يمنعنى من عذابه ، أو يعصمنى من عقابه ؟ إن أنتم إلا مُفْتَرُون .

فلما وجدوا منه استمساكا برأيه ، واعتصاما بحقه ؛ خاف المستكبرون من قومه أن يكثر تابعوه ، ويعظُم ناصروه ؛ وعزَّ عليهم أن يكون المرشدَ للقوم ، والموئلَ عند اشتداد الخَطْب ، والكوكبَ المنير إذا ادلهمّ الأمر ، فينصرف الناس عنهم ، ويَفْزَعون إليه فى كل شأن ، ويطرقون بابه كلما حَزَبَهُم (١) أمر ؛ ولا شك أنه سَيَهْدِيهم إلى مايقرّبهم إلى الله ، ويصدهم عما يُدْنيهم عنه ؛ فخافوا زوال دولتهم ، وذهاب سلطانهم ، وأرادوا

(١) حزبه الأمر : أهمه .

أن يُظهِرُوا للناس عجزه ؛ فطلبوا منه أن يأتيهم بآيةٍ يتبيّنون بها صدق دعوته ، ومعجزة ظاهرةً تصدّق رسالته ، فقال لهم : هذه ناقة لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يومٍ معلوم ، فذروها تأكل فى أرض الله .

لم ير الناس قبلا ناقة تستأثر يومًا بمائهم ، ولم يَعْهَدُوا غيرها يَكُف يومًا عن شِربهم ، ولا شكّ أن صالحا قد عَهِد فيهم إصراراً على الكفر ، واستمساكا بالباطل ، وعلم أن المنكر يفزعه ظهور حجة خصمه ، ويخيفه وضوحُ برهانه ، بل يحرك كامنَ غيظه ومستورَ حِقده قيامُ شاهده ، وقوةُ آيته ؛ لذلك خاف إقدامَهم على قتلها ، وحذَّرَهم الفتك بها ، فقال لهم : لا تمسوها بسوء فيأخذَكم عذابٌ قريب .

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل فى أرض الله ، تَرِدُ الماءَ يَوْماً ، وتصد عنه يوما ؛ ولا شك أن قيامها قد استمال إليه كثيراً من قومه ؛ إذ استبانوا بها صدق رسالته ، وأيقنوا بصحة نبوّته ، فأفزع ذلك المستكبرين من قومه ، وخافوا على دولتهم أن تبيد ، وعلى سلطانهم أن يزول ، فقالوا للمستضعَفين من قومهم ــ وهم الذين أشرق نور الإيمان فى قلوبهم ؛ فعَمَرت به صدورهم ، وانصاعت إليه أفئدتهم ــ أتعلمون أن صالحاً مُرْسَلٌ من ربه ؟ فقالوا : إنّا بما أرْسِلَ به مؤمنون ؛ فلم تَلِنْ قناةُ القوم ، أو يخففوا من غُلَوَائِهِمْ ؛ بل أعلنوا كفرهم ، وصارحوهم بتكذيبهم ، وقالوا : إنا بالذى آمنتم به كافرون .

لعل هذه الناقة كانت ضخمَة الجسم ، متميّزة الشكل ؛ فأرهبت أنعامهم ، وأخافت إبلهم ؛ فكرهوا لذلك مُقَامها بينهم ؛ وقد تكون حالت بينهم

وبين الماء حين اشتداد الحاجة إليه ؛ إذ كان لها شِربٌ ولهم شِربُ يومٍ مَعْلوم .

وقد تكون نوازى الشر قد دفعتهم إلى إخفاء آيته ، وطمس معالم حجته ؛ لأنهم رأوْهَا تجذبُ القلوب نحوه ، وتَستَمِيلُ النفوس إليه ؛ فخافوا أن يكثُرَ المؤمنون به ، وينتشر أنصارُه وتابعوه .

قد يكون هذا ، أوْ ذاك ، أوْ كل أولئك قد حملهم على عَقْرِها ، ودَفعَهم إلى قَتْلِها ؛ رغماً من تحذيرهم بالعذاب ، وتوعّدهم بالهلاك إنْ مَسُّوها بسوء .

ما أظن إلا أن القوم حَسِبُوا هذه الناقةَ خطرا جسيما ، وشرا مستطيرا ؛ ففكروا طويلا ، وأمعنوا كثيرا ؛ ولا إخالهم إلا هابوا قَتْلَها ، وأشفقوا على أنفسهم من إهلاكها ، وكلما همّوا بها قفلوا راجعين ، وأدبروا خائفين ؛ وبقى القوم يَدْفَعُهُم الشر ، وتمنعهم الرهبة ، لا يَجْرُؤُ أحدهم على إيذائها ، ولا يتقدم واحدٌ إلى مسها ؛ فاستعانوا [1] بالنساء يبذلْنَ مايملكن من دَلٍّ ، ويغرين بما يزينهن من جمال ؛ والمرأة إذا أمرت كان الرجالُ طوعَ أمرها ، وإذا تمنّت تسابقوا إلى تحقيق أمنيتها ؛ فهاهى ذى صَدُوق ابنة المحيا ، ذاتُ الحسب والمال ، تعرِض نفسَها على مصرع بن مهرج ، إن هو عقر الناقة آية صالح البيِّنَة ، وحجته البالغة ؛ وتلك هى عنيزة بنت غنيم العجوز الكافرة ، تجتذب قُدَار بن سالف إليها ، وتعرض عليه إحدى بناتها ، ولا تطلب إليه بذلا ، أو تسأله أجرا ، إلا عقرَ الناقة التى تقُض مضجعهم ، وتستأثر بِشِرْبهم ، وتَنْفِر منها أنعامهم .

فصادف هذا الإغواءُ هوى فى نفسهما ، ورغبة فى فؤادهما ، وزادهما

---

(١) راجع الآلوسى فى روح المعانى ، وقصص الأنبياء للشيخ النجار صفحة ٢٨٣

بأسا وقوة ، وأفاض عليهما إقداما وجُرْأة ، فسعيا بين القوم يلتمسان من يؤازرهما ، ويبحثان عمن يعاضدهما ؛ فاستجاب لهما سبعة آخرون ؛ وانطلقوا إلى الناقة يرصدونها ، وخرجوا يرقبونها ؛ فلما صدرت من وِردها ، ورجعت عن مائها ، كَمَن لها مصرع ؛ فرماها بسهم انتظم عظم ساقها ؛ وابتدرها قدار بن سالف بالسيف ؛ فكشف عن عُرقوبها ، فخرت على الأرض ، ثم طعنها فى لَبَّتِها فنحرها !

عقروا الناقة ، وعَتَوْا عن أمْرِ رَبِّهم ، وقالوا : يا صالح ائْتِنا بما تَعِدُنَا إنْ كنتَ من المرسلين .

فقال لهم صالح : قد حَذَّرْتُكم إن أصبتموها بأذى ، أو مسستموها بسوء ؛ ولكنكم قد اجترحتم الذنب ؛ واقترفتم الإثم ، فتمتعوا فى داركم ثلاثةَ أيام يأتيكم بعدها العذاب ، ويحلُّ عليكم فى نهايتها العقاب : ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب .

ولعله قد ضرب لهم ذلك الميعاد ؛ ترغيبا لهم فى الإنابة إلى الله ، وحثاً لهم على الإصاخة إلى دعوته ؛ ولكنَّ الشكوكَ مازالت مُتَأَصِّلَةً فى نفوسهم ، والأوهامَ متسلطة على أفئدتهم ! فلم تُغْنِهم النذر ؛ ولم يَثُوبوا إلى رشدهم ؛ بل ظنوا وعيده كذبا ومَيْناً ، وتحذيره زوراً وبهتانا ؛ وسألوه أن يعجل بعذابهم ، ويأتيهم بما وعدهم ؛ تهكما به واستهزاء ، فقال : ياقوم : لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون !

ولكنهم تمادوا فى الضلال ، واستسلموا لنوازى الشر ؛ فقالوا : اطيرنا بك وبمن معك ؛ واجتمع نفر من قومه ، وتقاسموا على أن يتسللوا إليه فى جُنْح الظلام ، ويباغتوه وأهلَه والناسُ نيام ؛ فيوقعوا بهم

من غير أن يراهم أحد ؛ وأجْمَعُوا أمرهم بينهم على أن يكونَ ذلك سرا مكتوما، لا يذيعونه ولا يتناقلونه.

بيَّتوا له الشر، وأضمروا له ولأهله القتل؛ ظنا منهم أن ذلك يَعْصِمُهُم من العذاب، ويُنجيهم مما سيحُل بهم من عقاب؛ ولَـكِنَّ الله لم يُمهلهم، بل أحبط مكرهم، وردَّ إليهم كيدهم، ونجّاه مما أرادوا به، وأنقذه والذين آمنوا معه من العـذاب؛ وأنزل بالكافرين عقابه؛ تصديقا لوعده، ومظاهرة لنبيه: فأخذتهم الصاعقة بظلمهم؛ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

ولم يَمْنَعْهُم ماشادوا من قصور شامخة، وما جمعوا من أموال وافرة، وغرسوا من جنات واسعة؛ ونحتوا من بيوت آمنة.

ورأى صالح ماحل بهم؛ إذ أصبحت جثثهم هامدة، وديارهم خاوية؛ فتولى عنهم، والأسى يملأ نفسه، والحسرة تقطّع نِياط قلبه، وقال: « ياقَوم؛ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ »!

إبراهيم
عم

إبراهيم وآية البعث

كان أهلُ بابلَ ينعَمون برغَد العيش ، ويتفيّئون فى ظلال النِّعمة ، ولـكنهم كانوا يَخبِطُونَ فى دياجير الظلام ، ويتردّوْن فى مَهاوى الضلالة ؛ فقد نحتوا الأصنام بأيديهم ، وصنعُوها على أعيُنِهم ، ثم جعلوها أربابا ، ونصبوها آلهةً ، وعكفوا على عبادتها من دون الله رب العالمين .

وكان النمرود بن كنعان بن كوش قابضا على زمام الملك فى بابل ، وحاكما بأمره مستبداً برأيه ؛ ولما رأى مايتقلب فيه من نعيم ، ومايتمتع به من سَطْوة الملك ، وما يحيط به من قوة السلطان ، ثم ماأطبَق على القوم من جهل ، وماران على قلوبهم من عَمَه ؛ أقام نفسَه إلهاً ، ودعاالناس إلى عبادته . ولماذا لا يُلزِمهم الخضوع له ، ويطلب منهم عبادته وتعظيمه ، وقد وجد الجهلَ فاشيا ، والعقائد فاسدة ، والقوم فى ضلال مبين ! ألم يعبدوا الحجارة الصماء ، والتماثيل الجوفاء ، وهى لاتسمع ولا تبصر ، ولا تملك لهم نفعا ولاضرا ؟ أمّا هو فينطِقُ ويفكّر ، ويدرك ويشعر ، ويُفيضُ عليهم الخير ، ويدفع عنهم الشر ، ويستطيع أن يصيِّر فقيرهم غنيا ، ويجعل عزيزهم ذليلا ، وهو ذو قوة فيهم ، وصاحب سلطان عليهم .

فى وسط هذه البيئة الفاسدة ، وفى بلدة فدام آرام من هذه المملكة ، وُلِدَ إبراهيم لأبيه آزر ، ثم آتاه الله الرشد ، وهداه إلى الحق ؛ فعرف

بصائب رأيه، وثاقب فكره، ووحي ربه، أن الله واحد، وأنه المهيمنُ على الكون، المسيطرُ على العالم؛ وأدرك أن هذه الأصنامَ التي يعبدونها، وتلك التماثيلَ التي ينحِتُونها، لا تغني عنهم من الله شيئا؛ لذلك أزْمَعَ الدعوة إلى توحيد الله، وعزم على تخليص قومه من وَهْدَةِ الشِّرْك، وحَمْأَة الرذيلة، وأعد العُدّة ليثْنيَهم عن ضلالهم، واتخذ الأهْبة لردهم، عن غَيِّهم.

وقد كان إبراهيمُ مفعمَ القلب بالإيمان بربه، ممتلئا بالثقة واليقين بقدرة خالقه، مؤمنا بما أُوحِي إليه: من بعث الناس بعد موتهم، وحسابهم في حياة أخرى على أعمالهم؛ ولكنه أراد أن يزداد بصيرة، ورغب في استِكْناه الحقائق، وتطلع إلى أن يَلمَسَ الآية البينة على البعث، ويرى الحجة الواضحة على النُّشور؛ فسأل ربه أن يريَه كيف (١) يُحيي الموتى، فقال الله له: أوَ لَمْ تُؤْمِن؟ قال: بلى، قد أوحيتَ إليّ، وآمنتُ وصدقتُ؛ ولكن تاقت نفسي للعِيان، وامتدت عيني إلى المشاهدة: ليطمئنَّ قلبي، ويزدادَ يقيني.

ولما كان إبراهيم يقصِدُ إلى طمأنينة نفسه، واستقرار فؤاده؛ أجاب الله دعاءه، وآتاه سُؤْله، وأمره أن يأخذَ أربعةً من الطير، ويضمَّها إليه؛ ليتعرّف أجزاءها، ويتأمّل خَلْقها، ثم يجعل على كل جبلٍ منهنّ جُزْءًا، ثم يدعوهنّ إليه، فيأتينَه سعيا بإذن الله.

فلما فعل صار كل جزء يَنْضَم إلى مثله، وعادت الأشلاء كل في

(١) سورة البقرة: آية ٢٦٠

مكانه ، وتدرعان ماسرَتْ فيها الحياة ، ورجعت إليها الرُّوح ، وسعت إليه بقدرة الله ، وسارت إليه بإرادته ، وهو يرى آياتِه البينة ، وقدرتَه الباهرة التى لا يُعجِزها شىء فى السموات ولا فى الأرض .

هذه الطيور قد أزهق رُوحها ، ومزّق أجسادها بيده ، ثم تناثرت أشلاؤها ، وتفرقت أعضاؤها بِمَرْأى منه ، ولما دعاها أقبلت عليه ، واجتمعت إليه ، ثم تماسكت أجزاؤها ، واتصل ماتفرق منها ، وعادت إليها الحياة ! وما من أحد يرى ذلك ، ثم يُسَاوِره شك ، أو يَتَخالَجه رَيْب ، فى قُدْرَةِ الله على بَعْثِ عباده بكلمةٍ منه ؛ فهو - سبحانه - إذا أراد شيئا أن يقولَ له : كنْ فيكون .

إبراهيم يتلطف فى دعوة أبيه *

إبراهيم يدعو إلى ربه، ويبدأ دعوته بالنكير على قومه معبوداتِهم؛ ولقد كان أبوه ممن يعبد الأصنام، بل كان ممن ينحتها ويبيعها؛ فهو أقربُ الناس إليه، وألصقهُم به، وأولاهم بالهداية، وأجدرُهم بإخلاص النصيحة؛ فمن البِر به أن يهديَه سواء السبيل؛ ثم هو أيضا من المسوّين خلقها، والناحتين لها، والداعين إلى عبادتها؛ إنه لذلك داعية إثم، ومبعثُ فتنة؛ فهدايته استئصالٌ لبذور الشر، واجتثاثٌ لجذور الضلال.

لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتسفِيه معبوداتِه، أو تحقير آلهته، لئلا ينفر منه، أو يُصِمّ آذانه عنه؛ بل رتّبَ الكلامَ معه على أحسن اتّساق، وخاطبه بالقول اللين، والأدب الجميل، وابتدأ حديثه معه بذكر بنوّته؛ استثارةً لعطفه، وتوسلا إلى قرارةِ نفسه؛ ثم سأله عما يدعوه إلى ركونه إلى الأصنام، وعُكُوفِه على عبادتها، مع أنها لاتسمعُ دعاءَه وثناءَه، ولا تُبصر خضوعَه وخشوعه، ولا تُستَدْفَعُ فى بلاء فتدفعه، أو تُسْتَمْنَح شيئا فتمنحه.

وخاف أن ينصرِف عنه؛ استصغارا لشأنه، وامتهانا لرأيه، فقال: ياأبت إنه قد جاءنى من العلم ماليس لك، وأوتيتُ حظا من المعرفة لم تُؤْتَهُ، فلا تستنكف أن تتابعنى، ولا تتخلف عن مسايرتى؛ ثم توسل إليه أن يتبع خطواته، ويَسيرَ على هَدْيه؛ فذلك هو الصراط المستقيم، والطريق القويم.

* القرآن الكريم - سورة مريم: الآيات من ٤١ - ٤٨

ثم أراد أن يُزَهِّدَه فى أوثانه ؛ ويَنْأَى به عن عبادةِ أصنامه ؛ فأبان له أنه بالعكوفِ عليها ، والانقياد لها ، يعبُد الشيطان ، ويلتجئ إلى ساحته ، وهو الذى عصى الرحمن ، وتوعّد الناس بالإغواء ؛ فهو عدوٌّ لا يرشد إلى خير ، ولا يبغى إلا الهلاكَ والشر ، ثم خوّفه سوء العاقبة ، وحذره مايجره عليه ما هو فيه من التَّبِعة والوبال ؛ ولكنه لم يصرح بأن العذاب لاحقُه ، والعقاب مُحيق به ؛ تأدبا معه ، واستعطافا له .

فلما عرض هذا الرشدَ عليه ، وأهدى هذه النصيحة إليه ؛ أَبَى آزرُ متابعةَ رأيه ، وأصرَّ على عنادِه وكُفْرِه ، وأقبل عليه بفظاظة الكفر ، وغِلظة العناد ، وتجاهلَ بُنُوَّته ، وأغفل حَدَبَه عليه وشفقته به ، وتجهَّم له ، وقال ـ محتقراً لشأنه ، مُتَعَجِّباً من جرأته ، منكرا عليه نصيحته ـ : أراغِبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته عن زيغك ، وترجع عن غيِّك ، وتَثُبْ إلى رشدك ، لأرجمنَّك بالحجارة ، ولأرمينَّك بهُجر القول ؛ فاحذرْ سَوْرة غضبى ، وتجنَّبْ إثارة سخطى ، واهجرنى مليًّا .

قابل إبراهيمُ تهديدَ آزر بصدْرٍ رحب ، وتلقَّى وعيدَه بنفس مطمئنة ، ثم أجابه بما يُنبئ عن برّه به ، وإخلاصِه النصحَ له ، وقال : « سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا[1] ، وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا » .

وودّعه وانصرف ، وهو كاسِفُ البال ، محزونُ الفؤاد ؛ لأنَّ دعوته لم تجد آذانا مُصْغِيةً عند أبيه ، واعتزله لئلا يكون مُظَاهِراً له على الكفر ، ومشايعا إياه فى الشرك .

(١) حفياً : بليغا فى الإكرام .

إبراهيم يحطم الأصنام *

خاب رجاء إبراهيم حين أنكر عليه أبوه دعوتَه، وحزّ فى نفسه أن يدعوَه إلى الخير، فلا يستجيب دعاءه، وأن يهديَه إلى الحق، فيبرأَ منه وينأَى عنه؛ ولكن هذه الغلظةَ التى بدت من أبيه، وذلك الجفاءَ الذى ظهر منه، لم يُقعِدَاه عن متابعة دعوتِه إلى الحق، ولم يَثْنِياه عن النكير على قومه إشراكهم بالله، وعبادتهم الأصنام من دونه؛ بل أزْمَعَ أن يمحوَ هذه العقائد الفاسدة، ولو ناله فى ذلك أذى كثير، ولحقه شرٌّ مستطير.

كان إبراهيمُ ذكِيَّ الفؤاد، صائبَ الرأيِ، ثاقبَ الفكر؛ فرأى أن الحجةَ القولية، والبرهانَ اللفظى، وإنْ وضحا وضوحَ الصبح، لا ينبتان نباتا حسنا فى هذه الأرض الجُرُز[1]؛ فأراد أن يشرك أبصارَ القوم مع بصائرهم، وحواسّهم مع أفئدتهم فى تفهُّم عقيدتِه، والوقوف على حقيقة دعوته، علّهم يثوبون إلى رشدِهم، ويرجعون عن غيِّهم.

انظر إليه يستدرِجُهم إلى مُجادَلَتِه، ويَسْتَنْزِلهم إلى مجال محاورته، فيسألهم: ماذا تعبدون؟

أفاضوا الحديثَ فى شأن أصْنَامِهم، وأطْنَبُوا فى جَوَابهم، مُعْتَزِّين

* القرآن الكريم - سورة الأنبياء: الآيات من ٥٧ — ٦٨

(١) الجرز: الأرض التى لا تنبت.

بعبادتها ، معتدّين بالخضوع لها ، وقالوا : نعبُد أصناماً فنظلُّ لها عاكفين .

قد كان إبراهيمُ مُلْهَمًا فى سؤاله ، موفّقاً فى استفساره : فهو كالطبيب حاول أن يتجسس الداءَ ، ليصف الدواء ، أو كالقاضِى أراد أن يحملَهم على الإقرارِ بارتكابِ الجُرْم ، والاعتراف باقتراف الذنب ؛ وهو فى ذلك يُضيِّق دائرة الجدال ، ويجمع أشتات الخلاف فى مسألة واحدة ؛ فإذا أوهن أساسها ، وقَوَّض أركانها ، وأوضح بطلانها ، فقد ألزمهم الحجة ؛ وحينئذ لايجدون مَحِيصاً من اتباعه ، ولا مناصاً من طاعته .

كرّ عليهم ينقد زائفَ آرائهم ، ويبيِّن فاسدَ اعتقادهم ، فقال : هل يَسمعونكم إذ تتوجهون إليهم بالعبادة ، ويُبْصرونكم حين تقدّمون لهم الطاعة ، وهل ينفعونكم أو يضُرون ؟

ما أقبح التقليد ! وما أعظم كيد الشيطان الذى استَدْرَجَهم إلى أن حاكَوْا آباءهم فى الكفر ، وجارَوْهم فى الشرك ، وزيّن لهم عبادة التماثيل ، فعفّروا لها جباهَهم ! وما أشد جهلَهم وغَباءهم حين اعتقدوا أنهم على حق ، بل جدّوا فى نصرة مذهبهم ، وجادلوا أهلَ الحقِّ عن باطلهم ؛ وما أَوْهَى مانطقوا به ! وما أضعفَ ما أَجابُوا به ! فقد قالوا : «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . »

أقرّوا أنها لاتسمعُ داعياً ، ولا تَملِكُ لهم ضراً ولا نفعاً ، واعترفوا بأنهم ما عبدوها إلا اقتداء بأسلافهم ، واتباعًا لآبائهم : فجعلوا مادرج عليهِ قومُهم ، وما اهتدى إليه قدماؤُهم دليلا على استمساكهم بالحق ، ورَأَوْا قِدَمَها برهاناً على استحقاقها للإجلال والتعظيم ؛ فكانوا بذلك عن النظر الصحيح نائين ، وعن التفكير السليم بعيدين .

قال إبراهيم : « لَقدْ كُنتُمْ أنتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ، قالوا : أتنتقص آلهتنا ، وتَسُبّ أصنامنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

قال إبراهيم : إنى أقولُ لكم ذلك جادًّا لا هازلا ، فقد جئتكم بالدين القويم ، وأرشدتكم إلى الصراط السَّوِىّ ؛ فإن ربَّكم الخَليقَ بالعبادة ، هو فاطرُ السموات والأرض ، ومدبّر شؤونهما ، والقائمُ على أمورهما ؛ أمّا هذه الأصنام فلا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، وهى حجارة صمّاء ، وخُشُبٌ مسنَّدة ؛ فعليكم أن تجتنبوا عبادتها ، وتنأَوْا بأنفسكم عن الخضوع لها ، واحذروا فتنة الشيطان وإغواءَه ، وفكِّروا بعقولكم ، وانظروا بأبصاركم ، لعلكم تهتدون .

على أنى قد سبقتكم إلى البُعد عن عبادتها ، وبادَرْتُ قبلكم إلى النَّأْى عنها ، فلو كانت تضر لضرَّتنى ، أو تملِكُ شيئاً لنالت مِنِّى .

ثم أظهرَ لهم بديعَ صُنْعِ الله ، وباهر قدرته ، ليتبينوا أثر حكمته ، ويَلْمَسُوا الفرق الواضح ، والبَوْن الشاسع بين مايدعوهم إليه ، ومايعبدون من أصنام لا تغنى عنهم شيئاً ، فقال :

ألا تنظرون إلى ماتعبدون من دون الله أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » .

ولما لم تنفعهم الحجة ولم تغنهم النُّذُر ، وصدّوا عن سبيله ، وأعرضوا عن دعوته ، ورأى إبراهيم أن آذانهم صماء ، وقلوبهم غُلْف ، وأنهم لازالوا متعلقين بأوهامهم ، متمسكين بعبادة أصنامهم ؛ بيّت الشر

لها، وأقسم لَيَكِيدَنَّها، حتى يَرَوْا أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تدفع الأذى عن نفسها، فتدرؤه عنهم، ولا تلحق بهم ضرًّا إذا تركوا عبادتها، أو تُكسِبُهُم خيراً إذا عَكَفُوا عليها، وأخلصوا لها.

قد كان من عادة أولئك القوم أن يقيموا عيدا لهم فى كل عام، يقضون أيامه خارجَ المدِينة، وكلهم يُهْرعون إليه، بعد أن يَضَعُوا طعاما كثيرا فى بيت العبادة، حتى إذا ما رجعوا من عيدهم يأكلوه هانئين، ويقبلون عليه مغتبطين، فقد باركته الآلهة، وأضْفَتْ عليه الخير.

ولما هَمُّوا بالذهاب إلى عيدهم؛ طلبوا إليه أن يرافقهم، وسألوه أن يشاركهم الخروج إلى ظاهر مدينتهم: فأبَى أن يَصْحَبهم، وامتنع عن الانتظام فى سلكهم؛ وقد عقد العزم على أن يَهْدِمَ صَرْحَ آلهتهم، ويقوِّضَ عرش معبوداتهم، وادَّعى العلة، وتظاهر بالسَّقَم، ولم تكن به علةٌ ولا مرض؛ ولكنه كان سقيمَ النفس، كاسفَ البال، يتقطع فؤادُه حزنا على إشراك قومه، ويتميَّزُ غيظا؛ لأنهم لم يُلَبُّوا نداءه، ولم يُصيخوا إلى دعوته.

ولما كانوا يخشون الداء، ويهابون الوباء، تولَّوْا عنه مُدْبرين، وخرجوا إلى عيدهم مسرورين.

هاهى ذى المدينة قد خلت من أهلها وسكانها، وهاهو ذا بيت العبادة قد أقفر حتى من كَهَنته وسَدنته؛ فقد خرجوا جميعا إلى ظاهر المدينة، ولم يتخلَّف عن اللَّحاق بهم إلا إبراهيمُ.

ولما خلا الجو من العيون التى كانت ترصُّده، واختفت الأبصار التى كانت ترقبه، دَلِفَ إلى أصنامهم، ودخل إلى بيت عبادتهم، فوجد

باحَةً قد اكْتَظّتْ بالتماثيل ، وانتشرت فى أرجائها الأصنامُ ؛ ورأى الطعام منثرا كما تحت أقدامها ، فخاطبها متهكما بها ، محتقرا لشأنها : ألا تأكلون ؟ ! فلما لم يسمع منهم جوابا ، ولم يجد منهم إصغاء قال : ما لكم لا تنطقون ؟ ! وأنَّى للحجارة أن تنطق ، وللخُشُب المسنَّدة أن تعْقل ؟

لا إخاله الآن إلا مزدريا لقومه ، محتقرا تلك الأصنام التى نصبوها آلهة ، يلطمها بيده ، ويَرْكلها برجله ؛ وأخيراً تملكته سَوْرَةُ الغضب لدينه ، واستولت عليه شِرَّةُ الغيظ لربه ؛ فتناول فأسا ، وهَوَى عليها ، يكسرها ويحطّم حِجَارتها وما زال بها حتى جعلها جُذَاذا ، وصيّرها حطاما ، إلا كبيرهم فإنه أبقى عليه ؛ ليَرْجِعُوا إليه ، ويسألوه عمن انتهك حرمةَ بيتهم ، وكسر أصنامهم ؛ حتى إذا استبانوا أنها لا تنطق ولا تعقل ، ولا تدفع عن نفسها من أرادها بسوء ، ثابوا إلى رشدهم ، ورجعوا عن مكابرتهم .

تركها حجارة مبعثرة ، وخُشُبا متناثرة ، وانصرف عنها ، وهو مطمئن البال ، قرير العين ، لاستئصاله جذور الشر ، وطمسه معالمَ الشرك ، وأقام يرقب ما يبدو منهم ، وينتظر أثر فَعلته فى نفوسهم ، وأخذ العُدّة لما قد يرمونه به ، أو يجادلونه فيه .

ورجعوا من عيدهم ، ورأوا ما حل بمعبوداتهم . فبهتوا لِهَوْلِ ما رأَوْا ، وأُسْقِطَ فى أيديهم عند ما وجدوا الآلهة مُهَشَّمَةً ، والنُّصُبَ مكسرة ، وتساءلوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين !

قال قائلهم : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، يعيب علينا عبادتها ، ويَزْدَرى بها ويحقّرها ، فهو المجترئُ عليها ، والمحطّم لها .

عرفوا إذن من تطاول على آلهتهم ، واعتدى على معبوداتهم ، فصمموا

على أن يوقعوا به من العقاب بمقدار ما ارتكب من وِزْر ، وما اجترم من ذنب . وثارت ثائرة القوم ، ونَادَوْا بأن يأتوا به على أعْيُن الناس ، لعلهم يَشْهَدُون عليه بمقالته ، ويعاينون مايحُل به من القصاص .

ولا شَكَّ أن اجتماع القوم فى صعيد واحد ، كان أُمْنِيةَ إبراهيم التى طالما جاشت بها نفسه ؛ ليقيم لهم الحجة جميعاً على بطلان مايعتقدون ، ويريَهم البرهان على فساد ماهم عليه عاكفون .

تقاطرت الوفود ، وتكاثرت الجموع ؛ كلٌّ يرغب فى القِصاص من إبراهيم ، ويودُّ أن يَرى عقابه ، ويُشاهِد عذابه ؛ فى ذلك إرضاءٌ لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر منه ، وإشباع لرغبتهم المتوثبةِ للفتك به ، ثم جاءوا به وسط هذا الجمع الزاخر ، وابتدءوا محاكمته أمام هذه الجماعات التى تحرق الأُرَّم حنقاً وغيظا ، وقالوا له : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

هاهى ذى الفرصة قد سنحت لبلوغ مأربه ، وللوصول إلى مقصده ، فسار بهم فى الجدال ناحية أخرى ، وجَرَّهم بأسلوبه الحكيم إلى طريق لم يقصدوه : ليلزمهم الحجة ، فيرجِعوا إلى صوابهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، فقال : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا ، فَاسْأَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . »

يالها من حجة دامغة ؛ قد صفعهم بها صفعة نبهتهم من غفلتهم ، وأيقظتهم من غفوتهم ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، فتركتموها لاحافظَ لها ، ولا رقيبَ عندها .

ثم أدركتهم الحَيْرَةُ ، وعقدا لحَصَرُ ألسنتهم ، فأطرقوا برؤوسهم مفكرين ، واستجمعوا شارد عقولهم جاهدين ، ثم قالوا : لقد علمتَ يا إبراهيم أنها

لا تردُّ سؤالا، ولا تَحيرُ جواباً، فكيف تَأمُرنا بسؤالها، وتطلب الينا الاستشهاد بها ؟

أقروا بعجزها عن الإصغاء إليهم، واعترفوا بقصورها عن العلم بما يجرى حولها، أو الشعور بما يقع عليها، وجرَّدُوها من القدرة على أن تصد المعتدين، أو ترد كيد العادين .

فأخذ يبكتهم على جَهْلِهم، ويتأفَّفُ من ثَبَاتِهم على الباطل بعد وضوح الحق، وهو متغيّظ من غفلتهم ومكابرتهم بعد انبلاج الصبح ؛ ثم حضهم على الروِيّة فيما ينطقون، والتفكر فيما يدّعون، فقال: « أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَالاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ ! أُفٍ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ » ؟

كانت على أعينهم غشاوةٌ فلا يبصرون، وفى آذانِهم وَقْرٌ فلا يسمعون، وقلوبهم غُلْفٌ فلا يعقلون، فلما غُلِبوا على أمرهم، وخافوا افتضاح حالهم، ولم تبق لهم حجة أو شبهة، عدلوا عن الجدل والمناظرة، وعَمَدوا إلى القوة يستترون بها هزيمتهم، ويخفون باطلهم، وَقَالوا: «حَرِّقُوهُ وَٱنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » !

---

*

إبراهيم يلقى فى النار *

أرادوا أن يعاقبوه بالإحراق، ولا ذنب له إلا أن قال: ربى الله، ولا جرم ارتكبه إلا نقمته على أصنامهم، وإنكاره عبادة أوثانهم، ولكن إعلانَ التوحيد، والجهر بدعوة الناس إليه، يقض مَضاجع الطغاة، ويكدر صفو عيشهم؛ لأنه يخلّص الناس من رِبقَةِ استعبادهم، وتنكشف به خبايا أراجيفهم، فيحذر الناس الوقوع فى شِراكهم، وينفضّون من حولهم، ويهبّون لدفع الحيْف عنهم؛ وفى ذلك ذهابُ سلطانهم، والحد من طغيانهم.

جاش خاطر إحراقه فى نفوسهم، ولكن كيف يحرقونه؟ لا بد أن يصلوه ناراً حامية، تعادلُ لظى الحقدِ المتأجج فى صدورهم! إن شرارةً تكفى لإحراق مدينة بأسرها، ولكنهم أبَوْا إلا أن تكون ناراً هائلة، وشرعوا يجمعون حطباً من هنا وهناك، وجعلوا ذلك قربانا لآلهتهم، وبِرا بمعبوداتهم، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت: إن عوفيت لتجمعنّ حطبا لحريق إبراهيم!

مكثوا مدة يجمعون الحطب، حتى تراكمت أعواده، وضاق المكان بأكوامه، ثم ابتنوا حظيرة واسعة، وأشعلوا النار فيها، فاضطرمت وتأججت، واندلع لسانها، وعلا لهيبها، وسطع ضوءُها، واحمرّ جمرها، ثم قيدوه ورمَوْا به فيها، وهم له كارهون، ولعذابه مغتبطون!

أُلقِى فى هذه النار المستَعِرة، وقلبُه بالإيمان مفعم، وثقته بالله

---

* القرآن الكريم - سورة الانبياء: آية ٦٨ وما بعدها.

شـديدة ، وصلته به وثيقة ، وأمله فى النجاة وطيد ، لذلك لم تزعزعه النكبات ، ولم تزلزله الحوادث ، ولم ترُعه النار ، بل أقبل عليها بصدر رحب ، ونفس مطمئنة .

إنه الآن فى جوف النّار ، يخفيه دخانُها ، ويحتويه لهيبها ، ويغلب على صوته زفيرها وشهيقها ، فماذا فعلت النار بإبراهيم ؟

إنها أحرقت منه الوَثاق ، فصار حرا طليقا ، وأذهب الله عنه حدتها ، وصعّد منها حرارتها ، وحفظه من لظاها ، وأنقذه من سعيرها ، وجعلها عليه بَرْدًا وسلاما !

ولما خبا ضوءها ، وانقشع دخانها ، وسكن أوارُها ، وجدوه معافى سليما ، ورأوه حرا طليقا ، فعجبوا لحاله ، وشُـدِهوا لنجاته ، وانصرفوا عنه ناقين ، وتواروا عن أعين الناس خجلين .

وهكذا تمثّلت الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى : غالبوه بالجدل ، فغُلِبوا على أمرهم ، وفَزِعوا إلى القوة ، فردّ الله كيدهم فى نحورهم ، ولجئوا إلى النار ، فنزع الله منها طبعها ، ودفع عنه أذى حرها ، وأرادوا به كيداً فجعلهم الله من الأخسَرين .

بُهِر الناس بتلك الآية الكبرى ، حتى أوشكوا أن يُسلِموا زمامَهم له ، ويُلقُوا قيادَهم إليه ، وكادوا يجمعون أمرهم على اتباعه ، ولكن بعضَهم آثر ما يتقلب فيه من نعيم الحياة وسؤددها ، وخاف غيرهم أن تمتد إليه أيدى الكافرين والملحدين ، لذلك لم يؤمن بإبراهيم إلا نفر قليل ، كتموا إيمانهم عن القوم ، خوفا من الطغاة ، وحذراً من الموت .

إبراهيم والنمرود *

أمّا النمرود فقد وصل إليه شعاعٌ من ذلك النور الذى بُهر به قومه، واقتحمت عليه قصره موجة من هذا التيار الجارف ، وترامى إليه خبر إبراهيم ومعجزته الخالدة ، فطغى طُغيانه وزاد بُهتانه . أليس من آلهتهم وابراهيمُ يكيل القَدْح فيها ، ويعيب على القوم عبادتها ؟

فدعا ابراهيمَ إليه ، وحاجَّهُ ، فقال : ماهذه الفتنة التى أيقظتها ، وتلك النار التى أشعلتها ؟ وماهذا الإله الذى تدعو إليه ؟ هل تعرف رباً غيرى، وإلها يستحقُّ العبادة دونى ؟ من ذا الذى يعلو مَقامُه علىّ ، ويرتفع قدرُه فوق قدرى؟ ألا ترانى أصرّف الأمور وأدبّرها ، وأنقضها وأبرمها؟ فأمرى نافذ ، وحكمى قاطع ، عيونُ الناس متطلعة إلىّ ، وآمالهم متعلقة بى ، فهل تجدُ لى مخالفاً ، أو ترى فىّ مغْمزاً ؟ فلماذا خرجت على إجماعهم ، وانتقضت على معبوداتهم ؟ ما ربك الذى تدعو إليه ؟ ومن إلهك الذى تَحُث على عبادته ؟

فأجابه إبراهيم فى ثبات جنان ، وطلاقة لسان ، وقال : ربى الذى يحيي ويميت ، فهو وحده الذى يمنح الحياة ويسلُبها ، وينشئ الخلق ويفنيه ، ويُبدع العوالم الحية ويميتها . فألقمه الحجر ، وأفحمه بالحجة . ولكن النمرود أخذته العزة بالإثم ؛ فكابر وجادل بالباطل ، وقال : أنا أحيي من أشاء بالعفو عنه فينعَم بالحياة بعد أن تَمثّل له شبح الموت ، ويتنسّم ريح الحياة

---

* القرآن الكريم ـ سورة البقرة : آية ٢٥٨ ومابعدها .

بعد أن تقطعت نفسُه حسراتٍ على الحرمان من متاعها ، وأوصِدَت فى وَجْهِهِ أبوابُ الأمَل فيها ، وأنا كذلك أميتُ من أشاء بأمرى ، وأقضى عليه بحكمى ، وسرعان ما تَزْهَق روحه ، ويُحرَم حياته ؛ فلم يأت ربك بِدْعا ، ولم يفعل عجبا .

وارَبَ النمرود فى حِواره ، ومَارَى فى جداله ؛ إذ نأى عما ذكره إبراهيم من إنشاء الحياة وخَلْقِها ، ومنحها وسلبها ، ولجأ إلى المراوغة ، ولكن أين يحول هذا الغِر الجاهل ؟ وكيف يستطيع الثبات أمَامَ عزم النبوَّةِ الباهر ؟

أجابه إبراهيم بقوله : إن اللهَ سَخَّر الشمسَ ، وجعل لها نظاما لا تَحِيد عنه ، فهو يأتى بها من المشرق ، فإن كنتَ كما تدَّعى قديرا ، وكما زعمتَ إلهاً ، فغيِّر هذا النظام الذى جرَتْ به سنة الله ، واقتضته إرادته ، وأت بها من المغرب .

فبهت الذى كفر ؛ إذ بان ضلالُه ، وظهر كذبه ، ووضح بهتانه ، وارتعدت فرائصه ، وبدت جهالته ؛ فقد قرعته الحجة البالغة ، وصدمته الآية البينة ، وخاف أن يُثَلَّ عرشه ، وتُدَكَّ قوائم ملكه ، وصار إبراهيم أبغضَ الناس إليه ، وأشدَّهم عداوة له ، ولكن ماذا يصنع به ، وقد أتى بعقيدة جديدة ، دَعَمها بمعجزة باهرة ؟

ما أظنه إلا أوجس خيفة منه ، وخاف أن يكتسح إبراهيم ملكه ، ويقوِّض عرشه ؛ إن هو أعلن له العداء ، أو كشف له عن البغضاء ؛ لذلك أبقى عليه ، وهو يتربص به الدوائر ، وينتظر أن تحين الفرصة للانتقام

منه ، ثم بثّ عُيونه ليحذّروا الناس اتّباعه ، ويبعدوهم عن حظيرته ؛ فكان إبراهيم يرى من التضييق عليه ، والإضرار به مايراه المصلحون فى كل أمة ؛ فضاقت نفسه بالمُقَامِ بينهم ، وارْتأى الهجرة عنهم ، وفرّ بدينه من تلك الأرض الجرداء ، التى لم يزدَهر بها نبته ، ولم يُثمر فيها غرسه ؛ وهاجر إلى أرض قد تنمو فيها دعوته ، ويُخْصِبُ فيها بذره ، وبرح قومه ووطنه بعد أن حقَّت عليهم كلمة العذاب ؛ إذ لم يؤمنوا بعد إذ جاءهم الهدى ، وجحدوا بعد أن قامت البينة ، وظل فى مسيره حتى حط رحاله بفلسطين .

إبراهيم يهدى قومه عن طريق الحوار *

ألقى إبراهيم عصاه فى حرّان ، فارًّا بدينه ، تاركا وطنه وقومه ، علّه يجد فى غيرهما آذانا مُصْغِية ، وعقولا ناضجة ، ونفوساً طاهرة ؛ ونزل بين ظهرانى أهل هذه البلاد ، وسرعان ماتبيّن ضلالهم ، وعرف زيْغهم ؛ إذ وجدهم يعبدون الكواكبَ من دون الله ، فأراد أن ينبّههم إلى خطئهم ، ويرشدهم إلى فساد اعتقادهم ، فاختار لذلك سبيلَ العقل ، وطريق الحجة ؛ حتى إذا مااستبانوا الحق ، وتبيّنوا الرشد ، سلكوا سبيله ، وأصغَوْا إلى ندائه ، واتّبعوا دعوته .

جنّ عليه الليل ، وستره الظلام ، فرأى كوكبا مما يعبدون ، وهو بين جماعة منهم يتحدثون ويسمُرون ؛ فجاراهم فى زعمهم ، وحكى قولهم :

هــذا ربى !

طريق فى الحوار حكيم ، ومنهج فى الكلام قويم ؛ انظر إليه يحاكيهم فى اعتقادهم ، ولا يُعلن مخالفتهم ، أو يسفّه أحلامَهم ، ويحقّر معبوداتِهم ؛ فذلك أدعى إلى إنصاتهم لقوله ، وتفهُّمِهم لحجته ؛ ثم لم يلبث أن كرّ على قولهم ينقُضُه ، ورجَع إلى مذهبهم يزيّفه ؛ ولكن من طريق خفىّ ، ينبئ عن سداد رأيه ، ونفاذ بصيرته ؛ فلمّا أفل هذا الكوكب وغاب هـذا النجم تحت الأفق ، تفقّده فلم يجده ، وبحث عنه فلم يره ؛ فقال : لاأحب الآلهة المتغيرين من حال إلى حال ، المنتقلين من مكان إلى مكان ؛ فعرّض بآلهتهم ، وتنقّص معبوداتهم ، وأعلن بغضه لها ، وتبرّأ من حُبها .

---

* القرآن الكريم ـ سورة الانعام : آية ٧٦ وما بعدها .

ولما رأى القمر بازغا، وهو أسطع نورا من ذلك الكوكب، وأكبر منه حجما، وأكثر نفعا، قال: هذا ربى؛ استدراجا لهم واستهواء لقلوبهم.

فلما أفل هذا أيضا واحتجب، واختفى نوره واستتر، قال: « لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ »؛ بيانا لهم أن الله مصدرُ الهداية، ومانحُ التوفيق عند الشك والحَيْرة.

جاوز التعريضَ إلى ماهو أفصحُ منه، لمّا أنس منهم سكوتا على بغضه لآلهتهم، وإغضاء عن ذمه معبوداتهم، وأبان أنه غيرُ مطمئنِ النفس، مبلبلُ الفكر، لم يهتد بعدُ إلى طريق الحق، ولما يقف على سبيلِ الرُّشْدِ؛ وطلبَ من الله أن يُنْقِذَهُ من ذلك الضلال البعيد، ويُنيرَ له هذا الليلَ البهيم؛ فهذا الذى يعبدونه مخلوق مسيّر، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا.

ثم رأى الشمس بازغة يتألق نورها، وينبعث منها شعاعا، وقد كست الدنيا جمالا، وملأت الأرض حياةً وبهاء، وأرجاء الكونِ نوراً وضياء؛ فقال: هذا ربى، هذا أكبر من كل الكواكب، وأكثر نفعا، وأجل شأناً؛ فلما أفلتْ كغيرها، وغابت عن عبّادها، رماهم بالشرك، ووسمهم بالكفر، وقال: إنى برىء مما تشركون؛ فهذه الكواكبُ التى تنتقل من مكان إلى مكان، وتتحوّل من حال إلى حال، لابد لها من خالق يدبرها ويحركها، وإله يُطلعها ويسيّرها؛ فهى لا تَسْتَأهِل عبادة، ولا تستحق إكباراً وتعظيما.

وبعد أن أعلن انصرافه عن آلهتهم، وبراءته من معبوداتهم، أفاض فى الحديث عمن اختصه بخضوعه، وتوجه إليه بعبادته، فقال: « إنّى

وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين »

حاجّه قومُه فى ذلك الذى جَاءهم به ، ودعاهم إليه ؛ عساه أن يرجع إلى عقيدتهم ، ويرتد عن ادّعائه إشراكهم ، فقال : أتحاجُّونّى فى الله وقد هدانى إلى الصراط المستقيم ، وأرشدنى إلى الطريق القويم؟

خوّفوه بطشَ آلهتهم ، وحذّروه أن تصيبَه بِسُوء ، أو تلحق به أذى ، إذا نَكل عن عبادتها ، وتجانَف عن الخضوع لها ؛ ولكنه لم يستمع إلى نصحهم ، ولم يستجب الى دعائهم ؛ وتعجب أن يخوّفوه شيئاً مأمونَ الجانب ، لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وهم لا يخافون إشراكَهم بالله مالم ينزّل به عليهم سلطانا ، وقد كان عليهم أن يحذروا الله ويخافوا عقابه ؛ فقد ارتكبوا إثماً كبيراً ، واقترفوا ذنبا عظيما ؛ فجزاؤهم – إن استمروا على كفرهم – جهنم ، وبئس المصير .

ابراهيم فى مصر

عم القحط ، وشَمِل الجدب والغلاء ، وضاقت سُبُل العيش فى الشام ؛ فرحل إبراهيم إلى مصر ، تصحبه زوجُه سارّة ، وهَبَط أرضها حين كان القابضَ على زمامها ، والمسيطرَ على أمورها ، أحدُ ملوك العرب العماليق ، الذين استبدوا بالملك رَدَحاً من الزمن .

وكانت سارّة ذاتَ جمال باهر ، فَوَشَى بها أحدُ بطانة السوء إلى الملك وأغراه بجمالها ، وزيّن له حسنها ، وحبب إليه الاستحواذ عليها ؛ فصادفت هذه المقالةُ رغبةً فى نفسه ، وهوى فى فؤاده ؛ فدعا إبراهيمَ إليه ، وسأله عما يربطهما من سبب ، وما يصلُ بينهما من قرابة ؛ ففَطِن إبراهيم إلى مأربه ، وعرف مقصده ، وخاف إنْ أخبره أنها زوجته ، بيّت الشر له ، وعَمِلَ على الإيقاع به ؛ لتخلص له من دونه ، ويستأثر بها من بعده .

فقال له : هى أختى ــ والأخت كما تكون فى النسب تكون فى الدين واللغة والإنسانية .

فهمَ الملك أنها لَيست بذات بعل ، فأمر أن يذهبوا بها إلى قصره ويسوقوها إلى مخدعه . ورجع إبراهيم إلى زوجه ، فأخبرها بقصته ، وطلب إليها أن تكون مصدقة لقوله ، مؤكدة لخبره ؛ ثم أسلمها لعين الله تحرسها ، وعناية الله ترعاها وتحفظها .

أُدخلت إلى قصره ، وزُيّنت بفاخر الثياب وثمين الحلى ؛ ولكنها

لم تعبأ بهذا الزخرف البرّاق ، ولا بذاك البذخ الخلاب ، ولم تُعْنَ بما أحيطت به من نعمة ، وما رأت من سعَة السلطان ، وبسطة العيش ، ولم يُنسِها كل ذلك الوفاءَ لزوجها والاستمساكَ بدينها ، وجلست مكتئبة حزينة ، وانتبذت مكانا قصيا .

ولما أقبل الملك عليها ، ورأى مابها من لوعة وأسى ، حاول أن يخفف من حزنها ، ويؤنسَ وحشتها ، ويزيلَ اكتئابها ، فجَفَلت ، وانتكس يُحس اضطرابا فى نفسه ، ووجيباً فى قلبه ؛ وأراد أن يعيد الكرة ، فعاد إليه اضطرابه ، وعاوده انتكاسه ، فأوجس خيفة منها ، وأوى إلى فراشه ، وغطّ فى نومه ، ورأى رؤيا استبان بها الحق ، وتبيّن منها سبيل الرشد ، وعرف أنّ لها بعلا ، وأنَّ عليه أن يخلّيَ سبيلها ، ويتركها وشأنها ، وألا يمسّها بسوء ، أويقربها بإثم .

فلما أفاق من نومه ، رأى أن لا مناص من إطلاق سراحها ، فوهبها هَاجَر ، خادما لها ، وأسْلَمها إلى زوجها .

فهل ترى مِحْنة أشد ، وفتنةً أعظم من ذلك ؟ رجل غريب يَفِدُ إلى بلد يسعى فيه لطلب الرزق ، فتُسْلَب منه زوجه ، ويفرّق بينه وبين أهله ! ولكن الله الذى نجّى إبراهيمَ من حر النار وسعيرها ، حفظه من وصمة العار ، وذلّ الإثم .

أقام بمصر ماشاء الله أن يقيم ، وكان وادع النفس ، دَمِث الُخلق ، ليّن العريكة ، طويلَ الأناة ، دءوبا على العمل ، لذلك كَثُر ماله ، ونمتْ أنعامه ، وارتفع ذكره ؛ ولكن القوم حسدوه على مكانته ، ونَقِموا عليه سَعة

نعمته؛ وسَوَّلَتْ لهم نفوسُهم أن تمتد أيديهم إليه بالأذى ، وأحس منهم إبراهيمُ جفوة ؛ فأزمع الرحيل عنهم، وجعل وجهته فلسطين ؛ تلك الأرض المقدسة ، التى اتخذها قبلُ موطنا ، وأقام فيها زمنا ؛ فانطلق حتى ألقى عصا التسيار .

....

إسماعيل

هاجر إبراهيم إلى فلسطين، ومعه زوجه سارة، وخادمها هاجر، واستاقوا معهم أنعامهم، واحتملوا ما يملكون من مال جزيل؛ وأقام وسط أهله وعشيرته، وبين الطائفة القليلة التي آمنت به.

كانت سارةُ عقيما لا تلد، وكان يُحزِنها أن ترى بعلها الوفي يتطلع إلى النسل، وقد أصبحت هي على حال لا يرجى فيه الولد، فقد بلغت من الكبر عِتِيًّا؛ فأشارت على زوجها أن يدخل بأمَتِها هاجر؛ وهي الوفيةُ الكريمة، المطيعةُ الأمينة؛ علَّها تُنجب ولداً، تُشرق به حياتهما، ويسرِّي عنهما بعض ما يجدان من لوعة الوَحدة ومَرارة الوحشة؛ فانصاع لرأيها، وخَضع لإشارتها؛ فلما وهبته إياها أنجبت غلاما زَكِيًّا، هو إسماعيل؛ فانتعشت نفس إبراهيم، وقرت به عينه؛ واشتعلت نار الغَيْرة في نفس سارّة، وعصفت بها أعاصيرُ شديدةٌ من الحزن والشجن، أثارهما قلقها واضطرابها؛ فَحُرِمت الهدوءَ والهجوع، وأقلقت الغَيْرَةُ مَضْجَعها؛ فتشعّب لُبُّها، وعقدت عليها الكآبة سحابة مطبقة، وأصبحت لا تُطيق النظر إلى الغلام، ولا تحتمل رؤية هاجر.

هي الآن مُلتاعةٌ متحسرة، كئيبة متذمّرة، لم تجد دواءً لعلتها، وكشفاً لدائها إلا إقصاءه وأمه عن دارها، وإبعادهما عن عينها؛ فتمنت على زوجها أن يذهب بهاجر وطفلها إلى أقصى الأماكن، حتى لا يصلَ صوتُهما إلى سمعها، ولا تقذَى برؤيتهما عينُها

أذعن لإرادتها ؛ وكأنّ الله قد أوحى إليه أن يُطيعَ أمرها، وينفّذ حكمها ؛ فركب دابته ؛ واصطحب الغلام وأمّه ؛ وسار تُرْشِده إرادة الله ، وتَحْدُوه عنايته ؛ حتى وقف عند مكان البيت ! فأنزل هاجر وطفلها فى هذا المكان البَلْقَع ، وتركهما فى تلك البقعة الجرداء ؛ وهما ضعيفان لا يملكان شيئا ، سوى مِزْوَدٍ به قليل من الطعام . وسِقَاء به شىء من الماء ، وإيمان بالله يَعْمُر به قلبهما ، ويغمر نفسهما .

ترك الديار ، واستودعهما هذا المكان ، وقفل راجعا ! فتبعته أم إسماعيل ، وتعلقت به ، وأمسكت بثوبه ، وقبضت على خطام دابّته ، وقالت : ياإبراهيم أين تذهب ؟ ولمن تتركنا بهذا الوادى الموحش المقفر؟

حاولت أن تستعطفه ، ولعلها قد أشارت إلى ابنها ، تسترحمه بحقه ، وتتوسل إليه بفَلْذَة كبده ، وترجوه ألا يخلّىَ بينهما وبين الجوع القاتل ، والعطش المميت ؛ وقد تكون سألته : مَن يحميهما مِن سطو الذئاب ؟ ومَن يمنعهما من فتك الوحوش ؟ وكيف يحتملان لَفحَ الشمس ، وحرارة الجو ؟ وأسالت تحت قدميه العبرات الغزيرة ، وذرفت الدموعَ السخينة ؛ ترجو أن يُصيخَ إلى استعطافها ، ويستجيب إلى ندائها ؛ ولكنه لم يستمع إلى قولها ، ولم تَلِنْ قناتُه لرجائها ؛ بل أبان لها أن ذلك أمر الله ، وتلك إشارته ؛ فلما علمت بذلك قفلت راجعة ، واستسلمت لأمر الله ، وركَنَتْ إلى رحمته ، وقالت : لن يضيّعنا .

أمّا إبراهيم فإنه انحدر من تلك الرَّبوة يُثْقِله الإشفاق والخوف ،

ويدفعه الإيمان والثقة بالله ؛ ولا شك أنه الآن يتحسر جوى ولوعة ، لِبعاد فَلْذة كبده ، وفِراق حُشاشة نفسه ، ووَداع بكره الذى اكتحلت عيناه به بعد أن اكتمل عمره أو كاد ، وكان يُصَعِّد الزفرات ، ويختنق بالعبرات ، وسار إلى وطنه ، وخلّف وراءه وحيدَه ، وهو يدعو الله أن يكلأه بعنايته ، ويحفظه برعايته .

....

نبع زمزم

قد امتثلت هاجر للقضاء المحتوم ، وتحلّت بالصبر الجميل ، ومكثت تأكل من الزاد ، وتشرب من المـاء ، حتى نفِدا ؛ فَخوَى بطنها ، وعصَب ريقها ، وجفّ ضرعها ، وأصبحت لا تجد لَبَنا تُرضعه الطفل ، أو ماء يَبُلّ صداه ؛ وثقلت عليه وطأة الجوع والعطش ، فبكى وانتحب ، وصرخ وأعول ، وأمّه تتقطع نفسُها حسرات ، ودموعها تنهمل غزيرات ، وودت لو استطاعت أن تروى ظمأه بدموعها ، وأن تردّ عنه غائلةَ العطش بمـاء شئونها ، ولـكن هيهات !

حاولت أن تجد لها من مَأزِقها مخرجا ، وكان قذى فى عينيها أن ترى ابنها يتلوى ، وتتميّع[1] نفسـه أمامها ؛ فتركته مكانه ، وقامت هائمة على وجهها ، تعدو وتُهَروِل ، وقد هاجها التِيَاعُ طفلها ، وأحزنها بكاؤه ونحيبه ، وأخذت تبحث عن المـاء ، وتفتش له عن غذاء ؛ حتى قرعت صَفاةَ الصّفا[2] ؛ ثم عادت فزعة مذعورة لهول مُصابها فى وحيدها ، وسعت نحو سراب حسبته ماء عند المَرْوَة ، حتى إذا جاءته لم تجده شيئا ؛ ثم كرّت راجعة إلى هدفها الأول ؛ ورجعت ثانيـة إلى غرضها الثانى ، وهكذا سعت سعىَ المجهود سبعة أشواط[3] ؛ والطفلُ يَصيح ويصخب يقطّع بصوته نياط قلبها ، ويَحِزُّ بعويله فى أعماق فؤادها .

رُحْمَاكَ يارب ! هذا طفل جف حلقه حتى عىّ عن البكاء ، وانقطع

---

(١) تتميع : المراد تفنى نفسه (٢) الصفا والمروة : جبلان بمكة

(٣) هذا هو أصل السعى الذى يقوم به الحجيج .

عنه الغذاء حتى خارت قواه ، وخفتت أنفاسه ! وهذه أمٌّ ترى وحيدها يُسْلِم روحه ، ويجود بنفسه ، وهى لا تجد لها معينا فى وَحدتها ، وسَلْوَة فى مصابها ! إنه الآن يفحص الأرض برجليه ، ويضرب الصَّلْد بقدميه : علّه يرقّ لحاله إذ قست القلوب ، ويلين لاستعطافه إذ عز النصير : فانبجس الماء من تحت قدميه ، وفار الماء من قَرْعِ رجليه ! أليس من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار ؟!

رأت رحمةَ الله تحوطها ، وعنايَة ربها تُظِلّها : فجلست خائرةَ القوى ، يَقْطُر العرق من جبينها ، وأكبَّت على الطفل متلهفة ، تروى ظمأه ، وتُبلّل بالماء شفتيه : فسرها أن ترى الحياة تَدِب فى جسمه ، وأن يُقبلَ عليها فى لهفة وشوق ، فتضمه إلى صدرها ، وترَبّت(١) عليه : ثم تكفكف دموعه ، وتسرّى عنه شجونه وأحزانه : حتى إذا اطمأنت على وليدها : وعاد إليها الأمن لنجاته ، وعاودها السرورُ بحياته ، ارتوت هى أيضا ، فسرت فيها الحياة ، وانقشعت تلك السحابةُ السوداء التى أظلتهما زمنا : وذلك بفضلِ الله وعنايته .

هذه العينُ هى زمزم ، ولا زالت قائمةً يزدحم حولها الحجيج ، ويستبق الناس إلى حوضها : علّهم يفوزون بقطرة ، أو يرجعون بشَرْبة .

ولما نبع الماء اجتذب الطيرَ إليه ، فحوّمت حوله ، وحلقت فوقه : وكان قوم من جرهم قرب هذا المكان ، فرأوا الطيور تحط فى ساحته ،

(١) التربيت : ضرب اليد على جنب الصبى لينام .

وإنهم ليعرفون أن الأطيار لا تقع إلا على ماء ؛ فأرسلوا واردَهُم يرتاد المكان ، ويخبرهم بخبره ؛ ولما ذهب إليه وجد الماء ، فرجع يَزُفُّ إلى قومه البشرى ، فوفدوا إليه زَرافاتٍ وَوُحدانا ، واتخذه بعضهم موطناً ومُقاما ؛ فَأنِسَتْ هاجر بهم ، واطمأنت إلى جوارهم ، وشكرت لِله أن جعل أفئدةً من الناس تَهْوِى إليهم .

اسماعيل الذبيح *

لم ينس إبراهيم ابنه ، بل كان يَفِدُ إليه لِمَـامًا ، ويزورُه غِبًّا ؛ ليطمئنّ على حاله ، ويقر عيناً بمرآه ؛ فلما شَبَّ وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ، رأى إبراهيم فى نومه أنه يؤمر بذبح ولده - ورؤيا الأنبياء حق ، وأحلامهم صدق .

فتنة إثر فتنة ، ومحنة تَتْلُوها محنة : شيخ هرم ، جَالدَ الأيامَ ، وعرك الدهر ، وأحْنته السنون ؛ قد كان طول حياته يَأمُلُ الولد ، حتى إذا بلغ من الكِـبَر عِتِيًّا ، رزقه الله بغلام وحيد ؛ فيؤمر بأن يُسْكِنَهُ بوادٍ غيرِ ذى زرع ، ويتركَه وأمه فى مكان قفر ، ليس به حسيس ولا أنيس (١) ، وامتثل لأمر الله ، وتركهما هناك ثقةً بالله ، وإيماناً به ، وإطاعةً لأمره ؛ فجعل الله لهما من ضيقهما فرجًا ومخرجًا ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان ؛ ثم يؤمر بذبح هذا الولد العزيز الذى هو بكره ووحيده ! إن هذه لمحنة تنوء بهـا الجبالُ الراسيات ؛ ولـكنّ العظائمَ كفؤُها العظماء ؛ فعلى قدر إبراهيم ، وعلوّ منزلته ، وعلى مقدار ثبات يقينه ، وكمال إيمـانه ، يكون ابتلاؤه واختباره .

استجاب لربه ، وامتثل لأمره ، وسارع إلى طاعته ، وارتحل حتى لَقِيَ ابنَه ؛ ولم يلبث أن صارح الغـلام بتلك الرغبة التى تدك الجبال ، وتنتزع القلوب من الصدور ؛ فقال : يا بُنيّ : إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟

---

* القرآن الكريم - سورة الصافات : آية ٩٩ وما بعدها

(١) ليس به أحد .

عرض عليه الأمر ؛ ليكون ذلك أطيبَ لقلبه ، وأهون عليه ، من أن يأخذَه قسراً ، ويذبحه قهراً .

فبادر الغلام بالطاعة ، وأسرع إلى الإجابة ، فقال : ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء اللهُ من الصابرين .

برٌّ عظيم ، وتوفيق من الله أعظم ، وإيمان وثيق ، ونفس راضية بما أراد الله وقدّر .

ثم أراد أن يخفف عن أبيه لوعةَ الثُّكل ، ويُرشده إلى أقربِ السبل إلى قصده ، فقال : ياأبت اشددْ وثاقى ، وأحكم رباطى ؛ حتى لاأضطرب ، واكشف عنى ثيابى ؛ حتى لا يَنْتَضِحَ عليها شىء من دمى ، فينقص أجرى ، وتراه أمى ؛ فيشتد حزنها ، وتفيض شئونها ، واشْحَذْ شفرتك ، وأسرع إمرارها على حلقى ؛ ليكون أهونَ علىّ : فإن الموتَ شديد ، ووقعَه أليم ، واقرأ على أمى السلام ؛ وإن أردت أن تردّ قميصى عليها فافعل ، فإن ذلك فيه تسريةٌ لهمها ، وسَلْوةٌ لها فى مصابها ، وهو ذكرَى لوليدها ؛ تشم منه عبيره ، وتتنسم فيه أريجه ، وتعود إليه حين تبحث حولها فلا تجدنى ، وتفتش عنى فلاترانى .

قال إبراهيم : نعم العون أنت يابنىّ على أمر الله ؛ ثم ضمه إلى صدره وأخذ يقبّله ، وتباكيا وانتحبا .

ثم أسلم إبراهيم ابنه ، فصرعه على شِقّه ، وأوثقه بكتافه ، وأمسك السكين ، وأخذ يصوّب النظر إليها مرة ، ويحدق فى ابنه مرة أخرى ؛ ثم تدفقت عبراته ، وتتابعت زفراته ؛ رحمةً به ، وإشفاقاً

عليه ؛ وأخيراً وضع السكين على حلقه ، وأمرّها فوق عنقه ؛ ولكنها لم تقطع ؛ لأن قدرة الله قد ثَلَمت حدّها ، وفلت من غَرْبها .

فقال إسماعيل : يا أبت كُبّنى على وجهى ، فإنكَ إذا نظرت إلىّ أدركتْك رحمةٌ بى ، تحولُ بينك وبين أمر الله ؛ ففعل ؛ ثم وضع السكين على قفاه ، فلم تمض الشفرة ، ولم تَفْر الأوداج ؛ وأدركت إبراهيمَ الحيرةُ ، وشق ذلك على نفسه ؛ فتوجه إلى الله أن يجعل له مخرجا ؛ فرحم ضعفه ، واستجاب لدعائه ، وكشف غُمّته ، ونودى : « أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ . »

فاستبشرا بالفوز ، واغتبطا بالنجاة ، وحَمِدَا الله على ماأنعم به عليهما من دفع البلاء ، وكَشْفِ الغمة ، وقد نالا جزيل الثواب ، وخير الجزاء ؛ وصارا بعد هذا الاختبار أصفى نفساً ، وأثبتَ إيماناً ، وأرسخَ يقيناً ؛ إن هذا لهو البلاء [1] المبين .

فَدَى الله إسماعيل بِذِبح عظيم ، رآه إبراهيم بجواره ؛ فأقبل عليه وهوى بتلك السكين التى كانت كليلة ، وأمرّها على حلقه ، فصرع لوقته ، وخضّب الأرض بدمه ؛ فكان فداءً لابنه ، وحقناً لدمه ؛ ثم صار ذبح الضحايا أمراً متبعاً يساهم فيه المسلمون كل عام ؛ ذكرى لذبح إسماعيل ، وشكراً لله على نعمته .

---

(١) البلاء : الاختبار .

إسماعيل وجرهم

حلّق الطير فى سماء تلك البُقعة التى نبع فيها الماء، وحوّمت حول هذه البئر أسرابُه، وسرت فى هذا المكان حياةٌ جديدة، وإن لم يتصل خبرُها بأحد، حتى رأى قومٌ من جُرْهُم - قد نزلوا فى أسفل مكة - طائرا عائفا[1]؛ فقالوا: إن هذا الطائر لَيَدُور على ماء، وعَهْدُنا بهذا الوادى صحراء بلْقع! ثم أرسلوا رائدهم، فسار حتى وجد الماء، فرجع يزُفّ إليهم البشرى، فأقبلوا فرحين، ووفدوا مسرعين، وحلّوا بالمكان، فرأوا أم إسماعيل عند الماء؛ فاستأذنوها فى النزول بجوارها، والسُّقْيا من مائها؛ فأذنت لهم على أن يكونوا ضيوفاً مُكرَمين، لا مقيمين مغتصبين.

فنزلوا على إرادتها، ورضوا حكمها، ثم أرسلوا إلى أهليهم، فجاءوهم يزِفون[2]، واجتمع بهذا الحى منهم أهل أبيات كثيرة.

ثم شب إسماعيل، واستقام عوده، وذاع صيته، وطار ذكرُه، واختلط بالقوم، وحاكاهم فى لغتهم، وتعلَّم لسانهم، وأخذ العربية منهم ثم تزوج بواحدة من قبيلتهم؛ فتم اندماجه فيهم، وتوثّقت صلته بهم؛ وما أظنه إلا قرّ عيناً باكتمال نمّوه، وامتلأ سرورا باجتماع أسباب السعادة له؛ ولكن الدهر قُلّب: فهاهى ذى المنيّة تختطف أمه؛ فعزّ عليه فقدها، وتفَطّر قلبه حزناً عليها، فقد تعهدته فى مهده، ورعته فى طفولته

---

(١) عائفا: محوما (٢) يزفون: يسرعون.

وأظلته بحنانها فى شبابه ، وكانت له دائماً عضداً فى الملِمات ، ومعيناً فى المهمات .

لم يكن لإبراهيم أن ينسى وديعته ، وأن يسلوَ فلذة كبده ؛ لذلك كان يتردد على هذا المكان الذى ترك فيه أهله وولده ؛ يتفقد حال ابنه ؛ فوفد إلى مكة مرة ، وأتى بيت إسماعيل ، فلم يجد به إلا امرأته ، فسألها عنه ، فأخبرته أنه خرج يبتغى لهم شيئا ، ثم شَكت إليه سوءَ الحال ، وضيق اليد ، وشَظَف العيش ؛ فرأى فيها امرأةً متمرِّدة على القَدر ، ناقمةً على القضاء ، غيرَ راضية بما قسمه الله لها ، ورأى أنها لا تصلح لابنه زوجاً ، لتبرُّمها بالحياة معه ، وشكواها من معاشرتها إياه ؛ فأشاح عنها بوجهه ، ولوى عِنان دابته ، بعد أن حمّلها السلام لابنه ، وأوصاها أن تبلِّغه أن يغيِّر عَتَبة داره ، يكنِّى بذلك أن يفارق زوجته ، وأن يستبدل بها خيراً منها .

وبعد لَأْيٍ أقبل إسماعيل إلى أهله ، وكأنه أنس شيئا ؛ فقال لامرأته : هل جاءنا اليوم أحد ؟ فقالت : نعم ، طرَق بابنا شيخ ، صفته كيت وكيت ، سألنا عنك ، فأخبرْناه بخبرك ، وأظهر حدَبه عليك ، ورغبتَه فى استكناه أمرك ، وتبيّن حالك ، فأعلمتُه بما نحن فيه من الضيق والشدة .

قال إسماعيل : هل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، هو يقرئك السلام ، ويوصيك أن تغيّر عتبة دارك . فقال ذاك أبى ، وقد أمرنى بفراقك ؛ وتركها غير آسف عليها .

ولم يلبث إبراهيم أن عاد يتفقد ولده ، ويطفئُ لهيب شوقه ؛ وأتى دار

إسماعيل، ولكنه لم يجد فيها إلا امرأته، فسألها عن مقرّه ومحطّ رحله؛ فأخبرته أنه خرج يبتغي لهم رزقا.

ولما همّ بالرجوع، التفت إليها يسائلها عن حالهما، ويستخبرها خبرهما، فلهج لسانُها بالثناء، وفاض بالحمد، وذكرت له: أنهما فى خير كثير، وفيض عميم؛ حينئذ اطمأن قلبُه، وانشرح صدره، إذ رآها قانعة راضية، شاكرة مؤمنة، وعلم أنها مع زوجها فى خير وسَعة، فأمرها أن تقرِئ زوجها السلام، وتوصيه أن يحافظ على عتَبة داره، وقفل راجعا إلى أهله.

ولما طوى النهار أقبل إسماعيل إلى أهله كعادته، ولم يلبث أن تجاذب وزوجه أطراف الحديث، فأخبرته أن شيخا حسَن الهيئة، وسيم الطَّلعة، يجلله الوقار، وتكسوه الهيبة، قد طرق اليوم بابهم، وولَج دارهم؛ وأنه قد استنبأها خبره، وأراد الوقوف على أمره، فأخبرته أنهما فى خير وسعة؛ وأنه قد أوصاها أن تُقرِئه السلام، وتأمره أن يثبِّت عتبة داره.

قال إسماعيل: ذاك أبى، وقد أمرنى ألّا أفارقك، فلازمها حياته، وكانت أم أبنائه.

بناء الكعبة *

لبث إبراهيم بعيداً عن ابنه ما شاء الله أن يمكث ، ثم وفد إليه ، لا استكناهاً لأمره ، ولا إرواءً لصدى شوقه ، كما كان يفعل ؛ بل جاء اليوم إلى هذه البقاع لأمر جليل ، وشيء عظيم ؛ فقد أُمِر ببناء الكعبة ، وإقامة أول بيت للناس ؛ فاستجاب لأمر ربه ، واضطلع به غير هيّاب ولا وَجِل ، وخفّ إلى الحجاز ، وجدّ فى البحث عن إسماعيل ، وأخذ يجوب مواقع الماء ، ومنازل القبائل ، ومَضارب الخيام ، حتى عثَر عليه ، وقد جلس تحت شجرة باسقة الفروع ، وهو يبرى نَبْلاً له ، قريباً من زمزم .

ورآه إسماعيلُ مقبلا : فنفض يده مما كان يعالجه ، وخف إلى استقباله ، وقد تهلل وجهه ، وانبسطت أساريره ، وانشرح صدره ، واندفع إليه مسرعا ، وسرعان ما تعانق الوالد والولد ، وبث كل منهما للآخر ما يجد ، وبعد أن أطفآ جَذْوة الشوق ، وخفّفا لوعة الفراق ، جلسا يتحادثان . ولو مُدت عينيك لرأيت مظاهر الحنان والعطف ، وأحسست بوادر السرور والغبطة ، للقاء هذا الولد البارّ بذلك الوالد الرحيم .

مضى عليهما فى هذا المقام وقتٌ طويل ، أفاقا بعده من نشوة السرور ، وهناك أفضى إبراهيم إلى ابنه بسر رهيب ، وأخبره بأمر عجيب ، فقال : يابنىّ ، إن الله قد أمرنى أن أبنىَ ههنا بيتا ؛ وأشار إلى أَكَمَةٍ (1) مرتفعة على

---

* القرآن الكريم - سورة البقرة : آية ١٢٥ وما بعدها .

(1) الأكمة : الموضع يكون أشد ارتفاعا من غيره

ماحولها ، فكان إسماعيل أطوع له من بنانه ، وما كان جوابه إلا السمع والطاعة .

ثم سارا إلى المكان يحدوهما الرجاءُ ، وتُزجيهما قوة من الله تشدّ من أزرهما ، وتقوّى من عزمهما ، وصارا بالمعاول يحفِران ، ويرفعان قواعد بيت الرحمن ، وهما يسألان الله ويقولان : « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

ولم يلبثا طويلا حتى وضح الأساس ، وظهر موضع البناء ، ثم جعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، ويهيِّءُ الأدواتِ والآلات ، وإبراهيمُ يبنى : ولا شك أنه قد كانت هناك قوة خفية تعاونهما ، حتى يضطلعا بهذا الأمر الخطير ، ويستطيعا وحدهما القيام بهذا العبء الثقيل .

ارتفع البناءُ ، وطار الجدارُ ، وقصُرت أيدى إبراهيم عن أن تنالَ أعلى البناء ، وضعُف الشيخ عن أن يرفع الحجارة إلى هذا العلو ، فقال : يابنى اطْلُبْ لى حجراً ، أَضعُه تحت قدمىّ ، لعلى أستطيع إتمامَ ما بدأت ، وأُشرِف على ما بنيت .

فذهب إسماعيل يجدّ فى البحث ، حتى عَثَر على الحجر الأسود ، فقدّمه إلى أبيه : فقام إبراهيم عليه ، وصار يبنى ، وإسماعيل يناوله ، وكلما كملت ناحية انتقل إلى أخرى ، وكلما فرغ من جدار سار إلى آخر ، وهكذا

حتى تم بناءُ البيت الذى جعله الله مثابةً للناس تشتاقُ إليه أرواحُهم، وتحنّ إليه أفئدتهم، استجابة لدعاء إبراهيم بقوله: «فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ».[1]

---

(١) القرآن الكريم - سورة إبراهيم: آية ٣٦.

لوط*

رحَل إبراهيم عن مصر ، واصطحب معه فى سفره لوطاً ، ورجعا من هذه البلاد بمال كثير ، وخير وافر ، ونزلا بتلك الأرض المقدسة ، ثم ضاقت بأنعامهما وأغنامهما بُقعة الأرض التى نزلا بها ؛ فنزح لوط عن مَحَلةِ عمه إبراهيم ، واستقر به المقام بمدينة سَدُوم .

وقد كان أهلُها ذوى أخلاق فاسدة ، وطوايا سيئة ؛ لا يتعفّفون عن معصية ؛ ولا يتناهَوْن عن منكر فعلوه ، وكانوا من أفجر الناس ، وأقبحهم سيرة ، وأخبثهم سريرة ؛ يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويتربّصون لكل سار فيجتمعون عليه من كل حَدب وصَوْب ، ويسلُبونه ماحمل ، ثم يتركونه يندب حظّه ، ويبكى ضياع ماله ، لا يردّهم عن ذلك دِين ، ولا يصدهم حياء ، ولا يَرْعَوُون لوعظ واعظ ، ولا يستمعون لنصيحةٍ من عاقل .

وكأن نفوسهم الظامئةَ إلى الإثم لم ترِوها تلكم الذنوب ، وأفئدتهم المتعطشةَ إلى الإجرام لم تكفها تلكم القبائح ، فابتدعوا فاحشةً لم يُسبقوا إلى اجترامها ، وتعاطَوْا محرّما ما كان يدور بخلَد أحد اقترافه ؛ فكانوا يأتون الذُّكران من العالمين ، ويَذَرون ما خلق الله من النساء ؛ فلا يقربونهن .

---

* القرآن الكريم ـ سورة هود : الآية ٧٧ وما بعدها .

وليتهم ستروا بليّتهم ، وحاولوا الخلاص من عارها ، والبعدَ عن مَباءتها، ولكنهم كانوا يحملون الناس على مُشايعتهم، ويدعونهم إلى المتْح من قلِيبهم[1] ، وتمادَوا فى ضلالهم ، حتى فشتِ المنكرات ، وكثرت الموبقات وأشربت قلوبُهم حب الفاحشة .

ولما أصاب القوم ما أصابهم من انحلال الأخلاق ، وانتشار المحرّمات ، وفساد الحال ، وانتقاض الأمور ، أوْحى الله إلى لوط أن يدعوَهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عن اقتراف هذه الجرائم ، فأذن فيهم بدعوته ؛ وأعلن بينهم رسالته ، ولكن آذانَهم وقَرَتْ ، وعيونهم عميت ، وقلوبهم غُلِّفت ، فاندفعوا فى شرورهم ، واستمروا على فجورهم ، وتمادَوْا فى طُغيانهم ، ولم يرتدعوا عن غيِّهم ؛ بل حدثتهم نفوسهم الأمارةُ بالسوء ، وسوّلَت لهم عقولُهم التى أضاعها العبث ، وتملكها الشرّ ، أن يُخرجوا رسولَهم من بين ظهرانيهم ؛ فتوعّدوه ومن آمن معه بالإبعاد عن قريتهم ؛ مع أنه لم يرتكب جُرماً إلا بعده عن مساوئهم ، ولم يقترف إثماً إلا أنه تطهَّر من دَنسِهم ، ونعى عليهم طريقهم ، ونأى عن قبائحهم .

ولما رأى منهم ميلا عن طاعته ؛ خوّفهم بأسَ الله وعذابه ، فلم يأبَهوا لتحذيره ، واستخفُّوا بوعيده ؛ فألحّ عليهم بالعظات ، وأنذرهم سوءَ العاقبة ، ولكنهم لم يُقلعوا عما كانوا فيه ؛ بل ازدادوا تعلقاً به ، ورغبة فيه ؛ وتحدّوه أن يأتيهم بالعذاب ، ويُنزلَ عليهم مايستحقون من عقاب .

سأل لوط ربَّه أن ينصرَه على هؤلاء القوم المفسدين ، ويُوقعَ بهم

(١) القليب : البئر .

العذاب الأليم ، وطلب إليه أن يجزيهم على كفرهم وعنادهم ، ويعاقبهم على بَغْيهم وفُجورهم ؛ فهُم الداءُ الوبيل الذى يخاف انتشاره ، والعضوُ المريض الذى لابد من استئصاله ، ألم يعيثوا فى الأرض فساداً ؟ ألم يصدّوا عن سبيل الله ، ويُصِموا آذانهم عن طريق الخير ، ويتنكبوا سبل الهداية

استجاب الله دعاءه ، وحقّق سؤاله ، وبعث ملائكته إلى أهل هذه القرية الظالِم أهلها ؛ ليُنْزِلوا بهم ما يستحقون من عقاب ، فعاجوا أولا بدار إبراهيم ؛ فحسبهم عابرى سبيل ، فقدّم إليهم خيرَ ما يُقَدَّم للأضياف ، ولكن أيديهم لم تمتد إلى قراه فنَكِرَهُم[1] ، وخاف بأسهم ؛ ولكنهم لم يلبثوا أن أذهبوا خوفه ، وبشروه بغلام عليم ؛ وما أظن إبراهيم قد أفرَخَ[2] روعُه ، أو سكن وَجيبُ قلبه ؛ لذلك استفسرهم عما يقصدون ، وقال : مَا خَطْبُكُم أيها المرسَلُون ؟ قالوا : إنا أرْسِلنا إلى قوم مجرمين ، وجئنا لأمر جليل ، وشأن عظيم ؛ هو إيقاع العذاب بقوم لوط ، وإنزال البأس بهم ؛ جزاءَ لفجورهم وكفرهم .

عظُم حزنُ إبراهيم ، وأخذَ يجادلهم فى قوم لوط ، ويرجو تأخيرَ البلاء ، وتأجيلَ وقوع العذاب ، ولعله كان يَأمُل منهم الإنابةَ إلى الله ، والإقلاعَ عما يرتكبون من الذنوب ، والرجوعَ عما يقترفون من الفواحش ؛ وقد يكون إبراهيم قد خاف أن يُمَسّ لوط بأذى ، وهو مؤمن منكر لما يرتكبون ، ساخط على ما يجترحون ، وهو لذلك ليس أهلا للعقاب ،

(١) نكره : جهله

(٢) أفرخ روعه : خلا قلبه من الهم .

ولا يستحق العذاب ، فأمره الملائكةُ أن يهوّن على نفسه ، ويخفّفَ من حُزْنه ، ويدعَ الإنابة إلى الله من أجل هؤلاء القوم الذين يُصِرُّون على المعصية ، ويستمسكون بالخطيئة ؛ وأنبئوه أن لوطا لن يصيبه أذى ، ولن يمسّه عذاب ، وسيكون هو وأهله من الناجين إلا امرأته ؛ فإن هَوَاها معهم ، ورأيَها تبع لرأيهم .

ولما فَصَلت[1] الملائكة عن إبراهيم ، أتَوْا أرض سَذُوم فى صورة شُبّان حسان ، وفيما هم يَهمون بدخول هذه القرية عرضت لهم جارية تستقى الماء لأهلها ، فسألوها أن تضيفهم ، فأشفقت من قومها عليهم ، واستضعفت نفسها عن حمايتهم ، وأرادت أن تستنجد بأبيها فى الدفاع عنهم ، فأمهلتهم حتى تذهبَ إليه فتستشيره فى أمرهم ، وأتت أباها ، فقالت : يا أبتاه : أرادكَ فتيانٌ على باب المدينة ، مارأيتُ وجوهَ قوم قطّ هى أصبحَ من وجوههم ، وأخاف أن يعلمَ بأمرهم قومُك فيفضحوهم .

هذا الوالد هو لوط ، وهذه الجارية هى ابنتُه . ولا أظنّ لوطا إلا دُهِش لهذه المفاجأة ، وأقبل على ابنته يسائلُها عن أمرهم ، ويستزيدها الحديث فى شأنهم ، ويستلهِمُها خير السُّبُل التى ينتهجها ، وأفضل الطرق التى يتّبعها .

ولعله قد تردّد فى السَّعْى لاستقبالهم ، وحار فى قبول ضيافتهم ، وحدّثته نفسه أن يبعث إليهم بعُذْره ، أو يُظهرَهم على أمره ، فيكفوه مدافعته لقومه ، ويتركوه وشأنه ؛ ولكن الأَرْيحيّةَ هزّته ، والمروءةَ دفعته ؛ فاستصغر هذه الصعاب ، واستخف بتلك العقبات ، وخرج إليهم خِفية ، وهو ينأى

(١) فصلت : رجعت .

عن عيون القوم ، ويحاول أن يصلَ إلى مأربه قبل أن يعترضوا طريقه ، ويصدّوه عن سبيله ؛ فقد حالوا بينه وبين العالمين ، وأمروه ألا يستضيف أحداً ، ونهَوْه أن يأوى فى منزله طارقاً ؛ وكأنى بهم قد حسبوه داء وبيلا خافوا انتشاره ، وظنوه خطراً جسيما خشوا طُغيانه ؛ وما هو إلا عدوّ لقبائحهم ، ومنكرٌ لمفاسدهم .

تسلّل لوط خِفْيَةً ، وسار حتى التقى بالملائكة ، فاستقبلهم ببِشْرِهِ ، وتلقّاهم بوجهه ؛ ثم دعاهم إلى مصاحبته ، وتقدّمهم نحو بيته ؛ ولكن الوساوسَ جاشَتْ فى نفسه ، والمخاوفَ دبّت إلى قلبه ؛ فضاق ذرعاً بضيافتهم ، وامتلأ خوفاً وفزعاً من أن يعلم قومُه بأمرهم ، ويقفوا على دَخيلة حالهم ، فيهبوا إليه مسرعين ؛ وهو ليس فى مَنعةٍ منهم ، أو فى عصبية تمنعُه من اعتدائهم .

سار بهم حتى نزلوا بداره ، وما أظنه إلا بالَغ فى كتمان أمرهم ، وتستّر خوفا أن يتسربَ إلى القوم خبرُهم ؛ ولكن امرأته كانت تُساير القوم فى طريقتهم ؛ فأذاعت خبرهم ، وأعلمت قومها بأمرهم ، وسرعان ما جاءوا يُهْرَعون ، وأقبلوا مستبشرين ؛ وفزِع لوط حين رأى القومَ قد اجتمعوا يريدون الفاحشةَ ، ويرغبون فى المنكر ؛ فناشدهم تقوى الله ؛ ودعاهم إلى سَتْر مخازيهم ، والكفّ عن مساوئهم ؛ ولكنهم جميعا فجرةٌ سفهاء ، وكفرةٌ أغبياء ؛ لذلك لم يستمعوا إلى نصيحته ، ولم ينزلوا على إرادته ، فأغلق الباب دونهم ، وحال بينهم وبين ما يشتهون .

ويخيل إلىّ أن القوم قد غاض الحياءُ من وجوههم ، أو أصابهم مسٌّ فى عقولهم ؛ فتدافعُوا وراء المنكرات ، وتظاهروا على القبائح !

ولما رأى لوط أنهم لم يطيعوا إشارته، ولم يُصيخوا لدعوته، أرشدهم إلى غِشْيان نسائهم اللاتى جعلهن الله حلالا لهم، وأمرهم أن يجتنبوا هذه العادةَ السيئة، ويحذَرُوا عاقبةَ هذه القبائح المنكرة؛ ولكنهم مع ذلك لم ينتهوا ولَم يَرْعَوُوا؛ بل ازدادوا تمسكا بما جاءوا له، وتعلقا بما شغفت نفوسُهم الدنيئةُ به، وتشبثوا بما عزموا عليه من فاحشة، وقالوا: يالوط لقد علمتَ ما لنا فى بناتِك من حق، وليس لنا فى النساء من حاجةٍ أو رغبة وإنك لتعلمُ ما نُريد!

ضاقت بلوطٍ السُّبُل، وسُدَّت أمامه أبوابُ الأمل، فأخذه من الكرب والبُرَحاء ما جعله يتلهفُ على نجاة أضيافه، وخلاصهم من قومه، فقال: لو أن لى بكم قوةً لاستطعتُ أن أمنعَ عدوانكم، وآمن شرّكم، وأقف فى وجوهكم! ولو كنتُ فى مَنَعَةٍ وعزة لقوّمت معوجّكم، وألنْتُ قناتكم!

ولكن القوم قد أعمتهم الضلالة؛ فلم يستبينوا سبيل الرشد الذى دلّهم عليه، ولم يحيدوا عن طريق الشر الذى حاول أن يصدهم عنه؛ فهم فى نَزْوَة الشر مندفعون، وإلى مباءة الإثم يتسابقون.

فغشيته سحابةٌ من الحزن، وتملّكته ثورةٌ من الغضب، حين يئس من ردّهم، وناله الإعياء والكلال من صدّهم، ورآهم قد اقتحموا منزله وقهروه، وتهجموا على ضيفه وفَضَحوه، وهو لم يألُ جُهْداً فى نصحهم، ولم يترك سبيلا لردّهم.

ولما رأى الملائكةُ ما هو فيه من الوَجد والحزن، رَدّوا لهفتَه، وسكّنوا رَوْعه؛ وقالوا: يالوط إنا رسلُ ربّك جئنا لإنقاذك، ودَفع

العدوان عنك ، فلن يَصِلَ هؤلاء الكفرةُ الفجرة إليك ، وإنهم لمهزومون وما عتّموا أن تولاهم الفزع والرعب ، فتولَّوْا هاربين متوعدين .

ولكن لوطاً قد أصبح ، وقد كشفَ الله عنه الغُمة ، وأحاطه بعنايته وآزره بنصرته ، لا يأبه لهذا الوعيد ، ولا يَضيره هذا التهديد .

ولما انقشعت غياهبُ الحزن عن لوط أمره الملائكة أن يَسْرِى هو وأهله بِقِطْع (١) من الليل ، ويتركوا هذه القرية التى أذِنَ الله أن ينزل بها العذاب ، ويحل بها العقاب ، ثم نهوه أن يصطحب معه امرأته ؛ فسيحل بها مايحل بالقوم جزاءَ نفاقها ومشايعتها لهم ، وأمروه أن يَدّرع بالصبر والثبات عند نزول العذاب بهم .

خرج لوط وأهلُه ، وفارق تلك القرية غير آسف عليها ، حتى إذا صار بعيدا عنها ، جاءها أمرُ الله ، ونزل بها عذابه ، وزُلزت الأرض زلزالَها فصار عاليها سافلَها ، ثم غشيت بمطر من سجيل (٢) ؛ فأصبحت ديارهم بلقعا ، وبيوتُهم خاوية بما ظلموا ؛ إن فى ذلك لآيةً لقوم يَتَفَكَّرُون .

---

(١) قطع من الليل : آخر الليل (٢) السجيل : الحجارة الصغيرة .

يعقوب

١

تقدّم يعقوب إلى أبيه إسحاق [١] ـ وكان رجلا شيخا قد رقّ جلده، واعوجّت قناته ـ وقال : ياأبت إنى أشكو إليك عِيصو أخى، وأستَعْدِيك على توعُّده وتهديده، فإنه منذ رَمَقْتَنى بعين رعايتك، ودعوت لى بالبركة وتكهَّنْتَ لى بنسل طيب، وملك موروث، وعيش خافض [٢]، حسدنى لهذه الدعوات التى أسبغتها علىّ، وحَقِدَ علىّ لهذه الرجيَّةِ التى تمنيتها لى، وأنكر العلامة التى توسمتها فىّ : فَرَاحَ يَنَالُنى بقارِصِ كلامه ويَحْزُنُنى بوجيع تأنيبه، ويُخيفنى بتهديده ووعيده، حتى يَبَس [٣] مابينى وبينه من ودّ، وتقَطَّع ماكان يجمعنا من رَحِم.

ثم هو فوق ذلك يفاخرنى بامْرأتيه هاتين اللتين تزوّجهما من كنعان ويُكَاثِرنى بمـا يرتقبه من أولاد يضيقون علىّ الرزق، ويَزْحَمُوننى بمناكبهم فى الحياة. وقد شكوت إليك؛ لتحكم بينى وبينه بمـا وهبك الله من رأى حكيم وحِلْمٍ راجح.

قال إسحاق ـ وقد أهمّه مارأى من القطيعة بين الأخوين، والنَّفْرة بين الشقيقين : يابُنَىّ، إنى كما ترى ـ من هـذه اللِّمّة [٤] البيضاء، والجبين

---

(١) قال ابن قتيبة فى كتاب المعارف : تزوج إسحاق رفقا بنت ناحور وهى بنت عمه فولدت له عيصو ويعقوب توأمين (٢) لين

(٣) يبس الودّ : ذوى (٤) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن.

المتغضّن والظهر المتقوّس - أصبحت شيخا متهدّما ، خذلتنى قوتى ، ووقفت بى الأيامُ على ثَنيّة [١] الوداع ؛ وإنه يوشك أن يوافينى الأجل ، ويقطع ما بينى وبين الحياة من أسباب ، ولا آمن عليك بعدى: أن يُعالنك أخوك بالعداوة ، ويَحْسِرَ لك اللثام عن بطْشٍ وكيد ، وهو فى مَنَعَةٍ من شدة أسْرِهِ ، وقوة خلقه ، وفى حِرْز من أصهاره وذوى قرباه .

وما أرى إلا أن تُزْمِع رحيلا إلى فدان آرام من أرض العراق حيث خالك لابان بن بتويل ، فابْنِ على إحدى بناته : فإنك تنال العزّ والشرف والمجد والمنعَةَ ، ثم عُدْ بعدها إلى هـذه الأرض ، وإننى لأرجو لك عيشاً أخفضَ من عيش أخيك ، ونسلا طاهرا خيراً من نسله وولده ، والله يَكلؤُك بعينه ، ويحفظك برعايته .

٢

كانت هذه الكلمات على قلب الفتى يعقوب أندى من نقيع بارد على فؤاد مَحْرور ، وجد فيها مُتَنَفَّساً لصدره ، ورَوْحاً لقلبه ونَزَعت نفسه إلى مَنْبِت الأهل ، وبلد الآباء والأجداد ، فاستودع أبويه بدموع سخينة ، وشيّعاه بدعواتٍ طيبة كريمة ، وخرج مخترقا الصحراء مُسْرِيا بالليل ، وسائرا بالنهار ، يرفعه نَجْدٌ ويخفضه وهْد ، ولقاءُ خاله نُصب عينيه ، وكلماتُ أبيه ملءُ سمعه وبصره ، وعناية الله ترمقه وترعاه .

وكان كلما أتعبه السير وأضناه بعدُ الشقة ، يتذكر الأمل الذى

(١) الثنية : الطريق .

يرجوه، والخير الذى يرتقبه ، فيسهل الحَزْن، وينقاد السير .

وطلع يوم تحرّقت سَمَائِمُهُ (١) وهبّت سَوَافيـه ، ورمت الشمس الأرض بسهامها المُحْمَاة ، فشق على يعقوب السير ، وبعدتْ أمامه الشُّقة وتلفَّتَ أمامه فاذا بصحراء ممتدةٍ إلى حيث ينتهى البصر ، ورمال ليس بها صُوًى ولا مَعْـلَمَ ، (٢) فأدركه السَّأَم ، وأحس مسّ اللّغَب والنَّصَب ووقف ساعة بين الإحجام والإقدام ، أيواصل السير ويتغلب على الصعب فيظفر بمـا عساه أن يقوىَ عضده ، ويشد أزْره أم يُؤْثِر العافية والدّعة على هـذا السفر الشاق الطويل ، ويقنع من الغنيمة بالإياب ؟

وفيما هو يفـكر ويتدبّر لمح صخرةً تَـكْتَنِف ظلا ، فدلِف إليهـا ليجلسَ ساعة يريح فيها جسمه ، ويبرد قدميه ، وما أسـند ظهره إلى الصخرة حتى أدركته سِنَةٌ فنام ، ورأى فى نومه رؤيا صالحة ، أشرقت لها جوانبُ نفسه ، وغرّدت بلابلُ آماله : رأى أن الله سيؤتيه عيشا رضيّا ، ويمنحهُ ملكا وسيعا ، ويرزقه نسلا طيبامباركا ، يورثهم الأرض ويعلّمهم الـكتاب .

فقام من نومه مشروح الصـدر ، مصقول الذهن ، مُطْلَقَ النفس من عِقَال السأم ، وقد انفسحت أمامه رقعـةُ الأمل ، وشام مخايل الرجاء ؛ إذ رأى تعزيزاً لنبوّةِ أبيه ، وبشـيراً بتحقيق أمانيه ؛ وانطلق يَعْدُو كالسهم ، مستأنفا السير بعزمٍ جديد .

---

(١) السمائم : جمع سموم وهى الريح الحارة (٢) الصوى : ماغلظ وارتفع من الأرض ؛ والمعلم : مايستدل به .

٣

وطُوِيت الأرض ، وقضيت أيام ، وإذا هو مشرف على سَواد رآه ؛ فعقد به حَبْلَ الأمل ، ووصله بما فى نفسه من رجاء أن يكون هذا طليعة البلد ، وموطن الشيخ لابان ؛ وخفَّ إليه مسرعاً ، فوجد أن ظنه لم يخطئ ، ورجاءه لم يَخِبْ .

هاهى ذى أقدامه قد بدأت تبترد ، وقلبه قد ذهب عنه الصَّدأُ والفتور ، وهاهى ذى نفسه قد عاودها الجِمام . وتلك هى قُطْعان الغنم ، وأسرابُ الطير ، وطلائعُ الشجر ؛ بل هاهم أولئك رعاة يغنّون ، وأطفال يهزجون ويمرحون ؛ إذن هو قد فارق الصحراء ؛ وإذن هو فى أرض إبراهيم التى نبتت فيها رسالته ، وطلعت شريعته ، وأرض خاله غايته التى يرجوها ؛ ورجيّته التى قطع المفاوز فى سبيلها ؛ فليسجدْ لله شكراناً لنعمته ، واعترافاً بتوفيقه وهدايته .

٤

تقدم يعقوب الغريب سائلا متلطّفاً : أفيكم من يعرف لابان بن بتويل؟ قالوا : ومَنْ منا لا يعرف لابان صهرَ إسحاق الرسول ؟ إنه عميد بيته ؛ وشهاب قومه ، وصاحبُ هذه القطعان التى تسيل بها هذه البِطَاح . قال : وهل فيكم من يدلنى على داره ، أو يرشدنى إلى مكانه ؟ قالوا : هاهى ذى بنته راحيل مقبلة تَعْدُو وراء الغنم ؛ فتلفت يعقوب فإذا فتاة قسيمة الوجه كاملة الخَلْق ذاتُ رونق مُعْجِب ، وحسن بارع ؛ فاضطرب فؤاده ،

وأحسّ كأن حُبْسَةً[١] تعقل لسانه ؛ ولكنه جمع نفسه ، واسترد عازب حلمه وعقله ، وتقدم إليها قائلا : إن بيني وبينك قرابةً وشيجة ، وآصرة[٢] وثيقة ؛ فإني من هذه الدَّوْحة التي تظلك ، ومن تلك النَّبْعَة التي تفرعتُ منها ؛ أنا يعقوب بن إسحاق الرسول ، وابن رفقة بنت جدّك بتويل ؛ نزحتُ من أرض كنعان ، وقطعت هذه الصحراء التي تَصْهَر الجلد ، وتُدمى القدمين ، مقتحما الصعاب في سبيل أن ألقى لابان لأمرٍ جلل ، فرحّبَت بلُقياه في طرف غضيض ، وحديث كريم ؛ وانطلقت معه إلى المنزل .

وفيما هو في الطريق أحس كأن اضطراباً بفؤاده ، أو كأن طائراً طار من قلبه ؛ أكان ذلك لرؤية هذه الفتاة التي قد تكون أملَه الذي يرجوه ، ونبوءته التي تنبأها له أبوه ، وتأويلَ رؤياه التي رآها في الصحراء ؟ أم كان قد اعتراه ما يعترى الطارق الغريب مقدِماً على أمر عظيم ؟ قد يكون لهذا وقد يكون لذاك ؛ ولكنه على كل حال مَلَك نفسه ، وأمسك بقوته ، ومشى بخطوات مطمئنة ، حتى التقى بخاله لابان ؛ وما إن رآه حتى عانقه طويلا ؛ واغرورقت عيناه بالدموع فرحا ؛ ثم أحله من نفسه وأهله محلا رفيعاً ومنزلة كريمة .

٥

أفضى يعقوب إلى خاله بما أرسله أبوه ، وما يرجوه من الاصهار إليه ، وأنه قد رأى راحيل فخلَّت من قلبه منزلة رجا أن تكون له بعدها زوجة ، والسببَ الكريم الذي يربط بينه وبينه . فقال لابان : نعم ونَعامَ عَيْنٍ[٣] ،

(١) الحبسة : تعذر الكلام عند إرادته (٢) الآصرة : الرحم والقرابة

(٣) نعام عين : أى أفعل ذلك إكراماً لعينك ؛

قد أجبتك إلى سؤالك، وأعنتك على مبتغى آمالك؛ ولكن على أن تقيمَ عندى سبع حِجَج (١)، ترعى الغنم؛ لتكون لك صَدَاقا فيما تريد، وأنت طَوال هذا العهد يكنُفك منى جناح، ويظلك نلبٌ عاطف رءوم.

فقبل يعقوب هذا الشرط، وأخذ يرعى الغنم، والأيام تدهن له بمعسول المنى، وتحيي فى نفسه بوارق الآمال.

٦

كانت (راحيل) صغرى بنتين للابان، وكانت (لَيّا) تكبرها فى السن، وإن كانت تليها فى اعتدال الخلق وحسن التقاسيم؛ ولم يكن فى عزم الشيخ لابان، ولا فى شريعة قومه أن يزوّج الصغرى قبل الكبرى، ولكن نفسه لم تستجب له أن يصدّ يعقوب عن راحيل، بعد أن امتلأت منها نفسه، وتعلّق بها أمله؛ فرأى مخرجا من هذه الحَيْرة، أن يجمع بينهما لهذا الفتى؛ إذ هو لذلك كِفَاء (٢) وأهل، والشريعة القائمة لم تكن تأبى الجمع بين الأختين.

فلما قضى يعقوب الأجل، وحان أن يبنى على عِرسه، ويجمع شمله بأهله، طلب من لابان أن يُنجِز وعده، ويوفى له بشرطه؛ فقال له: يابنى: إن قلب الوالد، وشريعة هذا البلد يأبيان علىّ أن أُنكحك الصغرى قبل الكبرى، فهذه لَيّا إن فَضَلتها راحيل بجمالها فإنها تدانيها فى كمال عقلها وحزمها؛ فخذها بصداقك زوجا كريمة: وإن شئت راحيلَ فامض عندى سبع حِجَج أخرى، ترعى فيها الغنم أيضاً، فيكون لك صداق آخر،

(١) سنين (٢) كفؤ.

أزف إليك به راحيل كريمة عزيزة .

وماكان ليعقوبَ وهو الرسول الكريم أن يردّ لخاله حاجة ، أو يصده عن رغبة ؛ وهو الذى أكرم وفادته ، وغمره بإحسانه ، وآثره بمصاهرته ، فقبل مااشترط ودخل بِلَيّا ، حتى انقضت سبع حجج أخرى تزوج بعدها براحيل .

ووهب لابان لكل من بنتيه أَمَةً تقوم بخدمتها ورعاية أمورها ؛ ولكنهما آثرتا يعقوب بهاتين الأمتين تحبّبا فيه ، وزلفى إليه ، ومن هاتين الأَمَتين ، ومن ليّا وراحيل رُزِق يعقوب اثنى عشر ابناً هم الأسْبَاط (١)

---

(١) الأسباط : هم روبيل ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وايساخر زابليون ـ وهؤلاء من ليا ـ ويوسف وبنيامين من راحيل ، ودان ونفتالى من بلهة جارية راحيل ، وجاد وأشير من زلفة جارية ليا

وقد ولدوا جميعا فى فدان آرام إلا بنيامين فانه ولد فى كنعان .

يوسف *

يوسف بين إخوته وأبيه

تنفس الصباح، ورفَّت الشمس بأجنحتها على الوجود، وهبَّ يوسف من نومه على حُلم عذب جميل، وما جمع أشتاته وضمَّ حواشيه، حتى خفَّ إلى أبيه مُشرِقَ الوجه، ضاحك السن، منبسط الأسارير: قال: ياأبت: إنى رأيت ليلة الأمس رؤيا جميلة، ضاءت لها جوانب نفسى، وانشرح لها صدرى: « رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ».

فتهلّل وجه يعقوب، وأشرق جبينه، ووضح البِشر بين عينيه، وقال: يابنى إنها رؤيا صادقة، تُظاهِر ماتوسَّمتُه فيك من فضل، ومارجوته لك من خير؛ إنها بشرى بما سيخصّك به الله من علم، وما سيَحْبُوك به من نعمة يتمها عليك كما أتمها على أبويك إبراهيمَ وإسحاق من قبل؛ ولكن لا تقصص رؤياك على إخوتك؛ فقد عرفتَ غَيْرتهم مما أخصُّك به وأخاك من رعاية، وأُوثركما به من إعزاز. هم اليوم حديثهم عنكما همس، وذكركُما على ألسنتهم تعريض، ولو أنك حدثتهم برؤياك لا تأمن أن تُشعِل حِقْدهم، وتثيركامن كراهتهم، فيدبّروا لك كَيداً، أو ينصبوا لك حبائل المكروه،

* القرآن الكريم ـ سورة يوسف.

وما أسرع أن يشدّ الشيطان أزْرهم، ويَشْحَذ فى الشر عزائمهم.

* * *

كان يوسف إذ ذاك غلاماً يافعا، وضىء الطلعة، مليح الهيئة، فتّان المشاهدة. ماتت [1] أمه راحيل، وتركته وأخاه بنيامين فى الثانية عشرة من عمره، أشدّ مايكونان حاجة إلى قلبها الرءوم، وصدرها العطوف؛ ولهذا آثرهما يعقوبُ بالحب، وخصهما بفضل وحنان، ثم جاءت هذه الرؤيا مُذْكية لهذا الحب، مضاعِفة لهذا الحنان. ولم يخْف على إخوة يوسف منزلته وأخيه عند يعقوب، وإن تحوّط فى الكتمان، وتظاهر بحب الجميع:

دلائل العشق لاتخفى على أحد كحامل المسك لا يَخلو من العَبَق

فسرى إليهم داء الحسد، ونبتت فى صدورهم آكلة الأكباد، وهاجت الغَيْرة، وثار الحقد، واجتمعوا فى ناد واحد، وتشاوروا فيما يصنعون.

قال قائل منهم: ألا ترون أن يوسف وأخاه أحبُّ إلى أبينا منا؛ وأقربُ إليه من جميعنا؟ لست أدرى ما الذى يحول بيننا وبين قلبه؟ وما الذى يقصر من شأوِنا عنده؟ ألسنا أكبرَ من يوسف وأخيه؟ ألسنا أشدّ منهما قوة وأكثر حُنْكة؟ ألسنا القائمين على مصالحه، الدائبين على خدمته؟ فلماذا يخصهما دوننا بهذا الحب؟ ألِشَرفٍ يَفْضُلَانِنَا به؟ لانرى ذلك الشرف واضحا، أم لأن راحيل أمهما كانت أقرب إلى قلبه من أمهاتنا؟ ولكن ماذنب الأبناء إذا تفَاضَلَت الأمهات؟ إن هذا

(١) قيل لم تكن أمه قد ماتت بعد، لأن ظاهر القرآن يقتضى ذلك لقوله تعالى: ورفع أبويه على العرش، وقيل: بل ماتت: والمقصود من أبويه أبوه وخالته. لأن الخالة بمنزلة الأم.

لحيفٌ ظاهر . وضلال مبين .

وقال الثانى : إن محبة يعقوب ليوسف وأخيه ، قد نبتت فى قلبه كما نبتت فى الراحتين الأصابعُ ؛ ولو أننا ذهبنا فى سؤاله عن أسباب هذا الإيثار ، ونقَاشه مظاهرَ هذا التفضيل ، فقلّ أن نظفر بجدوى ، أو نحظى بنصيب ؛ إذ للحب سُلْطان على النفوس ، لا يُمنع ولا يمنح ، ولا يُسلَم ولا يُسْلَب ؛ هو عاطفة فوق سلطان العقل ، وميل يسترق القلوب . وما دمنا نرى يوسف بيننا فإنه سيظل هو وأخوه بين قلب يعقوب وشَغَافه ؛ وما أرى شفاءً لهذا الداء الذى يقتل صدورنا ، وراحةً من هذه البلابل(١) التى تزعجنا ؛ إلا أن نُريد ليوسف شراً : نقتله ، ونمحو آثاره ، أو نذهب به فى مَفَازة بعيدة ، يأكله حيوان أو تدفنه رمال الصحراء . وحينئذ تقترب مسافةُ الخلف بيننا وبين أبينا أو تزول ، وندنو من قلبه ، ونأخذ ما حُرِمنا من حبه ، ثم بعدها نستغفر الله من ذنبنا ، وما إخالنا بعد ذلك إلا قوماً صالحين .

قال يهوذا ـ وكان من أَسَدِّهم رأياً ، وأرجحهم حلماً ـ : نحن أبناء يعقوب الرسول ، وأحفاد إبراهيم الخليل ، ولنا عقل ودين ؛ والقتلُ لا يقرّه العقل ، ويأباه الدين ، ويوسفُ غلام برىء ، لم يجن إثما ، ولم يرتكب جرما ، ولم يقدّم من سوء ، ولكنكم إذا كنتم مجمعين له إبعاداً ، فهذا الجبُّ الذى ببيت المقدس ملتقى الغادى والرائح ، ألقوه فيه ، يلتقطه بعض السيارة(٢) الذين يضربون فى الأرض فيذهبوا به إلى حيث شاءوا . وحينئذ نكون قد نِلْنا ما نرجوه من إبعاد ليوسف ، وخلصنا من إثم القتل وعاره .

فاستجابوا لهذا الرأى ، وبيّتوا أمرهم على هذا العزم .

(١) شدة الهم والوساوس (٢) السيارة : القافلة .

ولما أصبح الصباح ذهبوا إلى أبيهم ؛ والهوى يزيّن لهم ما يصنعون ، والشيطانُ يَحْفِزهم وهم يمكرون ، وقالوا : يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسف ؟ وهو أخونا وبَضعة[1] منا ، ونحن جميعا أبناؤك ، يظِلنا عطفك ، وينتظمنا حُبّك ، هَلّا ترسلُه معنا غداً إلى ظاهر البلد ، حيث السماء الصافية ، والشمس الضاحية ، والريف الوديع ، والظل الوريف ؛ فبينما نحن نرعى الغنم ، ونتعهّد الأرض ، يلعب هو ويركض ، ويعود آخر النهار أصحّ جسما ، وأصفى نفسا ؛ لئن أرسلته معنا لنرمقنه بعيوننا ، ولنرفنّ عليه بقلوبنا ، ولنفدينَّه بأرواحنا .

قال يعقوب ـ وقد حذِر العاقبة ، وأشفق من وقوع المكروه ـ : إنه لمَّا يبعث همّي ويُثير أحزاني أن أرى يوسف بعيداً عن عيني وقلبي ، بعيداً عن جناح عطفي وظل رعايتي ، وإني لأخشى أن تذهبوا به فيصادفَ الذئب منكم غَفلة ، أو ينتهز فرصة ، فيقتله ويأكله ؛ وحينئذ تخلّفون لي حزناً طويلا ، وقلباً لهيفاً ، وعينا عَبْرى .

قالوا : أيأكله الذئب ونحن عصبة ليس فينا هشيم[2] ولا ضعيف ؟ لئن وقع ما تحذر إنا إذن لخاسرون .

قال يعقوب : أمّا على أن تَحُوطوه بقلوبكم ، وتلحظوه بعيونكم ؛ فدونكم وما تريدون ، والله من ورائكم محيط .

* * *

وأصبح الصباح وصحبهم يوسف ، وأخذوا طريقهم إلى الجُبّ ،

---

(١) البضعة : القطعة من اللحم فى الأصل (٢) الهشيم : الضعيف البدن .

وماوصلوا إليه حتى تكشفت نياتهم، وبرزت سخائمهم[1] صدورهم، وغلظت أكبادهم، وقست قلوبهم، فجردوه من قميصه، وألقوه فى الجب حيث تلعب به الأقدار، ولم يشفع عندهم دمع سخين، ولا توسل وجيع.

وحسبوا أنهم بذلك شفوا غيظ صدورهم، أو أطفئوا وقدة أحقادهم، وأن قلب أبيهم سيخلو لحبهم، ونفسه تخاص لهم، وظنوا أن الأيام ستسليه، وحبه لهم من بعده يلهيه، ولكنهم قدروا والأقدار تضحك، ودبروا وأمر الله غالب.

* * *

ورجعوا إلى أبيهم عشاء يلفقون القول ويزورون[2] الحديث.

واصطنعوا البكاء ظنا أن هذا سينهض بحجتهم، وجاءوا على قميصه بدم كذب؛ حسباناً منهم أنه يقوم برهاناً على صدق دعواهم.

وقالوا: يا أبانا، لقد وقع ما كنت تحذره، وحل ما كنت تخشاه، لقد تركنا يوسف عند متاعنا، وذهبنا نجرى متسابقين، وما ظننا أن الذئب يقصد يوسف، ويترقب به الأذى، ولكنه وجده وحيدا؛ فهجم عليه وأكله، وخلف لنا هذا الحزن الذى يكاد يفتك بصدورنا، وتلك العبرات التى تفيض بها عيوننا، وذلك قميصه مضرج بدمه، وما نظنك تؤمن بصدق قولنا ولو كنا صادقين!

قال يعقوب — وقد فطن إلى ما كادوا، ونفذ ببصيرته إلى مادبروا، وعلم أن لله شأنا فى هذا الغلام هو لا بد بالغه:

(١) السخيمة: الحقد (٢) زور الكلام: أعده وهيأه.

لقد سوّلت لكم أنفسكم نُكْرا ، وأمْلَى عليكم الحسد أمرا ، ولكننى سأصبر صبراً جميلا ، حتى ينكشفَ أمركم ، وتظهَر عاقبة كيدكم ، والله المُسْتَعَان على ما تصِفون .

يوسف فى الجب

يوسف الآن فى الجب يحتويه ظلامُه ، ويشتمله سكونُه ؛ محنة يُمتحَن بها هذا الفتى الكريم ، والله يمتحن المخلصين من عباده بأنواع المصائب ، ويفتِنُهم بضروب الآلام ؛ ليكونوا أقدرَ احتمالا على ما يُلقى عليهم من مهمات الأمور وعظيماتها .

ولم تكن محنةٌ أنكى فى الداء وأبلغ فى الألم ، وأبعث على الجزع من هذه المحنة التى ابتلى بها يوسف . وربما كانت هذه المحنة أخفَّ وقعا ، وأهون شأنا ، لو أنها وقعت على رجل خبرَ أساليب الحياة ، وعجَم عيدان الأمور ، إذن لعرف كيف يحتال لنفسه ، أو يتدبر فى أمره ؛ ولكن يوسف لايزال فتى غريرا لايريش[1] ولا يبرى .

وربما كانت أخفَّ احتمالا لو أن يوسف كان قد احتمل خطيئة ، أو ارتكب إثما ، إذ كان خليقا بهذه المحنة ، جديرا بهذا العذاب ؛ ولكنه كان مبرّءا من العيب ، بعيدا عن التهمة ، قَصِيًّا عن مواطن الريب ، وهو بعدُ فى زكاء الطفولة ، وغرارة الفتوة ، وأمره فى رقة الحاشية ، وخفض الجناح كان معروفا مألوفا .

ولو أن رميةَ يوسف كانت من غير إخوته ، ومحنتَه جاءته من غير آصِرته ، لاحتملها قلبُه ، واتسعت لها جوانبُ صَدْره ، ولم يتشعّب فيها همّه وأسفه ؛ ولكنه سهمُ إخوته ، ورميةُ بنى أبيه !

لو بغير الماء حلقى شرِق كنت كالغصّان بالماء اعتصارى

(١) راش السهم : ألزق عليه الريش .

***

وهو حينما يجول بعينه فى نواحى الجب ويتلفّت أمامه فلا يجد إلا ماء را كدا، يرى فيه خياله الكاسف، وظلّه الحزين، ويتلفت فوقه فلا يلمح إلا ظلاما متكاثفا لا يميز فيه شيئا .

ماذا عسى كانت بَلابِله ؟ وماخطرات نفسه ؟ لعله تذكر أباه؛ فأعادت إليه الذكرى ابتسامتَه التى كانت تطالعه فى الصباح، وحديثه الذى كان يتساقط إلى أذنيه فى المَسَاء، وكلَفه بذاته، وتعلّقه بشخصه . وما حاله الآن بعده؟ وأى حزن يشتمل عليه ؟

بل لعله قد رَاعَه الظلام، وأوحشه ضيق المكان، فَحَنّ لطلعة الشمس وتألّق البدر، واشتباك النجم، وزُرْقة السماء، ورَوْنق الضحا، وبهجة الربيع، وانسجام الظلال .

ثم هو قد جاع، أو أنه سيجوع، فمن أين يسد حاجته ؟ وأنى له بالطعام الذى يحفظ جسمه، ويطيل فى الحياة أنفاسَه ؟ بلابلُ لاتحتملها ساحة قلبه، وهموم لاتتسع لها رقعة نفسه :

إن البلاء يطاق غيرَ مضاعف فإذا تضاعف صار غيرَ مُطاق

***

ولكن رحمة الله قداقتربت منه، فهو قد امتحنه بهذه البلوى، وهو الذى سيربط على قلبه، وسيجمع ما تفرق من نفسه . ها قد أوحى إليه : أنْ تجمّل بالصّبْر، واعتصمْ بالعزاء؛ فإنى جاعل لك من ضِيقِك مخرجا ،

ومن همك فرَجا ، وإنى مُظْهِرُك على إخوتك ولكن بعد حين . عند ذلك ذهبت همومه ، ورجعت إليه نفسه ، وانتظر يرقب أمر الله .

هاهو ذا يسمع من بعيد صدى حركة مبهمة ، وأصوات مختلطة ؛ فأرهف سمعه ، وود لو أن كل جارحة من جوارحه استحالت آذانا .

وهاهى ذى الأصوات أخذت تقترب رويداً رويداً ، وتتّضح شيئاً فشيئا ؛ أصوات أسفرت عن وَقع أقدام ، وخَفْق نعال ، ونُبَاح كلاب . هى قافلة ، وأمل يبتسم ، وزهر الرجاء بدأ يتفتح ، وساعة الخلاص آن أوانها .

ألقت السيارةُ (١) عَصاها بجانب الجب ، وهتف رئيس القافلة بصوت سمعه يوسف ، ووقع على قلبه وقوعَ الماء من ذى الغُلّة الصادى : ألق دلوك ياهذا فى الجب ، وامْتح (٢) لنا ماء ننقع غلّتنا ، ونسد حاجتنا ، ونسق دوابنا ، بعد أن أجهدنا السير ، وأصابنا بُعدُ الشُّقّة ، وأخذ منا الكَلال .

فألقى الرجل دَلْوه ، ورآه يوسف . فتعلق به ، وما راع الرجل إلا غلامٌ متعلق بالحبل ، وجهُه كأنه فَلْقة قمر ! فصاح : يا بُشْرَى هذا غلام ! فاجتمع القوم ، وأخذهم الدهش ، ثم أجمعوا رأيهم على أن يتخذوه غلاما يبيعُونه بمصر !!

ولو أنهم كانوا يحملون بين جوانحهم قلوبا رحيمة ، أو يحتوون

---

(١) السيارة : القافلة . وألقت عصاها : استقرت (٢) متح الماء : نزعه

نفوساً كريمة ، لتعرّفوا حاله وردّوه إلى أهله ؛ ولكنهم بعض الأنام ، ويجرون على طباع البشر.

إنما أنفس الأنيس سباع   يتفارسْن جهرةً واغتيالا

واستأنفت القافلة السير ، حتى ألقت عصاها بمصر .

وهناك عرضوه للبيع فى سوق الرقيق ؛ وهو الحر الأبىّ ، والرسول الكريم ، وباعوه بَيْعَ السّماح بثمن قليل ، دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ؛ خَشية أن يفتضَح أمرُهم ، أو يهتك سرهم ، ولو أنهم باعوه بملء الأرض ذهباً لما كان ذلك عَدْلاً لهذه النفس العظيمة ، وكِفاء لهذا الغلام الكريم.

* * *

اشتراه عزيزُ مصر ووزيرها الأكبر ، فتوسّم فيه معدنا كريما ، وعرقا طيبا ؛ فقال لامرأته : هذا غلام يخيل إلىّ من معارف وجهه وهدوء طبعه أنه نبيل الفِطْرة ، سرىّ الأخلاق ، كريم المنبت ؛ فأكرِمى مَثْواه ومأواه ، وحاشاك أن تَزْجريه زَجْرَ الخدم ، أو تضربيه ضرب العبيد ، فإننى لأرجو إذا اكتمل عوده ونضجت سنه ، أن ينفعنا ، أو نتخذَه ولدا .

وانصرف يوسف إلى العمل ببيت العزيز ، فى جِدٍّ وأمانة ؛ ولقى فيهم أهلا بأهل ، وجيرانا بجيران.

يوسف وامرأة العزيز (١)

لم يكد يوسف يَخْلُص من محنة الجب، ويخلُد إلى حياة هادئة فى منزل العزيز، حتى ابتدأت الأيام تخيط له محنةً أخرى، يقوى بها عزمه، وتقرب إلى الله بها نفسه. والأقدار قد جاءته فى محنته هذه من ناحية حُسْنِه وجماله، ودخلت إليه من طريق فُتُوّته وغضارة شبابه؛ فشقى بهذا الحسن زمنا، وجرّ عليه بلاء طويلا:

وكم رمت قَسماتُ الحسنِ صاحبهَا
وأتعبت قَصباتُ السبْق حاويها
وزهرةُ الروض لولا حسنُ رونقها
لما استطالت عليها كفُّ جانيها

ابتدأ يوسف فى عمله، وهيّأت له الملابسات إظهار مكنون حزمه وعقله، وأمانته ونزاهته؛ فازدادت به ثقةُ العزيز، وأدخله فيما بين نفسه وأهله، وبَوّأه مكان الأشرافِ الأحرار، ووضعه من قلبه موضعَ الأبناء الأبرار.

وتقدمت به الأيام، وأظله ربيعُ العمر، وخلع قميصَ الحداثة، ولبس بُرْدَ الشباب؛ وإذا امرأةُ العزيز يشغلها أمر هـذا الغلام!! فأخذت ترقبه فى غدوّه ورواحه، وتلحظه فى قيامه وقعوده، وفى يقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وحركته وسكونه؛ وبدت لها محاسنُه الخفية وحيويته القوية، وشعرت أنّ حبه ينبت فى قلبها، وينبض فى عروقها

ويجرى مع أنفاسها؛ فوسوست به فى خَلْوتها ، وتمنته ـ وللحسان تمنّ فى لياليها ـ ولكن كيف السبيل إليه ، وهى امرأةُ العزيز ، ومقامها فى القصر مقامها ، ومكانة زوجها فى مصر مكانتها ؟ لخيرٌ لها أن تغلبَ ميلها ، وتسحق قلبها ، وتصرف نوازىَ الهوى عن نفسها ؛ ولكنها كلما رأته مال إليه قلبُها وبُعِث الحب قويا فى صدرها :

وأشد ما لُقِّيتُ من ألم الجَوَى قربُ الحبيب وما إليه وصولُ
كالعِيسِ فى البيداء يقتلها الظَّمَا والماءُ فوقَ ظهورها محمولُ

ولما ضاق صدرها ودنِف[1] جسمها ، رأت أن تجيبَ داعى الهوى وتُجاذبه ثوبَ الغرام ، ولكن على ألاّ تُذِل نفسها ، أو تهبطَ من عرشها ؛ فنصبت له حبائل الفتنة ، وأطلعته من نفسها على ماعساه أن يصبى نفسه ، ويثير داعِيَةَ هواه .

ولكنه أعرض عن تلويحها وتلميحها ، وغضّ بصره عن محاسنها ، ورَوْنَق جمالها . وما كان ليوسف ـ وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ـ أن يميلَ قلبُه إلى محرّم ، أو تجنح به نفسه إلى معصية ، وما كان له أيضا ـ وقد مَهّد له العزيز من كَنَفه ، وبسط له مهاد صدره ، واثتمنه على أهله ـ أن يختانه فى منزله ، أو يسوءه فى امرأته .

ولكن الإعراضَ ضاعفَ هواها ، والمنعَ أثار كامِنَ غرامها ؛ فرأت أن تصل بالتصريح إلى مالم تنله بالتلويح ، وأن تكون أجرأ على ماتطلب ، وأشجع

(١) دنف : مرض وذبل .

فيما تريد ، فما بقى فى قَوْسِ الصبر مَنْزِع ، وما عادت بعد اليوم تطيقُ صدَّه وإعْراضه ؛ وأجمعت الرأى ، وهيّأت نفسها لما تريدُ ، بعد أن ألقت صَوْلَجَان الملك ، ولبست شِعَار المُتَصبِّيَةِ العاشقة ، ودعَتْه لمخدعها ، فلبى سريعاً ؛ استجابةً لأمرها ، وجرياعلى عادته فى طاعتها ، ثم أسْدَلَت السُّجُف وغلّقت الأبواب ، وَقَالَتْ : هَيْتَ [١] لَكَ .

ولكن يوسف ، وإن كان فى ريعان الشباب ، وغضاضةِ الإهاب ، وفراغ البال ، وحسن الحال ، قد ارتضع لِبَانَ الحكمة ، وترعرعَ فى كَنَفِ الرسالة ، وأعده اللهُ لشرف النبوة ، « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » ؛ فقلبُه مشغول بربه ،ليس فيه موضع تستميله المرأة ، أو تستهويه نَزَوات الهوى .

أجابها : معاذ الله أن أجيبك إلى ماتريدين ، أو أذعنَ إلى ماتطلبين ، وحاشاى أن أخونَ مولاى العزيز ؛ وهو الذى أحسن مَثْواى ، وأكرم مأواى ؛ وما أنا منكر النعمة ولا بجاحدِ الجميل .

إن كنتِ قد غلّقتِ الأبواب ، وأسدلتِ الحجب فإن الله يعلم خَائِنَة الأعْيُن وما تخفى الصدور ؛ وحاشاى أن تطاوعنى نفسى لمعصيته ، أو أن يستجيب قلبى إلى غضبه ؛ إنه لايفلح الظالمون .

امرأةُ العزيز فى سَطوتها وعزّتها ، وجمالها وَدلَالها ، تدعو فتًى من فتيانها ، بل واحداً من خدامها ، فيأبى ويمتنع ، ويستكبر ويستعصم ، وهى الآمِرة الناهية فى قصرها ، والسيدة المطاعة فى خدمها وحشمها ! إنها العظيمة

---

(١) هيت لك : تهيأت لك .

لا يحتملها كبرياؤها، وكبيرة لا تسيغها نفسها.

استطار غَضَبُها، وهاج هائجها؛ فهمّت به بطشا، وأرادت به سوءا؛ انتقاماً لعزتها المُضاعَة، فهمّ أن يَلْقَى الشّر بالشر، ويصدّ الضرب بالضرب؛ ولكنه أحسّ بإشراق النبوة فى نفسه، ورأى برهان الله فى قلبه، وأوحِى إليه: أن الفِرَار خيرٌ من القتال، والمسالمةَ خيرٌ من المواثبة؛ فاستجاب لوَحْى ربه، وهمّ إلى الباب جريا، وهمت وراءه عَدْواً؛ حتى أمسكته من قميصه، وجذبته من ثوبه. وما انتهى إلى الباب حتى رأى العزيز واقفا وقميصه ممزقا!!

كان موقفاً يبعث على الرِّيبة، ويثيرُ الاتّهام، رجعت فيه المرأة إلى كيدها ومكرها، والتجأ يوسف إلى صِدْقه وصراحته... قالت: إن يوسف لم يَرْعَ حُرْمتك، ولم يحفظ يدك؛ فإنه حاول أن يدنّس ثوبى، فراودنى عن نفسى، وَمَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ!!

فلم يجد يوسف مَلْجأ إلا الصراحة فى القول، والاعتراف بالواقع؛ إذ كانت جريئةً فى الكذب، جريئة فى البهتان؛ فقال: هى التى راوَدَتْنى عن نفسى، وجذبتنى ثوبى العفيف، وهذا قميصى شاهداً على صدق دعواى.

وفيما هو فى أمره معهما دخل ابنُ عمها، وكان فطِناً لبيباً زكِيناً أريباً، فسمع القضية من أطرافها، وفطن لما وراء قصتها؛ فقال: إن كان قميصُه قُدّ[1] من قُبُل[2] فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قُدّ من

(١) القد: الشق طولا (٢) قبل: أمام.

دُبُرٍ [1] فـكذبت وهو من الصادقين .

فلما رأى قميصه قدّ من دُبر ، جلت الرغوة عن الصّريح ، ووضح الحق لذى عينين ، وظهرت براءة يوسف ، والتفت العزيز إلى امرأته ؛ وقال : إن هذا من كيد النساء ومكرهن ؛ فاستغفرى لذنبك ؛ إنك كنت من الخاطئين . وأنت يايوسف : اربط لسانك عن الخوض فى الحديث ، خشيةَ أن تَشيعَ القالةُ ، وينتشر الحديث بين الناس .

---

(١) دبر : وراء .

يوسف وامرأة العزيز (٢)

وشاع فى المدينة، وعلى ألسنة النسوة، وبين جَنَبات القصور: أن امرأة العزيز قد افتتنت بغلامها العَبْرانى، ووقعت فى غرامه، واستهامت بجماله، وأنها لما امتُحِنَت به من حبه، واصطلت بنار عشقه، قد نزلت عن عرشها، ودَعَتْه لنفسها، وسدَّدَت إليه سهام فِتْنتها وسِحْرِها، ولكنه عَزَف [١] عنها، وزهد فيها، ولم يفتنه حُسْنها ولا دلالها، ولم يستهوه روعتها ولا جمالها، فهى لهذا مسلوبةُ الفؤاد، مضَّرمة الأنفاس، تخفى أمرها؛ فيفضحها الدمع، وتستر وَجْدها فينم عليه السقم...

وأخذت تلك القالَة تشيع وتتشعب، وتتخذ لها ألوانا وأشكالا؛ حتى انتهت إلى امرأة العزيز، وسقط فى سمعها كلّ ماتحدثت به لداتها وأترابها من نسوة المدينة، وما تَزَيدْن فيه، وما نِلنَه منها بحصائد ألسنتهن وقارص تأنيبهن؛ فلم تر بُدًّا من أن تَدْحض هذا القول، وتفلّ ذلك السلاح، وتقابل مكرهن بمكر، وكيدهن بكيد.

فدعتهن فى يوم من أيامها المشرقة إلى طعامها، وهيأت لهن متكآت وثيرة، وأرائكَ مريحة، وخلعت عليهن أرديةَ الحفاوة، وحاطتهن بهالةٍ من النعيم: وقدمت لهن الفاكهة، وآتَتْ كلّ واحدة منهن سكينا، وقالت ليوسف: اخرج عليهن، وامش بين صفوفهن؛ فخرج من مخدعه وقد صَبغ الحياءُ غلالة وجهه، وملأه الحسن من أخْمَصه [٢] إلى مَفْرِقِه؛ فشاهدن فتى لا كالفتيان، وشابا لا كالشبان، أبلَج الغُرّة، وضىء الطلعة،

---

(١) انصرف عنها (٢) الأخمص من باطن القدم: مالم يصب الأرض.

سَمْح المعارف ، حلو الملامح ، ملءُ أردانه قوة وشباب ، وحشو دِرْعه مهابة وجلال ، وشاهدن من وراء هذه القسامة[1] نفسا جميلة كريمة ، فذُهِلن عما كُنّ فيه ، وخُولطن فى عقلهن ؛ فإذا السكاكين ـ حين أكل الفاكهة ـ تقع على أيديهن فتقطعها ؛ فقلن : حاش لله وتبارك خلقه ، «مَا هٰذَا بَشَراً إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» .

فصفّقت امرأةُ العزيز بيديها ؛ وكأنه قد سُرِّى عنها ، وقالت : هـذا يوسف الذى لُمْتُنَنِي فيه وخُضْتُنّ فى حديثى معه ، وهذا شأنكن فيه ، وقد رأيتُنّه عفوا ، وشاهدتُنّه لَمْحاً ؛ فما بالكن تَلْمُنَنى فيه وقد ترعرع فى دارى ، وبلغ أشدّه ، واستوَى بين سَمْعى وبصرى ؛ فأنا أشاهده فى قعوده وقيامه ، ويَقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ؛ وأخلو به فى ليلى ونهارى وأتراءى له فى زينتى ، وأعرض على نظره ماظهر من محاسنى ؛ فيعرض عنى استعصاما ، ولا يرفع إلىّ طرفا ، ولا يُميل نحوى عِطْفاً ،[2] بل تتجلّى فيه الروح الملائكى بأظهر مجاليه ، والعبادة الإلهية بأكمل معانيها .

أمِثل هذا الملك القاهر يسمى عبدا طائعا ؟ ومثل هذه المرأة المقهورة تسمى سيدة مالكة ، تأمر ـ بل تشير ـ فتطاع ؟ ثم ينكر عليها أن تراوِد فَترد ، وتريد إظهار سلطانها فتعجز ؟

لاأخفى عليكن أنى قد راودته عن نفسه ، وجذَبْته من قلبه ، فتأبّى[3] واستعصم ، وانصرف عنى وأعرض ؛ ولاأخفى عليكن أيضا أنى سوف

(١) القسامة : الحسن (٢) أصل العطف : الجانب ، ويقال : ثنى عطفه عنى : أى أعرض (٣) تأبى : امتنع .

لاأطيق على إعراضه صبرا، ولا أستطيع أن أملك لقلبي معه زماما؛ فهو قد ملك أعِنَّة قلبي، واسترق فؤادي، وأطال ليلي، وسلب هواه الكرى من أجفاني؛ ولكنني ـ وقد أذللت نفسي، وافتضح أمام الناس أمري ـ لئن لم يفعل ما آمره لأدفعنّ به إلى غيابات[1] السجن يعاني ظلامه، ويُبْلِي فيه رداء شبابه. أو لأذيقنّه هوان نفسه، وإيذاء جسمه؛ فهما أمران يختارُ أهونَهما عليه.

رأى النسوة ما رأين من جمال يوسف وروعته، ورونقه وتَألّق غُرّته، ثم رأين ما رأين من حُرْقَة امرأة العزيز، وصَبْوتها وتمنّيها في عزّها وجاهها وفي سطوتها وسلطانها، ثم سمعن ما سمعن من تهديدها ووعيدها، فتألّبن معها عليه، وتقرّبن إليه؛ قالت له إحداهنّ: أيها الفتى الكريم؛ ماهذا التأبّي والتمنع؟ ولِمَ هذا الانصراف والازورار؟ أليس لك قلبٌ يلين لهذه التي أسلمت نفسها، ودفعت إليك بقلبها؟ أليس لك عين تنظر إلى مَنْ تُقيِّدُ الطّرْف بحسنها، وتستميل العصيّ بجمالها؟ ألست شاباً مكتَمل الشباب، غضيض الإهاب، لك في المرأة نصيب، ومن مغازلتها مقدار؟

وقالت الأخرى: ودَعْك من جمالها وغرامها، ألست تنظر إلى مَالِها وسلطانها، وعزّها وجاهها؟ ألم تعلم أن كلّ ما في هذا القصر مبذول لك لو أطَعْتَهَا، ميسر لك لو أجبتها؟

وقالت الثالثة: وإن لم يكن لك مأربٌ في جمالها أو مَطْمعٌ في مالها، ألست تخشى ما توعّدَتك به من سِجْن لا تعلم مَدَاه، أو عذاب لا تُدْرِك غايته

(١) غيابة كل شيء: ماستر منه.

أو منتهاه ؟ لخير لك أن تُسْلِس من قيادك ، وأن تخفف من عِنادك ، فتفوز بالحسنيين : الجمالِ والمال ، وتأمن من شرّين : السجن والعذاب .

قلن ذلك ، وحسِبْن أنهن بالغاتٌ بكلامهن قرارةَ نفسه ، أو محركات مكان الهوى من فؤاده ، ولكن يوسف اضطرب بين الوَعْدِ والوعيد ، وبين المنع والإغراء ، حتى خاف أن يشتبه عليه الأمر ، ويوسوس إليه الشيطان ، فتوسّل إلى الله ـ والمؤمن لايزال يفزعُ إلى الله فى كل مايحزُبه من همّ ، أو يصيبه من مكروه ، أو يشتبه عليه من أمر ، فيلتمس منه العَوْن والإرشاد .

وكذلك كان يوسف : فإنه توجه إلى الله وتضرّع إليه أن يصرف عنه السوء ، ويصدّ عنه كَيْد النساء ، وقال : رَبِّ إنَ السجنَ على ظلامه ووَحْشته أروحُ على نفسى ، وأَمْيلُ إلى قلبي من مجاهدة هؤلاء النسوة ومغالبتهنّ : فيه أصبرُ على بلائك ، وأزيد إيمانا بقضائك ، وأعلم ماخفى علىّ من شؤون خلقك ؛ وقد يفتح لى باب الدعوة إلى معرفتك وتوحيدك ، وتُهَيَّأُ لى الفرصة لعبادتك وتمجيدك ؛ وفيه أُعِد نفسى لإقامة الحق ، ونَصْبِ ميزان العدل ، فيما عسى أن تخوّلنى من الأمر ، كما وعدتَ أن تمكّن لى فى الأرض ؛ ووعدُك الحق وقولك الصدق .

أمّا أن أقيمَ بين هؤلاء النسوة ، يَفتِنّنى بالقول ، ويُزخرفن لى باطلَ الحياة ، فإننى لأخشى من هواى أن يميل ، ومن الشيطان أن يوسوس فيتغلب ؛ فأصبو إليهنّ . « رَبِّ السِّجنُ أَحبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إلَيْهِ وإلّا تَصْرِفْ عَنّي كَيْدَهُنّ أَصْبُ (١) إلَيْهِنّ وأَكُن من الجاهلين » .

(١) أصب : أحنّ وأميل .

وكلُّ تلك المحن التى ابتُلى بها يوسف ، والحبائل[1] التى نصبت له ، والأقاويل التى نسجت حوله ، خرج منها عفيفَ النفس ، طاهر الذيل ؛ فقد افتنّت سيدته فى مُراوَدته ، ولكن لم يكن لذلك أدنى أثر فى جَذْب خلَسات نظرِه ، ولا خَفَقَات قلبه ، بل ظل معرِضا عنها ، متجاهلا لها ، حتى إذا ماصارحته بكلمة اقشعرَّ جِلْدُه ، واستعاذ بربه ، وأنِفَ أن يخون سيده ؛ واتهمته بالاعتداء عليها ، فشهد شاهد من أهلها بما أسقط حجتها ، وأوهى كلامها ؛ واجتمع حوله النسوة يفتنّه ، فما نَقَضْنَ له مِرّة[2] ، ولا حوّلْن له قلباً .

ظهرت هذه العلامات دالة على براءته ، شاهدة على نزاهته وأمانته ، وعَلِمَها العزيز واستيقَنَتْها نفسه ، ولكن امرأته ـ وقد عيل صبرُها ، وانقطع من يوسف رجاؤها ـ فزعت إليه ، وكان مِطوَاعةً لها ، وجملا ذلولا فى يدها ، وقالت له : إن يوسف قد فضحنى فى أمرى ، وافترى علىّ الزُّورَ فى شرفى ، وما أرى إلا أن تسجِنَه ، فتأخذ لشرفى ، وتشفى من غيظى .

فانقاد لقولها ، وصدَع بأمرها ، ودفع بيوسف إلى السجن ، بريئاً من ذنبه ، كما كان الذئبُ بريئا من دمه ؛ فاستقبل فيه محنةً جديدة ، تلقاها بقلب الصابرين ، وعزم المؤمنين .

---

(١) الحبائل : جمع حبالة ، وهى المصيدة (٢) المرة : طاقة الحبل وقوة الخلق .

يوسف السجين

دخل يوسف السجن ـ لا كما يدخل مجرم قتل نفساً ، أولص سرق متاعا ـ بل دخولَ مظلوم لم تُنصفهُ كلمة القضاء ؛ فأسلَم نفسه يرجو عدل السماء .

دخله مرتاح الضمير ، رضىّ النفس ، منْقُوع الفؤاد ؛ وما السجن وظلامه والأسْر وأغلاله فى جانب هذه الفتنة التى أثيرت حوله ، والمؤامرة التى دُبّرت للإيقاع به ؟ ألم يكن السجن نجاة له من هذه الفتنة التى قُصِدَ بها ثَلْمُ دينه ، والمؤامرةِ التى دبرت لِوَكْس[1] خلقه ، وإفسادعصمته؟ وما ضَرّ يوسف أن يسجن أو يمنع من الغدوّ والرّواح ؟ أليس هوواجداً فى السجن قوماجفاة ظالمين ، أو عتاة مجرمين ؟ لخيرٌ له أن يقومَ بينهم معلّما رشيداًأو ناصحاً أميناً ؛ فلعله يَخْضدُ[2] من شوكة الظلم فيهم ، أو ينزِع نوازىَ الشرمن صدورهم ، فيكونَ قد طهّر الإنسانية من بعض أدْرَانها ، وخفّف عن كاهلها ماتنوء به من عبء مجرميها .

ألا يجد فيه قوما مظلومين ، وأغفالا مساكين ؟ إنها فرصة طيبة ، وسانحة جميلة ، ليواسيَهم فى آلامهم ، ويشاركهم فى محنتهم ؛ فيكون ذلك أروح لنفسه الرضية ، وأنسب لطبعه الكريم .. والله قد وعده النبوة ، ومنّاه بالرسالة ؛ وأىّ شرف يعلو هذه المنزلة ؟ وأى عز يطاول هذا المقدار ؟ فما يبالى بعد ذلك السجن والعذاب ، والقيد والأغلال .

* * *

(١) الوكس : النقصان والتنقيص (٢) يخضد : يكسر .

وامتدّت أيام سجنه ، ومكث فيه دهراً ، يعود المرضى ، ويواسى الضعفاء ، وينصح الأشقياء ، وينشر عليهم مع كل صبح فَيْضاً من علمه ، وقبَساً من فضله ، حتى أحبه المسجونون ، وكلِفوا به ، واطمأنت نفوسهم إليه.

ودخل فيمن دخل معه السجن فتيان من حاشية الملك : ساقيه ، وخازن طعامه ؛ ذاقَا معه آلام السجن ، واحتملا ذُلَّ الأَسْر والقيد ، حتى أصبحا يوما على رؤيا أهمتهما ، وأزعجت طائر الاطمئنان فى صدرهما ، فأسرعا إلى يوسف يستنبئانه عن رؤيتهما ، أو يستفتيانه فى أمرهما .

قال الساقى : لقد رأيتُ كأنى فى بستان كرم معروش ، زاهٍ مخضر ، وكأن بيدى كأسَ الملك ، أَعْصِر من عناقيده فيها .

وقال الخازن : وأما أنا فقد رأيت كأنى أحمل سِلَالا فيها أصناف الخبز والطعام ، وكأن سِرْباً من الطير يتهادى إليها ويتخطّفها ، ويذهب بها إلى مكان سحيق ؛ فهل لك أن تدبئنا بتأويل ما رأينا بما نعهده فيك من فضل المعرفة والتدبير ؟

* * *

وكان يوسف ، قبل أن يلجأ إليه الفتيان ، قد أكرمه الله برسالته ، وآتاه ما وعده ، وأمره أن يضطلع بما اضطلع به أبوه من قبل : من الدعوة إلى التوحيد ، وإشعال قبس الإيمان .. وعسِىٌ به أن تكون دعوته مؤكدةَ النجاح ، مقرونةً بالفلاح ؛ فهو فى قوم فقراء قد طهّر نفوسهم الفقر ، ومظلومين يستشرفون الإيمان ؛ وهؤلاء وأولئك أقربُ الناس لِفَهْمِ الدعوى ، وأكثرُهم استعداداً لما يلقى عليهم من هُدًى وإرشاد .

وبيناهو يتهيأ للدعوى، ويُعدّ نفسه لإعلان كلمة التوحيد إذ جاءه الفتيان.

ورآها يوسف فُرصةً يمهدُ بها للدعوة؛ فقال: ياقوم؛ إن وراء هذه الأصنام التى تعبدونها، والآلهةِ التى تتقربون إليها إلهاً قد أوْحَى إلىّ أن أدلّكم عليه، وأرشدكم إليه؛ وإن ماتعبدون من دونه من رع أو أبيس، أو تمثال أو صنم، ليست إلا أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان، ولا يحملكم على عبادتها دليل أو برهان؛ وإن التمستم دليلا على صدقى، أو أردتم برهانا على صحة دعواى، فدونكم تأويل رؤيا الفتيين: أما أحدهما فسَيَخْرُج من سجنه، ويعود إلى سابق عهده، ساقياً للملك، قائما بينه وبين ندمائه. وأما الآخر فسيُصْلَب وستأكل الطير من رأسه. عرفت هذا عن وَحْى غيب، لا بكَهَانة [1] أو تنجيم، أو مايشبههما من صناعة أو تعليم؛ ذلك مما علمنى ربى، إنى تركت ملةَ قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون.

ويوسف كان عالما بصدق تأويله، وبوقوع نبوءته؛ فقال للساقى وقد علم نجاته، وتوقع صدورَ العفوِ عنه: ياهذا، إذا مافارقتَ سِجْنك، ورجعت فى قصر الملك إلى مكانك، فاذْكرْ له أن مظلوماً يحويه السجن، ومُتهما بغير جريرة يعانى الأسْر والأغلال.

وصحّ تأويلُ يوسف؛ ونجا رجلٌ وصُلِب آخر، وما ابتدأ الساقى يعود إلى مليكه، حتى اضطرب فيما يضطرب فيه الناس؛ وأنساه الشيطان أن يذكر يوسف لربه، فلبث فى السجن بضع سنين.

(١) كهن: قضى بالغيب.

خروج يوسف من السجن

أصبح الملك على رؤيا أهمّته وأفزعته؛ فدعا إليه علماء دولته وأشراف قومه، وقص عليهم ماراى.

قال: إنى أرى سبع بقرات سمان، يأكلهن سبعٌ عجاف [1] مهازيل، وسبعَ سنبلات خضر وأخرَ يابسات. ثم طلب إليهم تعبير هذه الرؤيا، وتفسير ذلك الحُلْم، فكلهم عجز عن التأويل، وعىّ عن التفسير، وقالوا: خيالات وأوهام، وأضغاث [2] أحلام؛ ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين.

ولكن هذه الرؤيا ذكَّرت ناسياً، ونبهت لاهيا، وأثارت عنده ذكرياتٍ بعيدة، وأياما فى تاريخه ماضية؛ فساقى الملك ماكاد يسمع هذه الرؤيا، ويحسّ رغبة الملك فى التأويل، حتى تذكر يوسف السجين، ذلك الذى أوّلَ له الرؤيا فصدق التأويل، وهو الآن يَمْرَحُ فى أبْراد [3] النعمة، ويتقلّب فى أعطاف النعيم.

قال: أيها الملك؛ إن بالسجن فتى كريما، صائب الفكر مُلهَم الرأى، يكشف ودائع الغيوب بنور عقله، ويصيب شَاكِلة [4] الصواب بثاقب تدبيره، تعرض عليه الرؤيا فيخمِّرُها ويُجيلها، ويجيد الفكرة فيها ويُطِيلها، ثم يخرج بعد ذلك بالرأى الوثيق، والتأويل الصادق؛ ولو أرسلتنى إليه لجئتك بالخبر اليقين.

وانطلق الساقى إلى يوسف فى سجنه ومهبط آلامه، فوجده كما تركه صابراً محتسبا، مؤمنا قانتا؛ وقال له: يوسف أيها الصديق؛ جئتُك فيما

---

(١) العجف: ذهاب السمن، وهو أعجف وهى عجفاء. (٢) أضغاث أحلام: رؤيا لايصح تأويلها لاختلاطها (٣) أبراد: جمع برد، وهو ثوب مخطط (٤) أصل الشاكلة: الخاصرة.

أرجو أن يكون لك فيه فرجٌ من ضِيقك ، وعافيةٌ من محْنتك : أفْتِنا فى سبع بقرات سِمان يأكلهن سبع عجاف - مهازيل - وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات ؛ فلعلّك بعلمك تروى نفوسا للتأويل ظامئة ، وتجيب على أسئلة فى الصدور مختلجة ، ثم أرجو أن يعرفَ بعدها القومُ فضلَك الواسع ، وعلمك الفيّاض .

ويوسف عليه السلام لم يكن عالما يؤوّل الرؤيا فحسب ، بل كان رسولا مصلحا ، أرسله الله هاديا للناس فى دنياهم وآخرتهم ، ومعاشهم ومَعَادهم ؛ فما كان يرى فرصة يتنفس فيها برسالته إلا انتهزها ، ولا نُهْزَةً[1] صالحة للدعوة إلا عَلِق بها : فمن سنين مضت سأله الفتيان عن رُؤْياهما ، فوجدها فُرصَةً لإعلان كلمة التوحيد فأعلنها ، وللتنديد بعبادة الأصنام فهزئ بها ؛ واليوم يسأله الملك عن رؤياه فيعرف التأويل ، فلا يقصر حديثه عليه ، بل يمزج بالتأويل رأيه ، ويُسْدى إلى الشعب نصحه .

قال : إنكم تستقبلون سبع سنوات لينة رُخاء ، تكونون فى أخصب تربة ، وأمْرَع[2] جناب ، تزدهر حقولكم ، وتزكو غلاتكم ، ويصفو لكم العيش ، وتطيب الحياة ؛ ثم تأتى فى أعقابها سبع شِدَاد ، يضالكم فيها الأمل ، وتكشف لكم الأيام عن سَحاب خُلَّب ، ووميض[3] خادع ، ينكص النيل فلا يفى بوعده ، ولا يمدّكم برِفْده ، ويتجهّم وجه الأرض ، فلا تبشكم مكنون خيرها ؛ ثم لا تجدون قائما يُحْصَد ، ولا حصيدا يُخزن ، وتصابون من دهركم بالداهية الجلّى ، والنائبة العظمى .

ثم بعد ذلك تصالحكم الأيام ، ويقبلُ عليكم الزمان ، وتتهلّل وجوه

---

(١) النهزة : الفرصة (٢) أمرع الوادى : أكلأ (٣) ومض البرق . لمع لمعانا خفيفا .

النَّجح ، و تنحلّ عُقَد الأمور ، و يظلكم عام خصيب ، تُغَاثُون فيه من شدتكم ، و تُصْلحون ما فسد من أموركم ، تجود كم الأرض بالحنطة و الشعير ؛ فتأكلون ، و القُرْطُم و الزيتون و السمسم ؛ فتعصرون و تأتدِمُون ؛ ذلك تأويل الرؤيا ، وذلك ما أشرقت به نفسى ، وما تلقيْته بالوحى عن ربى .

و إذا كان ما أخبرتُ واقعا لا محالة ، فما حصدتُم فى سِنيكم الرخاء فاخزنوه فى أهرائكم[1] ودوركم ، مصونا فى سنبله ، حتى يظلّ سليما نقيا ، إلا ما تحتاجون إليه مما يقيم أوَدَكم ، و يحفظ حياتكم ؛ لتتقوا السبع الشداد ، و السنين العِجَاف .

و لما وصل إلى الملك هذا التعبير ، و فطن لذلك النصح و التدبير : أدرك أن وراء هذا عقلا حصيفا ، و فكراً مُلْهَما ، فدعاه إليه ليسْبُرَ غَوْره ، ويدرك به شَأْوه[2] ، ويفيد من رأيه وعلمه .

حضر إليه الرسول و ناداه : يا يوسف إن الملك يدعوك إلى حضرته ، و يطلبك إلى مجلسه ، فقد شَامَ من تعبيرك علما غزيرا ، و لمح من نصحك رأيا حصيفا ؛ و إنه ليوشك أن يرتفع مقدارُك ، و يَطْلع نهارك .

ولكن يوسف كان رسولا كريما ، وعلمه ربه كيف يكون صبورا حليما ، فما استجاب للكلمة الأولى ــ وهو أحوج ما يكون إلى الانطلاق من الأَسْر ، و مفارقة السجن ؛ فقد طال عهده بوحشته وظلامه ، و أحزانه وآلامه ، وقدمرت عليه سنوات مجرّمات[3] ، لم ير الشمس الطالعة ، و لا البدور المتألقة ، ولا النجوم المشتبكة ، ولا الزروع الناضرة ، ولا الحقول المُمْرِعة ؛ بل لعله مضى سجنه لم يذق إلا طعاما يابسا ، و خبزا قَفارا[4] ،

(١) الأهراء : جمع هرى وهو المخزن (٢) الشأو : الغاية

(٣) مجرمات : كاملات (٤) قفارا : غير مأدوم .

وماء كدرا رَنْقاً[١] ؛ ولعل قدميه لم تُحْرَم يوما من قيد غليظ ، ويديه لم تَسْلم من غُلّ ثقيل ، ولعله أيضاً آذته ليالى افترش فيها المدر ، وتوسد الحجر ، ونام على الألم ، وهو مع تلك الآلام التى شاهد ، والمصائب التى لاقى ، لم يكن إلا مظلوما مغلوبا على أمره ، يلقى العذاب ثمناً لما ادّرع به من عصمة وإيمان ، ونزاهة وطهارة سربال .

فما أحبّ أن يخرج من سجنه مَمْنُونا عليه بعفو ، أو مُتَفَضَّلا عليه بشىء ، بل قال للرسول : ارجع إلى الملك وسَلْه أن يتعرف أمر هؤلاء النسوة اللاتى قطّعْن أيديهن ، وأخِذْتُ ظلماً بجريرتهن[٢] ؛ ليظهر أمرى قبل أن أغادر السجن ، وتُعْرَف قضيتى قبل أن يُفْصل فيها بالعفو .

فأهمّ الملك أمر يوسف ، وشغل باله ذكْرُ النسوة ، وتشعبت أمامه وجوه القضية ؛ فما كان يظن الأمر يعدو أن يكون ذلك السجين فتى لا يؤبه له ، وهو اليوم يدعوه إليه ؛ لِمَا ظهر من فضله ، وعرف من علمه وخبره ؛ ولكن هاهى ذى أمور ظهرت لديه كانت خافية ، واتّضحت أشياء كانت غامضة .

فأحضر النسوة بين يديه وسألهن : ماخَطْبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ فما وجد الإنكار سبيلا إلى قلوبهن ، وما استطاع الكذب أن يسبق إلى ألسنتهن ؛ بل صرّحن بمحْض[٣] الحق ؛ فقلن : حَاشَ لله ! ماعلمنا عليه من سوء ، وما خبرنا فيه إلا فتى عفيفاً كريما ؛ نزيها أميناً ، غير مُتّهم فى رأى ، ولا ظنين[٤] فى عفة .

وقالت امرأة العزيز ـ وقد نالت منها الأيام والسنون :

---

(١) رنق الماء : كدر (٢) الجريرة : الذنب والجناية

(٣) المحض : الخالص (٤) الظنين : المتهم .

الآن حَصْحَص [١] الحق، أنا راودْتُه عن نفسه، وجَذبته للغرام من ضَبْعه [٢]؛ فقد كان فتى وسيما، جميلا وضيئا، وقد كان منى قريباً دانيا، وشخصه أمام عينى أبدا ماثلا؛ فعلقه قلبى، ولم أستطع له دفعا؛ فدعوته فتأبى، وطلبته فامتنع، وكان لربه حافظا، ولزوجى وفيا.

وإنى أخبركم الآن أنه أعفُّ مَنْ رأيت نفسا، وأذكى من شهدتُ قلبا، وأنه احتمل ما احتمل من آلام السجن بريئا مظلوما.

أنا قذفت به إلى السجن، وأنا ألقيت به فى هذا العذاب؛ ذلك الذى أعترف به الآن فى وضح النهار، وضوء الشمس، بين سمع الملك وبصره، وبين حاشيته وبطانته؛ ليعلم يوسف ـ وهو الآن فى سجنه ـ أنى لم أصِمْهُ [٣] بعيب، أو أرْمِه بريب، من يوم سجنه إلى هذه الساعة التى يفصل فيها فى أمره. ولقد صرحت لهؤلاء النسوة من قبل بأنى راودْتُه عن نفسه فاستعصم؛ والآن أعترف بأنى دعوته لنفسى فأبى؛ «ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ».

---

(١) حصحص: بان وظهر (٢) ضبعه: عضده كلها (٣) وصمه: عابه.

يوسف عزيز مصر

جاءت شهادةُ امرأة العزيز مبرئةً ليوسف من الذنوبِ، منزهة له عن الأغراض والعيوب، وظَاهَر هذه الشهادة ما رواه الساقى من سيرته فى السجن، وما شهده عليه من صبر يُجَمّله الحلم، وعلم يزيّنه التواضع، وما خَبَره عنه الملك من حُسْن التأويل، وإحكام التدبير، وما لحظه فيه حينما دعاه للخروج من سجنه، فأبى إلا أن يخرج بريئاً.

هاتيك الأخلاق الكريمة، والشّيمُ الحميدة، أثارت عند الملك رغبةً صادقة فى أن يقربه إليه؛ ليكون فى حاشيته، زعيما فى بطانته؛ والملك سوق يُجْلَب إليه مانفق عنده.

ومَثَل بين يديه، وحادثه، فألفاه حصيفاً[1] أريباً؛ وعاقلا رشيدا، طابق فيه الْخـبْرُ الخبرَ، والسمع البصر.

قال: يايوسف إن ماتجمّلت به من هذا الخلق الكريم، وما خلّفته وراءك من ذكر عَطِر، وماض زاهر، وما نطقت به عن حِلْم راجح، وعقل حصيف؛ كل ذلك رفع عندى مقدارَك وأعلى مقامك؛ وإنك منذ اليوم أمين على هذه الدولة تعمل لعائدتها[2]، وتقوم على إصلاحها، مَكِين[3] فيما تصنع، مفوّض فيما تريد.

ولكن يوسف كان يعلم أنّ الأمةَ مقبلة على أيام يُسْر وأيام بلاء، وأن النيل سيمدهم بالماء، وينفحهم بالخير أعواما، ثم يكف عنهم الرِّفد، ويخلف عنهم الوعد أعواما، وأنه لابد لمن يلى أمورَهم، ويدبر شؤونهم،

---

(١) حصف: ستحكم عقله (٢) العائدة: المنفعة

(٣) مكين: متمكن، وله منزله عند السلطان.

أن يكون بيده زِمَام المال ، وعنده مفاتيح الخزائن ؛ إذ المال عَصَب الأمة وقوامها ، ولُبها ومُصاصها ؛ فأراد أن يمتلك الزمام الذى يستطيع أن يقود به الأمة إلى خيرها ، وأن يُمْسك بالدقة التى يستطيع أن يسيّر بها سفينتها ؛ فقال للملك : إن أردتَ أن أكون مسئولا عن هذه الأمة ، محاسَبا عن تدبير شؤونها فاجعلنى أمينا على خزائنها ، ووزيرا لأموالها ؛ وستجد الأمةُ إن شاء الله ما ترجو من صلاح الأعمال ، واطّراد الأحوال ، فى العسر واليسر ، والرخاء والبلاء .

* * *

ومكّن الله ليوسف فى الأرض ؛ فأضحى بين عشية وضحاها وزيرا مطلق اليد ، مسموع الكلمة ، نافذ السلطان ؛ وحَضْرتُه مَطْلع الجود ، ومَهْوى الوفود ؛ وقد كان بالأمس سجينا أسيرا ، ومن قبل غلاما رقيقا يباع ويشرى ، ويسلب ويعطى . وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وُلّىَ يوسفُ الأمر فى مصر سبع سنوات ؛ جاد فيها النيلُ وأغلّت الأرض ؛ فأسْهل عيشهم ، وامتد خيرهم ، وتفيئوا بظلال الراحة والنعيم دهرا ؛ وكان يوسف نِعْم الحاكم اليقظ ، والمولى الفطن الأريب ؛ بَنَى الأهراء ، وأعدّ المخازن ، وملأها بالغلات الوافرة والخيرات الكثيرة ؛ حتى إذا ما أقبلت السّبْعُ الشداد استقبلها القومُ آمنين ، فلمْ تُغيّر لهم حالا ، ولم تنل منهم شيئا ، ولم تَدُق لهم عظما ؛ ولم تأكل منهم لحما .

وامتد القَحْطُ إلى ما جاور مصر من البلدان ، ومَسّ ما حولها من الأقطار حتى وصل إلى كنعان ، حيث يقيم نبى الله يعقوب وأبناؤه الأسباط .

وسَطَع ذكر يوسف فى مصر ، وامتدّ نوره إلى الأصقاع ، وشاع بين

الناس أن بمصر وزيرا حكيما ، يحمل بين جنبيه نفسا كريمة ؛ قد أعدّ عدته للجوع والقَحْط ، والسَّـنة (١) والجدب ، فهو يوزع الحنطة بين الناس بميزان عادل ، ويقضى حوائجهم بقِسْطَاس مستقيم ، لا يفرق بين شعب وشعب ، وقُطْر وقطر .

قال يعقوب لبنيه : يا بَنِىّ ؛ إن الجدب عَمّنا ، والقحطَ يكاد يأتى علينا ؛ فهلمّ شُدُّوا ركائبكم ، وأعملوا فى السير نِيَاقكم ؛ واقصدوا هذا العزيز الذى حملت إلينا الركْبان أخبارَه ، وتناقل الناس أحاديثه ، وطبّق اسمُه السهلَ والجبل ، والبدو والحضر ؛ ولكن اتركوا عندى أخاكم بنيامين ؛ أتعزّى ببقائه عن فراقكم ، وأسكنُ إليه حتى يعودَ جَمْعُكم ، ويلتئم شملكم ، والله كَالِئكُم وراعيكم ، وهاديكم ومبصركم .

* * *

واستأذن الحاجبُ على يوسف ، فقال : إن بالباب عشرة رجال تتشابه معارفهم ، ويلتمع نور الصلاح فى وجوههم ؛ وكأنهم غُرَباء عن هذه الديار ، أو ضيوفٌ على هذه الأقطار ؛ عرفت هذا من لُغَاهم (٢) ولهجتهم ، وحَيْرتهم وترددهم ، وإنهم اليوم ببابك يستأذنون فى الدخول عليك ، والمثول بين يديك .

وأَذِن لهم يوسف ، ودخلوا عليه ؛ فإذا هم إخوتُه وبنو أبيه : لم تغيّر ملامحهم السنون ، ولم تُخْفِ معالمهم الأيام : هم إخوتُه الذين تآمروا على قتله ، وتظاهروا على إيذائه ؛ وهم الذين فرقوا بينه وبين أبيه ،

(١) السنة : الجدب (٢) لغاهم : لغتهم.

وأذاقوه بعده جفناً مؤرّقاً، وكَبِداً مجروحاً ، وهاهم أولاء يلقاهم اليوم في حَضْرته من غير سابق تدبير ، بل إحكام من اللطيف الخبير .

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كلّ الظن أنْ لَا تَلاقِيا

عرفهم وماعرفوه ، وتبيّنهم وأنكروه ، وأين يوسف الذى خلّفوه فى الجب ولايدرون أغتالته شَعُوب [1] ، أو أكله سَبُع ، أو بِيعَ فى سوق الرقيق ؛ من هذا المليك المتوّج النافذ السلطان ، ذى الحشم والأعوان ؟

ولكن يوسف كان حازماً حكيماً ، وزَكِنا [2] أريبا ، رزين الحصاة ، بعيد الأناة ، فلم يبادئهم بالإعلان عن نفسه ، والإفصاح عن أمره ؛ بل حاول أن يصل إلى مافى نفوسهم ، ويعرف مَكامن أسرارهم ، وما خفى عليه من أخبارهم ، واحتجب من أحوالهم بأسلوب الحكيم ، ومنطق الحاذق الحصيف .

آواهم وأكرم وفادتهم ، وأحسن ضيافتهم ، ثم دعاهم يوماً إلى حضرته وقال لهم : لقد أكرمتكم ، ومن حقى أن أسألكم ، وأتعرّف أحوالكم ، فمن أنتم ؟ وما شأنكم ؟ إنى لأنكر عددكم ، وقد بدأت أشك فى أمركم ، وأخشى أن تكونوا عيونا علينا من مليككم ! فهل لواحد منكم أن يفضى إلىّ بحقيقة حالكم ؛ فلعله يمزق قِناع الشك ، ويبدد سحائب الريب ؟

قالوا : أيها العزيز ؛ نحن اثنا عشر أخا ، سلالة نبى كريم ، ورسول عظيم ؛ عشرة منهم هم رسله الآن بين يديك ، وآمالهم منتهية إليك ؛ وأما الحادى عشر فقد خلفناه عند أبيه يقوم على أمره ، ويسهر على رعايته ؛ وأما الثانى عشر

(١) الشعوب : المنية (٢) زكنه : علمه وفهمه وتفرسه .

فقد فقدناه ، ولاندرى أختاره الله لجواره ، أم هو يضرب فى الأرض الواسعة سهلها وحَزْنها [١] ، وغَوْرها ونجدها ؟ ذلك هو أمرنا ظاهره وباطنه ، جملته وتفصيله .

قال يوسف : قد يكون حقا ماتقولون ، ولكن لا وَزْنَ لقول لم يُعزَّزْ ببينة ، أو يُدْعَمَ بشاهد ؛ فأقيموا عندى البينة أو ائتوا بالشاهد ، حتى أطمئنَّ لحقيقة حالكم ، وأسكُنَ لصحة أقوالكم .

قالوا : أيها العزيز ؛ إنا فى غُرْبة عن بلادنا ، وعُزْلة عن أصدقائنا وأهلينا ، وإنك تكلفنا محالا أن نأتى لك هنا بمن يعرفنا ، أو يشهد بصحة أقوالنا ؛ ولكن التمس لنا غير هذا المَخْرج ، وشيئا عن هذه السبيل .

قال : إنى سأجهزكم بجهازكم ، وأوقر بالمِيرة [٢] ركائبكم ، على أن تعودوا ومعكم أخوكم الذى خلّفتموه عند أبيكم ؛ ليكون شهيدا عليكم ، مصدقا لأقوالكم ؛ وسأضاعف إكرامكم ، وأزيدكم حِملَ بعير فى غلاتكم ؛ هذا هو شَرْطى ، وذلك هو عهدى ، فإن لم تأتونى به فلا كيلَ لكم عندى ولا تَقْرَبون .

قالوا : أيها العزيز ؛ مانظنُّ أن أبانا يأذن بسفره ، أو يصبرُ على فراقه ، ولكننا سنراوده عنه ، ونتلطف إليه ، وإنا لفاعلون .

وأمر غِلْمانه أن يوفوا لهم الكيل ، وأن يَدُسّوا لهم فى رحالهم البضاعة التى حملوها ، والفضة التى جاءوا يبتاعون بها ؛ ليكونَ ذلك أدْعى لرجوعهم وأمكن لعودتهم .

وظَعنوا عن مصر وساروا إلى بلادهم ، يحملون عن هذا العزيز أطيب

(١) الحزن : ماغلظ من الأرض (٢) الميرة : الطعام .

الذكريات وأزكاها، وأعذبها وأحلاها، وتلقاهم يعقوب، وأخذ يستوضحهم أخبارهم ويستقصى أنباءهم.

قالوا: ياأبانا إنا لَقِينا رجلا عظيما، ووزيراً كريما؛ عَرَف فَضْلنا، وأكرم وفادتنا، ووفى لنا الكيل، وأنزلنا خيرَ منزل، ولكنه أخذ علينا عهدا وشرطا: ألا يكيلَ لنا من بعدُ حتى نأتيَه بأخينا، يخبرُه بحقيقة حالنا؛ إذ أنه شك فى أمرنا، وداخله الريبُ فى رحْلتنا؛ وغدًا ستفرغُ المِيرة ونحتاج إلى غيرها؛ فأرْسِله معنا ليكون معينا لنا على الكيل، مساعدا لنا على الرِّفْد[١]

قال يعقوب: لن آذن لكم بسَفَره، ولن أستريحَ لفراقه؛ فهل ترونى آمنكم عليه إلا كما أمِنتكم على أخيه من قبل؟ فاصرفوا عنى كَيْدكم، واكفونى شركم.

وفتحوا متاعَهم، وفتّشوا رِحالهم: فإذا بضاعتُهم قد رُدّت إليهم، وفضتهم قد عادت معهم! فخفوا إلى أبيهم مسرعين، وتحدثوا إليه مسرورين، وقالوا: ياأبانا ما كذبناك حين زعمنا أننا لقينا عزيزا، وافر الفضل، جَمّ المروءة؛ وما خدعناك حينما طلبنا إليك أن تأذنَ لنا بأخينا، فهذه بِضاعتُنا قد رُدّت إلينا، شاهدةً على كرم العزيز ومروءته؛ فأرْسِلْ معنا أخانا، وسنفديه بأرواحنا، ونرف عليه بأجنحتنا.

* * *

ورأى يعقوب أن حاجتهم إلى المِيرةِ ماسة، ورغبتهم فى الرحلة أكيدة، وأنهم قد أخذوا على أنفسهم عهدا فلن يُخْفروه[٢]، وأن العزيز

(١) الرفد: العطاء (٢) خفره وبه: نقض عهده وغدره، كأخفره.

قد شرط لعودتهم أن يحضروا له أخاهم فلن يخلفوه ؛ فأذن لهم ببنيامين على أن يأخذ عليهم عهداً أكيداً ، وشرطا وثيقا : أن يأتوه به سليما معافى إلا أن يحاط بهم قدرٌ لم يك فى الحسبان ، أو يَفجأهم مكروه من الحدثان ؛ وأخذوا على أنفسهم الميثاق ، ووكّدوا الأيمان ، وقالوا : والله على مانقول وكيل .

وساروا يخفضهم وَهْد ويرفعهم نَجْد ، حتى ألقوا عصاهم بساحة يوسف ؛ ورأى يوسف أخاه ؛ فحنَا عليه ورقّ له ، ولكنه أخفى عواطفه ، وستر مافى نفسه ، ودعاهم إلى طعامه ، وأجلسهم مثنى مثنى ؛ فبقى بنيامين وحيداً ، فبكى ، وقال : لو كان أخى يوسف حياً لجلس معى ؛ فأجلسه معه على مائدته ، ثم قال : لينزل كل اثنين منكم بيتا ، وهذا لا ثانى له فيكون معى.

فبات عنده ، وقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخا مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ؛ فبكى يوسف ، وقام إليه وعانقه ، وقال : إنى أنا أخوك الذى تنشده ، وتهتف باسمه ، وتتلهف لرؤيته ؛ قد تقلبت بى صُدوف ، ورمتنى صُروف ، ولقيت من كيد إخوتك ألوانا ، وتحملت من غَدرهم أحزانا وأسقاما ، وابتُليتُ بعدهم بمحنة ، وأصبت بفتنة ، ولكننى صبرتُ وجاهدتُ ، حتى بدّلنى الله كما ترى : نعيما ببؤس ، وغِنى بفقر ، وعِزًّا بِذُل ، وكُثرًا بقُل . فاكتُم عن إخوتك هذا الخبر ، واحجُبْ عنهم هذا السر .

وقرّت نفس بنيامين ، وسكنت أحزانه ، وانسلى همه ، وارتدّ إليه عازب حلمه ، وغَدا يتقلب فى نعيم أخيه وعزّه ويَنْعَمُ بكرمه وعطفه .

* * *

وانقضت أيام الضيافة ، وأجمع الرَّكْب الرحيل ، فأراد يوسف أن يعمل لهم مكرا ، ويحدث بهم أمرا ؛ فأمر غِلمانه أن يجهزوهم بجهازهم ، وأن يدسُّوا السقاية [١] فى رَحْل بنيامين !

وبينماهم خارجون مودعون إذا بمناد جهير الصوت يناديهم : أيها الركب المُزْمِع سفرا ، المُجمِع رحيلا ؛ أنيخوا ركائبكم ، وأنزلوا متاعكم ؛ فما أنتم إلا سارقون !

فدهشوا وذُهِلوا ، وأقبلوا على المنادى : ماهذا الهُجْر الذى تنطق به ، والفِرْية [٢] التى ترمينا بها ؟ وما خَطْبك ؟ وما الذى فُقِدَ منك ؟ قال : قد فقدنا صُواع الملك ، وإنا لنشك فيكم أن تكونوا قدسرقتموه وأخفيتموه ؛ فارجعوا عما عزمتم عليه ، ولا بأس عليكم ولا حرج فى أمركم ، ومن جاء به منكم فله حِمْل بعير نافلة ، وأنا زعيم لكم بهذا الشرط ، كفيل بهذ الحِمْل .

قال إخوة يوسف : تالله لقد علمتم ماجئنا لِنُفْسِدَ فى الأرض ، وما كنا سارقين !

قال المنادى : إننا لا نتجنى عليكم ، ولا ننصب الشِّراك لكم ، ولكن ماحكمكم لو وجدنا الصُّواع عندكم ، مستقراً فى رحالكم ؟ قالوا : إنّ لنا شرعا ودينا ، وذمة وعَهْدا ، فمن وجدتموه فى رَحْله نخذوه أسيراً عندكم ، عبدا لكم ؛ ذلك هو شرعنا ، وهذا هو عهدُنا ، وإنا على يقين من براءة ذمتنا وطهارة أعراقنا .

وطابت نفسُ يوسف لهذا العهد ، واستروح لهذا الرأى ؛ إذ ما كان شرعُ الملك فى مصر يُجيز له أن يحجزَ السارق ، أو يتحكّم فيه ؛ ولكن الله

---

(١) السقاية أو الصواع : مشربة جعلت للكيل (٢) الفرية : الكذب .

مكّن له فيما أراد عن طَوَاعية (١) من إخوته واختيار .

فبدأ يفتش أوعيتهم وعاءً وعاءً ، حتى انتهى إلى وعاء بنيامين : فوجد السِّقاية مستقرة بين طياته ؛ فاستخرجها منه ، وأشْهَرها في وجوههم ، فبهتوا ووجِموا ، وذُهِلوا ودهشوا ، وأطرقوا حياء وخجلا .

قال لهم يوسف : عليكم بالشرط ، والشرط أمْلَك ، فدَعوا هذا الذى وجَدْنا عنده الصُّواع ، نتحكم فيه ، ونأخذ حقنا منه .

قالوا : أيها العزيز ؛ إن له أبا شيخا كبيراً ، قد ناهز العمرين ، وإنه ليتعلقُ بشخصه ، وقد أخذ علينا عهدا أن نحافظ عليه ونردَّهُ إليه . وهانحن أولاء عشرة بين يديك ؛ « فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . قَالَ : مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ » .

ولما استحكم فيهم اليأسُ من قبول العزيز لشفاعتهم ، ونفضوا الأكف من رواج اقتراحهم ؛ خلصوا إلى أنفسهم يتناجَوْن ويتشاورون : قال يهوذا : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عَهْداً ، واستحلفكم أيمانا أن تأتوه بأخيكم ، وأن تبروا له بأيمانكم ؟ فما نقول له اليوم وهانحن أولاء قد فقدنا الأخ ، وحنثنا فى اليمين ؟

إن جُرح يوسف فى كبد أبيكم لم يَنْدَمل (٢) ، وإن دموعه من عينيه لم تنقطع ، ونحن قد جنينا فى الأولى ، وهانحن أولاء نجنى فى الثانية، «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ؛ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا : يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ، وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ؛ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ (٣)

(١) الطواعية : الطاعة (٢) لم يندمل : لم يبرأ

(٣) العير : القافلة أو الإبل تحمل الميرة .

الَّتى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » .

وذهب التسعة ، وخلفوا كبيرهم يهوذا ، و تفقّد يعقوبُ بنيامين فلم يجده فيهم ، فكأن طائراً طار من قلبه ، أو كأن قطعة تفَصَّت[1] عن كبده ، ثم قال لهم بصوت حزين : ماصنعتم بأخيكم؟ وما فعلتم بأيمانكم ؟ فقصّوا عليه قصصهم ، و حدّثوه بدخيلة أمرهم ؛ فتولى عنهم ، وقال: « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

لقد فقدتُ يوسف من قبل ، واليوم أفقد بنيامين ، و أفقد يهوذا ، « عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » .

---

(١) تفصت : انفصلت .

اللقـــاء

وتساورتْ يعقوبَ الهموم، وتشعّبته الأحزان، وأقضّت مَضْجعه الكروب، ولم يعُدْ يجد متنفسا لهمِّه، أو سلوة من ألمه، إلا ساعتين: ساعة يفزع فيها إلى ربه يصلي ويسجد، ويتحنّثُ[1] ويتهجّد، مستلهما منه الصبر، مستنجداً بالإيمان واليقين؛ وساعة يخلص فيها إلى نفسه، ويقضي حق الذكرى لولديه، ثم يستنجد بالدمع، ويستَرْوح[2] بالبكاء؛ فتسحّ جفونه، وتفيض شئونه[3]. فمن الصلاة والذكر كان يستلهم صبراً وإيمانا، ومن سخين الدمع كان يلقى راحة واطمئنانا:

لم يُخلق الدمعُ لامرئ عبثاً اللهُ أدرى بِلَوْعَة الحزن

ومازال به واكفُ الدمع حتى ابيضّت عيناه، وضوى جسمه، وتضمّر وجهه، وعاد كالخلال شفوفا وضموراً؛ حتى كان يوم أطلّ عليه أحد أبنائه وهو في مخدعه، فوجده قد انفتل[4] من صلاته، وانتهى من دعواته، ثم أخذ يولول ويتوجع، ويبكي ولديه ويدمع، ويقول: يا أسفا على يوسف! بصوت وجيع، وهمّ جميع!! فهاله ما رأى، ودعا إخوته ليروا معه كيف يتلوّى يعقوب في شقائه، وكيف يتألّم لبلائه.

وقال واحد منهم: أي أبانا؛ أنت رسول عظيم، ونبي كريم؛ عليك يَهبُطُ الوحي، ومنك نتلقى الهدى والإيمان، فما هذا الذي تبخَعُ[5]

---

(١) تحنث: تعبد الليالي ذوات العدد (٢) استروح: وجد الراحة
(٣) الشئون: مجاري الدموع (٤) انفتل: انصرف (٥) تبخع: تهلك.

به نفسك ، وتحشد له بنات همك ؟ ألم تكفِ هذه الدموع التي ذَرَفتها ، حتى هَجَمَت[١] مُقْلتاك ، وابيضت عيناك ؟ ألم تكف هذه الزفرات التي أصعدتها حتى فنى جسمُك ، ودَنفت[٢] نفسك ؟ « تالله تَفتأ تذكُر يوسف حتى تكونَ حَرَضا[٣] ، أو تكونَ من الهالكين » !

قال يعقوب : إن عَذْلكم يبعث شقائى ، ويثير كامِنَ دائى ، وما دُون رؤية يوسف أن تسكنَ لَوْعتى ، وتَرْقأ دمعتى ؛ ويوسف وإن كان قد أكله الذئب فى زَعْمكم ، واخْتَرمَتْه شَعُوب[٤] فى رأيكم ؛ حى يتنفس الهواء ، يِتظله الخضراء ، عَلِمْتُه إحساساً كميناً فى نفسى ، وشعوراً ينبعث فى قلبى ، وفيضا من الله على علمى ، ولكننى لا أدرى أى وادٍ سَلَك ، ولا أى مذهب ذهب ؛ ذلك الذى يثير حزنى ، ويبعث أشجانى ، وما أحراكُم ـ لو أردتم أن تنضوا عنى شعارالهم ، وتزيحوا عن عينى غَواشِىَ الأسى ـ أن تضربوا فى الأرض متحسسين عن يوسف وأخيه ، معتصمين بالدأب والصبر ، غير يائسين من رَوْح[٥] الله ورحمته ، « إنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إلَّا القَوْمُ الْكافِرُونَ » .

وإخوة يوسف يظاهرون أقوال أبيهم فى أعماق نفوسهم ، ويوافقونه فيما بينهم وبين سرائرهم ؛ فهم ألقوه فى الجب ، وهم خلفوه فى الفَلاة ، وما يمنع أن يكون قد خرج من جُبّه ، ونجا من فلاته ؟ ولكن أين هو ؟ وأى مكان يشتمله ، وأى واد يضمه ؟ أرض الله وسيعة فأين يبحثون ؟

(١) هجمت : غارت (٢) دنف الرجل : ثقل من المرض ودنا من الموت
(٣) حرضا : مريضاً مشفياً على الهلاك (٤) شعوب : المنية
(٥) الروح : الرحمة .

وبلاده عريضة فأين يتحسسون ؟ إنهم من يوسف على شَفَا اليأس ، وخيبة الرجاء ، ولكن هذا بنيامين يعرفون مكانه ، ويعلمون مَرَاحه ومَغْداه ؛ فليذهبوا إلى العزيز ، وليْتلطفوا عنده ويتوسلوا إليه ، فلعلهم يرجعون به إلى أبيهم ، فتخف بعض اللوعة : ويجد فى لقائه بعض العزاء .

* * *

وهبطوا مصر مرة ثالثة ، وآمالُهم بين الخيبة والرجاء ، ووقفوا بين يدى العزيز ، ترهقهم ذلة ، ويحيطهم انكسار : ذلة العزيز ، وانكسار الكريم.

قالوا : يا أيها العزيز ، ها قد رجعتنا الأيام إليك ، وأرادتنا أن نقف موقف الضّراعة والاستكانة بين يديك ! وللأيام تقلباتٌ ، وللدهر نكَبات ! وقد جئناك ببضاعة مُزْجاة[1] ؛ إذ الحال رقيق ، والعيشُ نكد ، والدهر غير مُوات ؛ فإن شئت تصدقت بما يقيم الأوَد ، ويصلح مُعْوَج العود . وإن أحسنت إلينا بعد ذلك بتسريح أخينا ؛ فإنك بذلك تكون قد أرْقأت[2] له دمعاً ، وخففت عن أبيه لواعجَ وأشجانا !

وإذ كان الله قد بلغ بقصة يوسف ويعقوب أسمى ما يطمح إليه المثل الأعلى فى الإيمان بالقضاء ، والصبر على اللأواء : فقد آذن يوسف أن يعلن لإخوته عن نفسه ، ويكشف لهم عن حاله ، وأن يصفح بكرمه عن زَلّتهم ، ويسمو عن إساءتهم : ليضم إلى الرواية فصلا فى الصفح والكرم ، والعفو والغفران .

قال : ألا تذكرون يوما فى مَيْعة الحداثة[3] وغرارة الصبا ، زيّن لكم الهوى ، ووسوس الشيطان أن تكيدوا ليوسف وأخيه ، فتلقَوا

(١) بضاعة مزجاة : قليلة ، أو لم يتم صلاحها (٢) رقأ الدمع : جف

(٣) ميعة الحداثة : أولها .

بيوسف فى الجب، وتصنعوا مع أخيه صنوفَ الكيد والإيذاء؟ ثم ألا تذكرون يوم أخذ واحدكم بيده القويةِ يوسف، وجذبه وهو ضعيف من ثيابه، وأنه قد توسّل واستشفع، وبكى وتوجّع، فلم تقبلوا منه شفاعة، ولم تأخذكم فيه رحمة؛ بل ألقيتموه فى الجب وحيداً ضعيفا تعمل فيه الأقدار؟

فتخالجهم الشكُّ فى أمره، وداخلهم الريبُ فى حقيقة حاله؛ إنه ليذكر أشياء وقعت؛ مَن أعلمه بها؟ ويحدّث عن تاريخ؛ مَنْ قصّه عليه؟ أيكون بنيامين؟ ولكن بنيامين وكلّ الناس فى أمر يوسف سواء؛ إنه لا يعرف شيئا عن حقيقة أمره، ولا حادث إلقائه فى الجب! ورجعوا بعد الحدس والتخمين إلى يوسف يتوسمون علاماته، ويتعرفون شِيَاتِه، ويتذكرون ما كانوا يعرفونه من ملامحه وشاراته. وما غابوا فى هذا طويلا حتى صاح واحد منهم يقول: « إنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُف »؟!

وما كان أسرع أن أجاب يوسف وأشار إلى بنيامين: نعم؛ أنا يوسف وهذا أخى، قَدْ مَنّ اللهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ!

فامتقعَتْ ألوانُهم، واضطربت مشاعرهم، وتلجلج الحديث بين أشداقهم، وتمنوا لو اتّسع نَفَقٌ فى الأرض فابتلعهم، أو هبط عليهم كوكب فصعَقهم... ويوسف كان أكرمَ نفسا من أن يطيل خوفهم، وأوسعَ صدراً من أن يكافئهم بزلّتهم، فهم ما برحوا إخوته وبنى أبيه؛ وإن تَظاهروا (١) على قتله، والفتك به، وإن توافروا على الكيد له ولأخيه.

(١) تظاهروا: تعاونوا.

قال لهم: «لَا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

ونعود إلى يعقوب، وقد امتُحِن حِقْبة من الدهر فتحمل، وابتلى بما تعجز عن حمله الجبال فتجمّل[2]؛ وإن الله لهذا قد كتبه فى صحيفة الأنبياء من أولى العزم الأخيار، الطاهرين المحتسبين الأبرار، وأعدّ له الجنة جزاءً وفاقاً، ومكرمة وثوابا؛ وأراد أن يكافئه فى الدنيا؛ إطماعا لمن يصبر من خَلْقه، وعزاءً لمن يبتلى من عباده.

ذهب إلى مُصَلّاه يوما، فصلّى وذكر الله، ثم بكى ما شاء الله أن يبكى. وفجأة هدأت ضلوعه، وجفّت دموعه، ودخل رَوْح على قلبه! ما هذا الشعور الغريب، والإحساس الوافد؟ إنه الآن لَيشعر بانشراح فى أعماق نفسه، وابتهاج فى قرارة وجدانه، ونشوةٍ نبتت فى حنايا ضلوعه. إن هذا الشعور الذى يغمره، والفيض الذى يشتمله، لَيُشبه ماكان فى صدر أيامه الماضية، وعهوده الذاهبة، حينما كان يخطِر يوسف بين يديه، ويرى ابتسامةَ الحياة بين شفتيه!

أحسّ هذا يعقوب؛ فصاح بملء قلبه وجوارحه: «إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ[3] يُوسُفَ»! انعكس هذا الريح هزة فى أعطافى، وتغريدا فى خواطرى، ورَوْحا وريحانا فى قلبى.

وما كان يعقوب خاطئا فى وهمه، ولا بعيداً فى استرواحه؛ فقد فَصَلَت[4] العير عن مصر تحمل القميص؛ قميص يوسف الذى يحمل البشرى، ويرد على يعقوب نعمة البصر والحياة.

(١) لاتثريب: لا لوم (٢) تجمل: صبر (٣) الريح: الرائحة
(٤) فصلت: رحلت.

وقطعت العيرُ طريقها ، وجاء البشير ، فألقى القميصَ على يعقوب ؛ فإذا بصُره قد عاد ، ورُشْده قد ثاب ؛ وقصّوا عليه قصتهم ، وحدّثوه بما كان من أمرهم ، ثم طلبوا إليه المغفرة والرضوان .

قال يعقوب : لست أملكُ من أمركم شيئا ، أو أستطيعُ لكم من عذاب الله دَفْعا ؛ ولكننى أستغفرُ لكم ربى ، وهو الغفور الرحيم . زُموا (١) إبلكم ، وأجمعوا إرادتكم ، وهيّا بنا إلى ساحة العزيز .

ورأى يوسف أبويه فى ساحته ، وحولهما أحدَ عشرَ من إخوته ، والجميع يسجدون له معظمين ، ويقفون بين يديه خاشعين ؛ فرفع يديه إلى السماء ، شاكرا أنعمه ، ذاكرا فضله ، وهو يقول :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ » .

---

(١) زم البعير : خطمه ، أى أعدوها للسفر .

شُعَيْب *

كان أهل مدين عربا ، يسكنون أرض معان من أطراف الشام ، وكانوا يكفرون بالله ، ويشركون به ، وعبدوا الأيكة [1] من دونه ، وصاروا يبخسون الناس أشياءهم ، وكانوا إذا اكتالوا [2] على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم [3] أو وزنوهم يخسرون .

بعث الله فيهم شعيبا رسولا ، وآزره بالمعجزات ، وأيّده بالبينات ؛ فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وأمرهم بالعَدْل ، وحذّرهم عاقبة الظلم ؛ وذكَّرهم نعمة الله عليهم ؛ إذ كَثَّرهم بعد قلة ، وأغناهم بعد فقر ؛ ثم خوّفهم نقْمة الله وعذابه إن لم يتبعوا ما أرشدهم إليه ، ودلّهم عليه ؛ فاستهزءوا بقوله ، وسخروا منه ، وتهكموا به ، وقالوا : ياشعيب ؛ أصلاتك تأمرك أن نعبد غير ما كان يعبد آباؤنا الأقدمون ، وأسلافنا الأوّلون ! وتنهاك أن نعامل الناس كما نحب ونشتهى ، فندع ما دَرَجْنا عليه ونشأنا فيه ، وكثُرت أموالنا من طريقه !

كيف تنهانا عن دين ألِفْناه ، وشَرْع ورثناه ، وأنت الراجح عقلا ، السديد رأيا ، الواسع حلما ؟

---

* القرآن الكريم - سورة الأعراف : آية ٨٥ وما بعدها .

(١) الأيكة : غيضة تنبت ناعم الشجر (٢) اكتالوا : إذا كان لهم حق بالكيل أو الوزن (٣) كالوهم : إذا كان للناس حق عندهم فى مكيل أو موزون .

ولكن شعيباً لم تَبدُ منه جفوة أو قسوة ، بل تلطّف فى جدالهم ، وآثر استمالتهم باللين ، واجتذابهم بالرفق ، وذكّرهم بما بينه وبينهم من صلة ؛ فذلك أدعى لقبول النصح ، والانصياع إلى الرأى ؛ وأدل على الرغبة فى الخير ، والحب للنفع .

ولما أنس منهم ميلا إليه ، وظن أن آذانهم تفتحت لسماع قوله ، بيّن لهم أن ظهور البينة له ، وكثرة نعم الله عليه تحول بينه وبين الانسياق إلى طريقهم ، والاندفاع فى غيهم ، وتمنعه عن التفريط فى وحى الله ، وتصدّه عن التهاون فى تكاليفه ؛ ثم أعلن إليهم أنه قد أوحى إليه بالهدى ، وأرسل بالحق ، وأوتى من الله الرحمة ، وأرشِد إلى مالم يهتدوا إليه ، وأنه لن ينى عن العمل بهذه الدعوة ، التى اختير لها ، وأُلقِى إليه وحيها . على أنه لن يكرههم على اتباع دعوته ، ولا يأمرهم بشىء إلا وقد رضيه لنفسه ، وهو الذى اشتهر بينهم بالحلم ، وعرفوه بالرشد ، ثم هو لا يطلب منهم أجراً على هديهم ، ولا جزاء على إرشادهم ، بل يريد إصلاح أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومن كان هذا شأنه أحق أن يتبعوه ، وأولى أن يقتفوه ؛ فليس له غرض خاص من دعوته ، ولا مأرب من طَلِبته .

أحسّ نفورهم من نصيحته ، ورأى منهم ميلا إلى مخالفته ، مع أنه لم يبق لهم شبهة ، ولم يَترك لهم حجة ؛ فظن أنهم إنما يأنفون من متابعته ، ويميلون عن دعوته بغيا وحسدا ، وبغضاً وكبرا ؛ فنهاهم أن يحملهم ذلك على الانصراف عنه ، وتدفع بهم الرغبة فى مجانبته إلى النأى عما يدعوهم

إليه ، وخوّفهم بأس الله وعذابه ، وبيّن لهم أن اقتراف المعصية ، وارتكاب الإثم لا يمنعهم أن يؤمنوا بالله ، ويتوبوا إليه ؛ لينجوا من العذاب ، ويتخطاهم العقاب .

ولما أظهر لهم فساد اعتقادهم ، وبيّن لهم عاقبة ظلمهم ، وأيّد قوله بالحجة البالغة ، والآيات البينة ؛ لجئوا إلى المراوغة فى القول ، وصدّ الحجة بالشتم ، فقالوا له : إننا لم نَفْقَهْ كثيرا من قولك ؛ لأنه ليس لكلامك سبيل إلى قلوبنا ، أو منفذ إلى عقولنا ، فلتكف عن إثارة من هم فى عزة ومَنَعة ، وأنت المستضعف الذليل ، الذى لم يمنعنا من أذاك إلا مكان عشيرتك ، وحرمة قبيلتك .

ولكن شعيبا لم يطأطئ رأسه أمام عزتهم ، ولم يضعف أمام قوّتهم ؛ بل هبّ يدفع باطلَهم بحقه ، ويمْحق زورهم ببينته ؛ وتملكته العزة بنصرة الله ، وتاه فخراً بمؤازرته ، وأبان لهم أن رهطه لَيْسُوا أرفع قدراً ، ولا أشدّ قوة ، ولا أمنع جانباً من الله الذى منحهم هذه القوة ، وأفاض عليهم تلك العزة ؛ وقال : هلا تركتمونى رعايةً لحق الله ، وحفظتمونى إطاعة له ؟ إن ذلك أولى من حفظى لمكان قومى ، وعزة رهطى .

لم يُضعف تهديدُهم قوّته ، ولم يَفلّ وعيدهم من عزمه ، بل دعا إلى أن يبذلوا ما يملكون من قوة لإيصال الشر إليه ، وأعلن إليهم أنه لن يألو جهداً فى سبيل دعوته ، ولن يدّخر وسعا للوصول إلى غايته ، فَثِقَتُه بنصر الله أكيدة ، وعاقبته عنده حميدة ، وهو أعلم بما يعملون ، خبير بما يصنعون .

دأب شعيب على الدعوة إلى الله ، فوجد من بعض القوم آذانا صاغية ،

وقلوبا واعية. وآمن به نفر قليل، فهلعَتْ نفوسُ القوم خيفةَ أن يعظم أمرُه، ويستدّ ساعدُه، وينتشر دينه، وتكثر جماعته؛ فتوعدوه ومن آمن معه أن يخرجوهم من قريتهم، إن لم يبرءوا من دينهم، ويعودوا إلى ملتهم؛ ولكن شعيبا أنبأهم أن هؤلاء الذين اتبعوه قد استرقّ الإيمان قلوبَهم، وملك عليهم مشاعرَهم، وخالط نفوسهم، فلن يعودوا إلى حَمْأة الرذيلة إلا كارهين، ولن يرجعوا إلى ملّتكم طائعين؛ فقد أصبحت نفوسُهم تعاف ارتكاب المعاصى، بعد إذ نجاهم الله منها، وتأبى أن تتردّى فى مهاوى الضلالة بعد أن أخرجهم الله من مباءتها.

ولما يئس من هدايتهم إلى الحق، وتبين إصرارهم على الكفر استنصر ربَّه عليهم، ودعاه أن يجزيهم على كفرهم وجحودهم، وتضرع إليه أن يعجل لهم ما يستحقون من عذاب، ولكن القوم عن الحق لاهون، وعلى الدنيا مقبلون، وعمّا خبأ لهم القدر منصرفون؛ فرجعوا إلى القوم المؤمنين، وأعادوا الكرة على مَنْ ظنوهم مستضعفين، وخوفوهم الخسران إن تركوا الظلم، وعاملوا الناس بالقسط، وهدّدوهم بالخراب إن لم يطففوا الكيل والميزان، وحذروهم العدم إن لم يبخسوا الناس أشياءهم، ويعيثوا فى الأرض الفساد.

ثم كَروا على شعيب بالتكذيب ونسبوا إليه الشعوذةَ والسحر، وتحدوه أن يسقط عليهم كسفا (١) من السماء، وأن ينزل عليهم العذاب إن كان من الصادقين.

---

(١) كسفاً: قطعا علوية مهلكة.

استجاب الله دعاءه، وآزره بنصره، وابتلاهم بالحرّ الشديد، فكان لا يروى ظمأهم ماء، ولا تمنعهم ظلال، ولا تقيهم الأسراب والمنازل؛ ففروا هاربين، وخرجوا من ديارهم مسرعين؛ ولكنهم فروا من قضاءِ الله وقدره إلى قضاء الله وقدره؛ فقد شاموا سحابة ظنوها لهم من وهج الشمس واقية، وحسبوها للحرّ دافعة؛ فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، ويستروحوا فيئها، حتى إذا تكامل عددهم، وتألف جمعهم رمتهم بشرر وشهب، وجاءتهم صيحة من السماء، وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم؛ ففزعوا لهول ما رأوا، ولم يكادوا يحسون ما حل بهم، حتى أزهقت أرواحهم، وهلكتْ نفوسُهم.

رأى شعيب ما حلّ بقومه؛ فأعرض عنهم، يثقله الحزنُ على ما أصابهم، ولكنه ذكر كفرهم بالله، وتسفيههم لرأيه، واستهزاءهم بمن آمنوا معه، ومخالفتهم نصيحته؛ فخفف ذلك من وجده، وقال: «يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ»؟؟

موسى *

ولادة موسى وتربيته

تَمادى فِرْعَونُ فى غيّه ، وعلا فى الأرض ، وأنزل الخسف بطائفة من رعاياه : هم بنو إسرائيل ؛ إذ عاشوا عيشة البلاء ، واصطبروا على اللأواء ؛ وبينما هم فى نكد من العيش وسوء الحال ، إذ تقدم الكاهن من فرعون وقال له : يولد مولود فى بنى إسرائيلَ يذهب ملكك على يده ؛ فثارت عَجاجته ، واضطربت إرادته ، ولج فى طغيانه ، وسَدرَ[1] فى بهتانه ، وأمعن فى غيّه ، فذبّح أبناءهم ، واستبقى نساءهم إفساداً وظلماً ؛ ولكن قدرة الله تعالى تسامت أن يقف أمامها تدبيرٌ خائب ، أو سهم غير صائب ؛ فقدّر الله لهؤلاء المستضعفين وراثةً لملك هذا الطاغية الجبار ، على يد طفل يربى فى بيت فرعون ؛ ولكنه كالورد ينبت من ثنايا الشوك ، وكالفجر يدرج من مهد الظلام :

أعلّمه الرماية كل يوم   فلما استدّ[2] ساعده رمانى

فمكن الله لبنى إسرائيل ، وأورثهم أرض مصر والشام ، وأرى

---

* القرآن الكريم ـ سورة القصص : آية ٣ وما بعدها .

(١) سدر : تحير   (٢) استد : قوى .

فرعون وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون .

جلست « يوكابد [1] » فى ركن من منزلها، وقد جاءها المخاض ، فدعت قابلة لتهيئ لها مثل ما يكون فيما يشابه هذه الحال ، فعالجتها ؛ فلما وقع موسى على الأرض هالها نورٌ بين عينيه ، وارتعشت مفاصلها ، ودخل حبّه فى قلبها ؛ فحرصت على حياته ، وجهدت فى البقيا عليه ، فلم يتسرب خبرُه إلى فرعون (عدوّ الأطفال) ، واستمرّ ثلاثة من الشهور كذلك ؛ ولما نشر الملك عيونه فى المدينة يتفحصون الأطفال ألهم الله أمّ موسى أن تهيئ له صندوقاً تضعه فيه ، ثم تلقى به فى النيل ؛ ثم ثبّت فؤادها ، وهدأ روعها بقول كريم .

سارت أخت موسى تقص أثره بعد أن ألقى به فى اليمّ ، وما كان أشد هلعها حينما حمل الصندوق إلى فرعون ؛ ولكن رحمة الله قريب منه ؛ فلم تكد تنظره امرأةُ فرعون حتى ألقَى الله محبته فى قلبها ؛ فطلبت إلى زوجها أن يكون ابنا لها وله . وقد أصبح قلب « يوكابد » فارغاً من الهم والإشفاق على وليدها ؛ لأنها استودعته الله ، وهى رابطة الجأش ، ثابتة الإيمان .

ولما أريد إرضاع الطفل الوليد عاف المراضع ؛ فلم يُقْبل على ثدى إلا ثدياً دلت أخته عليه ؛ فانبرى هامان، وقال : إن هذه الفتاة تعرفه فخذوها حتى تخبر بحاله .

الفتاة : إنما أردت أن أكون للملك من الناصحين .

فرعون : لِتأتى بمن يكفله . وأقبل يحمل الطفل باكيا وهو يعلله حتى

---

(١) يوكابد : أم موسى

أقبلت امرأة ؛ فاستأنس بها الوليد ، والتقم ثديها من دون النساء .

فرعون : من أنت ؟ فقد أبى كل ثدى إلا ثديك .

أم موسى : إنى امرأة طيبة الريح ، طيبة اللبن ، لا أوتى بصبى إلا قبلنى ؛ فدفعه إليها وأجرى عليها رزقا ؛ فرجعت به إلى بيتها . وهكذا كافأها الله ، فقرت عينها به ؛ لتعلم أن وعد الله حق .

خروج موسى من مصر

أتمت « يوكابد » رضاعة ابنها موسى ، ثم أسلمته إلى القصر الفرعونى ليكون لهم عدوًّا وَحَزناً .

ولما بلغ أشدّه واستوى أوحى الله تعالى إليه بالنبوة ، وآتاه العلم والحكمة .

اتجهت أنظار المستضعفين المغلوبين إلى موسى ؛ ليْحميَهم مما أثقل كاهلهم من الظلم والآلام ؛ وهؤلاء قومُه ، وهو ذو النفس الكريمة التى أشربت عزّة الله ؛ واستنارت بنور الله .

عاهد موسى نفسه على أن يكون نصيراً لهؤلاء المظلومين ، وفيما هو قاصد نحو العاصمة الفرعونية إذ وجد رجلين يقتتلان : أحدهما عِبْرى من مشايعيه ، والآخر فرعونى من أصحاب القوة والسلطان ؛ فسأله مظاهرُه أن يغيثه من اعتداء الفرعونى ، فهمّ موسى فضرب الفرعونى فكانت القاضية ، ثم ندم على فعلته ، وعدّها من عمل الشيطان ، واستغفر ربه على مافرط منه ، فغفر له ربه إنه غفور رحيم .

ولقد كان الغفران نعمةً على موسى ، وحافزاً لرحمته ، وداعياً لسلامه ؛ فاستعاذ بالله أن يكون ظهيراً للمجرمين ، ولكنّ موسى تغلّبت عليه بشريته ، وانتصرت على حواسه طبيعة الإنسان ، فلم يُعلِّق إرادته بإرادة مدبر الأمر ، ومصرِّف الكائنات ، ولم يستثْنِ مشيئة الله ؛ فوقع فيما عزم على النجاة من غوائله ، إذ أصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذى استنصره

بالأمس يستصرخه، فرماه موسى بالغواية والضلال، ولكنه اندفع إلى مظاهرته، فظن أن موسى يقصد قتله؛ لأنه جالب للشر، مثير للفتن.

حينما توهم الإسرائيلى ذلك تقدم لاسترحام موسى قائلا: «يَامُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ». فلم يكد يسمع الفرعونى هذا الاتهام الصريح - وقد كان قومه فى حيرة من أمر قتيل الأمس، لا يعرفون قاتله - حتى وافاهم وأخبرهم بخبر موسى؛ فتألب القوم وهمّوا يبحثون عن موسى ليمزقوه شر ممزق، ولكن رحمة الله قريب: إذ جاء من أقصى المدينة رجل يسعى إلى موسى، ليخبره أنّ الملأ يأتمرون به ليقتلوه، وينصحه بالخروج من المدينة إلى حيث يشاء رب العالمين.

موسى ينزل أرض مدين

خرج موسى من المدينة خائفا يترقّب؛ متجها إلى الله أن يصرف عنه كيد الظالمين. سار ثمانىَ ليال قاصداً بلاد مدين (بين الحجاز والشأم) ولا معين له إلا عناية الله، ولا رفيق يؤنسه إلا نور الله، ولا زاد يحمله غير زاد التقوى؛ فمشى حافيا حتى تساقطت جلود قدميه، جائعا حتى لتكاد تتراءى خضرة البقل من بطنه هُزالا وضعفا.

ولم يكن له عن كل ذلك إلا عزاء واحد: هو غنيمته بالبعد عن فرعون وقومه، ونجاته بحياته بعيدا عن الرقباء والكائدين.

توجه إلى مدين، فوجد حشدا من الناس قد تزاحموا على ورد ماء؛ كُلٌّ منهم يعتمد على قدرته فى التقدم والمسابقة إلى البئر، ووجد من دونهم امرأتين تَفْصِلان أغنامهما حتى لا تختلط بأغنام غيرهما فى ضعف وذلة، إلى أنْ ينكشف هذا الحشد، وينصرف المجموعون، فتتقدما للسُّقْيَا.

ثارت فى نفس نبي الله ثورة النّصفة، وحماية المستضعفين؛ فتقدم وسألهما: ماخَطْبُكما؟

قالتا: لانسقى حتى ينصرف الرعاة؛ حذرا من مزاحمة الرجال، وقد جئنا نسقى اضطرارا؛ لأن أبانا شيخ كبير لاينهض. فما تأخر موسى عن نجدة الضعيفتين؛ بل سَقَى لهما أغنامهما، وتولّى إلى الظل، ثم انطلق لسانه يسترحم رب السموات، ويستدر العطف؛ لأنه فقير محتاج.

بكّرت الفتاتان بالرجعى إلى أبيهما الشيخ على غير عادة؛ فسألهما

الخبز؛ فأخبراه، وكأن الله أجاب استرحام موسى؛ لحنا عليه، فألهم الشيخ ليرسل فى طلبه إحدى ابنتيه، فجاءته الفتاة مستحيية متخفرة فقالت: « إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » .

تبع موسى الفتاة إلى بيت أبيها استجابةً للدعوة، فنزل صدرا رحبا، وآنس حرما آمنا، ثم قص قصصه، فطمأنه الشيخ، وقال: « لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

موسى يصاهر الشيخ [1] ، ثم يعود إلى وطنه

هدأت نفس موسى فى منزل الشيخ الكريم ، وسكنت إلى صحبته ؛ ولا بدع ولا عجب ؛ فنور الإيمان يتلألأ فى كلا القلبين ، وفيض الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين ، وشبه الشىء منجذب إليه .

رجال الله زيّنهم بفضل   ووثّق فى قلوبهم الوئام

ولقد كان موسى كريما فتيا ، أثار فى نفس الشيخ وبنتيه عوامل الإكبار والإعجاب ، لما زانه الله به من طبع قويم ، وخلق كريم ؛ فتحرك فى نفس الفتاة حب الاستظهار بموسى وقوّته ، والإبقاء على طهارته وأمانته ؛ فقالت: «يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ».

أو ليس هو الذى أقلّ الغطاء عن البئر منفرداً مع صعوبة حمله ، على ما كان به من تعب وهزال ؟ ! أو ليس هو العفّ الطاهر الذيل ، الذى أطرق برأسه حينما بلّغته رسالة أبيها واستدعته إليه ؛ فسار أمامها وسارت خلفه وفاء لحقوق الطهارة ، وذمام المكرمات ، حتى لا تمتد عينه إليها فيكون من الخائنين !

رنّ كلام الفتاة فى أذن أبيها ، فلم ينبه غافلا ، ولم يحرك ساكنا ؛ بل كان صدى يرجع ما كان يجيش فى صدر الشيخ من أمل ورجاء . أما وقد مزق التماس الفتاة حجاب السكوت ، فقد استقر أبوها فى مجلسه ، ثم انبرى يقول : ياموسى ؛ إنى لراغب فى أن أزوّجك إحدى ابنتىّ هاتين على أن

(١) يرى الحسن البصرى ومالك بن أنس أن الشيخ هو شعيب عليه السلام ، ويرى آخرون أنه شعيب آخر وليس بالنبي صاحب مدين .

تكون عونا لى وظهيراً ، أجيرا ترعى الغنم ، وتقوم بنصرتى ثمانى سنين ، وإن زدتها اثنتين فتلك مِنّةٌ جليلة ، أرجوها منك ولا أحتّمها عليك ، وسأكون لك إن شاء الله من الأوفياء المخلصين .

ولقد كان موسى شريدا فى بلاد مدين ، وحيدا طريدا ، نائيا عن الأهل ، قصيًّا عن الأخلاء ، مستوحشة نفسه ؛ فلم يكد يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أملُ الحياة فى نفسه مَسْرى الماء فى العود ، فانطلق لسانه : إنى لسعيد بصحبتك أيها السيد الكريم ، قَوِىٌّ بمناصرتك ، عزيز بمؤازرتك .

طاب مُقَام موسى واخضرّ فى حياته عود الأمل ، فأتم أقصى الأجلين يكلأ مشاغل الشيخ برعاية الأمين الناصح الحكيم ، وتم الزواج بإحدى الفتاتين ، ثم وهب له صهره الكريم أغناما له خالصة سائغة . وبعد ذلك تحرّكت فى صدره نشوة الحنين إلى الوطن ، ونزعت نفسه إليه ، ولجّ به الشوق والهيام :

بلاد ألفناها على كل حالة وقد يُؤْلف الشىء الذى ليس بالحسن
وتُستعذَب الأرض التى لا هوى بها ولا ماؤها عذب ولكنها وطن

جمع موسى أشتات متاعه ، وهيأ رَحْلَه ، واستعدّ ليذهب مع زوجه إلى مصر ؛ فودّعا الشيخ وداعا حسنا ، ودعا لهما بالتوفيق والسداد ؛ ثم سار موسى نحو الجنوب حتى طورسيناء ، وهناك ضلّ الطريق ، فحار فى أمره ، وأبهم قصده ؛ ولكن عناية الله لاحظته ، فلم يخب ضياؤه ، ولم ينطفئ رجاؤه .

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونها نَمْ فالمخاوف كلهن أمان

سار موسى غير بعيد؛ فأبصر من الجهة التي تلي الطور ناراً؛ فحط رحاله، وأسرع وحده إلى النار بعد أن قال لأهله: «آمْكُثُوا إنّى آنَسْتُ نَاراً، لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى».

فى شاطئ الوادى الأيمن، فى البقعة المباركة من الشجرة، فى تلك الليلة المسْفِرة الضاحكة، بَسِمَ الزمان لنبى الله الكريم؛ فنودى أن يا موسى «إنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»، فكانت بدء نبوته، إذ خصه الله بكرامته، وبعثه برسالته، وكان أن سمع نداء الله الكريم: «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى»؟ فعجزت قدرته البشرية، ونكصت فطرته أن تسمو إلى سر الإبداع فى السؤال الكريم؛ فأجاب كما يجيب غيره من الناس: «هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى»؛ ظنا أن المقصود أن يذكر خصائص العصا، ومنافع العصا... تسامت قدرة الله، وتعالى علواً كبيرا، فلم يكن السؤال إلا تمهيدا لتبيان، ومقدمة لإعلان.

سأل الله عن حقيقة العصا؛ حتى إذا رأى موسى بعد ذلك فيها خوارق، واستبان عندها معجزات علم أن فى ذلك آياتٍ بينات، وحججاً صادقات، خَصَّه بها رب السموات، تمييزاً لرسالته، وتقويةً لدعوته.

فكم طابت به للحق نفس بحبل الله تعتصم اعتصاما

أُمِرَ موسى أن يلقى عصاه، فألقاها، فإذا هى حيّة تسعى؛ تورّمت وعظمت حتى غدت فى جلادة الثعبان، وضخامة الجان[1]؛ لمحها موسى؛

(١) الجان: نوع من الحيات.

نخاف وهرب فقيل: لا تَخَفْ إنه لا يخاف لدىّ المرسَلُون .

حقت نبوّة موسى ، واطمأنّتْ نفسه لنداء الله الكريم ، وقرّت عينه بنور الحق الواضح ؛ فتوّجَهُ ربُّه بمعجزة أخرى ؛ إذ أَمره فأدخل يده فى جيبه ، فإذا هى بيضاء من غير سوء .

كانَتْ هاتان المعجزتان لموسى نبى الله الكريم أمرًا له ما بعده ، جعلهما الله تثبيتاً لقلبه ، وتمكيناً لرسالته بين فرعون وقومه ، وتهيئة للمناداة بالحق ؛ فرفع صوته عاليا ، وشهر سيفه قاطعا ، ليمزق به حجب الزيغ والضلال .

موسى الرسول

عاش فى بلاد النيل فرعون ومؤازروه ، يحكمون القِبْط وبنى إسرائيل ، ويفسدون فى الأرض ظلما واستكبارا ، ويتخذون من نفوسهم أربابا ؛ مصوِّرين من طبيعتهم البشرية الناقصة آلهةً يفرضون على السوقة عبادتهم من دون الله ، ثم هم بعدُ قد أنزلوا الخسف ببنى إسرائيل ، وساموهم سوء العذاب ، وأتعبوهم فى العمل ، وأطفئوا أمامهم سُرُج الأمل ، فكأنهم معهم من سَقَط المتاع .

أوغلوا فى شهواتهم ، وانصرفوا عن نور الإيمان ووضح اليقين ، وانحسرت نواظرهم عن سُبل الهداية ، فحادوا عن الطريق المستقيم .

وقوم فى الضلالة قد تهاوَوا أليسوا بالرسالة يُرحمونا ؟

إذن فلتَقض رحمة الله ، ولتتفجر ينابيعُ عدله وكرمه ، وليكن أرحمَ بهؤلاء القساة الجفاة من أنفسهم ، فيهيِّئ لهم مدارج النور ، ويفسَح أمامهم طريق الهداية ، وينيرَ مفاوِز الظلمات .

نادى الله موسى : أنْ لديك برهانان من ربك إلى فرعون ومَلَئِه يعزِّز الله بهما كلمتك ، ويُعْلى حجتك ، فاذهب إلى هؤلاء حتى تخرجَهم من الظلمات إلى النور ، وترفَع للحق عَلَمًا يخفق فى بلاد النيل ، فينبلجَ نور الرشاد ، ويتوارى غلس الضلال .

سمع موسى دعوة الله ، وتهيّأ لتلبية النداء الكريم ، وهو وإن يكن قد

ربط الله بالإيمان قلبه ، ووثّق بالبراهين دعوته ؛ فأجرى أمامه حجتين بهما يتقوى ويَشْتَد ، ويساجل ويناضل ، ويعَزّز كلمة الله أمام فرعون وقومه - إن يكن له كل ذلك بأن لدى موسى ثأراً قديماً لفرعون ؛ فهم يطلبونه منذ أمد ، وهو قد أمعن فى الهرب، وفارق الأهل والوطن ؛ إنجاءً لنفسه ، وطلبا للسلامة من أقرب الأبواب . وهو كذلك وإن جاشت فى نفسه نزعةُ الحنين إلى الوطن، واختلجت فى فؤاده عواملُ الشوق والشجن، لايزال يجد أمام الأمل سدّة فيغُض الطرف عن هذا المطلب البعيد المنال . أما وقد دعاه الله ، وهيأه برسالته ؛ فقد آن له أن يتقدّم إلى حيث أحجم ، وأن تنبعث آماله حرة طليقة بعد أن حبسها وحال دونها الخوف والحرمان .

فاضت الضراعة من قلب موسى إلى ربه ؛ فقال : « رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » . قال قولته ليطمئن قلبُه ، وليشرفَ قدرُه، ويعظمَ جاهه ، فينفحَه ربه بقول كريم ، ينير فى قلبه مصابيحَ الرجاء ، ويفسحُ أمامه مسالكَ الأمل، ويُثْلج خاطرَه ، ويهدئ روعه ، ويؤمن نفسه .

أُمِر موسى أن يذهب إلى فرعون ؛ فتهيّب الموقف ، واستعظم الأمر ، وهو الذى لا يكاد يُبين عن آيات الهدى ، ودلائل الحق ؛ لأنها فيّاضة ، زاخرة تمتلئ بها مشاعره ، وتجيش بها خواطره ، وتملك عليه عقله وقلبه ، وهو لايملك أن يكون قوىّ التعبير ، رصين الحجة، مُفوّه المنطق ، سَرِىّ البيان؛ لأن شأنه شأن خطير ، وأمره أمر كبير ؛ فدعا ربه ، فقال: ربّ اشْرَحْ لى صدرى ؛ حتى ينفسح لتحمل أعباء هذا الأمر العظيم ، ويَسّرْ لى أمرى

برفع الموانع والصعاب ، وآحْلُلْ عُقْدَةً من لسانى أكن ناصع البيان ، سديد البرهان ، حتى ينفذ بلاغى إلى نفوسهم ، ويتسرب إلى قلوبهم ، واجعل لى شريكا وزيرا من أهلى، هو هرون أخى ' أشدد به أزرى، وأشركه فى أمرى .

أجاب الله دعاء نبيه الكريم ' تدعيما للدعوة ، وتكريما لرسوله ، وتنبيها لشأن الحق ؛ فألهم هرون ، وقد كان بمصر ، أن يذهب إلى حيث يقيم موسى أخوه ؛ ليشركه فى أمره ، ويحمل معه أعباء هذا الأمر الخطير.

فلبّى هرون داعى الحق ، وسار فقابل أخاه بجانب الطور الأيمن

إذن قد اطمأن موسى ، وتقوّى ظهره ، فأوتى سُؤله .

أوحى الله إلى موسى وأخيه : أن اذهبا إلى فرعون ، فقولا له قولا لينا ، أرفق بنفسه ، وآلف لقلبه ، عسى أن تلين قسوته ، وتخشع سطوته ؛ حذرا أن تحمله حماقتُه على أن يسطوَ عليكما ، وحتى تسدّا أمامه منافذ التمحل والاعتذار . وعسى أن تكون دعوتكما لينةً رقيقة فلا تفجعه فى سلطته ، ولا تصدمه فى عزته .

ومن أوْلى من رب السماء والأرض بأن يعلم الأدب ، ورقة العبارة ، وسموّ الحس ، وحسن المعاملة ؟ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ؟

أليست لفرعون على موسى حقوق التربية ؟ فمن حقه عليه ملاينة فى القول ورقة فى الأسلوب .

قال الله ياموسى : اذهب أنت وأخوك بآياتى إلى فرعون وقومه ، وتدرّجا معه فى الدعوة ، فقولا : إنا رسولا ربك ، وادعواه ليخلّص بنى إسرائيل مما هم فيه من ظلم وإيلام .

ذهب موسى وأخوه إلى مصر ، فأتيا فرعون ، فاستهان بهما واستنكر خطبهما ، فقال: حتى أنت ياموسى ! ألم نُربِّك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين

فقال موسى : أتمنُّ بتربيتى لديك وليدا فتحسبها نعمة ؟! أليس منشؤها ظلمُك واستعبادك لبنى إسرائيل ؟

فانطلق فرعون قائلا : وكذلك فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التى فعلت وأنت من الجاحدين بنعمتنا . فَدحض موسى حُجّته ورد دعوته ، فقال : بل فعلتُها إذاً وأنا من الضالين ، ولما خِفْتُ بطشَكم فررت منكم ، فأصابتنى نعمة الله ورحمته ، فوهب لى علماً وحكمة ، وجعلنى من المرسلين . حينئذ استغلق باب النقاش أمام فرعون ، فعمد إلى طريق آخر واهماً أن عليه نصفته ، وفيه سلامته ؛ فقال : وما رب العالمين ؟

فقال موسى : إن أيقنت حقيقة الأشياء ، وأدركت وجودها وآثارها ؛ فإلهى ربها ، رب السموات والأرض وما بينهما .

فتميّز فرعونُ غيظا ، وراح يثير سخيمة مَنْ حوله ، ويبعث دهشهم وعجبهم واستنكارهم فقال :

أيها القوم ؛ ألا تسمعون ! أسألهُ عن حقيقة ربه ، فيذكر لى أفعاله ؟

فقال موسى : ربى ربكم ورب آبائكم الأولين ، رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ .

فثارت عجاجة فرعون ، واضطربت نفسه ، ولجّ غضبه ، وزاد غيظه ،

وعجزت حجته ، فعمد إلى قوته ، وقال : « لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ » .

لم يبال موسى ، واطمأن لدعوته ، وانبعث لسانه بدفء الأمل ، فقال : أَوَلو جئتك بشيء مبين : حجةٌ دامغة ، ومعجزة قاطعة ، تزيل عنك الريب والشكوك ؟

فقال فرعون : إذن فأْت بها إن كنت من الصادقين !

معجزات موسى

كان موسى قويّ الظهر، مسدّد الخطا، يستمد العون والتوفيق من الله العلي الكبير، وكان السحر فنا ذاع في بني مصر أمره، واشتهر شأنه، فظهر منهم الساحر الذي يخلب العقول، ويسترق الفؤاد، ويلعب بالألباب لعب النكباء بالعود؛ برعوا في هذا الفن وأتقنوه، فليس يباريهم سابق، ولا يبلغ شأوهم لاحق.

ومن هذه الناحية وحدها شاءت إرادة الله أن يُعْجِزَ القوم، وأن يوقفهم دهشين ذاهلين، إذ تصوّب سهامُهم إلى نحورهم؛ فلا يستطيعون ردّها، ولاهم يُنظَرون.

تلك حكمة أرادها الله، فأجرى المعجزة على يد نبيه موسى، تحاكي ذلك النوع الذي برع فيه القوم، حتى يُفْرِغوا كل كنائنهم ويستنفدُوا كل جهودهم؛ فاذا عجزوا في محط سبقهم، وغاية براعتهم، فهم عن غيره من الأعمال أعجز؛ وحينئذ فكلمة الله هي العليا، وكلمتهم هي السفلى؛ والله لا يهدي كيد الخائنين.

ألقى موسى عصاه التي أودعها الله القوة الخارقة؛ فاذاهي ثعبان مبين! شُدِهَ فرعون، وتملكه مزيج من الكبرياء والحيرة، ثم قال: هل من غيرها؟ ظانا بأن ذلك نهاية الشوط، وأن موسى لابد عاجز؛ ولكن الرسول أدخل يده في جيبه ثم نزعها؛ فاذا شعاع ينبعث منها يكاد سَنَا [1] برقه يأخذ

---

(١) سنا: ضوء.

بالأبصار ، ويذيع وينتشر حتى ليكاد يسد الأفق .

بعد ذلك ضاقت مسالك القول أمام فرعون ، وغشيه همٌّ واكتئاب ، ولجَّ به حرصُه على ملكه وجبروته ، وبهَره سلطان المعجزة ؛ فأنزله من عليائه ، وصغَّر شأنه فى عين نفسه ؛ فنسى أنه ربهم الأعلى ، وأنه ماعلم لهم من إله غيرِه ، ثم عمد إلى التمسح فى أذيال قومه ، ومداهنتهم ، فأشركهم فى الأمر ، وتبادل معهم المشورة والرأى ، وتقدم لمؤامرتهم ، وتنفيرهم من موسى ملبسا الباطل ثوب الحق ، والخديعة والتدليس ثوب الصراحة والحقيقة ؛ فقال : ياقوم ؛ هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، فماذا ترون ؟ فقال أنصاره وحواشيه : احبسهما ، وابعث رجالك فى المدائن يأتوك بكل ساحر عليم .

صادف هذا الرأى هوى فى نفس فرعون ، وهو الذى يتعلق بخيوط واهية من الأمل الكاذب ، ويستند على أوهن أساس ، لعل فيه الخلاص والنجاة .

فجدَّ فى جمع السحرة من كل مكان . كل ذلك والهواجس والوساوس تتنازع نفسه ، خوفاً على صولته ، وفرَقاً على دولته : إذ قال لموسى فى نكران ودهش : « أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى » !

ما بال فرعون اضطرب وجزع ، وتقطعت نفسه وهلع ، أليس هو الإله المتجبر ! أوليست له قدرة وكرامة ! وهو أمام تلك القوة الخارقة ، التى أجراها رب الأرباب على يد بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق !

قال فرعون لموسى : « فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ

وَلَا أَنْتَ ». قال موسى : موعدكم يوم العيد ، يوم اجتماع الناس وزينتهم . حتى يشيع الحق ، وينبلج بياض النهار .

جدّ فرعون واجتهد ، وجمع السحرة وأتى بهم فى الزمان والمكان ، تمشى فى نفسه بقية من الأمل ، ورغبة شديدة ملحة من الحرص والسلطة ، يدفعانه دفعاً إلى مساجلة موسى ، والقضاء على دعواه ؛ ولكن هيهات أن يدنّس الشمسَ غبارٌ ثائر ، أو يحط من قدر العدالة سلطانٌ جائرٌ :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

تلفت موسى فوجد حشداً هائلا من السحرة ، فقال لهم : الويل لكمَ إن افتريتم الكذب على الله ، فدعوتم معجزاتِه سحراً ، ولم تصارحوا فرعون بالنور الساطع ، والحق القاطع ، فتظهروا له ما بين سحْركُم وإعجازى ، وتُفرقوا بين باطلكم وحق ، ومن احتال منكم ليبطلَ حقاً أو يُحق باطلا فقد خاب وباءَ بالخسران المبين .

كان كلام موسى نداءَ الحق رن فى آذان الساحرين ؛ فأفاقوا من غشية الضلال ، وزال عن أفئدتهم حَلَكَ المحال(١) ، وفتق أغشيةَ قلوبهم لتصيخ لدعوة الحق ، ولتستبين طريق الرشاد .

ائتمر السحرة بأمر فرعون ، لا يتخلف عنه واحد منهم ، فإذا بهم آلاف مع كل واحد منهم حبل وعصا ، مقبلين إقبال رجل واحد ، ومشمرين عن سواعدهم ؛ ليكون ذلك أدعى إلى تسرب الخوف إلى موسى وأخيه ، وبث المهابة فى نفوس الرائين .

---

(١) المحال : الكيد والمكر .

نادى فرعون فى قومه حاثًّا لهم على الإسراع والبِدار؛ ليشهدوا ذلك الحفل العظيم، ساعة الضحا من يوم الزينة، يوم يتبارى القِرنان، ويتساجل الخصمان.

جاء الناس مدفوعين بالرجاء فى نصرة الساحرين؛ لما رسخ فى نفوسهم من الضلالة، وران على قلوبهم من الجهالة؛ فسلبهم سلامة التقدير، وصحة التصوير.

أقبل السحرة مُدِلِّينَ بعلمهم، مزهوين بغرورهم، وكيف لا يدلون ويعجبون، وهم فوارس الميدان، وجياد الرهان، ومناط الأمل، ومحط الرجاء؟

قالوا لفرعون: ألنا أجر إن غَلبنا؟ فقال: لكم أجر وقربى، تنعمون فى حماى، وتسعدون بجوارى، وتنزلون موارد الرفاغة (١) والترف والنعيم؛ لأنكم تشدون أزرى، وتقوون ظهرى. فاطمأن السحرة لهذا، ودارت برءوسهم كئوس الأمل؛ فأقبلوا مدفوعين، ثم قالوا: ياموسى إما أن تُلقِيَ وإما أن نكونَ أولَ الملقين.

فلم يبال موسى سحرهم، واستخف بخَطْبهم، وأذن لهم بأن يُلقوا حبالهم وعصيَّهم، حتى يستنفدوا أقصى وسعهم، ويفرغوا غاية جهدهم، ثم يُظْهر الله سلطانه، فيقذف بالحقِّ على الباطل فيدمغه.

تقدم السحرة، وألقَوْا ما فى أيديهم؛ فخيل لموسى أنها حيات على الأرض تسعى، ولكنه وهْم تسلل إلى خلجات نفسه؛ حذراً وخوفا أن يؤخذ الناس بهذا

(١) السعة والرغد.

الظاهر المموّه، والباطل المشوّه ؛ فينصرفوا عن دعوته مدبرين . ولكن حماه الله ورعاه ؛ فقال : لَاتَخَفْ إنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى، ولا تحفل بكثرة هذه الأجرام وعظمها ؛ فإن العُوَيدة التى فى يدك أخطرُ شأنا وأعظمُ أثراً ، فألقها فإنها بقدرة الله تبتلع ماافتعلوا وزوّروا ، وموّهوا وضللوا ؛ فما كل ذاك إلا كيد ساحر ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى .

هدأت حصاة موسى ، وألقى عصاه ، فإذا هى تَلقَف ما يأفكون ، وإذا السحرة يلمسون الحقيقة الرائعة ، ويتبيّنون الرشد من الضلال ، والحق من المِحال ، فإذا هم يخرّون ساجدين ؛ توبةً عما صنعوا ، وخشوعا لهيبة الحق ، وإكبارا لذلك الأمر الخطير .

غلت مراجل الحقد والحفيظة فى صدر فرعون ، واحتدم غيظُه لتلك المفاجأة الغريبة التى فجأته ، مستطيرةَ الشرر ، شديدةَ الضرر ، على حين كان يرجو من ورائها تقوية لسلطانه ، وتدعيما لبهتانه ؛ فإذا هى عاصفة هوجاء تقوّض ذلك العرش الذى أسس على الزور والبهتان .

لم يجد فرعون فى كنانته إلا أن يشبع نَهَم غيظه ، ويستر مرارة خجله ، فقال : أتؤمنون له ، وتخضعون لحكمه قبل أن آذن لكم ؟ ! أليس فى ذلك اتفاق مقرر ، ورأى مدبر ؟

حقاً إنه لأستاذكم ، وكبيركم الذى علمكم السحر ، فاتفقتم معه على فعلكم ؛ أما وقد أقدمتم على ذلك ، وخرجتم على حدود طاعتى ، ونقضتم حبال عهدى ، فلأقطّعن أيديَكمُ وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنّكم فى جذوع النخل ؛ عقاباً لكم ، وتمثيلا بكم ؛ لأنكم كفرتم بنعمتى ، وحللتم

ميثاق ، ولتُعَرِّفنكم أيام الزمن قوّةَ بأسى وشدّة عذابى .

ولكن قوة الإيمان ، وفيض النبوة ، ربطا على قلوب هؤلاء المؤمنين ؛ فأزال الله عن قلوبهم غشيةَ الباطل ، وغَمْرة البهتان ، ودرجوا قُدُما نحو الصراط المستقيم ، فقالوا لفرعون :

ليس فى سبيلك خير ، ولا فى رضاك أجر ، فلن نختارك على ماجاءنا من نور ساطع ، وحق قاطع ؛ فأوغِلْ فى وعيدك ، وأكثر من تهديدك ؛ فما أنت إلا غَوِىٌّ مُضِلٌّ مبين . إنَّا آمَنَّا بربِّنا ليغفرَ لنا خَطَايَانا ، وَمَا أكرَهْتَنَا عليه من السِّحرِ ، وَاللهُ خيرٌ وأبْقى .

عناد فرعون

شُده فرعون لِمَـا رأى من سحر موسى كما يسميه ، وانطلق تتنازعه عاطفتان جامحتان أقواهما الإبقاء على ملكه ، ومجاهدة موسى حتى تنجلى عجاجة ظلامه ، وتنكشف سحابة غمته ، فيستتِبّ لفرعون المصير . وكيف لايناضل عُتُلٌّ جبار فى سبيل هذه العزة الشامخة والثروة العريضة ؟ إنه لمضطر تحت نزعات هذه النفس الكافرة أن يدافع ويجالد حتى يَدْحَر ذلك الخارجَ على سلطانه .

أصرّ فرعون على عناده ، وظاهره الملأ من قومه ، فقالوا : « أتَذَرُ موسى وقومَه ليُفسدوا فى الأرض ويذرَك وآلهتك » ! فتغالى فى بطشه وعنفوانه ، واستطار شره وبهتانه ؛ فقال : إنا سنقتّل أبناءهم ونستحيي[1] نساءهم . ثم راح يُنْزِل بهم شتى صنوف الظلم والأذى ، فضجوا لاجئين إلى موسى ، ليحميهم من أذى الكافر الجبار ، وقالوا : ياموسى : لقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا . فسكّن الرسول ثورتهم ، وهدأروعهم ، ومنّاهم الخير والنجاة ، قائلا لهم : « استعينوا بالله واصبِروا إنّ الأرضَ لله يُورِثُها من يشاء من عبادِه والعاقبةُ للمتّقين » .

قال موسى هذا ، واستمرّ فى دعوته يمهّد لقومه سبيل النجاة ، ويتجهُ إلى ربه بقلب ثابت ، وإيمان موثق ، واطمئنان موفور .

---

(١) نستحيي : نجعلهم أحياء .

أما فرعون فقد خلص إلى ملإ من قومه يأتمرون بموسى ليقتلوه، فذلك أقرب طريق أمامهم، وأوجب أمر لبقاء ملكهم، بعد أن أعيتهم الحيل، وانسدّت منافذ الخلاص؛ وبينما هم فى أخذ ورد، يقلبون أوجه الرأى، ويُجيلون الفكر فى الإقدام على جريمة القتل، إذ دفعت المروءةُ والشجاعة رجلا أنار الله بصيرته، وكشف له سبيل الرشد والإيمان، فدافع عن موسى أشد الدفاع، وناضل عنه وجادل، وبيّن لهم سوءَ أمرهم، وعاقبة تدبيرهم، وفنّد حججهم وزيّف ضلالهم، وطفِق يضرب المثل، ويتقوى بالحجج.

فقال: ياقوم: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ ٱللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ، إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ».

ثم طفق مؤمن آل فرعون يذكّرهم ببأس الله وبطشه؛ فقال: «ياقوم إنى أخاف عليكم مثلَ يومِ الأَحْزَاب[1]، مثلَ دَأْبِ قوْمِ نوح وعادٍ وثمودَ والذين من بعدِهم، وما اللهُ يريدُ ظلماً لِلْعبَادِ. وياقوم إنّى أخافُ عليكم يومَ التَّنَادِ[2]، يومَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِين ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِن عَاصِمٍ، ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فماله من هَاد، ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبيناتِ فما زِلتُم فى شكّ مما جاءكم به حتى إذا هَلَكَ قلتم لن يبعثَ اللهُ من بَعْدِه رَسُولا، كذلك يُضِلُّ اللهُ من هو مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ».

(١) الأمم السابقة (٢) القيامة.

ولكن القوم ـ على الرغم من قوة عارضته ـ قاوموه وكذبوه ليلجئوه إلى صفهم ورأيهم ، فقال : « ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؛ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لا جرم(١) أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد » .

ضاق القوم ذرعا بهذا الرجل الذى فجأهم برأيه ، وسفه أحلامهم بهديه ، فناوءوه وسفهوه ، وهموا به ليقتلوه ؛ فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

استمر موسى فى دعوته لا يثنيه وعيد ، ولا يخيفه تهديد ، يدعو فرعون إلى الإيمان به ، والرجعى إلى خالق الأرض والسموات ، وأن يطلق معه بنى إسرائيل ؛ ولكن هذا كان شديداً كل الشدة على هذا الطاغية الجبار ؛ فاشتط فى غوايته ، وظل فى جهالته ، وجمع أشتات الزائغين من قومه ، الذين ألفوا الذلة ، وارتضوا عيش الهوان والاستعباد ؛ جمعهم يريد أن يبهرهم بالقوة ، ويثبتهم على الكفر والمذلة ، ونادى فى قومه ، قال : يا قوم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين ؛ فلولا ألقى عليه

(١) لا جرم : حقاً .

أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَب ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » .

وهؤلاء هم أذناب شرّه ، وعُمُدُ زيغه وظلمه قد أطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين .

لم يبق في قوس الصبر منزع ، ولا لحجة المبين موقع ، بعد أن عتا فرعون عتوا كبيرا ، وسدَّ مسالكَ القول ببهتانه ، وأنكر الشمس فى وضح النهار ؛ بل إنه قد استمر يذيق بنى إسرائيل أنواع المذلة ؛ وصنوف الهوان ؛ فأمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعونَ وقومه بأن الله لا بدّ مُذيقهم جزاء كفرِهم وحبسِهم بنى إسرائيل .

فأخذهم الله بنقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ؛ فنضب مَعينُ النيل ، وغاض ماؤه ، وقل غَناؤه ، وقصر عن إرْواء أرضهم ؛ فنقصت ثمراتهم ، وذوى عود خيرهم ، ثم أغرقهم الطوفانُ من مطر السماء ، فأضر بالزرع والضرع ، ثم زحف عليهم جراد أكل الثمار والأزهار ، واستولى عليهم القمَّل ، فأقض مضاجعهم ، وأقلق رقادهم ، وابتُلوا بالضفادع فنغَّصت عيشهم ، واحتشد جمعها فى طعامهم وشرابهم وبين ملابسهم ، وسلَّط الله عليهم الدّم ، فسال الرُّعاف من آنافهم ، ثم محق الله أموالهم وأهلكها جزاء خطيئاتهم وكفرهم . ولما وَقَعَ عليهم الرجزُ[1] قالوا : ياموسى

(١) الرجز : العذاب .

ٱدعُ لنا ربك بما عَهِدَ عندك ، لئن كشفتَ عنا الرِّجزَ لنؤمنَنّ لك ولنرسلنّ معك بنى إسرائيل .

كشف الله عنهم هذا البلاء ؛ ليمهد لهم سبيل الخلاص من حمأتهم ، وليقوى بحكمته الحجة والدليل عليهم ؛ ولكنهم نكثوا عهد الله ، فكانوا من الخائنين .

خروج بنى إسرائيل من مصر

أفصح النهار لذى عينين ، فتبيّن بنو إسرائيل الغىّ من الرشاد ، وانحازُوا لرسول الله الكريم ، يلتمسون لديه الرحمة والهداية ، وهم الذين ضُرِبَت عليهم الذلة والمسكنة ، وسِيموا سوء العذاب ؛ فعاشوا عيشة البلاء ، واصطبروا على اللأواء .

وكيف لا تتفتح بصائرهم ، ولا تتفجر ينابيع إيمانهم ، وقد لمسوا آية الحق ناصعةً مشرقة ؛ فقرّت بها عيونهم ، واطمأنت إلى مهادها جنوبُهم ؛ فلم يحفلوا بوعيد فرعون ، ولم يأبهوا لزمْجرَتهِ وتهديده ، والتمسوا الفِرار من أرض مصر ؛ طلباً للسلامة ، وبعداً عن القوم الظالمين .

سار بهم موسى أوّل الليل إلى الأرض المقدّسة ، وقد سهل الله إليها طريقهم ، فساروا حثيثاً : يدفعهم الخوف ، ويعصمهم الإيمان ، حتى قطعوا رقعة اليابسة المصرية ، وإذا بهم أمام بحر لجّى يقف أمامهم سدا منيعاً دون غايتهم ، وحائلا دون أمنيتهم ؛ فساورهم القلق ، واستولى عليهم الجَزَع ، وتوزّع نفوسهم الروعُ والفزع ؛ وهم المطلوبون لفرعون وجنوده ؛ وهو الذى يجدّ فى السير ، ويمعن فى الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم ؛ لأنهم ــ على زعمه ــ عبيد آبقون ، وأتباع مارقون . وكان قد جيّش جيشه ، وحشد خيله ورَجِله ، وسار وراء موسى ومَنْ تبعه ، حتى صار منهم قاب قوسين .

هاج بنو إسرائيل، وتقطّعت نفوسهم هماً وحسرة؛ أليس الموت قد شارَفهم، وحبائلُ فرعون قد اقتربت لتقنصَهم؟ هنا سُمِع صوت يجأر كما تنبعث الهيعة الصاخبة وسط المفازة المترامية، فيه عتب، وفيه لوم، وفيه استنجاد، وفيه يأس، وكان صاحب الصوت (يوشع بن نون).

قال: يا كليم الله؛ أين تدبيرك؟ ها قد دَهَمَتْنَا غوائل القدر: فالبحر أمامنا، والعدوّ وراءنا، وليس لنا من الموت محيص ولا مفر. فقال موسى: لقد أُمِرْت بالبحر، ولعلى أومر الآن بما أصنع. فسَرَتْ فى نفوس القوم سارية من الأمل الذى لا يلبث أن يمتد شعاعه، حتى تطفئه عواصف اليأس والقنوط، وشاعت فى نفوسهم ثورة يحبسها ما تبقى فى قلوبهم من رجاء، وما يعللهم به نبيهم من فرج ورخاء، إذن فليستسلموا لقضاء الله، والله لابدّ راحمهم وعاصمهم من فتك الظالمين.

أوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر، فضربه؛ فانجابت دياجير الظلام، وانحسرت طاغيات اليأس، وإذا اثنا عشر طريقا لاثنى عشر سبطا: لكل سبط طريق؛ وإذا الشمس والريح يهيئهما الله؛ فتجف هذه الأرض، وتمهد تلك السبل، وإذا القوم يسيرون آمنين فى رعاية الله الكبير المتعال، وإذا ربهم يؤمّن رسولهم؛ إذ يقول: «فاضرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فى البحر يَبَساً لا تخاف دَرَكاً ولا تخشى».

انساب الأسباط يُهرعون إلى بر الأمان والسلام، وقد قام الماء على جانبى كل طريق كالطود العظيم، حتى عبروا سالمين.

استشرف القوم بعيونهم؛ فأبصروا فرعون وجنوده يتأهبون

ليسلكوا مسالك بنى إسرائيل فى البحر ، حتى يلحقوا بهم ؛ فينزِلوا بهم أشد العذاب : فغشيهم من الهم ما غَشِيَهم ، وعاد إليهم القلق والاضطراب ، بعد أن ظلّلتهم سحابة من الأمن حين عبورهم البحر ، وتملكهم الخوف والإشفاق خشية أن يمتد إليهم عدوان فرعون ، بعد أن يجوز البحر من حيث جازُوه .

اتجهت القلوب ، وتطلّعت الأنظار نحو موسى حتى يكشف عنهم هذا البلاء المحدق ، الذى يكاد يدهمهم من حيث لا يشعرون؛ حينئذ همَّ موسى ليدعوَ البحر فيرجع إلى حاله ، حتى يحولَ بينهم وبين فرعون ، وليكون حاجزاً يحجز عنهم ذلك البطش الذى يلاحقهم فى كل مكان وزمان .

لم يكد عزمُ موسى يختلج فى فؤاده حتى أوحى الله إليه : أن اترك البحر ساكنا على حاله ، فلا تضْربه بعصاك لئلا يتغير منه شىء : لأن الله لا يريد أن يجعل البحر حائلا بينك وبينهم ، فيرجعوا إلى ديارهم سالمين ؛ بل قد سبقت كلمة الله فى هؤلاء أنهم جند مغرقون .

تلفّت فرعون وجنوده ؛ فإذا سبل البحر ممهدة أمامهم ، فيها يسيرون ومنها إلى بنى إسرائيل يصلون ؛ فانتفخت أوداجهم ، وأعماهم غرورهم ، وتاهوا فى ضلال الصلف والإعجاب؛ فقال فرعون لجنوده : انظروا إلى البحر كيف انفلق ؛ طوعاً لأمرى ، وانصياعاً لرأيى ، حتى أدرك هؤلاء الخارجين !

وكأنها كانت معجزةً لفرعون فى نظر أصحابه الضالين ، فتقوَّوا بقوته ، واطمأنوا لنصرته ، ثم اندفعوا إلى مسالك البحر ، وقد لجت بهم العجلة ؛ طلبا لبنى إسرائيل ؛ ولم يكادوا يصلون إلى عرضه حتى انطبق عليهم فأغرقهم أجمعين ، فصاروا مثلا للآخرين .

نسى فرعون علياءه ومجده ، وأدرك الحقيقة التى طالما خفيت عليه ، وأبصر فإذا هو عبد كليل الرأى ، حقير الشأن ، لا حول له ولا قوة ؛ فانجابت عنه تلك السحابة القاتمة المظلمة ، وتسرب إلى قلبه شعاع من الحق المبين .

وقد بَهَرَت فما تَخْفَى على أحد   إلا على أحدٍ لا يعرف القمرا

فى هذا الوقت العصيب فقط آمن فرعون ؛ فقال « آمنتُ أنهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الذى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيل وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِين » .

لم يتقبل الله محال هذا الطاغية الجبَّار الذى أهلك الحرث والنسل ؛ بل جازاه على شر أعماله ، وبئس المصير .

انطبق البحر ؛ فَسُمِعَ صوت انطباقه صاخباً شديدا ؛ فسأل موسى بنو إسرائيل : ماهذه الضوضاء ؟ فقال لهم : إن الله قد أهلك فرعون ومن معه مغرقين . فعاودتهم غريزة تأصلت فى نفوسهم ، وباطل تمكَّن من قلوبهم ، وَوَهْمٌ تسلَّط على عقولهم ؛ فقالوا : ياموسى ؛ إن فرعون لايموت ! ألم تر كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور لايحتاج إلى شىء مما يحتاج إليه بنو الإنسان ؟

قالوا هذا يغشِّى على أفئدتهم وهم باطل ، ولكن . . . فليختلقوا القدرة والحول ، والإمكان والطول لفرعون ، وليمعنوا فى دعاويهم الزائفة الكاسدة ؛ فهذه قدرة الله ، وذلك حول الله : أمر فألقى البحر جُثة فرعون على ساحله ، حتى لا تكون فى مُواراة البحر إياها سبيلٌ من سبل التقوّل لفرعون . فربما قالوا : إنه يعيش فى عالم آخر ، وربما افتروا ، وربما

كذبوا . إذن فليُخرس الله ألسنتهم ، وليكتم أنفاسهم ، ولينبذ البحر هذا الجسد المحطم ، وذلك السلطان المهدم .

نظر بنو إسرائيل دهشين ذاهلين مصرعَ هؤلاء الجبابرة العاتين : أغرق الله فرعون وجنوده ، ونجّى فرعون ببدنه ؛ ليكون آية لمن خَلْفَهُ : آية ناطقة على تلك القدرة المعجزة ، وذلك الإنعام الذى تفضل به رب العالمين.

مواعدة موسى

استقرت عصا التّسيار بموسى ومن معه؛ فأقاموا حيث وَا تَاهم
ومن ثَمَّ احتاجوا إلى منهاج يسيرون عليه، وشرع يركنون إليه
موسى ربه كتابا به يهتدون، وإلى حكمه يرجعون، وفيه من الأمر ما
ومن النهى ما يَذَرُون؛ حتى لا تتردّى بهم أيام الزمان، ولا يخبطون
المعاش والمعاد خَبْطَ عشواء.

أمر الله موسى أن يتطهر وأن يصوم ثلاثين يوما، ثم يا
طور سيناء حتى يكلّمه ربه، فيتلقى أمره فى كتاب يكون لهم المرجع وا
اختار موسى من قومه سبعين رجلا، ثم ذهب لميقات ربه؛
تعجّل فسبقهم إلى الطور، فوصل بعد ثلاثين ليلة، وقد تأخر عنه المخ
من قومه؛ حينئذ سئل عن الأمر الذى بعثه على الإسراع والعجلة؛
هم أولاء على أثرى، وعجِلتُ إليك ربى لترضى. فأمِر أن يُتِمَّ ميقا
أربعين ليلة.

وكان موسى قد ترك قومه، واستخلف عليهم أخاه هارون و
يقوم على شؤونهم، ويصلح أمورهم، ويَرْعَى أحوالهم؛ حتى يعود
يحمل الأمانة الغالية، ويسعدَ بذلك الشرف الموعود.

سار موسى إلى طور سيناء، فكلّمه ربُّه وناجاه، وقربه وأدناه
سرتْ فى نفسه روعةٌ وهزة، أججت فى فؤاده نار الشوق، وأ

أوار الهيام واللهفة؛ فقال: رب أرنى أنظر إليك! ولِمَ لا يختلج فى فؤاد موسى خاطرٌ يدفعه إلى أن يطلب رؤية ربه وقد نعِم بتلقى رسالته، وسَعد بالقرب من رعايته، ونال مالم ينله قبله أحد من العالمين؟ أليس المأرب شريفاً، والقصد كريماً؟

وموسى نفسه هو الرسول الذى طالبه قومه فقالوا: أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً! فلماذا لا يسأل ربه ذلك؛ ليرى بنفسه أمر الله فى ذلك المطلب المرغوب، وليكون حُكمُ الله حجة قاطعة لهؤلاء الراجين الملحفين؟

قال ربه: لن ترانى، ولكن انظر إلى الجبل؛ فإن استقر مكانه فسوف ترانى. تلفّت موسى فإذا الجبل قد دُكّ دكا، وغار فى الأرض وساخ؛ فارتاع لهول ذلك الخطب الجلل والأمر العظيم؛ فخرّ صعِقا، فلطف الله به، وشمله برحمته؛ فأفاق من صعقته، وقام يسبح الله الكبير المتعال.

أخذ موسى الألواح وفيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل، موعظة وتفصيلا لكل شىء: فقال: يارب لقد أكرمتنى بكرامة لم تُكرِمْ بها أحداً قبلى. فقال: ياموسى إنى اصْطَفَيْتُكَ على الناسِ برسَالاَتى وبِكلامى، فَخُذْ ما آتيتُكَ وكُنْ من الشَّاكِرِينَ.

وانتظر بنو إسرائيل أن يوافيهم موسى بعد ثلاثين يوماً من بدء غيبته، ولكنه - على غير علم منه - طال غيابه حتى صار أربعين يوماً، فتناجوا أمرهم بينهم، وقالوا: إن موسى أخلفنا وعده، ونقض عهده، وتركنا فى جهل مقيم، وليل بهيم؛ وما أجدرنا بمن ينير لنا المسالك، ويرشدُنا إلى سواء السبيل!

عندئذ تحركت فى نفس السامرى نَزْوة الشر و الفساد : فاغتنمها فرصة ، وقال لهم : عليكم أن تتخذوا لكم إلها ، فليس موسى براجع إليكم ؛ لأنه خرج ينشد إلهكم فضلّ الطريق ، فأبطأ عليكم ، وأخلف الميعاد .

قال الشيطان قوله هذا بعد أن استَشَفّ مافى نفوس القوم من خور وانحلال ؛ أليسوا هم الذين مالت قبلُ نفوسهم إلى الكفر ، وقد مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ؟

اغتنم السامرى هذه الجهالة الجهلاء ، و تلك الضلالة العمياء ، وأخذ حلياً ، ثم احتفر حفرة ، وقذفها فيها ، ثم أوقد ناراً ، وصنع منها عجلا جسداً له خُوار ؛ فأصبح فتنة بين القوم ميزت فيهم الغث من السمين .

فُتن بنو إسرائيل بهذا العجل وعبدوه ؛ فتقطعت نفس هرون أسى وحزناً ؛ وقال لهم : « ياقومِ إنّمَا فُتِنْتُم بِهِ ، وإنَّ ربَّكُمُ الرَّحْمَنُ ، فَاتّبِعُونِى وأطِيعُوا أمْرِى ؛ قالوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتى يَرْجِعَ إلَيْنَا موسى » .

فأقام هرون مع البقية الثابتين على وفائهم ، المتمسكين بإيمانهم ، وخشى أن يحارب الضالين الخارجين ؛ حذراً من التحزب ، وخوفاً من الفتنة والثورة .

استشعر موسى من ربه هذا الأمر ؛ إذ قال : ياموسى ، إنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السامرى . فلما أتمّ ميقات ربه ، وسار نحو قومه ، وسمع على بعدٍ لغطاً وضجيجاً : أدرك سرّ الأمر ، وحقيقةَ الحال ؛ حيث هم حول العجل يرقصون ويطربون ؛ فتملكته نوبةٌ من الغيظ والثورة ؛ فألقى مابيده من الألواح ؛ ثم دلف نحو هرون ، وأخذ برأسه

يجره إليه قائلا له : ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبع طريقى فيهم ، فترد شاردهم ، وتحاربَ مُفسدهم ، حتى تنطفئ هذه النار المتأججة بالبغى والكفران ؟

فتساقطت نفس هرون همًّا وحسرة ، وأقبل على أخيه يَستَلينه ويسترحمه ، ويهدّئ حدّة نفسه ، وثورة غضبه ، وقال : يا ابن أمّ : لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ؛ فإن القوم استضعفونى ، وكادوا يقتلوننى ، فلا تُشْمت بِيَ الأعداءَ ، ولا تجعلْنى مع القوم الظالمين ؛ ولقد خشيت أيها الأخ الكريم إن أنا حاربتهم أن تقول : فرّقت بين بنى إسرائيل ، ولم ترقُب قولى .

بعد ذلك سكت عن موسى الغضب ، وأخذ يعالج حالهم بحسن الرأى والحزم ؛ فالتفت إلى منبع الفتنة ، ورأس البدعة ، وداعية الضلالة ، فقال : ما خطْبك ياسامرى ؟ فقال السامرى : « بَصُرْتُ بمَا لم يَبْصُرُوا به ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أثرِ الرّسُولِ فنبذْتها ، وكذَلِكَ سَوّلَت لِي نَفْسى » .

ثم أقبل موسى على قومه ، فقال : ياقوم ألم يَعِدْكم ربكم وعداً حسنا ، أفطال عليكم العهد ، أم أردتم أن يحلّ عليكم غضبٌ من ربكم فأخلفتم موعدى ؟ قالوا : مَا أخْلفْنَا موْعدك بمَلْكِنا[1] ، ولكنا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم ، فصوّرها لنا السامرى ، وأخرج لنا عجلا جسدا له خُوار ؛ فأضلّنا عن الطريق المستقيم .

ثم ندموا على سقطتهم ، واستغفروا ربهم ، فقالوا : لئن لم يرحمْنا ربنا ويغفر لنا لنكوننّ من الخاسرين ؛ فقال لهم موسى : إنكم ظلمتم أنفسكم

---

(١) ملكنا : اختيارنا .

باتخاذكم العجل ؛ قالوا : فأى شىء نصنع ؟ فقال لهم : توبوا إلى بارئكم ؛ فسألوه أن يبين لهم طريق التوبة وسبيل المغفرة .

فقال موسى : عليكم بقتل أنفسكم : اكسروا حِدّتها ، واكبتوا شهوتها ، وطهّروها من الشر والإثم ، وجردوها عن كل مشتهى مرغوب ، وأقصوها عن كل مَرْجُوّ مطلوب ، حتى يصغر شأن النفس الآثمة ، ويهونَ خَطـْبها ، ويَحْقُر أمرها ؛ فَرَوِّضوا أرواحهم ، وهذَّبوا نفوسهم ، وأقبلوا على نصح نبيهم ؛ فتاب الله عليهم ، إنه هو التوَّابُ الرحيم .

أما السامرى الذى أشاع تلك الضلالة المنكَرة ؛ فإن الله عاقَبه فى دنياه بأن أمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ، ولا يقربوه : فصار وحشياً لا يألف ولا يؤلف ، ولا يدنو من الناس ، ولا يمس أحدا منهم ؛ وإن له لموعدا لن يخلفَه يوم القيامة ، يوم يساق إلى النار آثماً ؛ ليعذب بما جنَتْ يداه ، وبئس مصير الظالمين .

وأما عِجْله فقد أحرقه موسى ، وألقاه فى اليمّ ؛ وبذلك انجابت غيابة هذه الجريمة الشنعاء .

التيـــه

لم يكن على عهد بنى إسرائيل قوم حباهم الله الخير ، وأفاض عليهم النعمة ، وآثرهم بالبركات ، مثل هؤلاء الأقوام ؛ فقد نجّاهم الله من آل فرعون بعد أن ساموهم العذاب دهراً ! ثم عاد فأهلك فرعون على أيديهم ، وبين أسماعهم وأبصارهم ؛ ثم جعلهم بعد ذلك أحرارا يتصرفون فى أنفسهم ، بعد أن كانوا عبيدا أذلاء ، وجعل فيهم عددا من الأنبياء يرشدونهم وقد كانوا ضلّالا جهلاء ، وفجر لهم الصخر ، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى ، وآتاهم مالم يؤت أحدا من العالمين .

وإتماما لنعمة الله عليهم ورغبةً منه ـ سبحانه ـ فى الإحسان إليهم ، أوحى إلى موسى أن يقودهم إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام ، وهى أرض الميعاد ، التى وَعد الله بها إبراهيم الخليل ، أن يجعلها ملكا للصالحين من ذُرّيته ، والقائمين على شريعته .

ولكن بنى إسرائيل كانوا بما تعاور عليهم من ظلم الفراعنة ، وترادَف عليهم من جَوْر الحكام ، قد خُزِمت أنوفهم ، وذلت أخادعهم ، وأمكنوا من أيديهم على خنوع ، وأعطوا المقادة على خضوع ! حتى هان عليهم الهوان ؛ وحبب إليهم الضعف والاستسلام :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

فلم يكادوا يسمعون كلمة الغزو ، أو يكلفون دخول « أريحاء » ليُخرجوا منها الحيثيين ، والكنعانيين ، ويتخذوها لهم وطنا كثير الخيرات ، وافر البركات ؛ حتى قالوا لموسى ؛ جُبْناً وضعفا ، واستخذاء واستسلاماً : « إنَّ

فيها قوماً جبَّارِينَ ، وإنا لَنْ نَدْخُلَهَا حتى يَخْرُجوا مِنْها ، فإنْ يَخْرُجوا مِنْهَا فإنَّا دَاخِلُون » وكأنهم طمعوا أن يخرج القوم منها بما أَلِفُوا من المعجزات ، وخوارق العادات ، ثم يدخلوا موفورين لم يُكْلَم أحد منهم فى سبيل الله بكَلم ، ولم يُصب بجرح ؛ شأن الضعيف العاجز ، والخائر الجبان !

ولكنَّ رجلين كانا ممن طبعهم الله على الإيمان ، وفطر نفوسهم على الطاعة والإذعان ، لم يَحْطِبَا فى حبل أقوامهم ، ولم يجريا فى الحديث على غرارهم ؛ فتوجها إلى قومهم ناصحين ، وقاما فيهم مرشدين : ادخُلوا عليهم البابَ ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .

ولكنهم عادوا إلى حديث جُبنهم ، وإعلان خوفهم ، وزادوا على ذلك القِحة والتمرد ، والغباء والتبلد ، وقالوا لموسى بما يذهب صبر الحليم ، ويثير وجيع الجرح الأليم : « ياموسى إنَّا لَنْ نَدْخلها أبداً ما دَامُوا فِيها ، فَاذْهَبْ أَنْتَ ورَبُّكَ فَقَاتِلاَ إنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون » .

وعند ذلك تلفت موسى فلم يجد من يثق بمعونته ، ويعتمد على نصرته ، إلا أخاه هارون ، وهما شخصان وحيدان ، فى أضعف جند ، وأنكد أتباع ، وأمامهما عدو قوى المراس ، كثير الجنود ؛ فتوجّه إلى الله قائلا : رَبِّ إنى لَا أَمْلِكُ إلا نَفْسِى وأخى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وبينَ القوم الفاسقين .

فأوحى الله إليه : أن دَعْهم يتيهون فى هذه البيداء ؛ يضربون فى مجاهلها ، ويتخبّطون فى نواحيها أربعين عاما ، حتى يفنى كبراؤهم ، وتهلك رؤساؤهم ، ويظهر بعدَهم جيل عزيز الجانب ، منيعُ الساحة ، يعودون إلى الغزو ، ويركبون مَتْن الجهاد .

البقـــرة *

تقدم بالشيخ تتابعُ الأيام، وأحس بدنوِّ الأجل؛ وكان عبدا صالحا لا تفتنه زخارف الحياة عن الثقة والرجاء فى الله، ولم يُلْهِه التكاثر فى المال والبنين؛ بل كان لا يملك سوى بقرة يأتى بها إلى الغيضة، ثم يتوجه إلى بارئه بقلب خالص، وثقة ثابتة، فيقول: «اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يَكْبَر»، ومازال الرجل يترقرق فى صدره هذا الأمل القوى بنور الله حتى مات، وبقيت البقرة لليتيم، وهى عَرَض من العروض لا تغنى شيئا، إلا أنّ رحمة الله أبقى وأعز.

واستمر اليتيم يرعى البقرة؛ يحدوه شعاع من الأمل ورثه من الصالحات الباقيات لأبيه.

وقد كان من وجوه بنى إسرائيل شيخ موسر مدّ الله فى أسباب دنياه، وبسط له نعمة الغنى، ورزقه ابنا وحيداً، تنحدر إليه بعد موت أبيه كل هذه الثروة الواسعة؛ ولكن بنى عمومته نَفِسُوا [1] عليه هذا المال، وهم لا يجدون من قليل ولا كثير، فتألّبوا عليه فقتلوه، ثم طالبوا قوما آخرين بدمه: فهبت عاصفة هوجاء، وثارت ريح نكباء، فلم يجد القوم ملجأ أمامهم إلا باب موسى عليه السلام؛ يتحاكمون إليه، ويلتمسون عنده إيضاح الخفاء.

---

* القرآن الكريم ـ سورة البقرة · الآيات من ٦٧ - ٧٣

(١) نفس عليه: حسده.

سأل موسى ربه ، ثم أمرهم أن يذبحوا بقرة ، ويضربوه بلسانها ، فيحيا فيخبر بقاتله ؛ فضلّت أحلامهم ، وعزبت عن عقولهم قوةُ الله وقدرته ؛ وظنوا أن موسى يهزأ بهم ، ويسفّه أحلامهم ؛ فراجعوه ، فقال : أعوذ بالله أن أكونَ من الجاهلين .

ولو أنهم ذبحوا أى بقرة من يوم أن أمرهم رسولهم لكانت كافية ؛ ولكنهم تمادوا فى إلحافهم ولجاجهم ؛ فشدد الله عليهم ، وجعل البقرة مسوّمة بعلامات خفى عليهم أمرها ، فتاهوا فى بيداء اللجاج .

ولقد كان هذا أمرا خارقا ، وحقيقة تقصّر عن صدقها عقولهم ؛ فسألوا ضالين : ماهذه البقرة : أكما عهدنا هذا الجنس من الحيوان ، أم هى خلق آخر تفرّد بمزية ، واختص بإعجاز ؟ فأوضح الله سبيلهم ، وبيّن أنها بقرة لامُسِنّة ولا فتية ، بل هى عَوَان [(١)] بين ذلك . فليفعلوا مايؤمرون .

ولكنهم ـ وهم من البشر ـ قالوا : ادع لنا ربك يبيّن لنا مالونها ؟ قال : إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ؛ فازدادت حيرتهم ، وضلت عقولهم ؛ فلم تستطع أن تسمو إلى هذا الإلهام الإلهى العجيب ، وكأنهم لم يعوا شيئا ؛ فكرروا سؤالهم الأول معتذرين بأن البقر تَشَابَه عليهم ، وهم يرجون بمشيئة الله الهدى والرشاد . فأجيبوا بأنها بقرة غير معدة لسقى ولا لحرث ، سلمت من العيوب ، لاشية فيها [(٢)] .

فاهتدوا إليها بعد لأى عند ذلك اليتيم الذى بارك الله فى بقرته ؛ فاشتروها منه بمال وافر ، فذبحوها بعد حيرة طويلة ، وتردّد كثير .

---

(١) عوان : وسط (٢) لاشية فيها : خالصة الصفرة .

موسى والخضر *

وقف موسى عليه السلام خطيبا فى بنى إسرائيل ؛ مذكراً لهم بأيام الله بعبارات تثير الأسى ، وتبعث الشئون ؛ ففاضت العيون ، ورقَّت القلوب .

ولما انتهى من قوله تعلق بأهدابه رجل ، وقال : أى رسول الله ؛ هل فى الأرض من هو أعلم منك ؟ قال : لا . أليس هو كبير أنبياء بنى إسرائيل وقاهر فرعون ؟ أو ليس هو صاحب اليد والعصا ، وبعصاه انفلق البحر ؟ أليس الله قد شرفه بالتوراة وكلمه بلا واسطة ؟ فأى غاية أبعد من هذه الغاية ؟ وأى شرف أسمى من هذا الشرف ؟

ولكن الله أوحى إليه أنّ العلم أعظمُ من أن يحويَه رجل ، أو ينفرد به رسول ؛ وأن فى الأرض مَنْ خصه بعلم أَوْفَرَ من علمه ، ونصيب من الإلهام أوفر من نصيبه . قال : يارب أين مكانه لعلى ألقاه ، فأصيبَ قَبَسا من علمه ، أو فيضا من إلهامه ويقينه ؟ قال : تلقاه بمجمع البحرين ، قال : اجعل لى علَماً يدلنى عليه ، وآيةً ترشدنى إليه . قال : آية ذلك أن تأخذ حوتاً فى مِكتَل ، فحيث فقدتَ الحوت فقد وجدت الرجل .

فأخذ موسى للأمر عُدَّته ، واصطحب فتاه ، وحمّله المكتل ، ووضع الحوت فيه كما أوحى إليه ربه ، وظل سائراً وقِبلَتُه الرجل ؛ وأخذ على نفسه عهداً أنه سيظل مجدًّا فى السير ، مُمْعِناً فى الطلب ، حتى يبلغ هذا

---

* القرآن الكريم - سورة الكهف - آية ٦٣ وما بعدها .

المكان، ولو مضت عليه الأيام، أو تعاقبت السنون، ثم آذن الفتى أن يخبره إذا فقد الحوت.

ولما بلغا مجمع البحرين، فى المكان الذى أراد الله أن يلتقى فيه نبىّ بنى إسرائيل بعبده الصالح؛ أخذت موسى سِنةٌ فنام، وفى أثناء نومه هضبت[1] السماء؛ فابتَلّ الحوت وانتفض، وسرتْ إليه الحياة، ثم قفز إلى الماء.

واستيقظ موسى ـ عليه السلام ـ ونادى فتاه: هيا نواصل السير والسُّرى، وأنسى الشيطان الفتى ماكان من أمر الحوت، وتابعا المسير إلى أنْ أدركهما الأَيْن وأحسّا الجوع؛ فقال موسى لفتاه: آتِنَا غداءنا لقد لقِينَا من سَفَرنا هذا نَصَباً.

ولما همّ أن يأخذ الغَداء من المكتل تذكّر ماكان من أمر الحوت وذهابه فى الماء، فقال: أرأيتَ إذْ أوَيْنَا إلى الصخرة، وحين غَشّاكَ النعاس، فإن الحوت قد اتخذ سبيله إلى الماء، ونسيتُ أن أذكّرك، وما أنسانى إلا الشيطان.

وحينئذ لاحت لموسى شارةُ الظفر؛ ووجد ريح الرّجل، فقال: ذلك ما كنا نبغيه وننشده؛ هيا بنا عودا على هذا المكان، فإننا سنصيب الغاية؛ ورجعا يَقُوفان الأثر[2]، ويتعرفان الطريق.

ولما وصلا إلى حيث فقدا الحوت؛ وجدا رجلا نحيل الجسم، غائر العينين، عليه دلائل من النبوة، وفى وجهه فيض من السماحة والتقوى،

(١) هضبت السماء: أمطرت (٢) يقوفان الأثر: يتتبعانه.

قد سُجّى بثوبه ، وجعل طرَفه تحت رجليه ، وطرفه الآخر تحت رأسه ؛ فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه ، وقال : هل بأرضى من سلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى نَبيّ بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، ومن أعلمك بهذا ؟ قال : الذى بعثك إلىّ . فعلم موسى أنه ضالته التى ينشدها ، وبُغْيتُه التى جهد فى سبيلها ؛ فتلطّف فى القول ، وتجمّل بأحسن ما وهبه الله من أدب الحديث ، وفضل التواضع ، وقال : هل تأذن أيها العبد الصالح ، لرجل جاهد فى سبيل لُقياك ، ولقى العناء حتى أصاب موضعك ، أن تفيض عليه من علمك ، وأن تقبسه شيئا من هديك ، على أن أتّبعك ، وأسير فى ظلك ، وألتزم أمرك ونهيك ؟

قال له الخضر : إنك لن تستطيع معى صبرا ، ولو أنك صحبتنى فإنك سترى ظواهر عجيبة ، وأمورا غريبة ، وسترى أمورا مُنكَرة فى ظاهرها ، وإن كانت حقا فى باطنها ؛ ولكنك بما ركّب الله فى البشر من إلْفِ القِيل والقال ، والجنوح إلى البحث والجدال ، سوف لا تسكت عن الاعتراض ، ولا تتورع عن الامتعاض ؛ وكيف تصبر على ما يخرج عن مألوفك ، ويتجاوز معروفك ؟

فقال له موسى ـ وكان حريصا على العلم ، توّاقا إلى المعرفة ـ : « سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً ، وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْراً » .

قال الخضر : إن صَحِبْتَنِى فإنى آخذ عليك عهداً وشرطاً : أن تأخذ عدتك من الحزم والصبر ، ونصيبَك من الجلد وضبط النفس ، فلا تبتدرنى بسؤال ، ولا تثر أمامى أى اعتراض ، حتى ينقضى الشرط ، وتنتهى

الرحلة ، وإنى بعدها سآتى على مافى نفسك ، وأشفى مابصدرك .

فقبل موسى الشرط ، وقيّد نفسه بذلك العهد ، وسارا على الساحل حتى لمحا سفينة فى البحر ؛ فطلبا من أهلها حملهما إلى حيث يذهبون ؛ ولما قرءوا السماحة فى وجههما ، ورأوا بريق النبوة يلمع فى عيونهما ، حملوهما من غير نَوْل [1] ، وبلغوا فى إكرامهما ، والحفاوة بهما .

وبينما هما فى السفينة ، وعلى حين غَفْلةٍ من أهلها ، أخذ الخضر لوحين من خشب السفينة فخلعهما ! فهال موسى ــ وهو الرسول الكريم ، الذى أرسل لهداية الناس ، وردّ عادية الظلم ــ أن يقابل صنيعهم بالإساءة ، وجميلهم بالنّكران ، وخشى أن يصيبهم غرق أو هلاك ، فنسى عهدَه وشرطه ، وصاح : أتعْمِد إلى قوم أكرموا وفادتنا ، وأحسنوا لقاءنا ، فتخرق سفينتهم ، وتحاول إغراقهم ؟ «لقَدْ جِئْتَ شَيْئا إمْراً [2]» .

فالتفت الخضر إليه ، وما زاد على أن ذكّره بشرطه وعهده ، وما قدّره من قبل : من أنه سوف لا يصبر على سؤال ، ولا يسكت عن مراء ، وقال : «أَلَمْ أَقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً» ؟ وحينئذ أدرك موسى ما وقع فيه من خطإ ، وما تورّط فيه من نسيان ، فاعتذر إليه واستغفره من نسيانه ، وقال : لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ، وَلاَ تحرمنى شرف الصحبة ، وفضل المرافقة ، وسأكون بعد الآن كما شرطت .

وغادرا السفينة ، وتابعا السير ، فوجدا غلاما وضيئاً ، يلعب مع لِدَاته وأقرانه ، فأخذه الخضر بعيداً ، ثم أضجعه وقتله ! ! ففزع موسى من هذا

(١) نول : أجرة (٢) شيئاً إمرا : أمرا عظيما .

القتل ، وكـبُر عنده ذلك الإثم ؛ إذ رأى غلاماً يافعاً ، قد يكون وحيدَ أهله ، ورجاء والديه ، يُقْتَل فى غير قَودَ ، ويُسفك دمه من غير إثم ، على يد ربانيٍّ كريم ، وإمام من أئمة الهدى والدين ؛ فتحلَّل من عهده ، وأطلق نفسه من ميثاقه ، وقال : ماهذا المنكر الذى تأتيه ، والإثم الذى ترتكبه؟ «أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْس ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً [1]» !

فالتفت إليه الخضر ولم يزد على أن ذكَّره بعهده ، وماكان من شرطه ، وماقدَّره مما سيكون من سؤاله عما لا يعرف ، وامتعاضه مما لا يألف قائلا: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً» ؟

وهنا استحيا موسى ، وأدرك أنه قد أثقلَ على هذا العبد الصالح ، وكان خليقا به أن يدَّرع بالصبر ، ويحجز لسانه عن الجدل ، حتى يُفْصِح له بعدُ عما خفى من أمره ، وما تشابه عليه من علمه ، وخشى إن تمادى أن يقع منه على موجدة أو كراهية ؛ فاتخذ لنفسه شرطا : ألا يعجل بسؤال بعد الآن ، وإلا فإن رفيقه فى حل من مفارقته ، وقطع صحبته ، وقال : «إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذْراً» .

وانطلقا على هذا الشرط حتى أدركهما الطوى ، ونال منهما النَّصَبُ والكلال ، وصادفا قريةً فى طريقهما ، فدَخلاها طمعا فى زاد يعينهما على السير ، ويمسكهما على الجوع ؛ ولكن أهلها — بما كانوا عليه من لؤم النحيزة ، وكزازة النفس — أبَوْا أنْ يضيِّفوهما ، وردُّوهما رداً غير جميل ؛ فلم يجدا عندهم مأوى ولا طعاما ، وخرجا جائعَيْن ساخطين .

(١) النكر : المنكر .

وقبل أن يجاوزا القرية وجدا جداراً يتداعى للسقوط ، فأقامه الخضر؛ وأصلح من شأنه ؛ فقال موسى : عجبا ! أتجازى هؤلاء القوم اللؤماء، الذين أساءوا اللقاء، بهذا الإحسان ؟ لو شئتَ لاتّخذتَ على عملك هذا أجراً، نسد به حاجتنا ، ونحفظ به على الحياة أنفاسنا !

قال الخضر ، وقد آمن بأن موسى سوف لايستطيع بعد الآن صبراً : «هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَالَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» :

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ؛ فيصيبون منها رزقا يعينهم على الكسب ، ويقطعون به مفازة الحياة ... ولكن مَلكاً ظالما كان يتبع كل سفينة صالحة ، يأخذها من أهلها عَنْوة ، ويستولى عليها غَصْبا ؛ فأردت أن أعيبها ؛ رفقا بهم ورحمة لهم ، حتى إذا شهدها مَلِكُهم تركها بعيبها . فهذا عمل إن كان ظاهره الفساد ففى باطنه الرحمة ؛ وإن كنتَ قد حسبتَه نُكْرا ، فإنما هو حفظ للمساكين ، وإبقاء على حياة هؤلاء البائسين .

وأما الغلام فكان وَقاحا مُبَغَّضا من الناس ، وكان أبواه مؤمنين ، وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء ، والدفاع عنهم بالحق وبالباطل ، خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له ، والميل إلى طريقته ؛ فيتتهيا إلى الطغيان والكفر ؛ فقتلته حفظا لدينهما ، ورجاء من الله أن يرزقهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحْماً .

وأما الجدار فقد علمتُ من الله أن تحته كنزا ليتيمين صغيرين ؛

تحدّرا من صالح كريم ، فأردت أن أحمى هذا الجدار ، حتى يشتد أزرهما ، ويقوى على الحياة أمرهما ؛ فيستخرجا كنزهما ، مالاً حلالا طيباً لهما .

وما فعلتُ هذا بعلمى ولا برأيى ، ولكنه وحى من الله وهدى منه ، «ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» .

طالوت *

كان التابوت نعمةً من نعم الله على بنى إسرائيل ـ ونعمُه كانت عليهم سابغة ، وآلاؤه متلاحقة ـ وكان لهذا التابوت عندهم شأن عجيب ، ونبأ طريف : كانوا إذا اشتبكوا مع أعدائهم فى قتال ، أو التقوا بهم فى ساحة نزال ، يحمِلونه بين أيديهم ، ويقدمونه فى صفوفهم ، فينشرُ فى قلوبهم سكينةً واطمئنانا ، ويبعث فى أعدائهم هَلعا ورعبا ؛ لسرٍ عجيب فيه ، ومزايا خصه الله بها .

ولكنهم لما انحرفوا عن شريعتهم ، وغيّروا ما بأنفسهم ، سلّط الله عليهم الفلسطينيين فغلبوهم على أمرهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، وحالوا بينهم وبين أبنائهم ؛ وأخيراً أخذوا التابوت منهم ؛ فانفصمت عروتهم ، وتصدّعت وَحدتهم ؛ ثم استكانوا إلى ذُل ، وأغمضوا جفونهم على هوان .

وظلوا على ذلك حقبة من الدهر ، حتى كان نبيّهم صمويل ؛ ففزع إليه نفرٌ منهم أرادوا أن يتجافوا بنفوسهم عن مطارح الهوان ، وينزعوا بها عن مَعَرّة الامتهان ، وطلبوا إليه أن يختار لهم ملكا يتألفون تحت رايته ، ويُجمعون أمرهم تحت زعامته ؛ لعلهم به يغلبون العدو ، ويكتب الله لهم النصر

فقال لهم ، وقد كان سبر أحوالهم ، وعجم عيدانهم ، وعرف موضع الضعف فيهم : إنى أتوقع تخاذلكم إذا كُتِبَ عليكم القتال ، وتواكلكم حينما يدعوكم داعى الجهاد .

---

* القرآن الكريم ـ سورة البقرة : آية ٢٤٦ - ٢٥١

قالوا : كيف لنا أن نتخاذل ونتواكل، وقد أخرجنا من ديارنا، وحيل بيننا وبين أبنائنا ؟ وأى حال أسوأ مما نحن فيه ؟ وأى ذل أشد مما ابتُلينا به ؟

قال صمويل : دعونى أستخير الله فى أمركم ، وأستوحيه فى شأنكم .

واستخار الله فيمن يصلح لملكهم ، ويقوم على قيادتهم ؛ فأوحى الله إليه : انى قد اخترت عليهم طالوت ملكا . قال صمويل : يارب ؛ إن طالوت رجل لم أعرفه بعد ، ولم أرَه من قبل ؛ فأوحى إليه : إنى مرسله إليك ، وسوف لاترى عُسْرا فى لقائه ، ولا جهدا فى تعرف ملامحه ؛ فَوَلِّه الملك وسلّمه راية الجهاد .

* * *

وكان طالوت رجلا بادنا ، فارع الطول ، وافى التقطيع ، شديد الأسر ، له عينان يلمح الناظر إليه أن وراءهما قلبا ذكيا ، وجنانا فتيا ، ولكنه لم يك رجلا بعيد الصيت ، أو معروف الذكر . كان يقيم مع أبيه فى قرية من قرى الوادى ، يرعى له الماشية ، ويفلح الأرض ، ويصلح الزرع .

وفيما هو فى شأنه فى الحقل مع أبيه ، ضلّت منهما الأُتُن ، فخرج مع غلامه ينشدانها فى شعاب الوادى ، وبين أودية الجبال ، وظلا أياما يُغذّان [1] السير بين غور الأرض ونجادها ، حتى ورمت منهما الأقدام ، وأكلّهما السُّرى .

فقال طالوت لغلامه : هَيَّا بنا نعود أدراجنا ، فإنى أحزِر [2] أن أبى قد

---

(١) يسرعان . (٢) أقدر .

كثرت بلابله ، وتشعبتْ هواجسه ، وأخشى أن يشتغل بنا عن الأُتن .

قال الغلام : إنا الآن قد وصلنا إلى أرض «صوف» موطن صمويل ، وهو فيما أعلم نبي يأتيه الوحى ، وتهبط عليه الملائكة ؛ هلمّ إليه نستوضحه شأن الأُتن ، لعلنا نستضىء برأيه ، أو نهتدى بوحيه ؛ فارتاح طالوت لهذا الخاطر ، وتجدّد عنده الأمل ، وشام بارق النجاح .

ولقيا فى طريقهما إلى صمويل فتيات خرجن يستقين الماء ، فطلبا إليهن أن يرشدنهما عن صمويل نبي الله الكريم ، أين يقيم ؟ وكيف يلقيانه ؟ فقُلْنَ لهما : إن الشّعب ينتظره فوق هذا الجبل ، وهو يوشك الآن أن يجيء ؛ وبينماهما فى الحديث معهنّ ، إذ طلع عليهما صمويل يفوح منه أرج النبوة ، وتحدّثُ معارف وجهه عن نبي كريم ورسول أمين ، والتقت عينا طالوت بصمويل ؛ فتعارفت أرواحهما ، واتّصلت نفوسهما ، ووقع فى قلب صمويل أن هـذا طالوت الذى أوحى الله إليه بتمليكه ، وآذن بأنه يحمل أعباء الزعامة والسلطان .

قال طالوت : إننى جئتك يانبي الله مستوضحا مسترشداً : إن لأبى أتُنًا ضلّت فى شعاب هذا الوادى ؛ وقد خرجتُ فى إثرها مع هذا الغلام نتعرف الطريق ، ونقفو الأثر ؛ فما ظفرنا بعد ثلاث إلا بالخيبة ، وما عُدنا إلا بكواذب الآمال ، وقد جئناك ؛ لعل فيضا من علمك يهدينا إليها ، أو يدلنا عليها .

قال صمويل : أما الأتن فهى فى طريقها إلى أبيك ، فلا تربط قلبك بها ، ولا تُعَلِّق حِبالَ ذهنك فيها ؛ ولكننى أدعوك لأمر أجلّ خطراً ،

وأعظم مقدارا : إن الله قد اختارك على بنى إسرائيل ملكا ؛ تجمع كلمتهم ، وتحزم أمورهم ، وتخلصهم من أعدائهم ، وسيكتب لك — إن شاء — النصر ، ولأعدائك الكَبْتَ والخِذلان . قال له طالوت : وما أنا والملك والرياسة ، والزعامة والسلطان ؟ أنا من أبناء بنيامين ، أخمل الأسباط ذكراً ، وأدناهم مالا ، فكيف أصير إلى الملك ، أو أمسك بحبال السلطان ؟

قال صموئيل : إن هذه إرادة الله ووحيه ، وأمره وكلمته ، فاشكرْ له هذه النعمة ، واجمع رأيك على الجهاد . وأمسك طالوت من يده ، ووقف به على القوم يقول : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، له حق الرياسة والسلطان، وعليكم الطاعة والإذعان ، فأجمعوا أموركم ، واستعدُّوا للقاء عدوكم .

ولكن ما كان أشد ذهولَهم ، وأظهر وجومهم ، عند ما أخبرهم صموئيل أن الملكَ فيهم سيصير إلى طالوت . وهو من رأوه خمول ذكر ، وقلة مال ، وسوء حال . ثم نظر بعضهم إلى بعض ، ولَوَوْا أخادعهم ، وزَمّوا بأنوفهم ، وقالوا : كيف يكون له الملك علينا ، وهو فى النسب غير عريق ، وفى المحتد غير كريم ؟ لا هو من أبناء لاوى (١) فرع النبوة وسَرْحة الرسالة ، ولا هو من غصن يهوذا (٢) معدن الملك وأصحاب الرياسة ؟ ثم كيف تُولّى علينا رجلا فقيراً ، فارغ اليد ، لا يجد مالًا يُدَبِّر به الملك ، أو يحفظ به حَوْزة السلطان ؟ وما منا إلا صاحب ثروة وجاه ، وذو سطوة ونفوذ ؛

(١ و ٢) كان الأنبياء فى بنى إسرائيل من « لاوى » والملوك من « يهوذا » ؛ اختصا بهذا من سائر الأسباط .

قال صمويل : إن زعامة الجيش ، ورياسة الملك لايحتاجان إلى نسب أو نشب ؛ ومايجدى النسب لفَدْم [١] أخرق ، لا يعرف من تصريف الأمور شيئا ؟ وماغناء المال لمتخلف الذهن ، سقيم الفهم ، لايملك فى سياسة الجيوش حولا ولا طولا ؟ ولكن هذا طالوت فضّله الله عليكم، لما فيه من الكفاية والقدرة ، وما رزقه من مواهب الزعامة والرياسة ، فأنتم ترونه رجلا بسط الله فى جسمه ، وسوّى فى خلقه ، صلب العَضَل ، متين العصب ، عريض الألواح ؛ وذلك أجلب للمهابة ، وأنسب للرياسة . ألا ترون لو أن الله ملّك عليكم رجلا قميئا [٢]، مُنْسرِق القوة ، منحل العزيمة ، فإنه لابد أن تقتحمه عيونكم ، وتزدريه جنودكم ؛ ثم إن الله رزقه أيضا استعدادا فطريا وميلا للحروب غرزيا ، وأحكم من عقله ، وأرهف فى ذهنه ، حُوّلٌ قُلَّب ، رَحبُ الذراع ، طويل الباع ، بصير بالحروب ، خبير بمواطن الكفاح .

وفوق مامنحه الله من الصفات المحمودة ، فإنه قد اختاره لكم ، وملّكه عليكم وهو أعلم بالمصالح ، وأعرف بالعواقب ؛ ثم هو ـ جلّ شأنه ـ مالك الملك ، يؤتيه من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، وماكان يليق بكم ـ وقد اختارالله لكم ـ أن تكون لكم الخِيَرة من أمركم ، أو النفرة من جانبكم .

قالوا : أما إذا قضى الله بشىء ، أو صدر عنه أمر أو نهى ، فلا مُعَقِّب لحكمه ، ولا معدل عن أمره ، ولكن هات لنا آية نعرف بها أمره ، ونعلم قضاءه .

---

(١) الفدم : الغبي (٢) القمىء : الصغير الذليل .

قال : إن الله قد علم لجاجكم وعنادكم ، وقِيلكم وقالكم ، فجعل لكم علامة وآية : أن تخرجوا إلى ظاهر المدينة فترَوا التابوت ـ الذى ذللتم بعد ذهابه ، ولقيتم الخسف والهوان بعد ضياعه ـ قادماً إليكم ، وفيه سكينة لكم ، تحمله الملائكة ؛ وفى ذلك آية لكم إن كنتم مؤمنين .

وخرجوا كما واعدهم ، فوجدوا التابوت ، ونزلت عليهم السكينة ، وصَحَّت عندهم العلامة ، فبايعوا طالوت ، وأقروا له بالملك والسلطان .

* * *

واضطلع طالوت بالملك ، وأحسن قيادة الجنود ، وأظهر حزما وعزما وفطنة وذكاء . . . قال ياقوم : لا ينتظمنَّ فى جيشى إلا من كان خاليا من الهواجس ، فارغا من الصوارف ؛ فلا يدخل فيه من كان قد شرع فى بناء لم يتمه ، أو خطب عروساً لم يبن بها ، أو له تجارة وعقله مشغول بها .

وتم له ماأراد ، واستوى أمامه جيش متلاحم النسج ، قوىّ القلب ، قوى الجناحين ؛ ولكنه أراد أن يتحوّط لنفسه ، بعد مابدا له منهم من الشك فى أمره ، والجدل حول تمليكه ؛ فأراد أن يختبرهم مخافة أن يخذلوه ساعة اشتباك القنا وخفق البنود[1] ، أو يفروا حين الزحف وتقابل الأقران ، فقال : إنكم ستبلغون نهراً ؛ فمن كان معى صابرا محتسبا ، فلا ينهل الماء إلا بمقدار مايبرد كبده ، ويَبُلّ ريقه ؛ هذا الذى أحسبه منى ، وتسكن إليه نفسى . أما من علَّ منه ونهلَ فقد جاوز الأمر

(١) البنود : الأعلام .

وركب متن الخلاف[١] .

وكان ماخافه طالوت ؛ فقد شربوا منه إلا قليلا منهم ، هم الصابرون المؤمنون، المخلصون المجاهدون ؛ وأصبح الجيش أوزاعا من ضعفاء العزيمة وخائريها ، ومن صادقى النية وكاذبيها ؛ ولكنه ادّرع بالمخاصين ، وصابر المترددين ، وخرج بالجمع يلقى العدو ، ويجاهد فى الله .

ولما خرجوا إلى الساحة ، واستشرفوا للقتال ، لمحوا من أعدائهم رجالا أشداء ، مافيهم إلا ابن كريهة وخوّاض غمرات ، يَفْضُلونهم أهبة ، ويفوقونهم عُدّةَ ؛ وجالوت بُهْمتهم[٢] ، وكبش كتيبتهم ، يصول بينهم ويجول .

وانقسم أصحاب طالوت شعبتين : شعبة منهم خار عودهم ، وانخلع فؤادهم ، وتخاذلت قوتهم ، وقالوا : «لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ» . وشعبة منهم ظلت صابرة صامدة ، هم الذين عَمَر قلبهم بالإيمان ، وأشربوا فى قلوبهم حب الله ، واستعدّوا للموت ، ولم تزعجهم كثرة أعدائهم ، ولم تردعهم قلة عَددهم ، بل قالوا لطالوت : امض لشأنك ، وسِرْ فى سبيلك ، وإنا إن شاء الله لا نُخْذَل من قلة ، ولا نغلب على أمرنا من ضعف ، «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» .

وخرجوا وعَتادهم الصبر ، وزادُهم الإيمان ، وتوجهوا إلى الله

---

(١) لعل الحكمة فى ذلك أنه خشى لو أباح لهم الهجوم على النهر بعد عطش شديد ، وقع أكثرهم فى النهر وأفرطوا فى الشرب فخارت قواهم وجبنوا عن لقاء عدوهم (٢) البهمة : الشجاع الذى يستبهم على أقرانه مأتاه .

طالبين منه أن يُفْرِغ عليهم صبراً، ويسبغ عليهم نصرا؛ فإنهم ماخرجوا إلا جهاداً فى سبيله، وابتغاءً لمرضاته.

ولما التقى الجمعان، وحمى الوطيس، برز جالوت يدعو للمناجزة والمبارزة، ولكن خاف الباقون بطشه، وهابوا صولته، ووقفوا حوله بين متقاعس ومحجم، أو منخذل ومتراجع.

* * *

كان يقيم فى بيت لحم رجل تقدمت به السنون، وأحنَت صَعْدَته الأيام؛ يعيش سعيدا فى نفسه، آمنا فى سِرْبه، وادعا مع بنيه. ولما وقعت الحرب، واستنفر طالوت بنى إسرائيل للجهاد، انتخب ذلك الرجل ثلاثة من كبار أبنائه، وقال: خذوا عُدتكم وسلاحكم، وظاهروا إخوانكم، وأدُّوا فى الجهاد نصيبكم. ثم قال لأصغر أبنائه: أما أنت فنصيبك فى الجهاد أن تحمل الطعام لإخوتك، وأن تكون سفيرا بينى وبينهم، وتسفر لى صباح كل يوم عن أحوالهم؛ وساحة الحرب حَذَارِ أن تقربها، أو تخوض غمارها، أو تصطلى بنارها؛ فإنك لست من رجالها ولا فتيانها، ودَعْها لمن زَبنَهَا[1] وزبنَتْه، وعرفها وعرفته.

كان ذلك الغلام داود عليه السلام، وكان ـ مع حداثة سنه، ولُدُونَةِ عُودِه ـ وضيءَ الطلعة، أبلج الغرة، مستعر الذكاء، متوقد ما بين الجوانح. سار مع إخوته، وما وصل إلى ساحة القتال، حتى وجد رجلا: راعه أنه عملاق طاغية، يتحدى ولكن الأقران تتحاماه، والشجعان تخشاه؛

(١) الزبن: الدفع.

فسأل عن هذا الذى يقف متحديا متغطرساً ، وما بال هؤلاء القوم ينكصون ويتراجعون؟ فقيل له : هذا جالوت رئيس الأعداء وزعيمهم ؛ مابرز إليه شخص إلا ردّه جريحا ، أو أرداه قتيلا . والقلوب قد هلعت لهيبته ، واضطربت من بأسه وشدته . وقد جعل طالوت جزاء لمن يقتله ، ويقى المؤمنين كيده وشره ، أن يزوجه إحدى بناته ، ويوليّه الملك من بعده ؛ فثارت الحفيظة فى نفس داود ، وهاجت الحمية فى قلبه ، وكبر عليه أن يرى عملاقا كافراً ؛ يتحدى شعب الله المختار ، ويصول ويجول ، ويذهب ويجىء ، ولا يلقى إلا رعديداً مخلوع الفؤاد .

فخف إلى طالوت ، وطلب إليه أن يأذن له فى منازلة جالوت ، لعل مصرعه يكون بيديه . فاستصغر طالوت شأنه ، وخشى أن يخرج هذا الحدَث للقائه ، فتناله ضربة تطيح بها رأسه ، وتذهبُ فيها نفسه ، وهو لا يزال فتى أغر فى مَيْعَةِ الحداثة ، وربيع الأيام ؛ وطلب إليه أن يترك الأمر لمن عساه أن يكون أكبر سنا ، وأقوى جسما ، وأمضى عزما ، وأجمع قلبا .

قال داود : لا يخدَعنكَ ماتراه من صغر سنى ، وقماءة جسمى ، عن حرارة الإيمان التى تجيش فى صدرى ، ونار الحنق التى تلتهب فى قلبى . ولقد هجم بالأمس القريب أسد على غنم لأبى فعَدَوْتُ وراءه حتى أصبْتُهُ فقتلته ، وصادفنى مرة فى طريقى دُب فاتك فنازلته ثم أرديته ؛ والعبرة بقوّة النفس لا بكبر السنّ ، وبمضاء العزم لا بضخامة الجسم .

ورأى طالوت الصدق فى لهجته ، والحزم والعزم فى نيته ، فقال له :

دونك وماتريد ، والله كالئك وحافظك ، وهاديك ومبصرك . ثم ألبسه ثيابه ، وقلّده سيفه ، وتَوّجَهُ خوذة فوق رأسه ؛ ولكن داود لم يكن قد لبس الدروع ، ولا عالج السيوف ؛ فَنَاءَ بما حمل ، وثقل عليه ما اشتمل ؛ فخلع كل ذلك واحتمل عصاه ، واحتقب مقلاعه ، واصطحب أحجارا مُلسا ، وتهيأ للخروج .

قال طالوت : كيف القتال بالحبل والمقلاع ، وهذا مقام السيف والنُّشاب ؟ قال داود : إن الله الذى حمانى من أنياب الدب ، ومخالب السبع ، سيمنع عنى ـ بلا شك ـ مايريد لى هذا الطاغية من كيد أو نكال .

وخرج وهو من مضاء عزمه فى أمنع حرز ، ومن صدق إيمانه فى أقوى حصن ، والقلوب نحوه تهفو ، والعيون إليه ترنو .

ورأى جالوت قِرْنه غلاما حديث السنّ ، صغير الجسم ، لا يحمل سيفا ، ولا يتنكب قوسا ؛ فهزئ به ، واحتقر شأنه ؛ وقال : ما هذه العصا التى تحملها ؛ أكلبا تطارده ، أم غلاما مثلك تناجزه ؟ أين سيفك وترُسك ؟ وأين سلاحك وعُدّتك ؟ يُخَيَّل إلىّ أنك كرهت حياتك ، وسئمت عيشك ، مع أنك لاتزال حديث السنّ ، ولم تحتمل بعدُ تكاليف العيش ، ولا نَصَب الحياة . تعال ادن منى ؛ فإنه بعد لحظة ستسيل نفسك ، وتُطوى صحيفة عمرك ، وأقدِّمك لحما طريا لوحوش البرية ، وطيور السماء .

قال داود : لك دِرْعُكَ وترسك ، وسيفك ونشابك ، أما أنا فإنى أتيتك باسم الله إله بنى إسرائيل ، الذين أذللتهم وأخضعتهم ؛ وسترى عما

قريب أهو السيف الذى يصرع ويقتل، أم هى إرادة الله وقوته ؟

ومد يده إلى كتفه ، وأخرج الحجر ، ووضعه فى المقلاع ، وسدده نحو جالوت ؛ فإذا هو مشجوج الرأس، سائل الدم ، مثخن الجراح ؛ ثم قفّاه بحجر وحجر ، حتى خر صريعا لليدين وللفم .

وارتفعت راية النصر ، وانكسرت بعد جالوت شوكةُ العدو ، وولوا منهزمين؛ يتبعهم المؤمنون ضربا وطعنا وتقتيلا ، وثأروا لأنفسهم ، واستردوا عزّهم الذاهب ، ومجدهم البَعيد .

بين طالوت وداود

انعقد لداود النصر، وتمّ له الظفر؛ فما تلفت على محبته القلوب، وتأكّدت له أواصر الإخلاص، وأصبح بين عشية وضُحاها حديث القوم، وموضع الإشارة، ومحور الحديث.

أما طالوت فقد وفّى بشرطه، وبرّ بعهده، وصدق فى يمينه؛ فزوّجه ابنته، وأحلَّه بين نفسه وقلبه، وأضحى موضع نُصحه، وعَيْبَةَ[1] سره، وجمعت بينهما أواصرُ نسب، وألِفَتْ بينهما غاية من جهاد؛ فتهيّأ لداود بذلك فتح مبين، وفوز كبير؛ وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ولكن القلوب مهما تكن صافية لا يُؤمَن على الدهر كَدَرها، والنفوسَ وإن كانت منخولة نقية قلّ أن يبقى على الأيام نقاؤها؛ فقد أصبح داود يوما، فإذا طالوت عابس الوجه، لاوِى العذار، مقطب مابين العينين؛ ابتسامُه تكلف، وقولُه تحفظ، وحديثُه ينم عن حقد وافد، وضغْن جديد! فماذا غيّر من قلبه، ورنّق من صفو مودته؟ وماذا عسى الواشى أن يكون قد بلغ عنده؟ ألم يكن داود ـ ولا يزال ـ سيفاً سلَّه الله، حديداً قاطعاً، مجاهداً لا يكلّ، غازيا لا يمل، مظفّرا فى الحرب، ميمون النقيبة فى ساح القتال؟ ألم يجعل من نفسه وعافيته دِرْعا لطالوت يدفع عنه البلاء، ويصدّ عنه كيد الأعداء؟ أليس هو

(١) عيبة سره: موضع سره.

صهره وراعى ابنته ، ومن يوم أن بَنَى بها لا يزال بينهما محضُ الود ، وخالص الوفاء ؟ فما عسى أن يكون قد غيّر قلبك يا طالوت ؟

قال داود : لعله خاطر متردّد ، ووهم عارض ، ومزاج معتكر ، لا يلبث أن يصفوَ ويلين .

وضمه مع زوجه « مكيال »[1] ليل ساج ، وشملهما سكون شامل ؛ قال لها : وهو يهمس بصوته ، ويتحفظ فى حديثه : يا مكيال ؛ لا أدرى أمخطئ أنا فيما رأيت أم مصيب ، وصادق فيما حَزَرْت أم غير صادق ؟ لقد رأيت أباكِ عابس الوجه ، ضائق الصدر ، تحدِّث نظراته فىَّ عن غيظ كامن ، وتَشِى معارف وجهه عن شىء جديد ؛ فهل عندك شىء مما رأيت ؟

قالت مكيال ــ وقد أرسلتها آهة حبيسة ، وذرفتها دمعة سخينة ــ لست أكتمك يا داود شيئاً أعلمه ، أو أصونُ عنك أمرا تجهله ؛ إن أبى منذ رأى القوم من بنى إسرائيل يُكنُّون لك فى نفوسهم محبة وإجلالا ، ويغضون عيونهم فى حضرتك مهابةً وإعظاما ؛ ومذ رأى كلِمتَكَ بينهم تعلو ، وخطرك فيهم يسمو ؛ ومذ رآك تنتقل من ظفر إلى ظفر ، ويجيئك النصر يتبعه النصر ؛ خشى على ملكه من نفوذك ، وخاف على نفسه من سلطانك ! والمُلكُ ــ كما تعلم يا داود ــ مرعى خصيب ، وحمى عظيم ، يدفع عنه صاحبه بنفسه وسلاحه ، وقلبه وجناحه ؛ وصاحبُه أبدا يشك حتى فى بطانته ، ويشفق عليه حتى من صفوته وخلْصانه ؛ فهو لذلك يأخذ بالظن

(١) اسم زوجته ، وهى بنت طالوت .

ويتهم بالحدس، ويعاقب لمجرّد الإشفاق .

وأبِى - وإن كان مؤمناً خالص الإيمان ، عالما وافر العلم - ملك تنتابه سَوْرة الملوك ، وسلطان تختلج فى صدره هواجس السلاطين ؛ وقد علمتُ أخيراً - وإن لم أكن أجزم بصحة ما علمت - أنه يفكر فى التخلص منك ، والقضاء على سلطانك ، والقص من جناحك ؛ والرأى عندى أن تأخذ بالحزم نفسك ، وتتحوّط لحياتك ؛ فإن كان ما توقعته حقا ظفرت بالسلامة ، وإن كان بعيداً لم يضرك الحزم شيئا .

قال داود ، وقد أشجاه ما سمع : ما أنا إلا جندى مقاتل تحت راية السلطان ، ومؤمن أدفع عن بَيْضَة الإيمان ؛ ولعل ما دخل على طالوت كان من وسوسة الشيطان ، أو تسويل النفس الأمّارة بالسوء ؛ وربما أخزى شيطانه ، وقهر هواه . ثم أغمض أجفانه على نوم هادئ ؛ كأنه لم يعرف من دخيلة نفس طالوت شيئاً .

* * *

واستيقظ داود يوما على دعوة من طالوت ؛ قال له : ياداود ؛ إن بى اليوم همًّا ناصبا ، وأمرا حازبا ؛ قد بلغنى اليوم عن كنعان أنهم عادوا لجمعوا جموعهم ، وألَّفوا أحزابهم ؛ فاستحصد أمرهم ، وأصبح متوقّعاً شرهم ؛ وليس لى عون إلا بك ، وليس لهذا الأمر سواك ؛ فخذ سيفك ، واختَر من ترى من جندك ، واذهب إليهم ؛ وإياك أن تعود إلا منصورا ، يَرْعُف (١) سيفك بدماء أعدائك ، أو مقتولا محمولا على أعناق رجالك !

وحسب طالوت أنه كُفِى أمر داود ؛ ولكن داود - على الرغم مما عَرَف

(١) يرعف : يسيل .

من خبث نية صاحبه ، واختلاط إرادة الشر بإرادة الخير فى دعوته . أطاع طالوت ، وذهب إلى الكنعانيين مقاتلا بسيفه ، مُرْخِصا حياته ؛ لا يبالى أَوَقع على الموت ، أم وقع الموت عليه ، ولا يعبأ أيخرج من الحرب سليما معافى ، أم تفلت الحياة من بين جنبيه . . . وكتب الله له النصر ، وعاد إلى طالوت مظفَّرا منصورا .

فما زاد ذلك طالوت إلا ضغنا ، وما أكسبه عنده إلا حنقا وكرها ؛ فأضمر له القتل ، وبيَّت النكال ! وعلمتْ زوج داود بما أضمر أبوها ، وما يُراد بزوجها ؛ فذهبت إليه لهيفة حزينة ، وحدَّثته بلفظ خاطف ، وقلب واجف : أن انج بنفسك ، واهرب بحياتك ، وإلا أكسبْتَنِى حسرة بموتك ، وضاعفت همى بمصرعك .

فما وجد داود بُدًّا من الهروب ، وركوب مَتْن الاغتراب ؛ واتخذ الليل جملا ؛ وهرب طريدَ الحسد ، طريدَ الحقد ، عامر القلب بالإيمان ، عظيم الثقة بالله .

وانتهى إلى مفازة آوى إليها ، وألقى بهمومه عندها ، وفزع إليه إخوته ، وعلم بمكانه مريدوه من بنى إسرائيل ؛ فَهُرِعوا إليه جماعات ، وانثالوا عليه زرافات .

أما طالوت فقد ضعف أمره فى قومه ، وكثر الخارجون عليه والهاربون من جنده ، وخاف العاقبة ؛ فأعمل السيف ، وعاقب بالظن ، وأخذ البرىء بذنب المسىء ، والمؤمن بالعاصى ؛ ثم آذى العلماء ، واضطهد القُرّاء[1] ،

(١) القراء : طائفة من علماء بنى إسرائيل .

وألقى الرعب فى قلوب الجنود ، واستوى له بذلك جيش محاط بالقوة ، عليه سياج من بطش وجبروت .

ولكن داود لا يزال حيًّا ينافسه فى ملكه ، ويتحداه فى قومه ؛ ولا يأمنه على نفسه ، وقد كشف له صحيفة ضغنه ، وراش له سهام مكره ، فلا بد أنه مُضْطَغِنٌ عليه ، مريد الشر له ؛ إذن فلينهض إلى حربه ، وليتهيأ لقتاله مهما يقف فى سبيله من عقبات .

وخرج داود من مفازته ، يتحسس أمر طالوت ؛ فاذا هو قد انتهى إلى واد ، ومعه ثلة من شيعته وجنده ، وقد رقدوا ؛ لما أصابهم من جهد ، وما أدركهم من أين المسير ؛ فمشى داود وئيدا ، حتى استل رمح طالوت من بين جنبيه وعاد .

ونهض طالوت يتفقد رمحه ، ويبحث عمن أخذه ؛ وبينا هو حائر مضطرب وافاه رسول داود : هذا رمحك ، وقد مكّن الله لداود من رأسك ؛ ولكنه كان أعز نفسا ، وأكرم قلبا ، وأدنى إلى الله إيمانا .

ونالت كلمات داود الرسول من نفسه ، ولمست مكان الإحساس من قلبه ؛ فأخذته عَبْرة من الأسى ، ونالته حرقة من الندم ، ورجع باكيا مستعبرا ، نادما متحسرا ، إذ أفاق من سكرة الغيظ ، وتنبه من سَوْرة الانتقام ، وتلفت : فاذا به قد غدر بداود وما كان أهلا للغدر ، وقتل العلماء والقُرّاء وما استحقوا القتل ! فما يفعل غدا بين يدى جبار السموات ؟

فرجع أدراجه ، ثم هام على وجهه ، ومضى فى الفلوات يعلن الندامة ، وينشد من الله التوبة ، حتى وافاه الحِمام . . .

أما بنو إسرائيل فهُرِعوا جميعا إلى داود مبايعين ، وشد الله ملكه ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

دَاوُد

فتنة داود *

تاقت نفس (أوريا بن حنان) إلى أن يكون زوجاً لشريكة ، يسكن إليها ، ويقوى بها أمره ؛ وقد صادف هواه ، ولقى ارتياحاً من نفسه مثالٌ له صورة رائعة خلابة جذابة ، تأسر الفؤاد ، وتملك المشاعر ، وتُسبي العقول ؛ فيها كلُّ ماترغب النفس العزيزة الطموحُ من فتنة ، وجمال ، وكمال .

لم يَطُلْ ليل (أوريا) فى البحث عن ضالته المنشودة ، وتحقيق حُلمه الجميل ؛ بل ألقى الله مِرْسَاته على فتاة كريمة من فتيات قومه هى (سابغ بنت شائع) ؛ فما اكتحل طرفه بجمالها حتى طار إلى أهلها ؛ فخطبها إليهم ، ووثَّق رباطه معهم ؛ وهنا هدأت قَطَاةُ قلبه ، وسكنت حصاة عقله ، وراح قرير العين ، بارد الفؤاد .

جعل هذا الفتى بعد ذلك همه فى أن يمهد السبل للحياة الهنيئة ، التى يودّ أن يحياها بجانب شريكته ، وفى هذه الحياة كل سعادة وهناءة ، وفيها كل مايديم حياة السكون والاطمئنان ؛ فصار يستعجل الزمن ، ويسترسل فى شوقه وتلهفه لذلك اليوم الموعود : يوم يجمع الله شملهما بعد الزواج .

ولقد كان (أوريا) شابا ، وعلى الشباب كذلك جزية يؤدّونها قربانا لوجه الوطن ؛ فعليه إذن أن يتهيأ ، وأن يخلع عن نفسه رداء السلم ، وأن يدفع

---

* القرآن الكريم – سورة ص : آية ٢٢ ومابعدها .

بها وسط الجيش الزاخر ، الذى أعده نبيّ الله داود ؛ جهاداً فى سبيل الله .

لم يَتَوانَ ذلك الفتى المقدام ؛ بل أقدم وانتظم فى عداد الجيش ، وبنفسه مابها من الحب واللوعة ؛ ولكن أوليست (سابغ) خطيبته دون سواه؟ وهى له وهُوَ لها، مهما يتطاول الزمن، ويمتدّ أمد البعاد؟ إذن فليقض حق الجهاد ، ثم ليرجع حيث يبنى بحبيبة قلبه ، ومطرح أمله .

طالت بالجيش أيامه ، وتعدد إصباحه وإمساؤه ، واتسعت أمامه الغزوات ؛ وليس لفتانا إلا أن يصبر ، وأن ينسى فى سبيل الجهاد كل شىء ؛ حتى يقضىَ الله أمراً كان مفعولا .

فى تلك الغيبة الطويلة التى كُتِبت على ذلك الجندى المجاهد ، وهو قَصِىٌّ عن أهله ووطنه ، فى فراق يكاد يكون غيبة منقطعة ؛ إذ لم يسفر لها صباح ، ولم ينكشف عن غيابتها قناع ، ولم يبرق فى سمائها أمل ، ولم يضئ فى أفقها كوكب لماع ؛ فى هذه الغيبة من الزمن تعلقت أنظار داود بهذه الفتاة المكتملة الرائعة (سابغ بنت شائع) ، ثم تعلَّقت رغبته بأن تكون زوجاً له ؛ فما تردّد فى أن ذهب إلى أهلها يطلب إليهم القربى والمودّة ؛ ومَن هم هؤلاء حتى يردّوا يد نبي الله الكريم ؟

أليس فى ذلك الشرف لهم كل الشرف ؟ أليس (أوريا) قد طالت غيبته ؛ ورثّت حبال خطبته ؟ بهذه المعاذير تعلق آل الفتاة ؛ وزَفُّوا ابنتهم حلالا طيباً لنبيهم داود ؛ فعاشت معه عيشة كلها خير ، وكلها سعادة .

إلا أن تحت الأفق نفساً كان ذلك الخبر أشد عليها من وقع السهام فى غَلَس الظلام ؛ ولكن مابها من حيلة ؛ فالأمر لله مِن قبلُ ومن بعدُ ،

يأسو برحمته جراح المنكوبين ، ويمسح عن جبين الإنسانية ما عسى أن يلم بها من أذى أو هوان .

قرّت عين داود بزوجه الجديدة التى تعلقت بها نفسه فكانت له ؛ ودأب على منواله الذى سار عليه ، وتتابعت أيامه ، وهو يتبع نظامه الذى شَرَعه لنفسه منذ حين من الدهر : فداود قد قسم الدهر أرباعا ؛ واحداً لنفسه ، وآخر لعبادة ربه ، وثالثا للفصل والقضاء بين الناس ، والرابع لبنى قومه ؛ يعظهم ويُرشدهم إلى سواء السبيل .

وداود كذلك ملك ونبىّ أقام على منازله الحراس والجند ، وهو لا يغيّر أنظمته تلك ، ولا يحيد عنها ما تتابع المَلَوان ، وأشرق النيّران ؛ بل هو يسلك الطريق الذى يسوى بين تلك القسمة العادلة ، وهذا الحساب الحكيم .

٭ ٭ ٭

رجلان لهما كل ما للرجال من خلقة وصفات ؛ إلا أنهما يختلفان عن رجال بنى إسرائيل قوم داود ؛ فأولئك تعوّدوا أنظمة مَلِكهم فأطاعوها راضين مختارين ، وذان خرقا سياج العُرف ، وخرجا على المتبع المألوف ؛ فتقدما إلى الجند طالبَين أن يدخلا على داود ؛ وذلك فى غير وقت القضاء ، ومقابلة الناس ؛ فليس للحراس إلا أن يذودوهما ، وأن يمنعوهما عن ذلك الحِمى المنيع ، حتى يحين الوقت الذى يباح فيه لأمثالهما أن يتقدما بين يدى نبى الله الكريم .

وما كان للحراس أن يدركا هذه القدرة الخارقة المعجزة ، فليس هذان إلا ملكين فى صورة الناس ، وهما سَيصِلان حتما إلى داود ،

وسيكون لهما شأن لديه مشهود، وسيَنْفُذَان إليه بتلك الحكمة الصادقة، والحجة القاطعة؛ وسيكون من أمرهما عبرة ناجعة لنبي الله داود.

تسور الملكان المحراب، ودخلا على داود، ففزع منهما، وقد رآهما بين يديه جالسَيْن بغير إذن ولا شفيع، فقالا: لا تخفْ، خَصْمان بَغَى بعضُنا على بعض، فاحكم بيننا بالحقِّ ولا تُشْطِطْ[1] واهْدِنا إلى سواءِ الصِّرَاط.

وجد داود نفسه أمام أمر واقع، فتهيأ لهما، واستعدّ للحكم بينهما، واستمع لجدالهما، فإذا أحدهما يقول: إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجةً، ولى نعجةٌ واحدة، ولكن أخى امتدت به أطماعه، فلم يقهر نفسه، ولم يغالب هواه؛ بل قال: أعطنيها، فلما ناقشته غلبنى نقاشه، وأفحمنى حجاجه وجداله؛ لأنه أفصح منى لسانا؛ وأقوى حجةً وبيانا.

تلفت داود إلى الرجل الآخر، فاستوضحه الأمر، وسأله رأيه فيما يقول خصمه.

فقال: إن لى تسعا وتسعين نعجة، وله نعجة واحدة، فأردت أن آخذها منه حتى تكمل نعاجى مائة. فقال داود: أو أخوك يكره ذلك؟ قال: نعم! فاستشاط داود غيظا، ورماه شذرا، وقال: إذن فإنا لا ندعك، وإن رُمت ذلك ضربنا منك أنفك وجبهتك؛ فقال الرجل: ياداود أنت أحق منى بهذا! فقد كان لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأوريا غيرُ واحدة! ومع ذلك امتدت رغبتك إليها، وحرمته إياها، ثم صارت لك زوجة، ولم تَرْعَ لعهده حقا ولا حرمة!!

(١) لاتشطط: لاتتجاوز حد العدل.

تلفت داود بعد هذا القول الحكيم المنبعث عن نفس خبيرة بصيرة ، فلم يجد أحدا حوله ، فعرف سر الأمر ، وفطن إلى حقيقة الحال ؛ فاستغفر ربه ، وخرّ راكعا ، وجاهد نفسه راغبا إلى الله تعالى فى العفو عنه والصفح والغفران ؛ فتاب الله عليه ، وغفر زلته ، وأبقى له منزلة الأنبياء المكرمين .

وماكان يدور بخَلد نبي الله داود أنه بعمله مقدِمٌ على ما يستوجب اللوم والعتاب ؛ ولكن الله حاسبه فألزمه الحجّة على عُلُوِّ كَعْبه ، وعظم منزلته ؛ حتى يوقن الناس أن الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأنه يؤاخذ الناس جميعا بأعمالهم ، سواء فى ذلك عامتهم وأنبياؤهم ؛ فلا يدع مؤاخذة نبي لنبوّته ، ولا يغفل عن حق مظلوم أقعده ضعفه عن بسط ظلامته .

سليمان

سليمان وبلقيس *

اتجهت همة نبى الله سليمان إلى بناء بيت المقدس بالشام ؛ تسهيلا لأسباب العبادة ، وقربانا إلى الله ؛ فنشط حتى أقامه عالىَ الأركان ، شامخ البنيان ؛ ولما تم له ذلك اطمأنّ قلبه ، وسكنت نفسه ، ثم نزعت إلى أن يؤدى فريضة الله ؛ فلا بد له إذن أن يتهيأ للحج فى حشد عظيم .

يَمّم النبى شطر الحرم فوافاه ، وأقام به ماشاء ؛ حتى إذا وفّى نذره شَدّ رَحْله وفارقه ؛ ثم جدّ به السير نحو أرض اليمن ؛ فدخل أرض صنعاء ، وَأَخَذَ يتفقد الماء ، ويتلمس منافذه ، ويسبر أغواره ؛ فأعياه البحث ، واستعصى عليه المنال .

لذلك خفّ سليمان ، فتفقّد الطير باحثا عن الهدهد ليدلّه على الماء فوجده من الغائبين ؛ فأقسم ليعذبنّه أو ليذبحنه ، إلا أن يأتىَ بحجة واضحة يمهد بها لعُذْره ، ويزيل ما يخالج النفس فى أمره ؛ ولكن الهدهد غاب غيبة قصيرة ، وعاد يخفض رأسه وذنَبه تواضعا لسيده ؛ وتقدم إليه ينزع من نفسه ما عسى أن يكون قد ألمّ بها من غضب عليه ، أو كيد إليه ؛ تقدم

* القرآن الكريم ، سورة النمل : آية ٢١ ومابعدها .

الطائر فقال: لقد اطلعتُ على مالم يمتد إليه علمك، ولم تصل إلى الإحاطة به أسبابُ قوّتك وملكك، وكشفتُ سرًّا نَدَّ عنك أمره، واختفى خبره.

فخفّض هذا الحديث المشوق ماكان من حدّة سليمان، وبعث إلى نفسه كثيرا من التلهف والاستعجال ذلك الحديث المستحسن الجذاب؛ فاستحث الهدهد أن يأتى بخبره، وأن يدلى بحجته وعذره؛ فقال الهدهد: وجدت فى أرض سبأ امرأة تملكهم، وقد أوتيت من كل شىء، ولها عرش عظيم؛ إلا أن الشيطان قد استبطنهم، وخالط منهم اللحم والدم، والمسامع والأطراف، فصدّهم عن السبيل فهم لايهتدون؛ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله؛ فهالنى أمرها، وروّعنى شأنها؛ وماكان أجدرهم، وأوْلى بهم ـ وهم أولو القوة والجد ـ أن يسجدوا لله الذى يعلم ما تُكِنّ الجوانح؛ لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

دُهش سليمان لهذا الأمر العجيب، وقد رأى ألّا يفجع الهدهد فى خبره، وألّا يردّ عليه قوله؛ بل قال له: سننظر فى نبئك، ونتحقق أمْرَ صدقك من كذبك؛ وإذا كان الأمر كما وصفتَ، والحق كما صوّرت؛ فهذا كتابى: اذْهَبْ به، فألقه إليهم، ثم تنحّ إلى مكان تَسمَعُ منه قولهم؛ فالتمس رأيهم، وارتقب جوابهم.

حمل الهدهد الكتاب، ثم سار إلى بلقيس؛ فألفاها بقصرها فى مأرب، فطرح الكتاب أمامها؛ فتلقفته وقرأته، فإذا فيه: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ؛ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ».

فجمعت الملكة وزراءها وأمراءها، وأكابر دولتها إلى مشورتها؛

لتطيب نفوسهم لاعتدادها بهم وارتكانها إليهم، ولكى تستعصم بحكمهم، وتستظهر برأيهم، فقالوا: نحن أبناء حرب وجلاد، لا أهل رأى وسداد، وقد تركنا أمورنا لتدبيرك، وشؤوننا لتفكيرك؛ فانظرى ماذا تأمرين، نكن طوْعَ بنانك، ورهن كلامك؟

لمحت الملكة فى كلام رجالها ميلا إلى الحرب والمدافعة؛ فزيَّفت كلامهم، وخطَّأت رأيهم، وأبانت لهم أن الصلح خير، وأن الأجدر بذوى العقول الصائبة أن يبدءوا بالتى هى خير لهم وأحسن؛ فقالت: إن الملوك إذا غلبوا قرية، ودخلوها عَنوة خرّبوها؛ فأبادوا حضارتها، وجعلوا أعزتها أذلة، وتحكموا فى الرقاب، واشتطوا فى الاستبداد؛ وذلك دأبهم ما تعاقبت الأيام، وتوالت الأزمان؛ وإنى مرسلة إلى سليمان بهدية، فيها من كل غال وثمين، ونفيس وكريم، أُصَانعُه بها على ملكى، وأتبين بها سبيله، وأتعرف منها نهجه.

ثم جمعت هدية بعثت بها مع رجال من كرام القوم؛ فانطلق الرسل بالهدايا، وأقبل الهدهد إلى سليمان يبثه الخبر؛ فاتخذ سليمان للأمر عدّته، وقدّم لما بعده أهبته؛ لذلك أمر الجن فزينوا له بناءً عجيبا، وصرحا مشيدا، يهز الأفئدة، ويبهر الأعين، ويدهش القلوب.

فلما دنا القوم نظروا فبُهِتوا، وأقبل عليهم سليمان بوجه طلق يرحب بقدومهم، ويتهلل للقائهم، ثم بدأ يستشف غرضهم، ويتعرف رأيهم، فقال: ما وراءكم؟ فتقدموا بما حملوا من هدايا ونفائس، يبتغون بها رضا وقبولا من النبي الكريم؛ فتعفف سليمان، وتلطَّف، وقال للرسول:

ارجع إليهم بهديتهم ؛ فإن الله أعطانى الحظ السخى ، والعيش الهنى ، ومدّ لى أسباب النبوة والملك ، وآتانى مالم يؤتِ أحداً من العالمين ؛ وكيف يرضى مثلى أن يُمَدّ بمال يصانَع به ، أم كيف يلهيه عن نشر دعوته ملء الأرض ذهباً ؟ إنكم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فأنتم بهديتكم تفرحون ؛ ارجع أيها الرسول إليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ، ولا قدرة لهم على احتمالها ، ولنخرجنّهم من سبإ أذلة ، ذاهبا عنهم العز والملك والسلطان.

ذهب الرسل فأخبروا بلقيس بما رأوا وما سمعوا ، فقالت : ليس لنا بدٌّ من السمع والطاعة ، ولنبادر إلى إجابته ، ونسارع لقبول دعوته ؛ فلما سمع سليمان بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن سُخِّر له من الجان : أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن ينقضى مجلس حكمك ، فتقوم من مقامك ؛ وإنى لذو قوة على إحضاره ، وأمين على ما فيه . قال الذى أوتى العلم والحكمة : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

أراد سليمان عرش بلقيس عنده فكان ؛ فقال : هذا من فضل ربى علىّ ، وتلك نعمة من نعمه إلىّ ؛ ليبلونى أأشكر أم أكفر . ومن حسنت النعمة لديه ، وصادفت من قلبه مكانا طهرت حواشيه ، وسكنت نوازيه ، فشكر ربه ؛ فإنما يشكر لنفسه ؛ لأنّ مرجع الشكر إليه . وأما من كفر بنعمة ربه ، وخبثت سريرة نفسه ؛ فإنما هو من الذين خسروا الدنيا والآخرة ، والله غنى عن العالمين . ثم قال سليمان لجنوده : نكّروا لها عرشها ، فغيّروا

رُواءه لننظر: أتهتدى إليه، أم تكون من الذين لايهتدون.

فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك؟ فاستبعدت أن يكون عرشها، وقد خلَّفته بأرض سبأ؛ ولكنها رأت معالمه، وتبينت آياته ومحاسنه؛ فدهشت لذلك الأمر الغريب، وقالت: كأنه هو، ووقفت مشتتة الفكر، حائرة القلب، والهة الفؤاد.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج أبيض، ثم دعا ملكة سبأ إليه؛ فلما رأته حسبته لُجَّة، فكشفت عن ساقيها، قال: إنه صرح ممرّد[1] من قوارير؛ فانكشف حجاب الغفلة عنها، وقالت: رب إنى ظلمت حيناً عن عبادتك، وضللت حَرْساً[2] من الزمن عن نعمتك؛ فظلمت نفسى، وحبستها عن نورك ورحمتك؛ والآن قد أسلمت مع سليمان؛ خالصة لك، متوجهة إلى طاعتك، وأنت أرحم الراحمين.

---

(١) ممرد: أملس (٢) حرسا: دهرا.

حكمة سليمان *

هذا داود عليه السلام قد استوى ملكا على عرش بنى إسرائيل؛ يحكم فيما شجر بينهم، ويصرِّف أمورهم، ويرعى وحدتهم ومعاشهم، وهم يغدون إليه يقصون قصصهم، ويبسطون خصومتهم، ويُدْلون بحججهم، وهو يفصل فى كل ذلك بالعدل والقسطاس.

وهذا ابنه سليمان لما يكتمل؛ فهو فى الحادية عشرة من عمره، ولكن أباه قد أصبح شيخاً هِمًّا؛ أو شكت شَعوب أن تَخْترم أجله؛ فهو دائب التفكير فى أمر بنى إسرائيل قومه، مهتم فيمن تكون له الولاية من بعده، يرى أبناءه من حوله. وسليمان - وإن كان صبياً - إلا أنه يفضلهم علماً وحكمة؛ قد نضجت شمائله، واكتملت بوادره، يصرف الأمور تصريف الناقد الحازم، والمدقق النظّار (١).

جرت سنة داود على أن يحضر مجلس خصومته ابنه سليمان، حتى تزداد قوّته، وتحصف فطنته؛ فكان سليمان ملازما لأبيه فى مجلسه؛ حتى يكون له من آرائه فيما بعد نور يمشى به، ودستور يسير عليه فى مشكلات الملك ودقائق التدبير.

وفى مجلس من مجالس القضاء جلس النبى الملك داود، وجلس بجانبه ابنه سليمان، فأتى خصمان قال أحدهما: إنّ زرعاً له قد آتى ثمره، ودنت

---

* القرآن الكريم - سورة الأنبياء: آية ٧٩ ومابعدها.

(١) الممعن النظر فى الأمور.

قطوفه ، وصار بهجة الناظر ، وعتاد الزارع ؛ انتشرت فيه غنم خصمه ، ولم يردّها رادّ ، أو يُحْكِم وثاقها راعٍ ؛ بل سامت ، وانسابت فى الزرع ليلا ؛ فأهلكته وأبادته ، حتى صار أثراً بعد عين .

قال صاحب الزرع ما قال ، ولم يدفعه صاحب الغنم بحجة ولا دليل ؛ فلزمته الخصومة ، وحقت عليه كلمة القضاء .

حكم داود بالغنم لصاحب الزرع يأخذها خالصةً له ؛ كِفَاء زرعه ، وجزاء إهمال أصحابها الذين تركوها ؛ فنفشت [1] فى الزرع بالليل ؛ ولكن الصبي سليمان ـ وقد آتاه الله علماً وحكمة ، وأوقفه على دقيقات هذه الخصومة ، وجمّله بالرأى فيها تهيئةً منه ليتولى ذلك الملك العريض ـ انبرى سليمان فى مجلسه ، وفكّ عقال صَمْته ، وانفلتت إلى القوم حجته ؛ فقال : غيرُ هذا أرفق ، ودون هذا أوفق .

فدُهش القوم لجراءة الغلام ، وانتظروا صامتين ماوراءه ؛ فقال : تُدْفَعُ الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها ، وتُسلَّم الأرض إلى أصحاب الغنم يقومون على زراعتها ؛ حتى تعود كما كانت ، ثم يترادّان ؛ فيأخذ كل ما كان تحت يمينه ؛ وبذلك لا يكون هناك غُنم ولا غرم ؛ فهذا أقرب إلى العدل ، وأصح فى الحكم ، وأولى فى القضاء .

كان هذا مبدأ لظهور أمر النبي الملك سليمان ، الذى كان خير خلف لأبيه .

---

(١) نفشت الغنم : رعت ليلا بلا راع .

سليمان على عرش أبيه *

داود يهيئ ابنه سليمان ؛ ليكون خليفة من بعده مع ماهو عليه من حداثة السن ، وغضاضة الإهاب ؛ ولعله قد اخذ بأبهة العرش ، وازدهى بعزته ، فخالط قلبه الفخر ، وامتد أمله إلى التعلق بغرض من أغراض الحياة ؛ وذلك - وإن يكن غرزيا فى بنى الناس - إلا أنه كثير على من منح هبة النبوة ، واصطفاه الله لهداية العالمين . وهذا ابن آخر لداود : هو أبشالوم قوى عتيد، قد استوى على سوقه ، وعرك تجارب الدهر ، وعرف دخائل الأمور ، ومع ذلك فهو مقصى عن الملك ، مبعد عن الخلافة والسلطان .

وذلك تدبير لا يرضى به أبشالوم، ولا يطمئن إليه ؛ فهو لذلك سيشق عصا الطاعة خارجا على أبيه وأخيه ، وسيكافح ويناضل فى سبيل هذا الملك ، مهما يكلفه ذلك من عزيز .

استمر أبشالوم ردحاً من الزمن يتقرب إلى قومه بنى إسرائيل ، ويغمرهم بعطفه ، ويقضى بينهم ، ويصلح أمورهم ، ويجمع شملهم حوله ؛ انتظارا لأمر يدبره ، وعمل يبيته ؛ حتى لقد غالى فى أمره ؛ فكان يقف بباب أبيه الملك ، يصد عنه كل صاحب حاجة ، ليقضيها له بنفسه ؛ ليكون له على كل إسرائيلى منة ويد ، وليعرفهم أنه صاحب حول وطول ، حتى يكونوا إليه نازعين ، ولرأيه خاضعين .

وبعد أن أعد أبشالوم عدته ، ودبر مكيدته ، واطمأن إلى أنه قد استرق قلوب بنى إسرائيل ، واستولى على زمامهم - بعد ذلك استأذن أباه

* القرآن الكريم - سورة ص : الآية ٣١ وما بعدها .

داود فى أن يخرج إلى « جدون »[1] ليوفى بنذر نَذَره هناك ؛ ثم أرسل جواسيسه فى أسباط بنى إسرائيل قائلا : إذا سمعتم بُوقاً ينذر بجمعكم فانفروا إلىّ وأعلنوا الملك لى؛ فذلك خير لكم، وأوفى لحقوقكم، وأمكن لسلطانكم.

ثار الشعب ، واشتدت الفتنة ، وتزايد الصَّخَب ، وهبت على أورشليم ريح هوجاء ، توشك أن تأتى على الأخضر واليابس.

علم داود بالخبر ؛ فكان شديداً عليه ، إلا أنه ربط جأشه ، وملك نفسه ، ثم قال لمن حوله : هيّا بنا نهرب ؛ لأنه ليس لنا نجاة من بطش أبشالوم . ثم عبر هو ورجاله وأهل بيته نهر الأردن ، وصعد داود إلى جبل الزيتون باكيا حافياً هو والذين معه .

وكان نفر قد شمتوا بداود ، فتألبوا عليه يسبّونه ، ويؤلمونه بقوارس الكلم ؛ فهمّ بهم خلصاؤه ، إلا أنه منعهم فى ألم وحسرة قائلا : إذا كان ابنى يطلبنى فما أحرى غيره بذلك !

ثم تقدم داود إلى الله فى ضراعة وذلة : أن ينجيه مما حاق به ، وأن يكشف عنه هذا البلاء المحيط .

دخل أبشالوم بعد مخرج أبيه إلى أورشليم وامتلك نواصى الأمور . ثم أرسل داود قوّاده ، وأوصاهم أن يعالجوا الأمر بالروية والحكمة ، وأن يحقنوا دم ابنه أبشالوم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل ، إلا أن القدر قد دبر غير ما اشتهى الوالد الرحيم ؛ فقد دخل القواد إلى أبشالوم ولم يروا إلا قتله ؛ فسكنت الفتنة ، واستراح الركاب .

---

(١) جدون : بلد .

ورجع الملك إلى داود ومن بعده لابنه سليمان .

قرّ سليمان فى ملكه ، ووهبه ربه ملكا عريضا ، وجاها وسيعا ؛ وسخر له الريح تجرى بأمره ، وتسير بمشيئته ورأيه ، وعلّمه منطق الطير ؛ فكان يتفاهم بأصواتها ، وينتفع بمواهبها ، ويطمئن إلى إخبارها .

وأسال الله له عينا مصطهرة ، تقذف النحاس من باطن الأرض ؛ فيقبل عليه صنّاعه من الجن للانتفاع به فى شتى أعمال الإصلاح والتعمير ؛ ومِنَ الجن مَن يعملُ له مايشاء من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجوابِ[1] وقدورٍ راسيات .

---

(١) الجواب : الحياض الكبار

سليمان والنملة *

ورث سليمان داود فى نبوّته وملكه ، وآتاه الله مُلْكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمه منطق الطير ، وسخّر له الشياطين ، وأطلق بأمره الريح ؛ فكان يعرف تخاطب الطير بلغاتها ، ويعبّر للناس عن مقاصدها وإرادتها .

ولقد ركب نبي الله الملكُ يوما فى حشد عظيم من الإنس والجن والطير ، حتى نزل أرض عسقلان ، فأتى على وادى النمل ، فأبصرت به على بُعْدٍ نملةٌ من النمال ؛ فارتاعت لذلك الحشد ، وخافت على قومها أن تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم ؛ فأهابت بهم : أن ادخلوا مساكنكم حتى لا تذهبوا ضحية سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون .

سمع سليمان قولها ، وعرف مرادها فى ندائها ؛ فتبسم ضاحكا لقولها ؛ سرورا بما ألهمه الله من قوة يدرك بها هذا المنطق العجيب ، وإعجابا بما تجلّى فى قول النملة من شعور وإدراك ؛ لأنها أيقنت بأنه نبي ؛ والأنبياء لا يؤذون خلق الله إلا إذا كانوا لا يشعرون .

طلب نبيّ الله من ربه أن يقيّضه لشكره على ما أنعم به عليه من عطية ، وما خصه به من مزية ، وأن ييسر له سبيل الأعمال الصالحات فيهيئ له من أمره رشدا ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين .

---

* القرآن الكريم ـ سورة النمل : الآية ١٦ وما بعدها .

قضاء الله في بني إسرائيل *

استشرى [1] الفساد فى بنى إسرائيل، وتهافتوا فى حمأة الضلال وفشا بينهم العصيان، واضطرب حبل الأمان، ولم تعُد للرحمة مكان فى نفوسهم، ولا لهيبة الأنبياء نصيب من قلوبهم؛ أما أحبارهم وقرّاؤهم فقد أنكروا حق الله، وأما ولاتهم فقد كذبوا الرسل ونبذوا وراء ظهورهم الكتاب، كتاب الله! فاستحقوا من الله أن يذيقهم العذاب، وأن يوقع عليهم شديد العقاب؛ ولكنه — سبحانه وتعالى — أعدل من أن يأخذ قوماً بالعذاب قبل أن يرسل إليهم النذير، أو يعاقب طغاة ظالمين قبل أن يبيّن لهم وجه الطريق.

وكان « أرميا » نبياً من أنبيائهم، ورجلا من صميم بيوتهم؛ فوقف بين ظهرانيهم يصيح بكلمة الحق، ويصدع بأمر الله: أى قومى وأبناء عشيرتى؛ لقد طال فسادكم، وعمّ داؤكم، وسخط عليكم ربكم. هذا كتاب الله وراءكم قد نبذتموه، وذلك حقه فكم قد جحدتموه؛ وقد علمتم نعمه عليكم سابغة، وأبراد خيره فوقكم ضافية، وآلاءه عليكم ظاهرة وباطنة؛ قد مكّن لكم فى أرضه، وأنزلكم إلى حِمَى بيته، وفضّلكم على العالمين.

لقد كان لكم بالأمس القريب عظة، وفى رحمته بكم عبرة. هذا

---

* القرآن الكريم — سورة المائدة: آية ٧٤، ٧٥، وآل عمران: آية ١١٣

(١) استشرى: استطار.

سنحاريب [١] نزح إليكم من بابل فى عَسْفه وبطشه، وفى جُنْده وحزبه، وفى قوته وصبره؛ وقد حاول أن يغزوَكم فى عُقْر داركم، وأن يتغلغل فى صميم بلادكم؛ ولو خُلِّى بينه وبين مايريد لأفنى عدوكم، وأذهب جمعكم؛ لكن الله رحمكم بنبيكم شعيا [٢]؛ فوقف إلى الله داعيا متحننا، وإليه راغباً متطلبا: أن يصرفَ عنكم السوء، ويدفعَ الأذى، ويرد مايراد بكم من كيد؛ فاستجاب الله دعوته، وتقبّل كلمته، ورجع عدوكم مذموماً مدحورا، يتعثر فى ثوب الخزى، ويتسربل سربال الهوان؛ بعد أن هلك جنده، ودبت إليهم الأمراض، وتخوّنتهم [٣] الأسقام.

وماذا كان جزاء شَعيا فيكم؟ وماذا كان مقامه فى نفوسكم؟ لو كان فى قوم غيركم يَرْعَوْن الجميل، ويحفظون يد الكريم، لظل دهرَه بينهم مرعىّ الجناب، مسموع الكلام؛ ولكن ياحسرةً عليكم، ويابؤس لصنيعكم! لقد أهنتموه وخذلتموه، ثم قتلتموه وذبحتموه؛ فأرقتم منه دماً زكياً، وأهنتم كريما أبيا!! وصعدت روحه إلى الله طاهرةً مقدسة، مبرورة مكرمة؛ تشكو إلى الله الجوْر والطغيان، وتبرأ إليه من العقوق والكفران.

ثم مازلتم أنتم هؤلاء، تَظاهرون بالإثم، وتتواصَوْن بالعدوان،

(١) سنحاريب: كان ملك بابل، أراد أن يغزو بنى إسرائيل ولكن الله أرسل على جيشه الطاعون فأباده (٢) شعيا بن أموص: كان نبياً من أنبياء بنى إسرائيل (٣) تخونتهم: أضعفتهم.

ولا تتناهون عن منكر تفعلون ؛ كأن التوراة لم تهذب من نفوسكم، وكأن الرسل تنادى فى غير دياركم.

اسمعوها كلمة صادقة ، وتلقوه إنذارا حاسما : لقد أوحى الله إلىّ أن أدعوكم إلى الحق ، وأنذركم العذاب والعقاب ، لئن لم تفيقوا من سكرتكم ، وتزجروا غُرَاب جهلكم ، وترجعوا إلى كتابكم تستمسكون بعُروته ، وتحتكمون إلى آياته ، وتعودوا قوما صالحين ؛ ليبعثنّ عليكم عبيداً أشداء ، وجنودا أقوياء ، بأسهم شديد ، وعزمهم حديد ؛ لا تسكن الرحمة نفوسهم ، ولا تعرف الرأفة سبيلها إلى قلوبهم ؛ يأخذون بناصيتكم ، ويرغمون أنوفكم ، ثم يجوسون هذه الديار ؛ فاذا تلك القصور التى تنعمون فى ظلالها قد استحالت خراباً يبابا ، وإذا تلك الآطام[1] المتراصة أصبحت شعابا[2] ؛ وحدائقكم هذه التى ترونها ذات بهجة تضحى عرِّيسات[3] أسود ، وحقولكم تلك التى تجنون ثمارها تمسى مرابض نمور وفهود ، والمعابد التى خَلَقَها الله رَوْحاً لقلوبكم ، ومثابة لنفوسكم ، لينتهكن حرماتها ، وليستبيحن عرصاتها ... وهكذا تصبحون حَرما مستباحا ، وكلاً مباحا ، وأنتم بعد ذلك بين أسير وقتيل.

وقد نصحتُ لكم ما وسعنى النصح ، وأفصحت لكم ما استطعت الإفصاح ، وأنتم بعد ذلك مفوّضون فى الطريق الذى تسلكون ، وفى النهج الذى تنتهجون.

---

(١) الآطام : الحصون (٢) الشعب : الطريق (٣) العريسة : بيت الأسد .

قال كبيرهم : أهذا الذى جمعت إليه حشدنا ، ودعوت إليه لفيفنا ؟ لقد كذبت على الله ، وأعظمت الفِرْية عليه ! أكان لله الذى اختارنا من بين خلقه ، واصطفانا لتلقِّى كتابه ، أن يُذهِب ملكنا على يد كفار لا يعبدون إلا النار ، ولا تعنو جباههم إلا للأوثان؟ إنما ترجم بالغيب ، وتتظنّى بالمنكر ، وتضرب فى أودية الوهم والضلال .

قال أرميا : ياهؤلاء إنما يرسلهم الله عليكم معذِّبين ، ويرميكم بهم معاقبين ، كما يرسل الطاعون الجارف ، أو السيل العارم ، وماالفرق بين أن تصيبكم دُوَيهِيَةٌ تقطع دابركم ، أو يَظهر عليكم ملك كافر يُذِل ناصيتكم ، ويمزق أوصالكم ؟ وشهد الله أنى نصحتكم وما غششتكم ، فانظروا لأنفسكم ، وتخيَّروا لأبدانكم .

قالوا: لقد جادلتنا فأكثرت الجدل ، وكأنك رأيت رقعة الحلم وسيعة فأغريت بالكلام ، وطائر الصدر ساكنا فبلغت فى الملام ، ومانرى لك إلا أن تُغَل يداك ، وتصفّد رجلاك ، وترمى فى سجن عميق ، أو تنفى إلى مكان سحيق . وطلع الصباح وإذا بأرميا ملقى فى سجنه ، مصفداً مغلولا !

وتلفتوا إلى الشرق يوما ، فاذا بالغبار يعلو حتى يبلغ عنان السماء ، وينعقد حتى يحجب الضياء ، ويتكاثف حتى يملأ الأرض حلكة وظلاما ، ثم ينقشع هذا الغبار ، ويفتضح عن أشوس [1] مقدام ، يقود جيشاً كقطع الغمام ، مافيهم إلا حَمِس [2] جميع الفؤاد .

كان هذا بختنصر زحف عليهم من بابل ، يريد بهم الشر ، ويقصد لهم

(١) الأشوس : الجرىء (٢) حمس : شديد فى القتال .

الهلاك ، وهو نقمة الله أرسلها ، وغَضْبَته رمى بها ؛ فمن الذى يستطيع صدّه؟ ومن الذى يقدر أن يقف جيشه ؟ وتساءلوا : أهذا العذاب الذى خوّفنا به أرميا ؟ إن كان هو فقد حلّت الداهية ، ووقعت الكارثة !

ولم يمهلهم بختنصر حتى يتموا حدسهم ، ويعرفوا ماوراء زعمهم ؛ بل انقضّ على المدينة وحشاً كاسراً ، مخرّبا هدّاماً ، جريئا مقداما ، لم يصادف منزلا إلا قوّضه ، ولا صرحا إلا هدمه ، ولا طريقا إلا أخْفَى رُسُومَه ، ولا قصراً إلا محا أعلامه .

وبيت المقدس : انتهك حرماته ، وأسقط شرفاته ، وعطل العبادة فى جنباته ! أما القوم فقد حَاطَهُم قتلا وذبحا ، وأسراً وسبْيا ، ثم فرقهم فى الأرض بَدَدا ، وترك ديارهم خرابا يبابا :

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفا أنيس ولم يَسْمر بمكةَ سامر

* * *

ومرت أعوام ، وتصرمت أجيال ، واشتعبت بختنصر شَعوب [1] ، وقُطِعت أسباب وجوده من الحياة ، وتولى عرش بابل ملك خافض الجناح ، سهل المقادة ، لدن العود . ورأى القومَ من بنى إسرائيل يتقلبون فى أصفاد الذل ، ويَغْدون ويروحون تحت نير الهوان ؛ فسأل: ماخطْبهم ؟ وماأسباب هوانهم؟ قالوا: إنهم أسلاف يعقوب ، وأحفاد داود ، وكانوا يقيمون فى الشام ، وبلادهم مشفوهة [2] الموارد ، عذبة المناهل ، وإن

(١) شعوب : الموت (٢) ماء مشفوه : كثرت عليه الأيدى .

أباك قد أذل أبيهم ، وأرغم حميهم ، وفرقهم فى البلاد طرائق ، وشردهم فى الآفاق حزائق[١] ، وضرب عليهم ماتراه من ذل وهوان .

فوجدت هذه الكلمات منه قلباً رحيماً ، وصادفت عنده طبعاً كريماً ؛ فنادى فيهم : أن اجمعوا شملكم ، ولموا شتاتكم ، وضموا نَشْركم[٢] ، وثُوبوا إلى بلادكم ، وعودوا إلى ما كنتم فيه من شمل جميع ، ونسج متلاحم .

ورجعوا إلى بلادهم ، ورد الله الكرّة عليهم ، وأمدهم بالأموال والبنين ؛ وأخصب لهم الزرع ، ونما الضرع ، واطّردت لهم أسباب السعادة والوئام .

وكان من حقهم أن يعتبروا بما كان ، وأن يقابلوا النعمة بالشكران ؛ ولكن أنَّى للنفوس التى طُبعت على الشر أن تستَرْوِح الخير وتميل إلى الصلاح ؟ وأنَّى لسلائل القوم الذين تمالئوا على يوسف ، وآذوا موسى من بعده ، أن تأنس نفوسهم إلى الاطمئنان ، أو تنسى العدوان ؟ فإنهم ما عتموا أن رجعوا أدراجهم إلى الشر ، وأخذوا يحطبون فى حبال الظلم والبغى ؛ حتى إذا قام فيهم زكريا ويحيى نبيين رحيمين ، ورسولين كريمين ، سفكوا دمهما ! كأن بنفوسهم عطشا إلى الدماء ، وكأن وتراً بينهم وبين الأنبياء ؛ وعادوا إلى الشر والعدوان ، وعاد الله بهم إلى المكر والانتقام ، وسلط عليهم « جودرز » كما سلّط على من قبلهم بختنصر ؛ وأعاد الكرة عليهم ، من ذهاب ملكهم ، وتخريب معابدهم ؛ وهكذا

(١) الحزائق : جمع حزيقة ، وهى الجماعة (٢) النشر : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

مُزِّقوا كلَّ ممزق ، وتفرقوا تحت كل كوكب ، وضرب الله عليهم أبد الدهر الذلةَ والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، «ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ ، ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ».

عزير *

دخل حديقتـه : فإذا هى مخضرّة العود ، وارفة الظلال ، دانية القطوف ؛ تصدح فيها البلابل ، وتُطَرِّب الأطيار ؛ فقضى ساعته متمليًّا بما فيها من جلال ، مستمتعا بما تحتويه من شيات الجمال ؛ ثم ملأ سَلّة من العنب ، وأخرى من التين ، واصطحب مقداراً من الخبز ، وامتطى حماره ، وأخذ طريقه إلى المنزل .

وبينا هو يفكر فى سر الكون ، وعظمة الوجود : ضلّ به السير ، واضطرب أمامه الطريق ، واشتبهت معالم الجهات ، وإذا هو فى قرية خربة ، تُحدّث عن قوم فرقتهم عُدَواء الدار (١) ، واحتبلتهم حبول المنايا : رسوم دارسة ، وأطلال عافية ، وعظام نخرة ، وأجساد بالية .

فنزل عن حماره ، وألقى بالسلتين إلى جواره ، وربط الحمار ، وأسند ظهره إلى جدار ، حتى يجمع نفسه ، ويسترجع قوته وفكره ؛ ثم طاب له المكان ، واستراح إلى النسيم ، وأطلق العنان لعقله يفكر فى هذه الأموات وكيف تنشر ، وتلك الأجساد وأنّى تبعث ، بعد أن أصبحت أديما للأرض ، وتراباً يجود عليها كل أسحم (٢) هطّال ؛ ثم استحال هذا

---

* القرآن الكريم ـ سورة البقرة : الآية ٢٥٩

(١) عدواء الدار : بعدها (٢) أسحم : سحاب .

التفكير إلى سهوم ووجوم ، ثم أغمضت عيناه ، وتخاذلت ركبتاه ، ودخل فى نوم مُشتمل ، وكأنه لحق بمن فى هذه القبور .

ومرّت مائة عام مُجَرّمات[1] ، وهرمت أطفال ، وفنيت أعمار ، وامّحت شُعوب ، وتقوّضت صروح ؛ وعزير ملقى فى مكانه جسداً بلا روح ؛ وعظامه ممزقة الأوصال ، مهشمة المفاصل ؛ حتى أذن الله أن يفصل فى قضية حارَ الناس فى أمرها ، واستعجم عليهم طريقها ، واختلفوا فى تقريرها بحكم يلمسونه بأيديهم ، أو يقع تحت حسهم وأبصارهم : فجمع عظامه ، وسوّى خلقه ، ونفخ فيه من روحه ؛ فإذا هو قائم مكتمل الخلق ، شديد البَضعة[2] ، وإذا هو عزير يقوم كأنه منتَبِهٌ من نومه ، يبحث عن حماره ، ويفتش عن طعامه وشرابه !!

وجاء الملكُ يسأله : أتظن كم لبثتَ فى رقدتك ياعزير ؟ قال ـ ولم يُرَوِّ ولم يفكر : لبثتُ يوما أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام تسكن هذه الأجداث ، ويجودك الطل ، وتَهضِب[3] عليك السماء ، وتمر عليك السافيات الذاريات[4] ؛ ومع هذه السنين الطويلة ، والأزمان المتعاقبة ، فإن طعامك ما زال سليما ، وشرابك لم يتغير ؛ ولكن انظر إلى حمارك تراه مفرّق العظام ، متفصّى الأعصاب ؛ والله ـ جل شأنه ـ سيريك هذه العظام ، كيف ينشرها ويحييها ، ويبعث الحياة فيها ؛ لتطمئن نفسُك بالبعث ، ويزداد إيمانك بيوم المعاد ؛ وليجعلك آيةً للناس تخرجُهم من

(١) مجرمات : كاملات (٢) البضعة : القطعة من اللحم

(٣) تهضب : تمطر (٤) السافيات الذاريات : الرياح

حنادس الشك ، وتوضح لهم ما استعجم عليهم من مذاهب الإيمان .

وتلفت عزير ؛ فإذا حماره بأشراطه وسماته : قائم على أربع ، تجرى فيه شرايين الحياة ! فقال : « أَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وأخذ حماره ، وشرع يتعرف الطريق إلى بيته ، وقد تبدلت المعالم ، وتحولت المنازل ، وبدأ يسترجع ماضيه كأنه يتذكر فى حلم بعيد ... حتى انتهى إلى منزله ، فإذا عجوز فانية ، ذوى عودها ، ووهن عمودها ؛ ولكنها لا تزال باقية على تناسخ المَلَوين ، وتعاقب الجديدين ، وقد عشى بصرها ؛ كانت هذه أَمَتَهُ التى خلّفها فى ربيع حياتها ، وريّق شبابها .

سألها : أهذا منزل عزير ؟ قالت : نعم ، هذا منزل عزير ؛ وخنقتها العبرة ، ثم جادت عيناها بدمع هتون ، وقالت : لقد ذهب عزير ، ونسيه الناس ، وما رأيت من حقبة بعيدة مَنْ ذكر عزير إلا الآن .

قال : أنا عزير ، أماتنى الله مائة عام ؛ وها قد بعثنى إلى الوجود ، وردنى إلى الحياة ؛ فاضطرب أمر العجوز ، وأنكرت عليه بادى الرأى دعواه ، ثم قالت : إن عزير كان رجلا صالحا ، مستجاب الدعوة ؛ ما تطلّب أمرا إلا تَقَبَّلَ منه الله ، ولا تشفّع له فى مريض إلا شفاه ؛ فادع الله أن يصح جسمى ، ويرد بصرى ؛ فدعا الله ، فإذا هى ذات بصر حديد ، ووجه وضىء ! فقبّلت يديه ورجليه ، ثم ذهبت من ساعتها إلى القوم من بنى إسرائيل ، وفيهم أبناؤه وأحفاده ، منهم من بلغ الثمانين ، ومنهم من أخذ بعنق الخمسين ؛ وفيهم أترابه ، وقد برى الدهر عظامهم ، وأبلى أبراد شبابهم ، وردهم على[1]

(١) ردهم على حافرتهم : يقال رجع على حافرته : أى فى الطريق الذى جاء منه : أى رده بعد القوة إلى الضعف .

حافرتهم . وصاحت : إن عزيرا الذى فقدتموه منذ مائة عام ، قد ردّه الله رجلا غض الإهاب ، يخطر فى مطارف الشباب .

وطلع عليهم عزير رجلا وافر المُنّة ، مستوى الخَلْق ، شديد الأسْر [1] ؛ فأنكروا صفته ، وأعظموا فِرْيته ؛ ولكنهم أرادوا أن يفتنوه [2] بالرأى ، ويمتحنوه بالبرهان ؛ قال أحد أبنائه : إن لأبى شامةً فى كتفه كان يتميّز بها ، ويعرف بصفتها . وكشفوا عن كتفه ؛ فإذا العلامة كما عرفها أبناؤه ، وكما سمع عنها أحفاده ؛ ولكنهم أرادوا أن تطمئن قلوبهم ، وتستيقن نفوسهم ، وتمحّىَ خيوط الشك من بين جوانحهم ؛ فقال كبير منهم : لقد حُدّثنا أنه منذ زحف بختنصر على بيت المقدس ، ومن وقت أن أحرق التوراة ، لم يكن على الأرض مَنْ يحفظ التوراة إلا قليل ، ومنهم عزير ؛ فإن كنت عزيرا ، فاتل علينا ما كنت تحفظه منها ؛ فقرأها لهم لم يترك آية ، ولم يحرّف جزءا ، ولم يخرم لفظا .

عندذلك صافحوه مصدقين ، وأقبلوا عليه مباركين ؛ ولكنهم ـ لشقوتهم ـ ما ازدادوا إيمانا ؛ بل ازدادوا كفراً وقالوا : «عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ» .

---

(١) الأسر : الخلق (٢) يفتنوه : يمتحنوه .

صراع بين الحق والباطل *

أخَوان من بنى إسرائيل ، تحدّرا عن رجل واحد ، وأرضعتهما أم واحدة ؛ ولكنهما تباينا فى طبعهما كما تتباين النبتة والنبتة وأصلهما واحد ، والزهرة والزهرة وكمهما متشابه : فيهوذا نشأ مؤمناً بربه ، عارفا بمقدار نفسه ، عفيفا كريما ، وقوراً حليما ؛ أعرض عن الدنيا وخُدَعها ، وغض طرفه عن متاعها وزخرفها ؛ وقُطْرُوس نشأ كافراً جاحدا ، شحيحا بخيلا ، كزّ اليدين ، غليظ الكبد ، جافى الطبع .

وجَمَعهما أبوهما على ثروة ضافية ، ونعمه وافية ؛ حتى إذا عَلِقَه حِمامه ، وطويت من الحياة أيامه : اقتسما المال والعقار ، وذهب كل منهما فى إنفاقه مذهبا يوائم طبعه ، وينسجم مع نحيزته وهواه .

أما يهوذا فقد توجه إلى الله قائلا : يارب ؛ إنى سأخرج عن مالى فى مرضاتك ، وسأبذله فى طاعتك : شكرا لنعمائك ، وطمعا فى جنتك . . . وانطلقت كفّاه بالإنفاق ؛ فأعطى العافى ، وفك العانى ، وحمل الكَلّ (1) ، وبذل المعروف ، وأعان على نوائب الدهر ؛ حتى رقت حاشية حاله ، ونفد ماله أو كاد ؛ ولكنه ظل دهره هادئ الضمير ، مرتاح الفؤاد ، قانعا بالكفاف ، راضيا بقليل الزاد .

أما قطروس ؛ فإنه ما كاد يتسلم ماله ، حتى احتواه ، ووضع دونه

* القرآن الكريم - سورة الكهف . آية ٣٣ وما بعدها

(1) الكل : اليتيم - والثقيل لاخير فيه .

المفاتيح والأغلاق ؛ ثم حرم السائل ، وجبه القاصد ، وأصم أذنيه عن أنة الفقير ، وأغمض عينيه عن رؤية المسكين ؛ ثم ارتفق[1] حائطين ، أنفق عليهما أيام عمره ، وأراق فيهما ماء شبابه ؛ أنبتهما كرما فأورقا وأثمرا ؛ وامتد عرشهما ، وأورف ظلهما ؛ ثم اتخذ بينهما طريقا عبدها ومهدها ؛ وأجرى بينهما الماء ، وحاطهما بالنخيل ؛ فكان رائيهما يحسب أن جنة الخلد قد نزلت إلى الأرض فى أبهى حللها ، وأنفس حلاها : ربع خصيب ، وثمر قريب ، وورق نضر ، وماء خَصِر[2] ، وزهر ينفح ، وَوُرْق تصدح ، حتى أضحتا نزهة السمع ، وفتنة البصر . . .

ثم بسط الله فى رزقه ، وزاد فى ماله ، وبارك فى ثمره ، ورزقه بنين وأولاداً ؛ زادوا فى مظاهر نعمته ، ورفاهية عيشته .

وتلك النعمة التى ظل يمرح فى أبرادها ، ويتقلب على جنباتها كان خليقاً به أن يتدبر صانعها ومجريها ، ومانحها ومعطيها ؛ فيؤمن ويشكر ، ويذعن ويحمد ؛ ولكن فريقاً من الناس تطغيهم النعمة ، ويغشى على بصائرهم النعيم ، ويظلون سادرين فى غُلَوائهم ، ممعنين فى إغفالهم ؛ حتى يقرعهم الدهر بنابه ؛ فإذا الغَشاوة ترتفع ، والحجب تتمزق .

وكذلك كان قطروس ؛ ماازداد على نعمة الله إلا كفراناً ، وما أثمرت عنده إلا طغياناً .

مر عليه أخوه فى خلقانه المرقعة ، وأسماله البالية ؛ فاقتحمه بعينه ، وازدراه فى نفسه ، ونال منه بقارص قوله :

---

(١) ارتفق : انتفع ، والحائط : البستان (٢) خصر : بارد .

أين مالك ونشبك ؟ أين فضّتك وذهَبُك ؟ لشتان ما بينى وبينك ! أنت رقيق الحال، ممزق السربال، فاقد الأعوان، قليل الإخوان ؛ وأما أنا فكما ترانى: فى بُلَهنية عيش، وخفض أيام، ولى مال وبنون، وخدم وأعوان، تعال، ادخل إلى جنتى، تر الكروم المهدلة، والأعواد المخضرة، والمياه المتفجرة، والظل الوارف، والغصن العاطف، والثمر الدانى القطوف ؛ ثم انظر إلى هـذه الثمار، إنها تربو فى كل عام، وتنتج وافراً فى كل أوان ؛ هو خير دائم ما أظنه يَنْفَـد، وثوبٌ من النعمة ما أراه يبلى .

أما الساعةُ التى ترجف دائمـا بقيامها، والبعثُ الذى ما برحْتَ تلهج بوقوعه، وضرورة حصوله ؛ فما أحسبه قولا مفهوما، أو سائغاً معقولا ؛ على أننى لو جريت فى عنان فكرك، وخضعت لمفهوم قولك، فإننى لابد واجد عند الله خيراً من هذه الجنة، وأكرم من هذه الثمار ؛ ألا تراه قد آثرنى فى دنياى بالخير ؟ فما يمنع عنده أن يؤثرنى فى آخرتى بما هو أكرم عنده، وأحسن لديه ؟

قال يهوذا : إنك لتكفر بالله إذ تنكر عليـه أن يبعثك، أو يحييك بعد موتك فيحاسبك ؛ أفمن خلق الإنسان من سُلَالةٍ من طين، ثم جعله نُطفَةً فى قرار مكين، ثم أحال النطفة علقة، ثم صيّر العلقة مضـغة، ثم جعل المضغة عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم أصبح بعد ذلك إنسانا، عجيب الأسرار . . . أفمن مرت به أدوار حياته على هذا النحو، يعجز خالقه أن يبعثه من مرقده، أو ينشره بعد موته ؟ ! لا، بل إنّ ذلك أهون عليه،

وأقرب لديه ؛ ولكن على قلبك غلاف ، وفى سمعك وَقر ، وعلى عقلك حجاب ، فاشْتبَه عليك الأمر ، وندّ عنك الصواب .

ثم تعيرنى بالفقر ، وتكاثرنى بالمال ؛ وأنا فى فقرى أغنى منك فى غناك ؛ فليست الثروة بما تحرز من مال ، أو تحويه من مستغلات وعقار ، مما تشغل به دائما نفسك ، ويتعلق به أملك ؛ بل الثروة إنما تقدر بقدر ماتزهد فيه من حاج ، أو تستغنى عنه من متاع وزخرف ؛ وإن تلك الجواهر التى تفخر بها ، وتكاثرنى على حسابها ؛ لاتعدو أن تكون فى نظرى حصى يتألق ، أو آلا [1] يلمع ؛ وذلك البستان المونق المعجب ، لايجاوز فى تقديرى عشبا يطلع فى الأرض ينمو ويترعرع ، ثم ييبس ، ويصبح هشيما تذروه الرياح ؛ وذلك النفر الذين تعتدّ بهم ليسوا إلا أعوانا لك على الشر ، يطغونك ويفتنونك ؛ أما أنا فحسبى بالله نصيرا ووكيلا .

والنعمة كلّ النعمة عندى أن أجد الكفاف حاضراً ، والصحة فارهة ، وأن أكون آمنا فى سِربى ، خارجا من سلطان مابينى وبين الناس ؛ ولأن أجوع يوما فأدعو الله ، وأشبع يوما فأحمده وأشكره : خير لى من هذا المال الذى قد يُبطرنى ويطغينى ، كما أبطرك وأطغاك ؛ وعسى ربى ـ كِفاءَ لما صبرتُ على قضائه ، وما أنفقتُ من مالى على فقرائه ـ أن يكون قد أعدّ لى جنة خيراً من جنتك ، ونعيما مقيما خيراً من نعيمك .

أما جنّتاك هاتان ، فقد لاتأمن عليهما عوادى العواصف ، أو تقلّب

(١) الآل : السراب .

الأنواء ؛ فإذا الأوراق جافة ، والكروم كعصف [١] على الأرض مأكول . وهذا الماء النمير الذى يجرى سَلْسَلاً بينهما ، فيبعث الحياة ، وينشر الموات ، قد يغور فى أعماق الأرض فتتطلبه بكل حيلة ، وتحتال لاستنباطه بكل سبيل ؛ فإذا هو أعز عليك من بيض الأنوق [٢] .

وفرغ يهوذا من قوله ، ثم ترك أخاه يعجب ببستانه ، ويمرح بين أزهاره ونوّاره .

وأصبح قطروس يوما ، وذهب كعادته إلى جَنّتيه يستروح -كما اعتاد- النسيم ، ويتفيأ ظلال الكروم ؛ فما راعه إلا أن رآهما أطلالا بالية ، ورسوما عافية ، ونبتا مصوّحا [٣] ، وعروشا محطمة ، وأعوادا ملقاة .

فجف حلقه ، وغصّ بريقه ، وتساقطت خوافيه وقوادمه ، ثم ذلت أخادعه [٤] ، ولان بعد جماحه ، ودان بعد طماحه ؛ وأخذ يقلب كفيه حسرة على ما أنفق ، ويقول : «يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا» .

---

(١) العصف : الورق الجاف (٢) الأنوق : طائر يخفى بيضه فلا يكاد يظفر به أحد (٣) مصوحا : يابسا . (٤) ذلت أخادعه : استكان .

أَيُّوب *

تشقق الحديث بين ملائكة الله عن الخلق وعبادتهم، ومعصيتهم أو طاعتهم: قال قائل منهم: ما على الأرض اليوم خيرٌ من أيوب؛ إنهُ مؤمن قانت، ساجد عابد، بَسط الله فى رزقه، وأَنْسأَ فى أجله؛ وفى ماله حقّ معلوم للسائل والمحروم، وأيامه عبادةٌ لربه، وشكر لنعمائه؛ وعبادته حجة على الأغنياء والمترفين من خلقه؛ فكلهم ظَاهَر قوله، وصدق دعواه.

سمع إبليس قالتهم، ولم يكن محجوبا عنهم، أو بعيدا عن ساحتهم؛ فساءه أن يكون رجل فى الأرض يعبد الله كما يعبده أيوب؛ وهمّه فى الأرض إغواءٌ للصالح وإفسادٌ للمؤمن، ووسوسةٌ للطائع المذعن، فَخفّ إليه عله يُغْويه أو يضله؛ فوجده امرأ يمرح فى مطارف النعمة، ويجول فى حقول الثراء؛ ولكنه لم يُبْطِره الغنى، ولم يُغْوه المال؛ فهو أبداً لاهجٌ بذكرِ رَبه، بَرٌّ بأهله؛ حَدِبٌ عاطف على عبيده وخدمه، يطعم الجائع، ويكسو العارى، ويفك العانى [1]، ويبسط وجهه للعافى [2]؛ ثم هو يردّ

---

* القرآن الكريم - سورة ص: آية ٤٢ ومابعدها؛ وسورة الأنبياء آية ٨٤

(١) العانى: الأسير (٢) العافى: طالب العطاء.

الظالم ، و يعلّم الجاهل ، وينشر العلم والمعرفة بين الناس .

فحاول أن يقترب من قلبه ، أو يوسوس إليه وراء أذنه ، وأن يُزَيِّن له الدنيا ومجاليها ، وأن يزهده فى العبادة ومافيها ؛ ولكنه وجد أذنا صَمَّاء عن الخَنا ، وقلبا أغلَفَ عن الهوى : وجده من عباد الله المخلصين ، الذين ليس له عليهم سلطان ؛ فَكَرَّثه ماراًى ، وحَزَبه مالقى من أيوب ؛ ثم رجع إلى الله ، ووقف منه الموقف الذى كان يقفه منه من قبل أن يطرده من رحمته ، ويُقصيه عن سُدّته ، وقال : يارب ؛ إن عبدك أيوب الذى يعبدك ويقدسك ، ويهتف قلبه بذكرك ، ويلهج لسانه بتسبيحك ؛ مايعبدك تطوّعا من نفسه ، ولا نافلة من عنده ؛ إنما يعبدك ثمنا لما منحته من مال و بنين ، وما أسبغته عليه من ثروة وعقار ، وطمعا فى أن تبقى له ماله ، وتحفظ له دنياه : ألوف من الغنم والإبل ، ومئات من الأُتُن والبقر ، وعديد من الفدادين[1] والعبيد ، وبنون وبنات ، وأرض عريضة ، وحقول خصيبة . أليست هذه النعم جديرةً بأن تعينه على شكرك ، وأن تحمله على عبادتك ، خشيةَ أن يمسّها الزوال ، أو يصيبها الفناء ؟ فعبادته مشوبة بالرغبة والرهبة ، مشربة بالخوف والطمع . انزع منه هذه النعمة ، وجرّده من هذا الثراء ؛ فإنك تراه وقد خرِس لسانه عن ذكرك ، وأعرض قلبُه عن طاعتك .

قال الله تعالى : إن أيوب عبد مؤمن خالص الإيمان ، لايعبدنى إلا لما يراه من حق العبادة ؛ ولا يذكرنى إلا لما يعرفه من حق الذكر : ذكر وعبادة مجردان عن حب الدنيا ، بريئان من المطامع والأغراض .

(١) الفدادين : الفدان : الثور اوالثوران يقرن للحرث بينهما .

ولكن ليكونَ أيوب قبَسا وهّاجا فى الإيمان ، ومثلا عاليا فى الصبر واليقين ، قد أبحْتُكَ ماله وعقاره : اجمع لهما جنودك وأعوانك ، وشيعتك وحزبك ، وافعلوا بهما ما تريدون ، ثم انظروا إلى ما تنتهون .

فنكَص إبليس على أعقابه ، وراح يجمع الشياطين من شيعته وأوليائه ، وأوحى إليهم أن الله قد رخّص له فى مال أيوب ، يذهب به ويُفْنِيه ، وأنه يطمع فى أوليائه أن يَصنع كل منهم فى الإهلاك نصيبه ؛ ليعود أيوب مجرداً من ماله ، ثم يرجع بعد ذلك سليبا من إيمانه .

فانطلقت الشياطين ، وفعلت أفاعيلها ؛ حتى أتت على الغنم والإبل ، والأُتُن والعبيد ، والناطق والصامت ، والأخضر واليابس ؛ وأصبح بعدها أيوب فارغ اليدين ، صِفْر الراحتين . أما إبليس فتمثّل لأيوب رجلا هِماً ، حكيما مجربا ، وقال له : إن النار قد أتت على ثروتك من قَواعدها ، وقد هلك الزرع والضرع ، وذهب المال والنّشب ؛ ووقف الناس أمام هذا واجمين مبهورتين : من قائل يقول : إن أيوب ما كان إلا فى غرور من عبادته ، وضلال من زكاته وصلاته ؛ وآخر يقول : لو أن الله استطاع دفعَ شر ، أو جلبَ خير ، لكان أيوب أولى بذلك وأجدر ؛ ومن آخر يقول : إن الله لم يفعل ما أراد إلا ليشمت به عدوّه ، أو يفجع فيه صديقه .

وظنّ بما ألقاه من خبر فاجع ، ونبأ مروع ، أنه سيزحزح من إيمانه ، أو يفسد من جنانه ؛ ولكن أيوب كان أقوى إيمانا ، وأشدّ إذعانا ، وأعمر بالتقوى قلبا ، وأحكم ما يكون رأيا ولُبًّا ، قال : عارية لله

استردّها ، ووديعةٌ كانت عندنا فأخذها ؛ نعمنا بها دهراً ، فالحمد لله على ما أنعم ، وسَلَبنا إياها اليوم ؛ فله الحمد مُعْطيا وسالبا ، راضيا وساخطا ، نافعا وضارا ؛ هو مالكُ الملك ، يؤتى الملك من يشاء ، ويَنْزِعُ الملكَ ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويُذِلُّ من يشاء ؛ ثم خرّ لله ساجدا ، وترك إبليس خزيان ينظر !

ولكنّ إبليس رجع إلى الله يحاول أن يَحُوكَ للشر ثوبا جديدا ، وينسج للإغواء رداءً قشيبا ، وقال : يارب إن أيوب وإن كان لم يقابل النعمة إلا بالحمد ، والمصيبة إلا بالصبر ، فليس ذلك إلا اعتدادا بمن يعتز بهم من أولاد ، وأنه يطمع أن يشتد بهم ظهره ، ويستدّ عضده ، فيرد إليه ما ذهب من ماله ، ويرجع ما فقد من ثروته وعقاره ؛ وإن سلطتنى على أولاده أفعل بهم ما يكره ؛ فأنا موقن أن أيوب سيصير أشد ما يكون كفراً وجحودا ، وأعظم ما أرجو منه جهلا وعنادا ، فلا أشد من فتنة الولد ، ولا أحْفَظَ للنفس من الفجيعة فيهم .

فأجاب الله قائلا : لقد سلطتك على ولده ، ولكنك سوف لا تنقص ذرةً من إيمانه ، أو تذهب بقطرة من صبره وعزمه .

انصرف إبليس ودعا إليه شيعته وحزبه ، وذهبوا إلى حيث يقيم ولد أيوب فى قصر مشيد ، بين نعمة ضافية ، وبُلَهْنِيَةٍ من العيش سابغة ؛ فزلزل قصرهم حتى تصدّع بنيانه ، ووقعت حيطانه ، وأصيبوا جميعهم ، وفنوا عن آخرهم .

ولما بلغ إبليس ما أراد ، ذهب إلى أيوب متمثلا فى رجل يَنْعَاهم ،

وقال له : لو رأيت أولادك اليوم قتلى مضرّجين : هـذا مجروح ، وذاك مشدوخ ؛ لعلمت أن الله لم يكافئك بعبادتك ، ولم يَرْعك حق رعايتك .

فاستعبر وبكى ؛ ولـكنه قال : الله أعطى ، والله أخذ ؛ فله الحمد معطيا وسالبا ، ساخطا وراضيا ، نافعا وضارًّا ؛ ثم خر لله ساجدا ، وترك إبليس يكاد يتميّز من الغيظ ، ويتمزّع من الحنَق .

ثم رجع إبليس إلى الله يقول : يارب لقد ذهب المال عن أيوب ، وفنى الولد ؛ ولـكنه لايزال فى عافية من بدنه ، وصحة من جسمه ؛ وإنه ليعبدك ، أملًا فى أن يعود المال ، ويُردّ إليه الولد ؛ ولـكن سلّطنى على جسمه ، ورخّص لى فى أن أنال من عافيته ؛ وأنا زعيم أنه لو مسه الداء ، وأنهكه السقم ، وأدنفه المرض أن يهمل عبادتك ، ويخلع ثوب طاعتك ، ويشغل بأسقامه عن ذكرك .

فأراد الله أن يجعل من أيوب عبداً مؤمنا ، صابرا شاكرا ؛ تـكون قصته عبرة للمصابين ، وعزاء للمكروبين ، وسلوى للمرضى والمجروحين ؛ وليكون أيوب على الدهر المعلَم الأوّل للصبر ، والمثل العالىَ فى الإيمان ، وليرفع فى الدنيا ذكره ، ويُعلى فى الآخرة مقامه ؛ فقال لإبليس : لقـد سلطتك على جسده ، ولـكن حَذَارِ أن تقترب من رُوحه ولسانه ، وعقله وجنانه ، فإن فيها سرّ إيمـانه ، ومظهر دينه وعرفانه .

فذهب إبليس فى كيده ونفخ فى أيوب ؛ فاستحال سقيما مريضاً ، مُدْنفا عليلا ؛ ولـكنه ماازداد إلا إيمـانا ، وما ادّرع إلا صبراً وحزما ،

وكلما ألحّ عليه الداء، وتخوّنه السقم: ازداد شكره وإذعانه، وتقوّى إيمانه ويقينه.

* * *

ومرت الأيام، وتحدّرت الأعوام، وأيوب لايزال على شَكاته، حتى هزل جسمه، وذهب لحمه، وأصبح منقوف الوجه (١)، شاحب اللون، لا يقر على فراشه من الألم؛ ففرّ عنه الصديق، وجَانَبه الرفيق، ورغبت عنه شيعتُه ومن حوله، إلا زوجه الرءوم العطوف فإنها تَحَنَّنَت عليه ماوسع قلبها الحنان، وعنيت به مااستطاعت إلى ذلك سبيلا، ورفَّتْ عليه بجناحيها، وبسطت له أكناف قلبها؛ وماشَكَتْ إلاهموما تُساورها من آلامه، ومخاوف تحذرها على حياته؛ ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية، مؤمنة محتسبة.

أما إبليس فقد أعياه أمر أيوب، وشق عليه مارآه من إيمانه ويقينه؛ وأهمّه ماصادف من الإخفاق، فجمع أعوانه مرة أخرى، وشكا إليهم ماامتنع عليه من أيوب، وما يستلئم به من إيمان وصبر؛ بعد أن سُلِّط على ماله وولده، فلم يزدد إلا إيمانا وشكرا، وبعد أن سُلط على جسده فما فتَرَ لسانه عن ذكر الله، وما تزعزع قلبه عن الإيمان بالله.

فقالوا له: أين مكرُك وحيلتك، وتلطّفك في الوسوسة، وحسن تأتّيك في الإغواء؟ فقال: بَطَل كل ذلك في أيوب!!

فقال له أحدهم: لقدأخرجت آدم أباالبشر من الجنة، فمن أين أتيته؟

---

(١) منقوف الوجه: ضامره.

قال : أتيته من قِبَل امرأته ؛ فقال : فشأنك فى أيوب من قبَل امرأته ، قال : أصبتم الرأى ولم تجاوزوا الحق ؛ وانطلق إلى امرأته ، وهى فى بعض شأنها مع أيوب ، وتمثّل لها رجلا ، وقال : أين زوجك ؟ قالت : هو هذا ، عميداً وقيذاً [1] ، يتضوّر من الحمى ، ويتقلّبُ مما ألحّ عليه من الداء ؛ لا هو ميت فيُنْعى ، ولا هو حى فيرجى .

فلما سمع قولها ، طمع فى إغوائها ؛ فأخذ يذكرها بما كان لزوجها فى صَدْر شبابه ، وغَضَاضة إهابه : من صحة وعافية ، ونعمة ضافية ؛ فأعادت لها الذكرى الأشجان ، وأثارت لديها كوامن الأحزان ؛ ثم أخذ يدركها الضجر ، وينساب إلى قلبها اليأس .

وذهبت إلى أيوب ، وقالت : حتى متى يعذبك ربك ؟ أين المال ؟ أين العيال ؟ أين الصديق ؟ أين الرفيق ؟ أين شبابك الذاهب ؟ أين عزك القديم ؟ قال : لقد سوّل لكِ الشيطان أمرا ؛ أتراك تبكين على عِزٍ فات ، وولد مات ! فقالت : هلاّ دعوتَ الله يكشف حزنك ، ويزيح بلواك ! قال : كم مكثتِ فى الرخاء ؟ قالت : ثمانين . قال : كم لبثت فى البلاء ؟ قالت : سبع سنين .

قال : أستحى أن أطلب من الله رفع بلائى ، وما قضيت فيه مدة رخائى !! ولكن يخيل لى أنه قد ابتدأ يضعف إيمانك ، ويضيق بقضاء الله قلبك ؛ ولئن برئت ، وأتتنى القوة ، لأضربنّك مائة سَوط ؛ وحرام بعد اليوم أن

(١) عميدا : يعمد بالوسائد لضعفه ـ وقيذاً : مشرفا على الموت .

آكل من يديك طعاما ، أو شرابا ، أو أكلفك أمراً أو عناءً ، فاعزبي عني ؛ حتى يقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولا .

* * *

ولما رأى أيوب أنه قد أصبح وحيداً فريداً ، وقد اشتدت آلامُه ، وتضاعفت أسقامه ؛ فزع إلى الله ، لامتسخطاً ولامتبرما ؛ بل داعيا متحننا ، وقال : ربّ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . وإلى هذه الساعة كان أيوب قد بلغ غاية الإيمان ، وصمد لوسوسة الشيطان ، وادّرع بصبر عجيب ، واحتمل همًّا تنوء به الجبال ، وبلغ ماأراد الله له : من أن يكون مثلا عاليا في الصبر ، ورسولا من رسل الإيمان ؛ فاستجاب دعاءه ، وأصاخ لشكواه ، وأوحى إليه : أن اركُض برجلك يتفجر لك نبع من الماء ، فاشرب منه واغتسل به ، تعود إليك صحتك ؛ وترتد إليك قوّتك ؛ فاشرب واغتسل حتى اندملت قروحه ، وبرئت جروحه ، وصَحّ جسمه ، وصَلُح بدنه ، ونَسَل عنه المرض ، وعاد أكمل ما يُرَى صحةً وعافية .

وكانت زوجه قد رقّ قلبها له ، وحدبت عليه ، ولم تطاوعها نفسها الكريمة أن تتركه وشأنه ، وقد لزمته من أول مرضه ، وكانت من قبل قد شاركته في نعمائه ، فرجعت إليه تعاود إصلاح شأنه ، والقيام بأمره ؛ فرأت عجبا : رأت شابا مكتمل الشباب ، غض الإهاب ، مكتنز اللحم ، وافر المنة والقوة ؛ فأنكرته بَادِيَ الرأى ؛ ولكنها ماعرفته حتى عانقته ، وحمدت الله على ماردّ إليه من صحة وعافية ، وهو أوفى مايكون إيمانا ويقينا .

ثم أوحى الله إليه: أن خذ حزمة من القش ، واضرب بها زوجك ضربا خفيفا رقيقا؛ رخصةً لك فى يمينك ، ورحمة بهذه المخلصة المؤمنة ، التى احتملتك فى مرضك ، وشاركتْك فى آلامك . وجازاه الله على صبره : فردّ عليه ماله ، ورزقه ولداً أضعاف ولده ؛ إذ كان أيوب مثالَ العبد المؤمن الأوّاب[1] .

(١) أوّاب : مقبل بنفسه على الله تعالى

يونس *

فى نينوى ، وتحت ظلال الأصنام ، وبين حنادس الجهل والشرك ؛ أشعل يونس قَبَس الإيمان ، وحمل علم التوحيد ، وأهاب بقومه الجاهلين: أن اربئوا بعقولكم عن عبادة الأصنام ، وكرّموا جباهكم أن تسجد لهذه الأوثان ، وتبصّروا فى أنفسكم ، وأنعموا النظر فيما حولكم وما يحيط بكم ، تجدوا أن وراء هذا الكون البديع إلها كبيرا ، فردًا صمدًا ، جديرا بأن يختص بالعبادة ، ويقصد وحده بالتقديس ؛ أرسلنى هدايةً لكم ، ورحمة بكم ؛ لأدلكم عليه ، وأرشدكم إليه ؛ إذ كان الجهل قد ران على قلوبكم فلم تتبصّر ، وغشى على بصائركم فلم تتدبر .

فدُهِش القوم أن سمعوا قولا لم يألفوه ، وحديثا عن إله لم يعرفوه وكَبُر عليهم أن يروا واحداً كان منهم يخرج عليهم ، ورجلا من عامتهم ينصب نفسه رسولا إليهم ، وهاديا لهم .

قالوا : ما هذا القول الذى تهذر به ، والبهتان الذى تدعو إليه ؟ هذه آلهة عبدها آباؤنا من قبل ، ونعبدها نحن اليوم ؛ وما الذى حدث فى الكون أو ظهر من الأحداث ، حتى نترك هذا الدين الذى نعتقده ونستريح إليه إلى دين ابتدعته واخترعته ، وجئت تدعو إليه ، وتجاهد فيه؟

---

* القرآن الكريم - سورة الصافات : آية ١٤٠ ؛ وسورة الأنبياء آية ٨٨

قال : ياقوم؛ ارفعوا عن عيونكم غشاوة التقليد ، ومزّقوا عن عقولكم نسيج الأوهام ، وفكروا شيئا ، وتدبروا قليلا : أهذه الأوثان التى تتوجهون إليها فى صباحكم ومسائكم ، وتعتمدون عليها فى قضاء حاجاتكم أودفع الشر عنكم ، تجلب لكم نفعا ، أو تستطيع أن تدفع عنكم شرا ؟ أهى قادرة على أن تخلق شيئا ، أو تحيي ميتا ، أو تشفى مريضا ، أوتردّ ضالا ؟ أهى تستطيع دفع الشر عنها لوأردته بها ، أوتقيم نفسها لوحطمتها وهشّمتها ؟

ثم مالكم تُعرضون عن هذا الدين الذى أدعوكم إليه ؟ وهو يأمركم بما فيه صلاح أموركم ، واستقامة أحوالكم ، وتقويم جماعتكم : يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويبغضكم فى الظلم ، ويحبّب إليكم العدل والسلام ، وينشر فيما بينكم الأمان والاطمئنان ؛ ثم هو يحثكم على العطف على المسكين ، والحَدب على الفقير ، وإطعام الجائع ، وفك العانى : مما فيه صلاح الحال ، واستقامة الأعمال .

فما ظفر منهم إلا بجواب الجاهلين ، وماجادلوه إلا بسفسطة المتعنتين .
قالوا : ماأنت إلا بشر مثلنا ، وواحد منا ، ولاسبيل إلى نفوسنا أن تسير فى هديك ، أو تذعن لدعوتك ، فكَفْكف من غَرْبك ، واقصر من قولك ، ودون ماترجو غايات بعيدة ، وحجز قائمة .

قال : لقد دعوتكم بالحسنى ، وجادلتكم بالتى هى أحسن ؛ فإذا كانت دعوتى تصل إلى قرارة نفوسكم ، كان الخير الذى أرجوه ، والإيمان الذى أبتغيه ؛ وإلا فإنى أنذركم عذابا واقعا ، وبلاءً نازلا ، وهلاكا قريبا ،

ترون طلائعه، وتتقدم إليكم دلائله.

قالوا: يا يونس؛ ما نحن بمستجيبين لدعوتك، ولا خائفين من وعيدك؛ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

ولم يطق يونس صبراً؛ بل ضاق بهم ذرعا، وقطع الرجاء فيهم قبل مُطَاوَلتهم ومدِّ الحبل لهم. فرحل عنهم مغاضبا لهم، يائسا من إيمانهم، نافضا الكف منهم؛ إذ دعاهم فلم يؤمنوا، وبصَّرهم فلم يتدبروا، وجادلهم فلم يستمعوا، وحسب أن الدعوة مقصورة على ما فعل؛ وظن أنه يكفى لإبلاغها ما كان.

ولعله لو كان قد أطال فيهم مدته، واستمر فى نشر دعوته، لَوجد فيهم من يؤمن ويستجيب، ولَوجد فيهم من يستغفر وينيب؛ ولكنه رحل ليلقى من الله قضاء، ويتلقى جزاء.

ولم يكد يبعد يونس قليلا عن نينوى، حتى وافَتْ أهلها نُذُر العذاب، واقتربت منهم طلائع الهلاك: اغبرّ الجو حولهم، ثم تغيرت ألوانهم، وتشيأَتْ[1] وجوههم؛ تداخلهم القلق، وساورهم الخوف، وعلموا أن دعوة يونس حق، وإنذاره صدق، وأن العذاب لابد بهم واقع، وأنه سيصيبهم ما كانوا قد سمعوه عن عاد وثمود وقوم نوح.

ولكنه وقع فى نفوسهم أن يلجئوا إلى إله يونس فيؤمنوا، ويتوبوا إليه ويستغفروا؛ فخرجوا إلى شِعَاف الجبال، وبطون الصحراء؛ شاكين متضرعين، باكين متوسلين؛ وفَرَّقوا بين الأمهات وأطفالها،

(١) تشيأت: تشوهت.

والإبل وفُصلانها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحملانها ؛ ثم أعول الجميع : فصاحت الأمهات ، ورغت الإبل ، وخارت البقر ، وثغت الغنم؛ وكانت ساعة بسط الله عليهم بعدها جناح رحمته ، ورفع عنهم سحائب نقمته ، وتقبّل منهم التوبة والإنابة ؛ إذ كانوا مخلصين فى توبتهم ، صادقين فى إيمانهم ؛ وردّ عنهم العقاب ، وحبس العذاب ، ورجعوا إلى دورهم آمنين مؤمنين ؛ وودوا لو يعود إليهم يونس ؛ ليعيش بينهم رسولا ونبيا ، ومعلماً وإماماً .

ولكنه ـ وقد فارقهم ، وترك ديارهم ـ أخذ يضرب فى الأرض ، ويُغِذ فى السير ؛ حتى انتهى إلى البحر ؛ وهناك وجد جماعة يعبرون ، فسألهم أن يصحبوه معهم ، ويحملوه فى سفينتهم ؛ فقبلوه على ارتياح ، وأنزلوه بينهم منزلا كريما ، ومقاما عزيزا ؛ إذ كان يظهر فى وجهه الكرم والسماح ، وتتحدث غرته عن تقوى وصلاح ؛ ولكنهم ما ابتعدوا عن الشاطئ ، وجاوزوا البر ، حتى هاجت الأمواج ، واصطلحت على السفينة الأعاصير ، وتوقّع الراكبون سوء المصير ؛ فزاغت الأبصار ، وانخلعت القلوب ، ورجفت القوائم ، ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلا أن يتخففوا ؛ فاشتوروا ما يصنعون ؛ ثم اتفقوا على الاقتراع ؛ فساهم الجميع ، ووقع السهم على يونس ؛ ولكنهم ضنوا به على البحر ؛ تكريما لشأنه ، وعرفانا بمكانه ؛ فعادوا للمساهمة ، وعاد السهم على يونس ؛ فضنوا به أيضاً ، وعادوا للمساهمة ؛ فعاد السهم عليه !!

فعلم يونس أن من وراء ذلك سرًّا ، وأن لله فى ذلك تدبيراً ؛ وأدرك خطيئته ، وما كان من تركه لقومه قبل أن يؤذن له فى الهجرة ، أو يستخير الله فى الرحيل ؛ فألقى بنفسه فى اليم ، وأسلم نفسه للأمواج ،

يتقلب بين طياتها، ويتخبط فى ظلماتها.

وأوحى الله إلى الحوت أن يبتلعه، وأن يطويه فى بطنه، ولكن على ألا يأكل لحمه، ولا يهشم عظمه؛ فما هو إلا نبى كريم؛ تأوّل فلم يصب، وعجل ثم ندم؛ وأنه وديعة عنده، يؤديها حينما يأذن له الله.

وقبع يونس فى بطن الحوت، والحوت يشق الأمواج، ويهوى إلى الأعماق، فى ظلمات متضاعفة، وحنادس[1] متعاقبة؛ فضاق صدره، واعتلج همه، وفزع إلى الله غياث الملهوف، وملجأ المكروب، وواسع الرحمة، وقابل التوبة، وغافر الذنب: « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ».

فاستجاب الله الدعاء، وأوحى إلى الحوت فى الماء: أن ألق بضيفك فى العراء، فقد أوفى على الغاية، ونال ما قدر له من جزاء؛ فألقاه على الشاطئ سقيما هزيلا، مُدنفا عليلا، وتلقته رحمة الله؛ فأنبتت عليه شجرة من يقطين[2]؛ طعم بثمرها، واستظل بورقها، ودبت إليه العافية، وظهرت فيه تباشير الحياة.

ولما استوى على سوقه، ورجع إلى سابق عهده؛ أوحى الله إليه: أن ارجع إلى بلدك، وموطن أصرتك وعشيرتك؛ فإنهم آمنوا فنفعهم الإيمان، ونبذوا الأصنام والأوثان، وإنهم الآن يتحسّسون مكانك، ويترقبون مجيئك.

وعاد يونس إلى قريته، وماراعه إلا أنه خلّفهم وليس فيهم إلا من هو عاكف على الأصنام، وعاد إليهم ومافيهم إلا ألسنة تلهج بذكر الرحمن.

(١) الحنادس: جمع حندس، الظلمة (٢) اليقطين: نبات لا ساق له.

زكريا ويحيى *

تقدمت بزكريا السنون ؛ وهو الآن مشتهب الرأس ، واهن العظم ، معوج القناة ؛ لا يستطيع من المشى إلا بمقدار أن يذهب إلى الهيكل يتعهدُ شؤونه ، ويُلقى مواعيظه ، ثم يتنسك ويتأله [1] ، ويعود فى أعقاب يومه يقضى ظلام الليل ، فى بيت يحوى زوجه وهى عجوز مثله ، قد اشتعل الرأس منها شيباً ؛ ولا يستطيع من العمل إلا بمقدار أن يذهب إلى حانوته ساعة من نهار ؛ فإن أصاب بعض مال ، مسح دمعة البائس ، وقضى حاجة العافى ، ثم رجع إلى داره فارغا إلا من فضل الله ، صامتا إلا عن ذكر الله .

ولكنه حتى هذه السنة التى أشرف فيها على التسعين ، لم يُرزق طفلا ، ولم يُثمر ولداً ؛ يتخذه سببا يربطه بالحياة ، ويصل ما بينه وبين الوجود ؛ فكان يدخل البيت حزيناً ، كاسف البال ، قليل الرجاء ... ثم هو عمّا قريب يطوى صحيفة أيامه ، ويمضى إلى يوم حِمَامه ؛ فمن ذا الذى يقوم على وراثة حكمته ، والاضطلاع بأمانته ؟ وهؤلاء مواليه وبنو عمومته أشرار ، لابد لهم من وازع ، وسواسيتهم مطلقة يعوزهم الراعى الرادع ؛ ولو خلوا ونفوسهم فإنهم يمحون الشريعة ، وينشرون الفساد ، ويغيرُون معالم الكتاب .

---

* القرآن الكريم - سورة مريم : الآية ٢ وما بعدها .

(١) يتأله : يتعبد .

ظلت هذه الخواطر تحز فى نفسه، وتضطرب بين لفائف صدره؛ ولكنه كان صابراً متحملا متجملا، إلا من زفرات كان يلفظها كلما جنّ عليه الليل، وأنّات كان يُصَعّدها كلما احتواه الظلام.

ذلك قضاء الله، فمن أجدر بالنبي من أن يتلقاه بالارتياح؟ وتلك حكمته، فمن أحق من زكريا بأن يقابلها بما تستحقه من الإذعان؟ فلعل من وراء ذلك حكمة لا يعلمها، ولعل الله يؤجل ذلك لغاية هو يجهلها. له الحمد على ما أنعم، ومنا الصبر على ما أراد.

ويذهب زكريا إلى الهيكل يوماً كعادته: يصلي ويتنسك، ويعبد ويتهجد؛ ثم يدخل على مريم فى محرابها، فإذا هى غارقة فى تفكيرها، ذاهبة فى صلاتها؛ ثم يرى أمامها شيئاً يذهله، ويثير سؤاله: هذه فاكهة أمامها، عجبا! تلك فاكهة الصيف، ولكننا نحن فى الشتاء؛ ثم من أين دخلت إليها؟ إنها من يوم أن تنازع مع القرّاء فى شأنها (١)، وفاز سهمه بكفالتها، لازالت حبيسةً فى محرابها، محجوبة عن أترابها؛ حتى أمها من يوم أن أودعتها الهيكل؛ وفاءً بنذرها، وتقربا إلى ربها، لم تَسْع يوما إلى لقائها، ولا فكرت فى زيارتها؛ فمن أين لها هذا الرزق العجيب؟ وكيف اتفق لها هذا الأمر الغريب؟

لَيسألنّها ويستكنهنّ أمرها: يامريم أنّى لكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله، يصبح الصباح؛ فأرى رزقى حاضراً، ويمسى المساء؛ فأرى رزقى حاضرا؛ على أنى ماسعيت لهذا الرزق، ولا سألت الله ذلك الخير؛

(١) قصة مريم.

ولكنه يأتيني عفوا ، وأجده أمامي سهلا ؛ ومالك تدهش وتعجب ، ومالك تؤخذ وتُشده ؟ أليس الله يرزق من يشاء بغير حساب ؟

عند ذلك أدركت زكريا حال جديدة ، ودخل فى تأمل عميق ؛ فلقد أثارت فى نفسه هذه الفتاة الكريمة ، وتلك الربانية المقربة الحنينَ إلى الولد ، والرغبة فى البنين ! حقاً إنه قد وهَن منه العظم ، ورقّ الجلد ، وبلغ به الكبر ، ولم يعد فيه للولد مطمح ؛ وامرأته العجوز العاقر ليس فى نفسها للنسل رجاء ؛ ولكن أليس الله الذى اختص مريم بالكرامة ، وحباها النعمة ، ورزقها الفاكهة الغريبة ، تأتيها كل يوم فى غير أوانها ، بقادر على أن يرزقه ولدا ، وإن كانت امرأته عاقرا ، وإن كان قد أصبح شيخا فانياً ؟ ليَدْعُ الله ، فما هو بيائس من استجابة دعواه !

وبسط زكريا يديه متوسلا ، وهمس بصوته داعيا : «رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرداً وأَنْتَ خَيرُ الْوَارِثِينَ» . وزكريا كان أكرم على الله من أن يردّ دعوته ، وأعز عليه من أن يخيب رجاءه ؛ فإنه مامكث طويلا حتى نادته الملائكة ، وهو قائم يصلى فى المحراب : يازكريا ، إن الله يُبشرك بغلام اسمه يَحْيي لم نجعل له من قبلُ سَمِيًّا .

وسمع زكريا النداء فشُده وعَجب ؛ وحاشاه أن يكون غافلا عن قدرة الله ، أو يائساً من استجابة دعواه ؛ ولكن أدركه مايدرك المؤمل وجد رجاءه ، والسائل العافى وجد حاجته ؛ ثم عاد فسأل الله : كيف يرزقه طفلا ، وقد أصبح شيخا فانيا ؛ وامرأته عجوز عاقر ؛ كما سأل إبراهيم ربه من قبله : كيف يحيي الله الموتى ؟ وكيف يبعث الناس يوم النشور ؟

وما كانا بسؤالهما جاحدين ، ولا كانا معاندين ؛ ولكن ليزداد قلبهما اطمئنانا .

قالت الملائكة : أليس الله الذى خلقك من قبل ولم تك شيئا ، بقادر على أن يرزقك الولد ، وإن كنت فى أعقاب أيامك ، وأطراف حياتك ؟

سأل زكريا ربه : أن يجعل له علامة تتقدّم هذه العناية ، وتدل على وقوعها ؛ فأجابه الله : إن آيتك أن تعجز عن خطاب الناس بحَصَر يعترى لسانك ثلاثة أيام ، وإن أردت الكلام فلا تستطيعه إلا إشارة أو رمزا .

ورزقه الله على الكبر يحيى : غلاما زكيا ، فأحكم الله عقله ، واستنبأه صبيا ، ثم عشق العبادة حتى أصبح منهوك الجسم ، نحيل الظل ، متضمر الوجه ، معروق العظام ؛ واشتهر بالعلم ، حتى أحصى مسائل التوراة واستجلى غوامضها ، وأحاط بأصولها وفروعها ، وأضحى فَيْصَل أحكامها ، وقاضى معقولها ومنقولها ؛ وعُرِفَ بين الناس أنه جرىء فى الحق ، شديد على الباطل ؛ لايخشى فى الله لومة لائم ، ولا صولة عات ظالم .

نقلوا إليه يوما أن هيرودوس حاكم فلسطين ، قد هوى هيروديا بنت أخيه ؛ إذ كانت بين عينيه بارعة الشكل ، فتانة المحاسن ، جميلة التكوين ؛ وأنه قد عزم على زواجها ، والدخول بها ؛ وظاهَرَتْه على ذلك أمها ، وذوو قرباها ؛ فأعلن يحيى أن ذاك زواج باطل لاتقره شريعة ، وتأباه روح الكتاب ، وقال : إنى لا أعترف به ، وأجهر باستنكاره .

وشاع رأيه فى المدينة وفى القصور وفى الخدور ، وفى أماكن اللهو ، وفى مواطن العبادة ؛ وبلغ هيروديا ماجهر به يحيى ، وما اشتهر بين

الناس ؛ فسخطت عليه فى نفسها ، وأضمرت الحسيكة[1] ، وأبطنت الغل ؛ ثم استحال غيظها إلى حزن وكمد ، وهمّ وأسى ؛ وخافت أن تذهب هذه القالة برجائها المعسول ؛ وربما صرفت عمها عن الزواج بها ؛ ولكنها عزمت على أن تستعين بحسنها وجمالها ؛ فلعل جمالها ينيلها غرضها، ويحقق غايتها ؛ فتجملت ما استطاعت أن تتجمل ، وعنيت بزينتها ماقدر لها أن تعنى ؛ ودخلت على عمها قسيمة وسيمة ، حسنة الشارة ، جميلة الهيئة ؛ فاقتُنِص بحبائل فتنتها ، واختلب بعذوبة منطقها ؛ ثم سألها : أىّ أمنية تتمنين ؟ قولى فأنا رهن لإشارتك ، قيد بكلمتك !

قالت : إن رضى الملك ، فلست أبغى إلا رأس يحيى بن زكريا ؛ ذلك الذى سَمَّع بالملك وبى فى كل مكان ، وغمزه فى كل ناد : إن رضى الملك بذلك فإنى قريرة العين ، هادئة البال ، منقوعة الغليل .

فأجاب لداعى الهوى ، وأصاخ لكلمة الجمال ، وأصم عن نداء الضمير وهتاف الوجدان ؛ وماهى إلا ساعات حتى كان رأس يحيى بين يديها ؛ فشفت غلها ، وأطفأت وقدة غيظها ، ولكنها استنزلت لعنة الله عليها وعلى بنى إسرائيل .

---

(١) الحسيكة : العداوة .

مريم *

لم تُرزق أمها بولد ؛ لأنها كانت عاقرا ؛ وطالما تمنّته ؛ لتمتع نفسها بمرآه ، وتقرّ عينا بطلعته ؛ وكلما رأت طائراً يطعم فرخه ، أو سيدة تحمل طفلها ، اشتدت رغبتها فيه ، وشعرت بزيادة الميل إليه ؛ ولقد عانت فى ذلك مثل ماتُعانى المرأة حينما تجد نفسها قد حرمت الطفل الذى هو سلوتها فى وحشتها ، وسميرها فى وحدتها ، والذى تبسم به حياتها ، وتهون به مصاعبها وأوصابها .

وأقضّ ذلك مضجعها ، وودّت لو بذلت أغلى ماتملك ، ثم تنظر ، فترى ولدها يرنو إليها بنظره ، ويقبل عليها بوجهه ؛ فتفرغ عليه حنانها ، وتغمره بعطفها ، وتبذل له من نفسها مايريح جسمه ، وينمى جسده ، ويسمو بروحه ، حتى يشب فيصير ملء سمع الأرض وبصرها .

وقد تكون أمضت الأيام ، بل السنين ، ترقب تحقق هذا الرجاء ، وتنتظر نوال هذه الأمنية ؛ وقاست فيها المتاعب ، وذاقت مرارة اليأس ؛ وقد تكون أيضاً غبطت الشجرة المثمرة ، والمرأة الولود .

وأنا أراها فى ذلك قد لبّت نداء جبلّتها ، وطاوعت غريزتها : فأحلى أمانى المرأة أن تجد ولدها بجانبها ، وترى طفلها بمرأى منها ؛ حتى لقد نرى ذلك فى البنات الصغيرات ؛ فهن يدللن العرائس ، ويناغين الدمى .

---

* القرآن الكريم - سورة آل عمران : الآية ٣٤ وما بعدها .

التجأت إلى رب السموات والأرض ، وتوسلت إليه في خضوع وخشوع ؛ ونذرت له إن أنالها أمنيتها ، وحقق رغبتها ، ورزقها ولداً ، تتصدق به على بيت المقدس ؛ فيكون خادماً له ، وسادنا فيه . وأخذت العهد على نفسها ألا تستخدمه في شيء ، أو تشغله بأمر ؛ بل هو لخدمة البيت محرراً ، ولسدانته مخلصا .

أليس ذلك دليلا على أنها لا تبغي الخلف إلا لإشباع رغبتها ، واستقرار نفسها ؟ فهي لا تريده ليكون عائلا لها ، أو عضداً تشد به أزرها ؛ بل ترجوه وتأمله ، حتى إذا تحقق الرجاء ، واستجيب الدعاء ؛ وهبته لله ، وحررته لخدمة بيته ؛ ويكفيها أنها ولدت ؛ ليطمئن قلبها ، ويشيع السرور في فؤادها .

أجاب الله دعاءها ؛ وآتاها سؤلها : فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها ، فاخضر عودها ، وأشرقت الدنيا في عينيها ؛ وفارقها عبوسها ، وافتر ثغرها ، وأصبحت مَرِحة مقبلة على الحياة بصدر منشرح ؛ تجلس إلى زوجها ، تحدثه عما يجول بنفسها ، وما تقدره لولدها ؛ وهو يستمع إليها مبتهجا ، ويصغى إلى شهي حديثها مغتبطا ، وغَمَرتْهما نشوة من السرور ، أنْستْهما ماقاسيا في الحياة من ألم ، ومسحت ما فاضت به عيونهما من شئون .

وبينما هي سابحة في أحلامها وآمالها : تعِد للمولود عدته ، وترجو الحياة من أجله ، قلب لها الدهر ظهر المِجَن ؛ فبدَّلها بسرورها حزنا ، وغيّر فرحها ترحا ؛ إذ مات زوجها عمران ؛ فاشتد حزنها عليه ،

وفاضت دموعها غزيرة لفقده ؛ وقد كانت تتمنى لو أبقاه الله ، حتى ينعم برؤية فلذة كبده ، ويتملَّى بقرَّة عينه ، ويقطف جناة بذره ؛ ولكن قضاء الله حُمّ ؛ ولا رادّ لقضائه .

صارت وحيدة مهيضة الجناح ، عابسة الوجه ؛ وكلما تقدّمت بها الأيام ، اختلط حزنها بأملها ، وأحست آلامها تكثر ، وشعرت بصرح آمالها ينهار ؛ ولكن رجاء في الله عمر به قلبها ، وشعاعا من الأمل فيما تحمل بين جنبيها ، كانا يخففان مابها من لوعة وأسى ، ويسرّيان عنها ما كانت تجد من حزن ووحشة .

هُيِّئ لها مثل ما يهيَّأ للنساء عند الوضع ، ووضعت ؛ وإذا المولود أنثى ؛ ولما عرفت ذلك تحسرت على ما كان من خيبة رجائها ، وعكس تقديرها ؛ وتحزنت إلى ربها ، إذ كانت ترجو أن تلد ذكراً تهبه لبيت المقدس ، وتقفه على خدمته ؛ تقربا إلى الله ، وشكرا على نعمته .

ولكن المولود أنثى ، والبنات لا يصلحن لذلك ؛ فغشيتها سحابة من الحزن ، وغمرتها موجة من اليأس ، ثم سمتها مريم [1] ، وطلبت إلى الله أن يعصمها بعنايته ، وتوسلت إليه أن يكلأها برعايته ، وأن يجعل فعلها مطابقا لاسمها ، وأن يعيذها وذريّتها من الشيطان الرجيم .

ألا ترى الآن قلبا محطما ، ونفسا سحقها الحزن ، وامرأة توالت عليها المحن ، حتى لتكاد تضيق بها ؛ عاشت جُلّ أيامها ، وزهرة حياتها كئيبة ، كاسفة البال ؛ لأنها لم ترزق الولد ، فلما انفرج كربها ، وانقشعت

(١) مريم : معناها العابدة .

غمتها، وسمع الله دعاءها، واستشعرت الجنين فى أحشائها، عدا عليها الدهر؛ فاختطفت المنيةُ زوجَها، وقد كانت تتمنى أن يَهَبَ لها الله ولدا، لتجعله مخلَصا لخدمته، فولدت أنثى؛ فزاد حزنها، واشتدّ كربها!

رحم الله ضعفها، واستجاب دعاءها، فقبل هبتها، وأتم نعمته عليها، بأن رضى أن تكون ابنتها وفاءً للنذر، وأخبرها بأنه أعلم بما وضعت، وبقدر ما وُهِبَت.

حينئذ سُرِّى عنها، وعلمت أن الله قد اختصها بإكرامه، وأفردها بنعمته؛ فلفَّتها فى خرقة، وحملتها إلى بيت المقدس، وقدمتها إلى الأحبار، ودفعتها إليهم قائلة: دونكم هذه البنت فإنى قد نذرتها لخدمة البيت، وتركتها وانصرفت.

لنترك الآن هذه الأم: التى فقدت بالأمس زوجها، وأودعت اليوم فلذة كبدها بين يدى سدنة البيت وخدمه؛ ولنتصورها استسلمت لقضاء الله، ورضيت بما قدره لها، واطمأن قلبها لقبول بنتها بقبول حسن، وإيثارها بهذه المكرمة دون غيرها من نساء العالمين.

ولنتخيل أيضا أنها قد دفعها الحنو، وحركتها عوامل الشفقة على بنتها، فذهبت إلى بيت المقدس؛ تستفسر عن حالها، وتستنبئهم أخبرها؛ حتى إذا اطمأنت عليها، قفلت راجعة؛ تحمد الله على أن قبل قربانها، وأسبغ نعمته عليها.

ولنتتبع الآن حال هذه البنت التى حلّت ضيفا على أهل هذا البيت المقدّس، فخفوا إليها سراعاً، وتنازعوا فى كفالتها، كلٌّ يريد أن يكون

المدبر لشؤونها ، والقائم على تربيتها ؛ لأنها بنت إمامهم ، وسليلة صاحب قربانهم .

وكان أشدهم حدبا عليها ، وأكثرهم رغبة فى كفالتها : زكريا ، فقال لهم : أنا زوج خالتها ، فأعطونى إياها ، وخصونى بالعناية بأمرها ؛ فأنا أقربكم رحما إليها ، وأوثقكم صلة بها .

اشتد النزاع ، وكثر الجدال ، وطال الحوار ، واسترسل كلٌّ يدلى بحجته ، ويبين فضله على غيره ، ويطلب فى إلحاح وعنف أن يستأثر بها ، ويختص بكفالتها ؛ ولم تجتمع كلمتهم على تسليمها لأحد ؛ لأن كلا منهم كان يرجو الزلفى إلى ربه .

وقد كان زكريا يرى نفسه أحق بهذا الفضل ، وأولى من غيره بذلك الشأن ؛ وبعد مالمسوا استحالة اتفاقهم ، وأحسوا افتراق شملهم ؛ أعلنوا أنهم لن يخضعوا لرأيه ، أو يؤثروه على أنفسهم ، حتى يقترعوا عليها ، فرضى زكريا بذلك حكما بينه وبينهم ، وانطلقوا جميعا إلى نهر ؛ فألقوا فيه أقلامهم (١) . فارتفع قلمُ زكريا فوق الماء ، ورسبت أقلامهم ؛ فانصاعوا لرأيه ، وخضعوا لإرادته ، وسلموها إليه ؛ فتكفّلها ، وصار وليّها ؛ والقائم بتربيتها .

أراد زكريا أن يمهد سبيل الراحة لتلك التى ألقى الله إليه مقاليد أمورها ؛ ودفعه حب الاستئثار إلى أن ينأى بها عن الناس ، ويبتعد عن ضوضائهم ، ويخص نفسه بخدمتها ، ويحرّم على غيره الدخول إليها ؛ فبنى لها غرفة عالية فى بيت المقدس ، لا سبيل إليها إلا بالصعود فى سلم .

---

(١) الأقلام : سهام الاقتراع .

وكان دائمـا يتفقد شؤونها ، ويتردّد عليها فى محرابها ؛ ليطمئن على حالها ، ويمهد لها سبيل عيشها .

ولا ريب أنه كان قرير النفس بكفالتها ، وأنه لذلك عُنى براحتها ، وتوفير أسباب السعادة لها ؛ واستمر على ذلك حتى رأى يوماً شيئاً عجب له ، بل شُدِه وتحير فى أمره :

ذلك أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، وعَهْدُه بها ألا يدخل إليها أحد ، أو يطرق باب حجرتها طارق ، ولم يحمل إليها مثل هذا الرزق ، أو يَعلم شخصاً قد أدخله عليها ؛ وكثر تفـكيره فى الأمر ، ومال إلى الوقوف على سره .

لم يستطع تعليل ذلك ؛ فحاول الوقوف على هذا السر العجيب ، وطرق لذلك أبوابا عدة ؛ فلم يوفق ، وأشكل عليه الأمر والتوى ؛ فدخل إليها ، وقال : يامريم ؛ أنى لك هذا الذى لايشبه أرزاق الدنيا ، وهو آت فى غير حينه ، والأبواب مغلقة عليك ، ولا سبيل للدخول إليك ؟

فقالت : إنه من عند الله ؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

هناك عظم تقديره لها ، واشتد حَدَبه عليها ، وعلم أن الله قد اختصها بمنزلة دونها منازل الناس ، وأنه قد اصطفاها على نساء العالمين .

وقد أثارت فى نفسه تلك المكرمات التى أجراها الله على يدها ، كَامنَ الرغبة فى أن يهب له الله ولداً من صلبه .

وليس من شك فى أنه الآن قد جاوز السن التى يرزق فيها الرجال بالأولاد ، وأن زوجته قد يئست من ذلك ، ولم يَعُدْ لها أمل فيه ؛ ولـكن

رحمة الله واسعة ، وقدرته لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض ، وهو يعلم ذلك ويعرفه ؛ لذلك اتجه إلى الله في خضوع وضعة ، وناداه نداءً خفيا ، وتمنى أن يسبغ عليه هذه النعمة ، وأن يحقق له تلك الرغبة ؛ وقال: رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ؛ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ؛ فَهَبْ لِي مِن لَدُنْكَ وَلِيًّا ؛ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . فاستجاب الله دعاءه ، وآتاه سؤله ، وقال : « يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا » .

نمت مريم وترعرعت ، وشبت واستدّ ساعدها ، وعمر قلبها بالتقوى والصلاح ، ومكثت بالبيت تعبد الله الذي يرسل إليها رزقها رغدا ، وأخلصت في القيام بسدانة البيت وخدمته ، حتى صارت مضرب الأمثال .

عيسى *

عيسى الوليد

فى يوم ما اعتكفت مريم كعادتها ؛ تصلى لله وتعبده ؛ فاضطربت نفسها فجأة ، وداخلتها رهبة لم تعهدها من قبل ، وظهر أمامها ملك من السماء ، وقد تمثل لها بشراً سوياً ؛ لتأنس به ، ولا تنفر منه ؛ فحاولت الهروب ، واستعاذت بالله ؛ إذ ظنته معتدياً أثيماً ، وفاجراً زانياً[1] ؛ وهى التقية المؤمنة ، العفيفة الطاهرة ، ولكنه أعاد إليها طمأنينتها ، وسكّن روعها ، ثم أخذ يتحدث إليها قائلا : « إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا » .

فغشيتها سحابة من الحزن ، وطافت بها موجة من الأسى ، ولكن هول الموقف وشدته لم يعقدا لسانها ؛ بل استجمعت شارد قوتها ، وخرجت من صمتها ، وحاجّته قائلة : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » !

« قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا » . ثم مضى واختفى .

جلست حائرة تفكر فيما سمعته ، . أوجست فى نفسها خيفة ؛ ولا شك أنها تخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون

---

* القرآن الكريم ـ سورة مريم : آية ٢٢ وما بعدها . ـ

(١) الزنيم : اللئيم المعروف بلؤمه أو شره .

لها بعل [١] ، وأنها قد أفزعتها هذه الأفكار ، وصيّرتها قلقة مضطربة ؛ إذ قد بدت تفطن إلى الريبة التى سوف تخامر قلوب الناس ، والشكوك التى ستخالج نفوسهم، ولم تعد تلك الفتاة الهادئة الرزينة ؛ بل أصبحت تحب العزلة، وتميل إلى الانفراد، واستحوذ عليها الحزن ، وغلب عليها الخوف، وصارت دائمة التفكير فى ذلك السر الرهيب الذى أغلق عليه داخل أحشائها .

مرت أشهر ، وهى تقاسى الآلام النفسية المبرّحة، وتتعاورها الأحزان، وتنتابها الوساوس ، وتمضى أكثر أوقاتها منفردة كئيبة ، لا يَهْنَأُ لها عيش، ولا يطيب لها طعام ، ولا تستسيغ الشراب ؛ وكثيراً ما كانت تُرى شاردةَ الفكر، موزّعة النفس ، لا تصغى إلى حديث ، ولا تعنى بأمر .

أقامت تلك الفتاة المثقلة بالهموم فى الناصرة ، منبتها ومسقط رأسها ، وأقامت فى بيت ربنى ، خلا من كل بهجة ورُواء ؛ وقد تكون اتخذت هذا البيت جُنّة لها ، تتستر فيه عن أعين الناس ، وتختفى به عن أنظار الرقباء ، وأظنها كانت تنأى عن الاختلاط بقومها ، والاتصال بعشيرتها ، متظاهرة بالتعب والإعياء ، خوفا من أن يُفَضّ مكنون سرها ، ويظهر مستور أمرها ، فتلوك الألسنة اسمها ، ويتحدث الناس فى شأنها ، وكلما تقدمت بها الأيام زاد همّها ، وكثر حزنها ، فسيظهر ماتحرص الآن على أن تخفيه ، ويشيع ما تحاول أن تستره !

رحماك يارب ! ماهذا الذى يخبئه لها القدر ، وما تكنه لها الليالى ؟

(١) بعل : زوج .

إنها من أسرة أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء؛ لم يكن أبوها امرأ سَوْءٍ، وما كانت أمها بغيا ؛ فكيف تلوكُ الألسنة الحديث فى عِرْضها ؟ وبماذا تدفع عن نفسها تلك التهمة التى ستُرمَى بها ؟ حقا إنه أمر ترتعد له الفرائص، ويشيب من هوله الولدان ؛ أيزعمون أنها فقدت أثمن ماتحرص عليه الفتاة؟ ويقولون : إنها أَوْدت بكرامة أهلها ، ووسَمَتْ أسرتها بما يَثْلِم شرفها ، ويُنزلها من عليائها ، ويلصق بالرَّغام (١) أنفها ؟ إن ذلك لعظيم ! كل ذلك كان أو سيكون ، مع أنها لم ترتكب إثما ، ولم تقترف ذنبا ، وهى براء من كل مايجول بنفوسهم ، وأبعدُ ماتكون عما يمر بخواطرهم .

وهل تستطيع ، وهى فى هذا الحرج والضيق ، إلا أن تستسلم لقضاء الله ، وتنتظر مايأتى به القدَر ، وماتكنه الأيام ؟

وليس من شك فى أنّ مادرجت عليه من عبادة الله وتقواه ، خفّف عنها بعضَ ماكانت تعانيه ، وجعلها تترقّب لضيقها فَرَجا ، ولنفسها الفزعة سكونا وأمْنا ؛ أولم يلبئها المَلَك أنها ستلد من يُكلّم الناس فى المهد ؟ أليس ذلك كافيا لردّ كيد الناس ، وأوضحَ برهان على براءتها وطهرها ؟

قد كان ذلك سَلْوتها ، وأملُها الذى تتعلق به ، وترجو الخلاص من طريقه .

اقتربت ساعةُ الوضع ، وشعرت بألم المخاض ، وخرجت من القرية ، فأَجَاءها (٢) المخَاضُ إلى جذع نخلة يابسة ، وهناك وحيدة منفردة ، بلا يد شفيقة تسدّدها وتساعدها ، وتخفف آلامها وتعالجها ، هناك قاست

(١) الرغام : التراب (٢) فأجاءها : فألجأها .

تلك الأمّ العذراء آلام الوضع، وفى هذا الفضاء الواسع ولدت الطفل.

آلمتها تلك الوحدة، وحزّ فى نفسها رؤية تلك الثمرة؛ فنظرت إلى الطفل فى حسرة واكتئاب، وجعلت تتمنى لو ضمها القبر، وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أُمًّا من غير أن تتزوج؛ «فقالت: يَا لَيْتَنِى مِتُّ قبل هَذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا».

هى الآن لا تدرى ماذا تفعل؛ سُقِط فى يدها، وتحيرت فى أمرها، واشتد حزنها، وغلى مِرْجل غيظها، وجلست حانقة ساخطة؛ ولكنها مالبثت أن سمعت صوتا يرن صداه فى أذنها؛ فبدّد مخاوفها، وكفكف دموعها، وناداها من تحتها قائلا لها: لَا تَحْزَنى، قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا[1]. يجرى ماؤه فى تلك البقعة الجرداء؛ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلة تُسَاقِطْ[2] عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا: فكلى منه ليعيد إليك بعض ما فقدت من قوة، واشربى وقَرّى عينا، واطمئنى قلبا، بما تَرَين من قدرة الله التى اخضر بها جذع تلك النخلة اليابسة، وطيبى نفساً بما حباك الله من جريان الماء فى تلك الهضبة المقفرة.

قد كانت تلك المعجزة ـ بلا شك ـ أقوى دليل على براءتها، وأسطع برهان على طُهْرها، وقد كانت آية بينة تَرُدُّ بها قذف القاذفين، وعيب العائبين؛ ولكنها إنما تدفع التهمة، وتقوم بها الحجة على من يحاجّونها فى هذا المكان الذى أجاءها المخاضُ إليه، وهى تريد الجواب الذى تجيب به لُوَّامها، والزارين عليها، والمعيِّرين لها؛ وهم الذين سيستقبلونها

(١) السرى: الجدول. (٢) تساقط: تسقط.

فى القرية ، ويسلقونها بألسنة حداد ؛ لذلك لم تتبدد مخاوفها ، ولم تنقشع غيابة حزنها .

وكأن ذلك المولود الصغير ، قد أطلعه الله على سبب حيرتها، وكشف له عن دخيلة نفسها ؛ فكفاها الكلام بما يبرئها ، وأخذ على نفسه الجواب عما يوجه إليها، فقال : فإمّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَدًا ، فَقُولِي إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنْسِيًّا .

اطمأنت نفسها ، وعاد إليها ما عزب من لبها ، واستجمعت قوتها ، ورجعت إلى القرية ، وأتت به قومها تحمله ؛ وسرعان ماشاع أمرها ، وعُرِف خبرها ، فَسَرَحُوا فى عرضها ، وتحدثوا فى طهرها ، وأخذ بعضهم يوجه اللوم إليها ، ويشتد فى تأنيبها وتقريعها ، ويذكرها بشرف أسرتها ، فقالوا : « يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًا [1] ، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا » .

لم تنفرج شفتاها ، وعقد الحياء لسانها ، والتزمت الصمت ، وأبت الكلام ؛ ثم أشارت إلى الغلام ؛ أن كلموه ! فعجبوا من أمرها ، وسخروا من إشارتها ؛ وقالوا : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا » !

ولكن الله أنطق لسان ذلك الصغير ، وأطلق الصوت من تلك اللَّهاة التى لمّا يكتمل تكوينها بعد ، وحرك تلك الشفاه التى لمّا تهتدِ إلى موضع الأثداء ! فالتفت موجّها إليهم الخطاب فى وضوح وبيان ؛ ولكنه لم يتحدث إليهم فيما وجهوه إلى أمه من لوم ، أو يجادلهم فى تهمتهم التى

(١) فريا : جديدا منكرا .

ألصقوها بتلك البارّة الطاهرة ، بل قال : « إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصلاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جبارًا شَقِيًّا ، والسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » .

أتراه بعد هذا فى حاجة إلى دليل يمحق باطلهم ، أو برهان يبين كذبهم ؟ ألم ينطقه الله بالحكمة ، ويُعدّه للنبوة ، وهو لم يزل فى المهد صبيا ، وفى حجر أمه طفلا ؟ قد كان هذا آيةً بينةً على براءتها ، ومعجزةً دالة على طهرها ؛ إذ القدرة التى أنطقته بالحكمة فى هذه السن ، لا تعجز عن خلق مثله من غير أب ؛ فبكلمة منه خُلِق ، فليكُفّوا عن لومهم ، وليتجنبوا الخوض فى عِرْضها وإشعال الفتنة حولها .

ولا نظن إلا أن هذا الصوت قد بَهَرهم ، وتلك الآية أخرست ألسنتهم ، وأن هذه الحكمة من طفل فى مهده ، قد ذاع أمرها فى القرية ، وانتشر خبرها فى هذه الحِلّة ، وصارت حديث الناس فى دورهم ، ومجال القول فى أنديتهم ؛ فأكبروا من شأن هذا الوليد ، وبدّلوا بظنهم السيء يقينا ببراءتها ، وعلموا أن هذا الصبي ليس كصِبْيَة القرية ؛ بل سيكون له شأن خطير ، وخطب جليل .

وليس لك أن تتصور أن هذا هو ما اعتقده الناس جميعاً ؛ فمحال أن تجتمع كلمتهم على شيء ، بل إنى لأرى بعضهم قد ظنه حديث خُرَافة ، أو حسبه شيئاً ابتدعه أهلها ؛ رغبة منهم فى إظهار براءتها ، وسَتْر فعلتها ، وحبًّا فى قطع ألسنة السوء التى طار شُواظها يُلهبهم ويؤذيهم ؛ ولاشك

أن هؤلاء الذين لم تقرع أسماعَهم الحجة ، ولم يمح شكهم البرهانُ الواضح كانوا قِلّة ، وكانوا من الجهالة ، بحيث لا ينصاعون للحق ، ولا تبدّد وساوسهم الحجة البالغة ، والآية البينة : فلم تستسغ عقولهم أن الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، وبيده ملكوتهما ، قادر على ن يخلق إنساناً بكلمة منه ، وأن ربهم الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، يستطيع أن يخالف المنهج الذى ألِفوه ، والطريق الذى اعتادوه .

وخَلقٌ هذا شأنهم أجدرُ بأن تنبذهم نَبْذَ النواة ، وأولى ألا تقيم لكلامهم وزنا ، ولا لرأيهم قدراً ، ولعل حقدا نشب فى صدورهم ، وغلاً تمكّن من نفوسهم ؛ فأعمى أبصارهم ، وطبع على قلوبهم ؛ لذلك نراها لم تحفل بتلك الفئة القليلة الظالمة ، ولم تعن بتلك الجماعة المكابرة ، وأقامت فى القرية تُعْنى بطفلها ، وتربى وليدها ، قريرةَ النفس ، منشرحة الصدر ؛ لأنها تعلم أن الله سوف يكلؤه برعايته ، ويحفظه بعنايته ، حتى يُؤدّى رسالته .

نبوة عيسى *

نشأ عيسى كما ينشأ كثير من الأطفال ، وشبّ كما يشب جل البنين ؛ إلا أنه قد ظهرت بَوادرُ فضله ، وبدت مظاهرُ نبوته ؛ فهو إذ يلعب مع لِدَاته ، ويلهو مع أقرانه ، ينبئهم بما يأكلون وما يدّخرون فى بيوتهم ؛ وهو إذ يذهب إلى معلم القرية ، ويجلس إليه ، لا ينهج منهج غيره ، ولا يسلك سبيل أنداده ؛ بل تراه يستمع إلى حديثه فى جدّ واهتمام ، ويصغى إلى درسه فى شوق ولهفة ، ثم هو لا يعلّمه شيئاً إلا بدَرَه[1] إليه ، وسَاءَلَه عنه ؛ فلا تغيب عنه شاردة ، ولا تنبو عن ذهنه مسألة .

ثم يرحل إلى بيت المقدس مع أمه ، ولما تَعْدُ سنه الثانية عشرة من عمره ؛ فلا يبهره ما يرى من جماعات مختلفة ، وألوان من الناس متباينة ، ولا يفتنه ما يقع عليه بصره من مشاهد رائعة ، ومظاهر خلابةٍ ساحرة ؛ ولم تُلْهه تلك المدنية بزيفها ، أو يَزغ بصره من زخرفها ، وهو فى هذه السن التى هى فى مجرى العادة لا توحى إلا بالعبث ، ولا تدفع إلا إلى اللهو ؛ ولكنه يغضى عن كل ذلك ، ويلقى بنفسه فى ميدان العلم ؛ يستقى من مورده ، ويرتوى من مَنْهله ، ويزج بها فى حلقة الدرس ، ويصغى إلى العلماء ، وهم يزخرفون للناس أحاديثهم .

ولمّا اندمج فى جماعتهم ، واحتوته حلقتهم ، أنصت إلى حديث الكهنة كما ينصتون ، واستمع إلى آرائهم كما يستمعون ؛ وجد القوم يُؤمنون بكل

* القرآن الكريم - سورة آل عمران : الآيات من ٤٩ - ٥١

(١) بدره إليه : استبق إليه .

قول ، ويصدّقون كل حديث ، وهم جميعا ينصتون كأنّ على رءوسهم الطير ؛ فلم يلبث أن انبرى من بينهم متسائلا ، وانتضى سيف الحق مقاتلا ؛ فنقم بعض الناس عليه جرأته ، وأنكروا عليه مسألته ؛ وضاق العلماء به ذرعا ، وأوسعوه تأنيباً ؛ إذ لم يعهدوا قبله أن يجترئ أحد على جدالهم ، أو يقدم سامع على البحث فى قولهم .

ولكنه لم يعبأ بما كالوا له ، ولم يصرفه ماقابلوه به ، بل استمر يمطرهم بأسئلته ، ويضايقهم بمراجعته .

وأنساه ذلك طعامه ، وألهاه عن شرابه ، وانتظرت أمه أوْبته ، ولكنه لم يرجع ؛ فبحثت عنه فى كل مكان تظنه يهواه ، وفتشت عنه فى كل مجال تحسبه يَرُوده ؛ ولكنها عادت يائسة من لقائه ، ورجعت غير آملة فى العثور عليه .

ولما أعياها البحث ، ظنته قد رجع مع بعض أقاربه ، أوسافر به بعض أهل بلده ؛ فعادت إلى قريتها ، وهى تحسب أنه قد سبقها إليها ، وسألت عنه فلم تجده ، وحاولت أن تقف على خبره ، وتتسمع نبأه ؛ ولكنها لم تجد صدى لصوتها ، ولا أثرا لندائها ؛ فقفلت راجعة إلى بيت المقدس ؛ تعيد الكرّة فى سؤالها ، وتطلب المزيد من بحثها .

ولم تترك فى هذه المرّة مكاناً إلا دخلته ، أو باباً إلا ولجته ؛ وبينما هى مجدّة فى بحثها ، وقعت عليه عيناها ، وقد اندمج فى زمرة العلماء ، وزج بنفسه فى لجة الباحثين ، وهو يكثر معهم الحوار ، ويتطاول عليهم فى الجدال ؛ فدهشت لما رأت ، وأزعجها ما شاهدت ، ودعته إليها ، وساءلته عما ألهاه عنها ، وأنبته لفعلته ، وعنفته لغيابه ، ولامته على أنه

قد أتعبها فى البحث عنه، وأضناها فى السؤال عن مكانه، فأجابها بأنه قد استهوته مناقشة الحكماء، ومناقلة العلماء.

ثم سار مع أمه، ورجع إلى الناصرة[١].

ولما بلغ الثلاثين من عمره، هبط عليه الروح الأمين، فكان ذلك بدء الرسالة، وفاتحة النبوة، ثم تلقّى من ربه الكتاب الذى جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة، فأخذ يؤذّن فى الناس برسالته، ويدعوهم إلى متابعته، ويسعى فى أن يردّ اليهود عن زيغهم، ويصدهم عن ضلالهم.

فقد انحرفوا عن الطريق القويمة، وحرّفوا شريعة موسى السمحة، وجعلوا همهم جمع المال: فصاروا يحرضون الفقراء والمحتاجين على أن يقدموا للهيكل ما استطاعوا من نذور، ويؤثروه بما ملكت أيمانهم من هبات؛ ليسيل النُّضار إلى جيوبهم، ويتدفق الذهب فى خزائنهم، وإن كان من يحرّضونهم فى أمسّ حاجة إلى المال، يعولون به آباءهم، ويربون منه أبناءهم، ويمسكون به رَمَقهم، ويسترون به أجسامهم.

وكان من اليهود طائفة أنكروا القيامة، واستبعدوا الحشر، وكذبوا بالحساب والعقاب؛ وطائفة غيرهم ألهتهم الحياة الدنيا زِبْرِجها وزُخْرفها، وانغمسوا فى ملاذها، وأقبلوا على شهواتها، يَسْتَسِرّون بها، ويَتَسَتَّرُون عن أعين الناس وهم يقترفونها، يراءون الناس، ليوقعوهم فى مخالبهم، ويبتزوا أموالهم.

هذه كانت الحال عند ما بزغ نجم عيسى، وأشرقت شمسه، وبعث

(١) البلدة التى نشأ بها.

ليخرجهم مما انغمسوا فيه من رذيلة ، وارتطموا فيه من فاحشة ، فلم يترك سبيلا لهدايتهم إلا سلكه ، ولا بابا إلا طرقه ، يحاول أن ينتشلهم من هذه الوهدة ، ويخلصهم من تلك الحمأة .

وشعر رجال الدين بالتيار يجرفهم ، وأحسوا بالخطر يدهمهم ، فهاهو ذا عيسى ينكر عليهم انغماسهم فى الشهوات ، وتهالكهم على اللذات ، وتسابقهم إلى جمع المال ، ثم هو يفضح أسرارهم ، وينشر بين الناس مخازيهم ؛ فأجمعوا أمرهم بينهم على مناوأته أينما حل ، وتكذيبه حيثما ذهب .

ولكنه لم يبال جمعهم ، ولم تثنه مناوأتهم ؛ بل صمد فى سبيل الحق ، وثبت لدعوة الصدق ، وسار متنقلا بين القرى يزيِّف آراءهم ، ويفند أقوالهم ؛ فطالبوه بما يؤيِّد رسالته ، ويثبت دعوته ، ويدلهم على نبوّته ؛ فأيَّده الله بالمعجزة الباهرة ، وآزره بالآية البينة ، فصار يخلق من الطين كهيئة الطير ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله .

ولاشك أن ذلك أمر لايستطيع أحد أن يعالجه ، ولا يقدر بشر أن يأتى به ، إلا بتأييد من الله ، ونَصرٍ من عنده ؛ ولكنهم مع قيام حجته ، ووضوح آيته ، قد تمادوا فى طغيانهم ، وثبتوا على ضلالهم ، وقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين .

ثم وجدت دعوته آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، عند كثير ممن لم تفتنهم زخارف الدنيا ، ولم تمتد أعينهم إلى متاعها ؛ ودفعته الحمية لدينه ، إلى أن ينقَضَّ على رجال الدين فى جحرهم ، ويقتحم عليهم حِصْنهم ؛ فرحل إلى بيت المقدس ، واختار يوم عيدهم ، ووقت اجتماعهم ، وعرض دعوته

على الوافدين من شتّى القرى ، والنازحين من مختلف الدساكر ؛ فالتفّ الناس حوله ، وتفتحت قلوبهم لحديثه ، وكثر أنصاره ، وانتشر أتباعه

فأثار ذلك حفيظة الكهنة ، وحرك كامن غيظهم ، ودفعهم إلى التفكير فيما يريحهم منه ، ويكفيهم شره ولكنهم لم يستطيعوا أن يمسوه بأذى أو ينالوه بضرر ؛ فقد وعد الله بحفظه ، وأيده بنصره ، «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

المائدة *

خرج عيسى يجوب البلاد، ويجول فى القرى، يدعو إلى دين الله، ويؤذّن فى الناس برسالته، ويحاول أن يقوّض صروح الظلم، ويطمس معالم الشرك، ومعه الحواريون يشدّون أزره، ويستدّ بهم عضده، ويقاسمونه سروره، ويخففون عنه أحزانه، ويحتملون معه وعثاء السفر، وشظف العيش، ويحولون بينه وبين أعين الرقباء الذين يتبعون ظله أينما سار، ويطاردونه حيثما حل، فقد كان عيسى من أسرة قلّ أعوانها، وعز نصراؤها، وخمدت جذوة العصبية فيها، وللعصبية أثرها فى دفع المعتدين، ورد كيد الظالمين؛ ألم يقل قوم شعيب لنبيهم: «وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَاأَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ»!

أقاموا بقرية، وارتحلوا إلى أخرى، وتلبّثوا بثالثة، وحطوا رحالهم بغيرها. وهكذا حتى أدت بهم خاتمة المطاف يوما إلى مفازة، مترامية الأطراف، قد أجدبت أرضها، وأقفرت جنباتها، وهنالك طَوَوا[1] من الجوع، وجفّت منهم الحلوق، ووهنت قوتهم، وفترت عزيمتهم، واشتد بهم الكلال والإعياء؛ فنزلوا على غير ماء وطعام، وجلسوا يتبادلون الحديث فى شؤونهم، ويقلّبون وجوه الرأى فى أمرهم؛ علّهم يهتدون إلى خير الطرق لبثّ دعوتهم، ومغالبة الصعاب التى تعترضهم،

* القرآن الكريم ـ سورة المائدة: الآيات من ١١٢ - ١١٥

(١) خلت بطونهم.

ومفاداة الأعداء الذين يترصدونهم ؛ وكان عيسى يُحيي آمالهم ، ويشحذ عزيمتهم ، ويخفف آلامهم ، ويواسى المكتئب منهم ؛ ثم لا يفتأ يبين لهم مااسْتَغْلَقَ عليهم فهمُه ، ويوضح ماانْبَهم أمامهم أمره .

وهؤلاء الحواريون - وإن كانوا قد شَهدوا برسالته ، وآمنوا بنبوّته ، واجتمعوا تحت رايته ، واستماتوا فى سبيل نصرته - لايزالون فى حاجة إلى أن يزدادوا يقينا إلى يقينهم ، وإيمانا إلى إيمانهم .

وجاشت تلك الرغبة فى نفوسهم ، فلم يلبثوا أن كشفوا لعيسى عما يجيش بصدورهم ، فقالوا له : ياعيسى هل يستطيع ربك أن يُنزِّل علينا مائدةً من السماء ؟

لم يكن ذلك منهم شكا فى قدرة الله ، أوطعناً فى نبوة عيسى ؛ فحاشاهم أن يكونوا من الشاكِّين فى قدرة الله أو المرتابين فيها ، بعد أن آمنوا بالله وبرسوله ، وقالوا لعيسى : آمنا واشهد بأننا مسلمون ؛ أسلمنا لك قيادنا ، وألقينا إليك مقاليدنا .

وقوم هذا شأنهم لا يسلك الشك سبيلاً إلى نفوسهم ؛ وإنما سألوا تلك الآية ، كما سأل إبراهيمُ ربَّه من قبل ، إذ قال : «رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى ؛ وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى» .

قال لهم عيسى - وقد عجب من أمرهم ، وخاف عاقبة سؤالهم : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، واحذروا أن تقترحوا أمثال هذه المعجزات ، لئلا تكون فتنةً لكم ، وسبباً فى فساد أمركم . أولم تروا ماتطمئن به نفوسُكم ، ويشفى كل مرض فى قلوبكم ؟

إن ذلك قد ينبئ عن عناد ومكابرة ؛ فما لكم تقترفون هذا الإثم ، وترتكبون ذلكم الجرم ، وتطلبون تلكم المعجزة ؟ بعد أن رأيتم ما أجرى الله على يدىَّ : من إبْرَاء الأكْمَهِ[1] والأبرص ؛ ثم ماشاهدتم من إحياء الموتى بإذن الله . فهل انتابكم الشك ، وداخلكم الريب ، وتسرب إلى نفوسكم الظن ، بعد أن رأيتم من الآيات مايمحق كل باطل ، ويزهق كل شك ؟ ياقوم دعوا هذا اللجاج ، واتركوا تلك الوساوس إن كنتم مؤمنين .

هدَّءوا من روعه ، وسكَّنوا من جأشه ، وأبانوا له عن حقيقة الأمر وجليته ، فقالوا : قد كنا صادقين فى إيماننا ، مخلصين فى إسلامنا ، ولسنا منكرين لآياتك ، أو شاكِّين فى رسالتك ؛ ولا زلنا مقرِّين بنبوَّتك ، مؤمنين بدعوتك ؛ ومادفعنا إلى انتهاج هذه الطريق ، وحملنا على اختيار تلك الآية ، واقتراح هذه المعجزة إلا أنَّ لها فضلا ومزية ؛ فنحن نريد أن نأكل منها[2] ؛ ألم ترنا وقد خوت منا البطون ؛ وأصبحنا لانجد مايمسك رمقنا ، ويخفف من سَغَبِنا ؟

على أننا قد علمنا قدرة الله بالدليل ، وشاهدنا آثاره بالبرهان ، وعرفنا آياته بقراءة صحف كونه ، فآمنا به ، وصدَّقنا برسالتك . فإذا جئتنا بتلك المعجزة اطمأنت قلوبنا ، وازداد يقيننا ، وثبت إيماننا .

ولْتَعلم أننا على يقين من أن معجزاتك تشفى أمراض القلوب ، وتستأصل بذور الشك ، وقد سبق أن تأيدت بها لنا نبوتك ، وعلمنا

---

(١) الأكمه : الذى ولد أعمى

(٢) قال بعض المفسرين: إنهم كانوا صائمين ، ولذلك قالوا: نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا بأن الله قد قبل صيامنا .

صدقَ دعوتك ، فلست ترى منا شكا ، ولن تجد انتكاسا ، وإنما سألنا هذه الآية ليزداد الدليل وضوحا ، والقلب اطمئنانا ، والجنان ثباتا .

حنانيك ، فإنا نعلم أنك قد صدقتنا ، واستمددت وحيك من ربنا ، وأنّ الله مؤيِّدك بنصره ، مسبغ عليك نعمته ؛ ولكن معجزاتك السابقة كانت أرضية ، وهذه الآية التي نطلبها سماوية ، سنرى بها أعظم مما رأينا وأعجب ماشاهدنا ، فإذا أتيت بها كنا لها مذيعين ، وبخبرها شاهدين ، فيكثر تابعوك ، ويزداد المؤمنون بك .

ولما رأى عيسى منهم إصْرارا على طلبها ، وإلحاحاً في سؤالها ، وعلم أنهم لا يقصدون إلى عنت ، ولا يدفعهم إليها شك أو عناد ، وتبين له صحةُ قصدهم وصوابُ غرضهم ، دعا الله تعالى فقال : اللهمّ يامالك الملك ، ومدبر السموات والأرض ، ومتولى شؤون خلقك ، ومسيِّر أمور عبادك ، أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين .

أجاب الله دعاءه ، وسمع ضَرَاعته ، فقال : إنى منزّلها عليكم ؛ ليزدادوا إيمانا بك ، وثقةً بنبوّتك ؛ ولكن ليعلموا أنّ هذه آية تلزمهم الحجة ، وتوحى إليهم بالبرهان الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فمن يكفر بعد منهم ، فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين .

أنزل الله عليهم مائدة من السماء ، فاضت بالرزق السابغ ، والخير الوافر ؛ إنجازاً لوعده ، وتأييداً لنبيه ، واستجابة لدعوته ، وخشى عيسى الفتنة إذ رآها ؛ فدعا الله أن يجعلها رحمة لهم ، ونعمة عليهم ، وسأله أن يهديهم إلى الإيمان الثابت ، والطريق القويم ، ثم قال لهم :

هاهى ذى المائدة قد أنزلها الله عليكم ؛ فكلوا مما سألتم ، واشكروا له ، يزدكم من فضله .

طَعِموا منها ماشاءوا ، وقرّت بذلك أعينهم ، وقوى إيمانهم ؛ ثم تحدّث الناس بتلك المعجزة الباهرة ، والآية البينة ؛ فآمن خلقٌ كثير ، وازداد المؤمنون يقيناً فى الإيمان ، وثباتاً فى الإسلام .

النهـــاية *

كان عيسى جادا فى رسالته ، غير متوانٍ فى دعوته ؛ ينكر على اليهود ما دَرجوا عليه من النظم التى درّت عليهم الأموال الطائلة ، وجعلتهم فى بَسطة من العيش وسعَة ، ويعيب عليهم أن تستعبدهم دولة الألفاظ ، وتأسِرهم ظواهر الشريعة ؛ وينعى عليهم أن يطمسوا معالم الدين ، ويبعدوا عن صراطه السوى ، ويبين لهم أن ماهم عليه لا يلائم روح الدين ، ولا يتفق مع حكمته .

ولم يَثنه عن ذلك ما أعلنوا من حروب ، وما ألّبوا من جموع ، وما بثّوا من عيون .

حتى إذا قهرت البينات ألبابهم ، وبهرت الآيات بصائرهم ، وخصم نور الحق حجتهم ، لم تجد عقولهم سبيلا إلى دفع حقه ، أو طريقا إلى مغالبته وصدّه ؛ ولكنهم مع ذلك مكذبون بأفواههم ، وجاحدون بألسنتهم ؛ بغيا وعداوة ، وحسداً ولجاجة ؛ يخافون أن تبيد دولتهم ، وتميد عروشهم ، وتطوى صحيفة سلطانهم .

وكثر مع ذلك أتباعه وأنصاره ؛ وإن كانوا من طبقات دنيا ، وأخلاط جاهلة .

حاول اليهود أن يخففوا من أثر دعوته ، أو يموّهوا على الناس أمره ، فلم يستطيعوا ؛ فقد كان كالفَلَكِ الدائر ، والنجم السائر ، يدوّى صوته

* القرآن الكريم ـ سورة آل عمران : آية ٥٥ ؛ وسورة النساء : آية ١٥٧ و ١٥٨ .

بالدعوة إلى الله فى كل مكان ، وينقم على اليهود حيثما حل .

بل كان يجهّل أحلامهم ، ويفنّد مذاهبهم؛ حتى غضبوا عليه ، وضاقوا ذرْعاً به؛ فصوّروه لرجال السياسة مُؤلِّباً للجموع ، مثيراً للفتن، متطلعاً للملك؛ لينضم هؤلاء تحت لوائهم فى معاداته ؛ وفى ذلك شفاء لنفوسهم وإرضاء لرغباتهم .

وعيسى على كل حال وحيد فريد ؛ ولكنه لايحفل بغضب هؤلاء ، ولايرهب عنت أولئك : كيف لا وقد تكفّل الله بحفظه ، ورعاه بقدرته ، وطهّره من الكافرين بدعوته ، وعصمه من الجاحدين برسالته ، ووعده أن يُحْبِط مكرهم ، ويرد كيدهم فى نحرهم ؟

هال اليهود مارأوا من تألّب الناس عليهم ، وانصرافهم عنهم ، وخيّلت لهم نفوسهم أن عيسى قد تستطير بسببه الفتنة ، وتكاد تشب من بين أنصاره الثورة ؛ مع أنه قد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ولكنْ أين هم منها ؟ وقد بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ، واستبدلوا بدين الله ماينمى ثروتهم ، ويغدق الخير عليهم ، ويبقى السلطان فى أيديهم ، وزِمَام الشّعْبِ فى حوزتهم .

ولما يئسوا من مقاومته ، وعجزوا عن صدّ تيار دعوته ، وقد كاد يجترفهم ، ويمحو أثرهم ؛ بثوا العيون والأرصاد له فى كل طريق ، ينفثون سموم الدسائس ، ويَحِيكون له خيوط العداء ، ويذيعون أنه ساحر ؛ وأن مايظهر من معجزات ، وما يدعيه من آيات إنما يمليه عليه الشيطان ، وأنه لاينحو نحوهم ، ولا يقتفى أثرهم ؛ فلا يكفّ عن أعمال الدنيا فى

يوم السبت ، وهو يوم عيدهم ، ووقت قداستهم وعبادتهم ؛ ثم يرمونه بالبعد عن دينهم ، والكفر بنبيهم ، والمُروق من عقائدهم .

ولكن ذلك لم يخفت من صوته ، ولم يَثْنه عن عزمه ؛ بل دَأبَ فى دعوته ، واستمر يؤذن برسالته ، وهم يخالون كل كلمة سَهْماً ، ويحسون لكل همسة وقعاً .

فلاكتِ الألسنة الحديثَ فى شأنهم ، وابتدأت الجماعات تنفضُّ من حولهم ، وخاف هؤلاء أن ينضب معين ثروتهم ، وتنقطع موارد أرزاقهم ؛ فقلَّبوا وجوه الرأى ، ثم أجمعوا أمرهم بينهم على أن يباد أصل الداء ، وتستأصل شأفته ، وبيَّتوا له الشر ، ودبروا له القتل ، حتى لا يتألب الناس عليهم ، وينتقضوا على سلطانهم .

وما كان أجهلهم بدين الله ، وأبعدهم عن صراطه ، حين هموا بقتل نبي يؤمن بكتابهم ، ويقرّ دينهم ، وهو لم يجترم جرما إلا دعوتهم إلى التزام حدود الله ، ونبذ المآثم والذنوب ؛ ولم يقترف إثما إلا أنه رغب فى أن يردهم إلى حقيقة الدين ، ودعاهم إلى حسن القيام به ، وحثهم على الإخلاص له .

عقدوا العزم على قتله ، ولكن أنَّى لهم ذلك ، وهم لا يعرفون مكانه ؛ ولو أنهم بحثوا عنه بأنفسهم لأعياهم البحث ، بل لرجعوا بالحسرة ، وباءوا بالخيبة ؛ إذن فليلجئوا إلى الوعود الكاذبة ، والأمانى المعسولة ، يبذلونها لمن يأتيهم به ، وليَرْكَنُوا إلى العيون يبثونها حوله ، وإلى الأموال يغدقونها على من يدلهم عليه ؛ وأخيرا إلى الوالى يستفزون غضبه ، ويوهمونه أن

فى دعوة عيسى زوالا لملك قيصر ، وتقويضاً لسلطانه .

واجتمع رجال الدين فى بيت المقدس يجيلون النظر ، ويبحثون عن أقرب الطرق التى بها يستحوذون على عيسى ، وأفضل السبل التى تجعله فى قبضة أيديهم ؛ وبينما هم فى اجتماعهم ، وقد ضاقت بهم السبل ، وتملكهم الحزن واليأس ، وحاروا فى أمرهم ، وخافوا أن تضمحل دولتهم ، وتندك عروشهم ، وينصرف الناس عنهم ، وبينما هم فى هذا الحزن الشامل ، وذلك اليأس القاتل ، دلف إلى الحارس رجل[1] من أتباعه يقدّم رِجْلا ويؤخر أخرى ، وأسرّ إليه فى خوف واستحياء ، بأن لديه أمراً يريد أن يفضى به إلى المجتمعين .

ولما دخل عليهم أقبلوا عليه يستنبئونه عن حاجته ، ويسألونه عن سبب مقدمه ؛ فأفضى إليهم بما سكّن اضطرابهم ، وأذهب خوفهم ، وأدخل السكينة إلى قلوبهم ؛ وحدّثهم أنه إنما أهمّه خروج عيسى عن دينهم ، وأقضّ مضجعه إنكاره نظمهم ، وأقذى عينيه أن يرى الناس يلتفون حوله ، ويؤيدون دعوته ، ثم أبدى ـ فى حذر واضطراب ـ رغبته فى أن يدلهم عليهم ، ويعرفهم بمكانه ؛ ليريحهم من مصدر كَدَرِهم ؛ فيصفو عيشهم بعد كَدَره ، وتستقرّ حالهم بعد قلقها .

وما كاد يتم كلامه حتى تنفسوا الصعداء ، وطفحت وجوههم بالبشر ، وأقبلوا عليه يمنونه الأمانى ، ويبسطون له واسع الآمال ؛ فاطمأن إلى حديثهم ، وطابت نفسه بمعسول كلامهم ؛ ولعله كان كذلك يشفى غلًّا نشب

(١) هو يهوذا الأسخريوطى .

فى صدره، أو حقداً علق فى قلبه .

ذهبوا به إلى الوالى، فقص عليه القصص، وخبّره بمكنون أمر عيسى؛ فابتعث مع ذلك الشيخ جنداً يأتون بعيسى؛ ليقضوا فيه أمرهم، وينفذوا حكمهم .

وكان عيسى حينذاك قد علم مايخفى القوم، وما بيّتوا له من شر، وانتهى إليه ما أجمعوا أمرهم عليه، وعرف أن عيون الكهنة تترصده، ورجال السلطان يجدّون فى البحث عنه؛ فأخذ ينتقل من مكان إلى مكان، يختفى حينا ويظهر آنا، وهو لا ينى عن بث دعوته، ولا يقصر فى إعلان رسالته، ولا يفتأ يحض على التمسك بحبل الله، ويدعو إلى البعد عن المنكرات والآثام؛ وتلاميذه لا يفارقون ظله، ولا ينأون عنه .

وآوى معهم يوما إلى بستان يسكنون إليه ليلتهم، وظنوا أنهم بمنجاة عن العيون، ولن يهتدى إلى مكانهم الباحثون؛ ولكنهم كانوا واهمين؛ إذ لم يكد يُجنّهم الليل، ويستّرهم الظلام، حتى تهدّى الباحثون إلى مكمنه، وعثروا عليه فى مخبئه؛ فأصبح عيسى وتلاميذه بين أيديهم .

ولما رأى التلاميذ ماكاد يحيق بهم وبصاحبهم، تركوا نصرته، وانفضوا من حوله، وولوا هاربين .

أما عيسى فما كان الله ليسلمه إلى أعدائه، وهو يجاهد فى سبيل إعلاء دينه، وقد أيّده بالمعجزات، وآزره بالبينات، ووعده بنصره على أعدائه، وسلامته من كيد الكائدين .

فى هذه الساعة الرهيبة الفاصلة، تجلّت قدرة الله، وامتدت إليه يد

العناية ، فأخفاه الله عن أعين الناظرين ؛ ووقع تحت بصرهم رجل شـديد الشبه به ؛ وما لبثوا أن حسبوه هو ؛ فانقضّوا عليه ، وأخذوا بتلابيبه ؛ فتملكته الدهشة ، وعقد لسانه الخوف ؛ فلم يستطع الدفاع عن نفسه ، ولا الإعلان عن حقيقة أمره : بل استسلم خائفا مذعوراً . ولا غرو فالجماعات وقت انفعالها واضطرابها ، لا تتحرى الحق ، ولا تستكنه الأمور ؛ بل سبيلها التسرع والاندفاع ، والاكتفاء بما يشبه الدليل والبرهان بلا روية ولا إمعان .

ذلكم الرجل هو يهوذا الذى دلهم عليه ؛ فردّ الله كيده فى نحره ، وجازاه على خيانته ومكره .

فاستاقوه إلى ساحة ، صلب فيها ، بين الصخب والضجيج ، والفرح والتهليل ، وهم يزعمون أنهم قتلوا عيسى ؛ وما قتلوه وما صلبوه ؛ ولكن شُبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ! وما قتلوه يقينا ؛ بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيما .

ذو القرنين *

فَصَل ذو القرنين إلى الغرب غازيا فاتحا ، محاربا مجاهداً ؛ لا يصادفه في طريقه حَزْنا إلا سَلكه ، ولا عاليا إلا ظَهَرَه ، ولا عَدُوًّا إلا كسَّر سلاحه ، وقص جناحه ؛ لا يبالى فى الجهاد الحرّ ولا القرّ ، ولا السهلَ ولا الوعر ؛ إذ كان الله قد مكّن له فى أرضه ، ورزقه الطاعة والانقياد فى جنده ، وآتاه من كل شىء يحتاج إليه فى توطيد ملكه سببا ، ومنحه فى القتال حظاً سعيداً ، وفتحا مبينا .

وما زال فى طريقه يسير ويَسرى حتى انتهى إلى عين اختلط ماؤها وطينها ، فتراءى له أن الشمس تغرب فيها ، وتختفى وراءها ؛ وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو ، ولا سبيل للجهاد ؛ ولكنه رأى عندها قوما : هاله كُفرهم ، وكَبُر عليه ظلمهم وطُغيانهم ؛ إذ كانوا قد عَثَوْا فى الأرض ، وأكثروا الفساد ، وسفكوا الدماء ؛ استجابةً للشيطان ، وجرياً وراء نوازع النفوس ؛ فاستخار الله فى أمرهم ومايصنع بهم ؛ فخيره الله بين سبيلين ، يختار إحداهما ، ويسلك ما يريد منهما : إما أن يذيقهم القتل ويوقع بهم النكال ، جزاء كفرهم وطغيانهم ؛ وإما أن يمهلهم ويدعوهم ، لعل منهم من يهتدى ، أو يرتدع ويرعوى . فاختار ذو القرنين الإمهال على القتل ، والحسنى على الإثخان ، ثم قال : « أَمَّا مَنْ ظَلَم فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ

---

* القرآن الكريم ـ سورة الكهف : آية ٨٥ وما بعدها .

ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » . وأقام فيهم مدة ضرب على يد الظالم ، ونصر المظلوم ، وأخذ بيد الضعيف ، وأقام عمود العدل ، ونشر لواء الإصلاح .

ثم بَدَا له أن يثنى عنان عزمه إلى الشرق ، فسار غازياً مجاهداً ، منصورا موفقاً ، حسن الطالع مظفرا ؛ حتى انتهى فى سيره إلى غاية العمران فى الأرض ، وهناك وجد أقواما تطلع الشمس عليهم ؛ ولكن ليس لهم بيوت تسترهم ، أو أشجارٌ تظلهم ، ولعلهم كانوا على حال من الفوضى ، ونصيب من الجهل ... فبسط على بلادهم لواء حكمه ، وأضاء عليهم بنور علمه ورأيه ، وخلفهم إلى الشمال غازيا مجاهدا مظفراً منصوراً ، حتى انتهى إلى بلاد بين جبلين ، يسكنها أقوام لا تكاد تعرف لغاتهم ، أو يفهم فى الحديث مرماهم ؛ ولكنهم قد جاوروا يأجوج ومأجوج ؛ قومٌ فى الأرض مفسدون ، وأوزاع من الخلق ضالون مضلون .

وما إنْ رأوا ذا القرنين ملكا قوى البأس ، شديد المراس ، واسع السلطان ، كثير الأعوان ، حتى فزعوا إليه : أن يقيم سدًّا بينهم وبين جيرانهم : يفصل بلادهم ، ويحول دون عدوانهم ، إذ كان يأجوجُ ومأجوجُ قوما قد ركب الشر فى نفوسهم جبلّة ، وامتزج الفساد بين جوانبهم خلقه ؛ السيفُ لا يمكنه أن يَرْدَعَهُمْ ، والنصح محال أن ينفعهم ؛ وشرطوا على أنفسهم نَوْلًا يدفعونه إليه ، وأموالًا يضعونها بين يديه .

ولكن ذا القرنين ـ بما طبعه الله على الخير ؛ وما فطره على الصلاح ،

وما أعطاه من كنوز الأرض وخيراتها ـ أجابهم إلى سؤالهم ، وردّ عطاءهم وقال لهم : « مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ » . ثم طلب إليهم أن يعينوه على ما يفعل ، ويساعدوه على ما يصنع ؛ فحشدوا له الحديد والنحاس ، والخشب والفحم ؛ فوضع بين الجبلين قطع الحديد ، وحاطها بالفحم والخشب ؛ ثم أوقد النار ، وأفرغ عليه ذائب النحاس ؛ واستوى كل ذلك بين الجبلين سدًّا منيعا قائما ، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تَظْهَره ، لملاسته ، أو تَنْقُبَهُ لمتانته : وأراح الله منهم شعبا كان يشكو من أذاهم ، ويألم من عدوانهم.

أما ذو القرنين فإنه ما رأى السد منيعا حصينا حتى هتف من قرارة نفسه قائلا : « هٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا » .

أصحابُ الكهف *

خرج أهل أفسوس فى يوم عيدهم ، يحتفلون بأوثانهم ، ويتقربون لأصنامهم ، ولكنّ شابا من أشرافهم ، وأكرم بيوتهم ، لم تطمئن نفسُه إلى ما رأى ، ولم يسترح عقله إلى الآلهة التى يعبدون ؛ فشكّ وارتاب ، واضطرب تفكيره وتحيَّر ، ثم انسلّ من بين جموعهم ، وخرج مختفيا من صفوفهم ، حتى انتهى إلى شجرة جلس إليها ، ساهما مطرقا ، مرتابا متحيرا .

وما لبث أن تهادى إليه آخرُ ممن ذهب مذهبه فى شكه وحيرته ، واضطرابه وارتيابه ؛ وممن أشبهه فى شرف عنصره ، وكرم نِجَاره ، ثم آخر وآخر ، حتى انتهى عددهم إلى سبعة ؛ وما أسرع ما تعارفَتْ أرواحُهم ، وتعانقت آراؤهم ، وألفت بينهم فكرة واحدة ؛ وإن لم يكن بينهم نسب جامع ، أو رحِم ماسة .

وأعلنوا لأنفسهم شكهم وارتيابهم ، وإنكارهم لآلهة أقوامهم ؛ ثم جالوا فى رِحَاب الكون ببصائرهم النافذة ، وفطر السليمة ، حتى ضاءت نفوسهم بنور التوحيد ، وهُدُوا إلى الله منشئ الخلق ، وسر الوجود ، واستراحوا إلى هذا الدين ، واطمأنوا إليه ، واتفقوا على أن يكتموه بين جوانحهم ، ويستروه فى أعماق نفوسهم ؛ إذ كان الملك

---

* القرآن الكريم ـ سورة الكهف : آية ١٠ وما بعدها.

وثنيا ممعنا فى الوثنية ، مشركا ظهيرا للمشركين .

وظل كلّ واحد يخوض فيما يخوض فيه القوم ، ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس ؛ حتى إذا ماخلا بنفسه ، راجتمع مع قلبه ، اتّجَهَ إلى الله عابداً مُصَلِّيا ، ومنزهاً ومقدّساً ؛ حتى إذا كانت إحدى ليالى اجتماعهم ، وانتظام عقدهم ، قال أحدهم فى صوت خفيض ، وحذر مريب : لقد سمعتُ يارفاق بالأمس خبرا ، لو صدق راويه ـ ولا إخاله إلا صادقا ـ فإنّ فيه إفسادَ ديننا ، أوذهابَ حياتنا؛ سمعت : أن الملك قدعلم بأمرنا ، وافتضح عنده عقيدتنا وديننا ؛ فثار ثائره ، وهاج هائجه ، وتوعّدنا شراً إن لم نَصْبأَ عن هذا الدين الذى أُشربته نفوسنا ، وانسجم مع عقولنا وتفكيرنا ؛ وإنه يوشك أن يطلع علينا الغد ؛ فإذا جميعنا فى حضرته ، وبين وعده ووعيده ، وسيفه ونِطعه ؛ فتدبروا أمركم ، واحزموا رأيكم .

قال الثانى : هذا خبرٌ كنت سمعت به من قبل ، فحسبته من إرجاف المرجفين ، وتأويل الجاهلين ؛ ولكن يظهر أنه استفاض وذاع ، حتى دل على صدقه ، أو إمكان وقوعه ؛ وماأرى إلا أن نثبت على ديننا ، ونصمد لاضطهاد يُراد بنا ؛ ومحال أن نرجع إلى هذه التماثيل التى يعبدونها ، بعد أن عرفنا فسادها وبطلانها ؛ ولسنا براجعين عن عبادة الله ، ومع مطلع شمس كل يوم دليلٌ على وجوده ، وفى كل سبحة من سبحات التفكير شاهد على عظمته .

وصدقت الإشاعات ، وصحت الأخبار ، وانتظم جمعهم أمام الملك ؛ بعد أن انتزعوا من منازلهم ، وأُخذوا من بين أهليهم .

قال لهم : لقد حاولتم ستر أمر فلم تفلحوا ، وجاهدتم فى كتمان دين ولكنكم لم تنجحوا ؛ وقد انتهى إلىّ عُجَرُكم [1] وبُجَرُكم ، وخُبرُكم وخَبرُكم، ووصل إلىّ أنكم صبأتم عن دين الملك والرعية، إلى دين لا أدرى كيف هبط عليكم ، أو وصل علمه إليكم ؛ وقد كان يهون علىّ أن أترككم تهيمون فى دينكم ، وأن ألقى حبلكم على غاربكم ؛ لولا أنى علمت أنكم من أشراف قومكم ، ومن أوساط عشائركم ؛ وتوشك العامة ــ لو علمتْ بأمركم ــ أن تَرِد شريعتكم ، وتدخل دينكم ، وتَتَقيل طريقكم ؛ وفى ذلك مافيه من إفساد المُلك ، وانتقاض حبل الأمان .

ولست بمعجل لكم العذاب ، أو موقع عليكم العقاب ، حتى تفكروا فيما أنتم مقدمون عليه ؛ فإما رجوعٌ إلى ملتنا وإذعان لما فيه الناس ؛ وإما أن يرى الرائى فإذا أمامه رءوس ملقاة ، وأشلاء ممزقة ، ودماء منكم تسيل .

وربط الله على قلوبهم ، وأيدهم فى إيمانهم ؛ فقالوا : أيها الملك ؛ إن هذا الدين لم ندخل فيه مقلّدين ، ولم نعتنقه مُكرَهين ، ولم نَسِرْ فيه جاهلين؛ دعتنا إليه الفطرة فلبَّينا ، وأضاء لنا العقل وفى ضَوْئه سرنا ؛ هو الله الأحد، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً ؛ أما قومنا هؤلاء فقد عبدوا أصنامهم جاهلين مقلدين ، لم يأتوا عليها بسلطان ، ولم يدلوا عليها ببرهان ؛ هذا ماانتهى اليه علمنا ورأينا ؛ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ .

قال الملك : اذهبوا اليوم على أن تأتونى فى الغد ؛ أنظر فى أمركم ، وأفصل فى قضيتكم .

---

(١) عجركم وبجركم : ماأبديتم وما أخفيتم .

وخلصوا إلى أنفسهم يشتورون فيما يفعلون ، ويجيلون قداح الرأى كيف يصنعون . قال واحد منهم : أما وقد عرف الملك أمرنا فلا مقام لنا بين وعده ووعيده ، وإطماعه وتهديده ، ولنفر بديننا إلى ذلك الكهف من الجبل ، فإنه قد يكون على ظلامه وضيقه ، أفسح صدرا ، وأطيب مكانا ، من هذه الأرض الوسيعة ، التى لا نستطيع أن نعبد الله فيها كما نريد ، وأن نجهر بديننا كما نعتقد ؛ ولا قرار فى مكان نُرَادُ فيه على دين لا نطمئن إليه ، ولا كرامة فى وطن نُقْهر فيه على رأى لا نعتقده .

وأصبحوا جميعا يحملون زادهم ، مفارقين أوطانهم ، مهاجرين بدينهم ؛ ولحهم كلب فى الطريق ؛ فسار فى إثرهم ، وتَعَلَّقَ بهم ؛ فلم يروا بأسا فى أن يرافقهم ، يصحبهم أو يحرسهم .

وما زالوا فى سيرهم حتى انتهوا إلى الكهف ؛ وهناك وجدوا ثمارا فأكلوا ، وماء فشربوا ؛ ثم اضطجعوا قليلا ليبردوا أقدامهم ، ويعيدوا ماذهب من عافيتهم فى أثناء سيرهم ؛ ولكنهم ما عتموا أن أحسوا إغفاءة خفيفة ، داعبت جفونهم ؛ ثم أسلمت رءوسهم إلى الأرض فى نوم عميق .

* * *

وتعاقب ليل إثر نهار ، ومضى عام وراء عام ، والفتية راقدون : النوم مضروب على آذانهم ؛ والكرى معقود بأجفانهم ؛ لا تزعجهم زمجرة الرياح ؛ ولا يوقظهم قصف الرعود ؛ تطلع الشمس فتنفذ إلى الكهف من كُوَّته ؛ فتمنحه الضوء والحرارة ؛ ولكن أشعتها لا تصل إليهم ؛ وتغرب فتميل وتبتعد ؛ تحقيقا لما أراد الله من حفظ أجسادهم ، وبقاء جثثهم ؛

ولو اطلع مطلع عليهم لرآهم يتقلبون مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال وقد طالت أظفارهم ، وامتدت لحاهم وشواربهم ؛ يبعثون الرعب فيمن يراهم ، والهول فيمن يطلع عليهم .

ودخلت سنة تسع وثلاثمائة منذ نومهم ؛ انتبهوا بعدها ، وهم لا يكادون يمسكون نفوسهم من الجوع أو يجمعون أعضاءهم من التعب . ظانين أن الزمن لم يمض بهم وأن عجلة التاريخ واقفةٌ عند كهفهم .

قال واحد منهم يسأل: يخيل إلىّ أن ساعات طويلة رقدناها؛ فما تظنون يا رفاق؟

قال الثانى : ربما نكون قد لبثنا يوما ؛ فإن هذا الجوع الذى نحسه ، والتعب الذى نشعر به ، لَيُؤْذِن بما أظن .

وقال الثالث : نحن قد رقدنا فى الصباح ، وهذه الشمس لم تطفل[1] ؛ فما أظن إلا أننا قد لبثنا بعضا من يوم .

وقال الرابع : دعونا من تساؤلكم ؛ فالله أعلم بما لبثتم ، ولكننى أحس الجوع شديدا ، وكأنى لم أطعم منذ ليال ، فليذهب واحد منكم إلى المدينة يلتمس لنا طعاما ، وليكن حذِرا لبيبا ، فطنا أريبا : حتى لا يعرفه أحد ، ولا يفطن اليه إنسان ؛ إنهم لو ظهروا علينا ، وعرفوا مكاننا ، يقتلوننا أو يفتنوننا فى ديننا .

فخرج إلى المدينة واحد منهم يلتمس الطعام ، وهو خائف حذر ؛ ودخل أفسوس ، وما راعه إلا تغيير فى معالمها ؛ وانقلاب فى مبانيها ،

(١) لم تطفل : لم تدن للغروب .

هذه خرائب أضحت قصورا ، وتلك قصور أمست خرائب وأطلالا ، وتلك وجوه لم يعرفها ، وصور لم يألفها .

أما الديار فإنها كديارهم وأرى رجال الحى غير رجاله

وتحيَّرت نظراته ، وكثرت لفتاته ، وظهر الاضطراب فى مشيته ، والوجوم فى حيرته ، وألحّ عليه الاضطراب ، وتتابع الوجوم ، حتى لفت الناس إليه .

قال له أحدهم : أغريب أنت عن هذا البلد ؟ وفيم تتأمل ؟ وعلامَ تبحث ؟ قال : لست غريبا ، ولكننى أبحث عن طعام أشتريه ؛ فلا أرى مكان بيعه . وأخذ الرجل بيده حتى انتهى به إلى صاحب طعام ، وأخرج صاحبُ الكهف دراهمه ؛ ونقدها التاجر ، وماراعه إلا أن رأى نقودا ضُربت من نحو أكثر من ثلاثمائة عام ؛ فحسب أنه عثر على كنز ، وأن من وراء دراهمه دراهم كثيرة ؛ وأموالا عظيمة ؛ فجمع النَّاس من حوله ، ودلفوا إليه من كل مكان .

فقال : ياقوم ليس الأمر كما زعمتم ، وليست هذه النقود كما توهمتم ، وإنما هى دراهم قد وقعتْ لى فى بعض معاملتى مع الناس بالأمس ، وأنا أشترى بها طعامى اليوم ، فما يدعوكم إلى الدهشة ؟ وما يدفعكم للافتراء علىّ بما تظنون ؟ ثم همّ بالعودة ؛ خشيةَ أن يفتضح أمره ، أو تظهر حقيقة حاله ؛ ولكنهم عادوا فرفقوا به ؛ وتلطَّفُوا معه فى القول ، وحاوروه فى الحديث ؛ وما كان أشد ذهولهم حينما علموا أنه أحد الفتية الأشراف ؛ الذين هربوا من تسع وثلاثمائة سنة من مَلِكهم الجائر الكافر ؛ وأنهم هم

الذين ـ فيما سمعوا ـ تطلَّبهم الملك فلم يظفر بهم ، ونشدهم فلم يهتد إليهم ؛ وماكان أشدّ خوف الرجل حينما علم أنهم فطنوا لأمره ، وعرفوا قصته؛ فخاف على نفسه وإخوانه ، وهمّ بالهروب .

قال له أحدهم : لا تُرَعْ ياهذا ؛ إن الملك الذى تخافه قدمات من نحو ثلاثمائة عام ، وإن الملك الذى يجلس الآن هو مؤمن بالله كما تؤمنون ؛ وأما أنت فأين بقية صحبك ؟

فأدرك الرجل حقيقة حاله ، وعرف تلك الفجوة من التاريخ ، التى تفصل بينه وبين الناس ؛ فهو الآن لا يعدو أن يكون شبحا يمشى ، أو ظلًّا يتحرك ؛ ثم قال لمن يحدثه : دعونى أذهب إلى صحبى فى الكهف ؛ أحدثهم عن شأنى وشأنهم ، فربما يكون قد طال انتظارهم ، واشتد قَلَقهم .

وسمع الملك بأمرهم ؛ فخفّ إلى لقائهم ، وسعى إلى كهفهم ؛ فرأى فيهم قوما أحياء ، تشرق بالحياة وجوههم ، وتجرى الدماء فى عروقهم ؛ فصافحهم وعانقهم ، ودعاهم إلى قصره ، والإقامة فى داره ؛ فقالوا : ومانبغى بالحياة ، وقد مات الحفيد والولد ، وعفت الدار والسكن ، وانقطع ما بيننا وبين الحياة من أسباب . ثم توجهوا إلى الله طالبين أن يختارهم لجواره ، وأن يشملهم برحمته ؛ وما هو إلا ارتداد الطرف حتى وقعوا أجسادا لا حياة فيها .

أما القوم فقالوا : لعل الله أعثرنا عليهم ؛ لنعلم أن وعد الله حق ، والبعث صدق ، والساعة آتية لا ريب فيها ؛ ثم تنازعوا أمرهم بينهم : « فَقَالُوا : ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً ، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً » .

أصحابُ الأخدود *

صنعاء قد لفحتها الشمس بسهامها المحَماة ، ومسّتها الصحراء بأُوارها المتسعر ؛ ولهذا أقفرت شوارعها ، وسكنت حركتها ، وخَلَت من الناس ؛ إلا رجلا ظهر فجأة من الشمال ؛ وكأنه قادم من الصحراء ، وجاوز الأرباض والحدود : واتخذ سبيله نحو قصر الملك ذى نواس .

كان كل ما فيه يبعث على الشك والارتياب : وجه يعلوه الوجوم ، وعينان تختلج فيهما الحيرة ، وخطوات مضطربة غير مطمئنة ؛ وكأن بين جنبيه سراً يريد أن يفضى به . أو أمرا جليلا قدم من أجله ؛ إلا أن حارس القصر لم يَدَعْه يستمر فى اضطرابه : بل سأله ما قدومه فى هذه الساعة التى ألزم فيها الحر الناس الدور ، وسكن فيها الإنسان والحيوان ، والطير والنبات ؟

قال الرجل : أتيت فى أمر جليل الخطر ، عظيم المقدار ، أكاشف به ذا نواس .

قال الحارس : إن الملك فى شغل عن لقائك ولقاءِ غيرك من الطرّاق والوافدين ؛ إنه وإن يكن قد انتهى من قتل ذى الشناتر ، وتوطيد الملك فى صنعاء ، وإرجاع اليهودية فى اليمن على ما كانت عليه على عهد تبّع ؛ إلا أنه يعد العدة ، ويهيئ الرحلة لغزوة بعيدة فى الأرض ، تنتظم الشرق والغرب ، والسهل والجبل ؛ وقد أقسم يمينا غليظة ألا يَقَرَّ له جنب على

* القرآن الكريم ـ سورة البروج

وساد ، ولا يغمض له جفن على نوم هادئ ، حتى يرى اليهودية دينها شاملا ، وحكم التوراة فى الأرض نافذاً ؛ وهو حينما تُضَيِّفُ[1] الشمس للغروب ، وحينما تخف وطأة الحر ، يخرج إلى هذه الحديقة من القصر ، ويجمع إليه الأذواء والأقيال ، والأشراف والقواد ، الذين تألّفهم لطاعته ، وأرادهم على دينه ؛ فيشاورهم فى الأمر ، ويهيئون جميعاً سبيل الغزو والجهاد .

قال الرجل : إننى لم أبعد شيئاً عما فيه الملك ، وإنى ما قدمت عليه إلا فى أمر له صلة بهذا الدين الذى يسل سيفه فى سبيله ، ويريد أن يحمل الناس على اتباعه ؛ ولو أنك حدثته بما قَدِمتُ له ، فإننى لا أرتاب فى أنه سيدعونى إليه ؛ ولا أشك فى أنه سيهتم لهذا الشأن ، وسيكون منه موضع تفكير وتدبير .

ثم أوى إلى زاوية من زوايا القصر ، ريثما تخف وطأة الحر ، وينزل الملك ليأخذ مع من يجىء إليه فيما يهمهم من شؤون .

* * *

وخرج ذو نواس من مخدعه ، وأخذ سبيله إلى مكانه من حديقته ، واجتمعت حوله حاشيته ؛ وقبل أن يخوضوا فى الحديث ، جاء الحاجب يقول : إن رجلا قدم اليوم من نجران للقاء الملك ، وإنه ــ فيما يزعم ــ يريد أن يفضى إلى الملك بأمر دين جديد ، يُخشى منه على اليهودية .

قال ذو نواس : دين جديد ! علىّ بالرجل من فورك ؛ وجاء الرجل فقال : أيها الملك المتوج ؛ نَعِم مساؤك ، ودام لك سلطانك ، وليهنئك الظفر بأعدائك ، وليهيئْ لك الله هداية وتوفيقاً فيما تريد ؛ جئتك

(١) تضيف : تميل .

يامولاى لا طالباً رِفدا ، ولا مستَعْدِيا بك على مظلوم ؛ ولكنّ حادثاً بنجران قد وقع ، وإنه إن لم يتدارك أمره ؛ فإنه يوشك أن يمتد إلى غيرها من البلدان ، وربما امتد إلى اليمن ، وربما جاوزها إلى غيرها من أصقاع الأرض .

فقال ذو نواس : قد روّعتنى بأخبارك ، وشغلت بالى بحديثك ؛ فهاتِ لما أجملت تفصيلا ، ولما لوّحت به بياناً وتبيينا .

قال الرجل : إنه منذ أيام قد دخل على نجران دين جديد يدعونه النصرانية ، ويبشرون له باسم عيسى المسيح ؛ فأما الوثنيون من أهلها فقد ارتاحت قلوبهم إليه ، وتغلغل فى نفوسهم ، ودخلوا فيه أفواجا ؛ وأما اليهود ففريق منهم صَبَأَ عن دينه ، ودخل فيما دخل فيه الوثنيون ، وفريق ظل على اليهودية ، ولكنه ممتَحَن بالأذى ، مبتلًى بالكيد ، وإنْ لم يتدارك الملك اليهودية بنجران فإنه يوشك أن يمَّحى ظلها ، ويعفوَ رَسْمها ، وينتهى تاريخها .

فاستوى ذو نواس فى جلوسه ؛ وكأنه قد غُصّ بريقه ، وقال : كيف دخل هذا الدين نجران ؟ وكيف مكن له فى هذه الأرض ؟ وكيف استطاع أن يصل إلى القلوب على قُرْب عهده وحداثة ميلاده ؟ زدنى إيضاحا .

قال الرجل : قد وفد على نجران فيمن يَفِدُ عليها من الأرقاء رجلان : أحدهما رومى واسمه فيميون ، والآخر عربى واسمه صالح ؛ أما فيميون فاشتراه رجل من الوثنيين عباد النخلة ؛ فوجده كريما مِسْماحا ، يجول فى غرته ماء التقوى ، ويفوح من خلائقه عَرْف الصلاح ، فكان يعمل

له عامة يومه، لا يعرف الكلل ولا الشكوى؛ فإذا كان المساء أوى إلى حجرة أفردها له ليصلى فيها.

وطلع عليه سيده يوما فوجده يصلى، والحجرة مضيئة من غير سراج! فعجب منه وسأله عن دينه، وهل هو يؤدى عبادة أخرى لغير هذه النخلة التى يعبدونها، ويستلهمون أسرارها؟ قال له: إنما أنا أعبد الله مالك الملك ومدبّر الخَلق، ومصدر الوجود؛ ذلك الذى أرشد المسيح إلى وجوده، ودلّ على قدرته؛ وأما هذه النخلة فإنها لا تملك ضرا ولا نفعا؛ بل لا تستطيع جلب خير لها، ولا دفع شرٍ يُراد بها؛ ولو شئت لدعوت الله أن يرسل عليها ريحا تجففها، أو ناراً تحرقها؛ فربما فعل وربما استجاب.

قال له سيده: أو تستطيع؟ قال فيميون: أتؤمن بالنصرانية لو فعلت؟ قال: نعم؛ فصلى فيميون — فيما يزعم أصحابه ومريدوه — ودعا الله فأرسل على نخلة سيده ريحاً جفّفتها وألقتها؛ فعند ذلك آمن الرجل، وشاعت هذه المقالة فى نجران، ودخل الناس فى النصرانية أفواجا... ولست ترى الآن فى هذه الأرض إلا من دخل، أو هو سيدخل فى هذا الدين الجديد.

قال ذو نواس: وهل بقى عندك فضل من حديث؟ قال الرجل: لو شئتَ لحدثتك ما يتناقله أهل نجران عن فيميون؛ لتعلم مبلغ حبهم لدينه، وتعلقهم بذاته.

قال ذو نواس: هات كل ما عندك؛ فإنك قد شغلت بالى بحديث هذا الدين، وأمر هذا الرجل.

قال: زعم رفيقه صالح، من تاريخه معه، أنه بينما كان يعمل فى قرية

من قرى الشام ، إذ بصر بفيميون سائراً فى إحدى طرقاتها ؛ فشهدَ عليه علائم التقوى ، وتحدثت معارف وجهه عن عقل راجح ؛ فأحبه وعلق به ، وتبعه أنَّى ذهب من حيث لم يشعره بذلك ؛ حتى خرج فى يوم من أيام الآحاد إلى الصحراء يصلى ؛ وبينا هو فى صلاته ، أقبل نحوه تِنّين فاغرٌ فاه ! فذعر صالح ، وارتاع وصاح : يافيميون : احذر التنين فإنه مقبل نحوك ؛ ولكن فيميون أقبل على صلاته ، وما اقترب منه التنين حتى مات ! عند ذلك ظَهَر له صالح ، واستأذنه أن يرافقه ويأنس به ؛ فأذن له ، ومازالا ينتقلان من قرية إلى قرية ، وفيميون يظهر من كراماته وعجائبه مازاد صالحاً فيه حبا ، وبه تعلقا ؛ حتى كانا بإحدى البَوادى ، إذ طلع عليهما بعضُ العرب ، وأخذوهما أسيرين ، ثم باعوهما فى نجران ، وكان من أمر فيميون ماسمعت .

* * *

وما انتهى الرجل من حديثه ، حتى ثارت حفيظة ذى نواس ؛ واضطرمت نار الغضب فى صدره ؛ أن يَظْهَر فى نجران دين غير اليهودية ؛ أو يعلو فيها حكم لغير التوراة ؛ وحلف لا يغمد سيفا ، ولا تسكن منه ثائرة ، حتى ينكّل بأهل نجران ، أو يرجعوا إلى اليهودية مذعنين .

وخرج ذو نواس من صنعاء بجيش يملأ أقطار الأرض قاصدا نجران ، فلما وصل إليها ضرب من حولها نطاقا ؛ فارتاع أهلها وذهلوا ؛ ولكنه قبل أن يبدأهم بعذاب ، أو ينالهم بمكروه جمع ساداتهم ، وأصحاب الزعامة فيهم ، وقال : إنى قد رأيت - كرما وتفضلا - قبل أن يستَحِرّ

فيكم القتل، ويعمل فيكم السيف، وينالكم الأذى، أن أخيّركم بين اليهودية، ديني اليوم ودين تبّع من قبل، وبين ما اعتنقتموه من دين جديد؛ ولستُ بصانع لكم العذاب حتى تفكروا، ولا بمعمل فيكم السيف حتى تتدبروا.

فقالوا: إنما النصرانية دين أُشربته نفوسنا، ودخل فيما بين شغاف قلوبنا، ومالنا عنه محيص ولا معدل؛ وسواء علينا أوسّعت لنا في الأجل، أم عجلت لنا بالموت.

فلما رأى إصراراً وعناداً، وتمسكا بالنصرانية واعتصاما، أمر بشق أخدود في الأرض، وأحضر وقودا وحطبا، ثم أشعلوا النار، وبعثوا الدخان، وأخذوا النصارى يلقونهم في لهبها: لم يعفوا شيخا هِمّاً، ولا امرأة عجوزا، ولا طفلا رضيعا؛ حتى خلت نجران من النصارى، ولم يبق بها غير اليهود.

سَيل العَرِم *

قامت دولةُ سبأ على أطلال الدولة المعينية بـ ... ها فى لغتها وعاداتها ، واقتبست منها حضارتها ومدنيتها ، وتدرّجت من الإمارة البسيطة إلى الدولة المحدودة إلى الملك الواسع العريض ، وأسسوا القصور الشامخة بِصِرْواح (1) : ثم انتقلوا منها إلى مأرب ، واتخذوها حاضرةً لهم ، حيث أخصب لهم العيش ، وطابت الحياة ، وتقلبوا فى أعطاف النعيم .

كانت اليمن بلاداً مستفيضة الرقعة ، ذات أودية عريضة ، وتربة خصبة ؛ ولكنها كانت شحيحة بالماء ، مقفرة من الأنهار ، إلا وابلا من المطر يتحدّر من سفوح الجبال ، ثم يمضى قُدُما إلى الصحراء ولا يلوى على شىء ، حتى يأخذ سبيله إلى باطن الأرض ؛ فلا يلبث إلا كما يلبث الطَّيف ، أو تقيم سحابة الصيف ؛ فألجأتهم الحاجة إلى أن يبتدعوا أمراً يتوقَّون به هذه السيول ، ثم ينتفعون بها ؛ فهُدوا إلى طريقة السدود والحواجز يقيمونها بين الأودية ، ويصْطَنعون الطرق الهندسية ، التى تسهل الانتفاع بما تخلّفه وراءها من مياه ؛ كثرت هذه السدود ، وتعددت تلك الحواجز ، بكثرة الأودية وتعدّد الجبال ، حتى جاوز عددها

---

* القرآن الكريم - سورة سبأ : الآيات من ١٥ - ٢٠

(1) صرواح : مدينة ذات حصون .

المثات ؛ ولكن سد مأرب كان أقواها وأمتنها ، وأجداها وأنفعها .

تقع مدينة مأرب فى نهاية واد فسيح يتجه إلى الجنوب ، ثم يقصر أمده ، وتضيق رقعته رويدا رويدا ، حتى يكون بين جبلى بلق أضيق ما يكون ، ثم يمتد حتى يلتقى بمجرى السيول المتحدرة من جبال السراة .

فى هذا الوادى وعلى سفحى جبل بلق أقام الملوك الصِّيد (١) من سبإ سدًّا عريضا ، منيعا حصينا ، قويا مكينا ؛ وجعلوا على جانبيه مصارف بطرق هندسية منتظمة ، هيّأت لهذا الوادى أن يصبح بفضل ما احتجزوه من الماء ، أرضا خصيبة ، فيها زروع نضرة ، وحدائق ذات بهجة . ونطقت تلك الحجارة الصماء بألفاظ من الأشجار مورقة ، وأساليب من الأزهار معجبة ؛ واستحالت رمالُ الصحراء بسطا هندسية ، زاهية خضراء ، تجرى بينها القنوات الملتوية ، وتَصْدَح فوق خمائلها الشحارير (٢) المغنية ، إلى الأثمار الدانية القطوف ، والأزهار المعجبة الألوان .

كانت المرأة تسير وسط هذه الحدائق حاملة مِكْتَلها فوق رأسها ، فلا تمضى فى السير غلوة ، حتى يكون قد امتلأ المكتل من الثمر المتساقط من شجره . . . واتسعت لديهم النعمة ، وفاض عندهم الخير ، واشتغل جماعة منهم بالتجارة والرحلة ؛ فكانوا يسيرون إلى القرى التى بارك الله فيها من الحجاز والشام آمنين مطمئنين ؛ لا يسيرون مرحلة أو مرحلتين ؛ حتى يكون اللهُ قد هيّأ لهم مكانا ، يُبردون فيه أقدامهم ، ويريحون

(١) الصيد : جمع أصيد ؛ وهو الملك العظيم المتكبر .
(٢) الشحارير جمع شحرور : طائر .

أبدانهم، ويتبلغون بطيب الزاد، وعذب الماء، وهم فيما بين ذلك آمنون مطمئنون؛ نعمة تظاهرُ نعمة، وفضل من الله يعقب فضلا، «بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ».

فكانوا خلقاء أن يشكروا لله نعمته، وأن يحمدوه على ماأطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف؛ ولكنهم جَرَوا فى عنان بعض من سبقهم من الأمم، وساروا فى دروبهم، وتقيلوا طريقتهم ومذهبهم؛ فكفروا بالنعمة، وبالغوا فى البطر والأثرة، حتى أرسل الله فيهم أنبياء نصحوهم فأعرضوا، وهداة مرشدين حاولوا إصلاحهم فوضعوا أصابعهم فى آذانهم واستكبروا؛ ثم انصرفوا عن العمل، وشغلوا عن العمران؛ فأراد الله أن يذيقهم وبال أمرهم، وأن يريهم عاقبة كفرانهم؛ ليكونوا عبرة لغيرهم، ومَثَلًا لمن يأتى من بعدهم، وعقوبة قاسية لمن تحدثه نفسه أن يسلك طريقهم، ويفعل فعلتهم.

فتهدّم السد وتقوّض البناء، ولم يستطع أن يحجز السيول المتدفقة، والأواذى المتلاطمة؛ وانطلقت المياه الحبيسة فى شعاب الوادى، وبين الغياض؛ فغرق الزرع، وهلك الضرع، وتقوّض البناء، وعاد الوادى كما كان صحراء مقفرة، صامتة مجدبة؛ لانبات فيها، سوى أشجار لاتثمر إلا كل مُرّ بَشِع، وأثلٍ لاغناء فيه، وشىء من سِدْر[1] قليل؛ وهربت العصافير والبلابل وخلفها البوم يصيح فوق الخرائب العافية، والغربان تنعق فى ذُرَا الأشجار الجافة؛ أما الأهلون فإنهم لما رأوا أن معين رزقهم قد غاض، ونَبع نحسهم قد فاض، لم يطيقوا صبرا على أن يقيموا فى صحراء

(١) السدر. شجر النبق.

كانت بالأمس جِنانا، وخرائب قطنوها قصوراً ؛ ففارقوا أوطانهم على الـكُره منهم ، ونزحوا عن ديارهم بقلب محرور ، وعين عبرى ، ثم تمزقوا فى أشتى البلاد ؛ فانحازت غسان إلى الشام ، وأنمار إلى يثرب ، وجذام إلى تهامة ، والأزد إلى عمان ؛ ومُزّقوا كل ممزق ؛ حتى صار أمرهم حديثاً يتنقل ، وحكايات تروى ، وأحاديث تتداول .

كانوا فى نعمة سابغة فلم يحفظوها ، وثياب من العز ضافية فلم يصونوها ؛ فجزاهم الله بما كفروا ، « وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الـكَفُور ؟ » .

أصحاب الفيل *

ملك ذو نواس بلاد اليمن؛ وهى رقعة من الأرض تكثر خيراتها، وتفيض بالأرزاق أرجاؤها؛ ولما قبض على ناصية الملك فيها نقم على سلفه انغماسه فى اللذات، وجنوحه إلى دواعى الشهوات؛ وأنكر عليه ميله إلى الإثم، وإغراقه فى الفحش؛ فأنبأ ذلك عن نفس تطمح إلى الزهد فى الدنيا، وتميل إلى النأى عن المآثم والفجور، وتحب البعد عن مباهج الحياة وزخرفها، وتشرئب إلى إصلاح النفوس، وبثّ روح الدين فى الرعية. وقد كان منه بعد ذلك ما صدق هذا الحدس، وأكّد هذا الظن.

مرّ ذو نواس يوما بيثرب مجتازا، وقد كان أهلها ممن استجابوا لداعى اليهودية، وأشربت نفوسهم حبها، وتأصلت فى قلوبهم مبادئها، واتخذها دعاة اليهود منبرا لدعوتهم، ومعقلا لديانتهم، وانتشرت فيها بيَعُهم ومعابدهم، وصارت وكرا لمبشريهم، وعُشا لدعاتهم؛ وسرعان ما هُرِعوا إليه يلقون إليه شيئاً من مبادئ اليهودية، ويبسطون له ما عرفوا من ميزاتها وفضائلها؛ علّهم يجدون منه عضداً لهم، ومساعدا على نشر دينهم، فصادف هذا الدين هوى فى نفسه، ورغبةً كانت كامنة فى فؤاده؛ فأحبه وجاهر بالدعوة إليه، ونصب نفسه داعياً له ونصيرا؛ ثم دعا العرب جميعا إلى مشايعته فيه، والدخول فى زمرته، واشتد فى عقاب من خالفه،

---

* القرآن الكريم ـ سورة الفيل.

فأطاعه كثير من العرب ، بعضهم يخاف بطشه وقوته ، وقليل منهم انخرط في سلك هذا الدين بعد أن رآه يُصْلح نفسه ، ويوافق هواه ؛ وشاع أمر ذي نواس ، وعظمت شوكته ، وخاف الناس بأسه : فدخلوا في هذا الدين أفواجا .

ولكن أهل نجران قد دخل عليهم دين جديد ، هو الدين المسيحي ؛ فدوه بأنفسهم ، واختلط بقلوبهم ؛ فكانوا خارجين على دولته ، ومتحدين لعقيدته .

ووفد إلى ذي نواس من يُثيره عليهم ، ويُغرِيه بهم ؛ علّه يهدم ذلك الصرح الذي امتنع دخوله ، ويفتتح هذا الحصن الذي أعيا ولوجه ، ويمحو هذا الدين الذي يوشك أن يمحى به ظل اليهودية ، ويعفو رسمها ، وينتهى تاريخها .

فاستجاب لهذا الدعاء ، وخضع لتلك الإشارة ؛ وخرج إلى أهل نجران يدعوهم إلى نبذ دينهم ، ويأمرهم بالأخذ بدينه ، والدخول في زمرة أشياعه وأتباعه ؛ فأبوا الانحراف عن دينهم ، وأصروا على امتناعهم ، ولم ترهبهم عزته ، أو تلن قناتهم صولته ؛ فعز عليه أن يجد له مناوئا ، ولدينه مخالفا ؛ فحفر لهم حفرة أضرم النار فيها ، ثم أذن فيهم مؤذنه : أن هذه النار جزاء لمن لم يدخل في دينه ، وهي عقاب لمن يصرّ على مخالفته ؛ فلم يثنهم أوارها ، أو تزغ أبصارهم من وهجها ؛ بل استمسكوا بدينهم ، وتشبثوا بعقيدتهم ؛ فرماهم في الأخدود ، وصيّر أجسادهم وقوداً للنار ؛ جزاء عنادهم ومخالفتهم .

* * *

فرّ رجل من هؤلاء الذين اصطلوا بتلك النار ؛ فمضى حتى أتى قيصر ملك الروم ؛ فاستنصره على ذى نواس وجنوده ، وأخبره بما كان منهم ؛ فقال له : بعدتْ بلادك منا ، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة ، فإنه على هذا الدين ؛ وهو أقرب إلى بلادك .

وكتب إليه يأمره بنصره ، والطلب بثأره ؛ فقدم بلاد الحبشة بكتاب قيصر ، وشكا إلى النجاشى ماحل بقومه من الهلاك والدمار ، وأسمعه أنين القتلى وغوث الشهداء ، ونعى إليه رجال المسيحية والحامين ذمارها .

وعزّ على النجاشى أن يخبو ضوء الدين المسيحى فى هذا البلد ، وتنطفئ شعلته فى ذلك المعقل ؛ فصمم على الثأر من ذلك الذى أراق دماءهم ، واستباح أموالهم ، وأهلك زروعهم ؛ وجهز جيشاً كثر عدده ، وتوفرت عُدته ، وبعث به إلى اليمن ، يغزو ملكها ، وينتقم من أهلها .

ولما التقى الجمعان ، واشتبك الخصمان ، تتابعت الهزائم على ذى نواس وأصحابه ، وأخيرا أسلمت اليمن إلى النجاشى قيادها ، وألقت إليه بزمامها ؛ وبذلك أصبحت بلاد اليمن ولاية تابعة للحبشة .

* * *

ثم صار أبرهة والياً على الحبشة ؛ فأراد أن يعيد إلى الدين المسيحى شأنه ، ويرجع إليه قوته ؛ ولما رأى الناس جميعا يقصدون مكة ، يحجون بيتها الحرام ، وكعبتها المقدسة ، فكر فى أن يغتصب ذلك الإكليل الذى ازّينت به قريش ؛ وأراد أن يصرف الناس عن مكة وبيتها ، ويجذب قلوب الناس نحو بلاده ، ويستميلهم نحو قطره ؛ فبنى كنيسة بصنعاء ،

وزيّنها بما يبهر الأبصار، ويأخذ بالألباب؛ وعُني بزخرفتها غاية العناية، وجلب لها من فاخر الأثاث وثمين الرياش ما خيّل إليه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه؛ ولكنه رأى أن العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن أنفسهم يَدَعُون البيت الذى بناه، وينصرفون إلى مكة؛ واشتد غيظ العرب، واشتعلت نيران الحقد فى نفوسهم؛ إذ رأوا لبيتهم مناوئا، ولموئل أصنامهم عدوّا؛ فعمدوا إلى تحقير بيته، والحطّ من قدره، فأحدث فيها رجل من كنانة ليلا!

ولما علم أبرهة بذلك اشتد غضبه، وغلى مرجل غيظه، وأقسم ليهدمنّ الكعبة، وليزيلنّ بيت إبراهيم وإسماعيل، وليثأرنّ لبيته من العرب؛ حتى ينصرفوا عن كعبتهم، ويولوا وجوههم نحو بيته.

تهيّأ للحرب، وقاد الجحافل تتقدمها الأفيال، وسار نحو مكة؛ ليهدم بيت العرب الذى هو موئل حجيجهم، ومعقد آمالهم، ومكان اجتماعهم.

ولما سمع العرب بذلك النبأ عزّ عليهم أن يقدم رجل حبشى على هدم بيت حجهم، ومقام أصنامهم؛ فهبّ رجل من أشراف اليمن يدعى ذا نفر، فاستنفر قومه، واستثار حميتهم، ودعا أهل وطنه وغيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة، وصده عن عزمه؛ ولكنه لم يستطع مقاومته، ولم يصمد للقائه؛ فهُزِم ومن التف حوله، وأُخذ أسيرا.

ولكن هل كان هذا مما يَثْنِى غيره عن مقاتلة أبرهة؟! ويُقْعِد العرب عن محاربته؟ لا؛ فإن كثيراً من العرب قد دفعتهم الغيرة على بيتهم، والحمية لنصرة دينهم، إلى مناوأة أبرهة ومقاتلته، ولكنهم جميعاً رجعوا

بالهزيمة، وباءوا بالخيبة .

سار أبرهة نحو مكة بعد أن ازيّن رأسه بتاج النصر، وتحلى صدره بوسام الفوز، وخضعت له قبائل العرب، وسعت إليه وفود القبائل؛ تُقدم له الطاعة، وتظهر له الخضوع، ويسعى أمام جيوشه منهم من يدلّه على الطريق، ويرشده إلى آمن السبل .

خرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمّس[1] ؛ ولما استقر به وبجيشه المقام، بعث أبرهة رجلا من جنده، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، واستاق من بينها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ صاحب السقاية، وشريف قومه، وسيد عشيرته؛ فهمّت قريش ومن معهم من أهل مكة بقتال أبرهة؛ ولكنهم رأوا أن لا طاقة لهم به؛ فاستكانوا لما نالهم من أبرهة، واحتملوا الضّيم الذى لحقهم منه .

وبينما هم فى هذا الضيق الذى شملهم، وذلك الحزن الذى تخالج فى نفوسهم، وفد إليهم رجل من رجال أبرهة، يسأل عن سيد مكة، وصاحب السلطان فيها؛ فأتى به إلى عبد المطلب بن هاشم؛ فلما مثل بين يديه : قال له : « إن الملك يقول : إنى لم آت لحربكم، وإنما جئتُ لهدم هذا البيت . فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم؛ فإن هو لم يُرِدْ حربى فأتنى به » .

فقال له عبد المطلب : « والله ما نريد حربه، ومالنا به طاقة » . قال الرسول : فانطلقْ معى إليه؛ فإنه أمرنى أن آتيه بك . فسار معه عبد المطلب

(١) موضع بطريق الطائف، فيه قبر أبى رغال دليل أبرهة . ويرجم .

ومعه بعض أبنائه ، وغيرهم من كبراء مكة ، وأصحاب الرأى فيها ، حتى وصلوا معسكره.

ولما دخل عبد المطلب عليه قيل : إنه سيد قريش ، الذى يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى الجبل ؛ وكان عبد المطلب رجلا جسيما وسيما ، تعلوه الهيبة ، ويحفه الوقار ؛ فلما رآه أبرهة أكرم وفادته ، وأجلّه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه ؛ فجلس على بساطه ، وأجلسه معه إلى جنبه ؛ ثم أقبل عليه يستفسره عن طَلِبته ؛ فطلب إليه ردّ مااغتصبت جيوشه من إبله ، فقال أبرهة : قد كنتَ أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ؛ أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتتركُ بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لأهدمه ، لا تكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : إنى أنا ربُّ الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال أبرهة : ماكان ليمتنعَ منى . قال عبدالمطلب : أنت وذاك !

ثم أسرع أبرهة إلى إرضائه ، ورد عليه ذوده ؛ وعرض وفدُ مكة على أبرهة أن يرجع عن هدم الكعبة ، على أن ينزلوا له عن ثلث ثروة تهامة ؛ ولكنه أبى الإصغاء إلى أى حديث فى هذا الشأن ، ورفض أن يقبل أى فدية ؛ فانصرفوا وقد أهمّهم الأمر ، وأفزعهم الخطب ، وعادوا إلى مكة يجرون أذيال الخيبة .

ونصح لهم عبد المطلب أن يخرجوا إلى شعاب الجبل ؛ إبقاء على نفوسهم ، وحفظاً لأرواحهم ، وتخوفا عليهم من معرة الهزيمة ؛ وكانت ليلة ليلاء ، تلك التى فكّر فيها القوم فى هجر بلدهم ، وفيما هو نازل بها وبهم ؛

فاشتدّ الهرْجُ والمرْج ، وتعالى الضجيج والعويل ؛ وكنتَ ترى الناس وقد اكتظّت بهم شَعَفُ الجبل ، وضاقت بهم شوارع المدينة ، وكنت تسمع رُغاء الإبل ، وثغاء الغنم ، وعويل النساء ، وبكاء الأطفال .

وخرج عبد المطلب من بين تلك الجماعات النازحة ، وذهب ومعه نفر من قريش إلى البيت ، وأمسك بحلقة باب الكعبة ، وجعل يدعو ويدعون ، يستنصرون الله على أبرهة وجنده ، ويضرعون إليه أن يمنع بيته ، ويحمى كعبته ؛ ثم انطلق ومن معه من قريش ، حتى صعدوا فى الجبل ، ومكثوا ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها .

وخَلَت مكة منهم ، وآن لأبرهة أن يوجه جيشه ليهدم البيت ؛ فتهيأ لدخول مكة ، وجهز فيله ، وعبي جيشه ؛ ولكن الله أرسل عليهم أسرابا من الطير ، تحمل فى مناقيرها حجارة ، رمتهم بها ؛ فهشمت رءوسهم ، ومزقت لحومهم ، وجعلتهم جثثاً هامدة ، وأشلاء مُمزقة .

وأصاب أبرهة شيء مما أصاب جنده ؛ فأخذه الرَّوْع ، وداخله الفزع ؛ فأمر من بقى معه بالعودة إلى اليمن ، بعد أن فنى عدد عظيم من جنده ، وتشتت شمله ، وتفرق جمعه ، وبلغ صنعاء ، وقد وهنت قوّته ، ثم لحق بمن مات من جيشه .

وبذلك حفظ الله لقريش بيتها ، وأبقى لها زعامتها ، وزاد هذا الحادث العجيب فى مكانة مكة ، وجعل أهلها يحتفظون بتلك المكانة الرفيعة ، ويتربّصون لكل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها .

وقد كان ذلك إرهاصا لنبوة محمد ، الذى تفرع من هذه الأرومة الطيبة ، ونشأ فى ظل هذا البيت العتيق ؛ وعد هذا الحادث من أعجب الحوادث ؛ لأن الله ردّ أصحاب الفيل على أعقابهم خاسرين ؛ فأرّخ العرب بعامه [1] ، وتحدثوا بوقوعه ، وصار ذكرى لهم ، وحديث أبنائهم.

---

(١) كان ذلك سنة ٥٧٠ م.

بلال *

دلف الرجل إلى أمية بن خلف ، وهو فى مجلسه من ناديه فى قريش ، وقال له : أوما بلغك الخبر ؟ قال أمية : وماذا كان ؟ قال : لقد شهدت عبدك بلال ، يختلف إلى محمد فى قائلة النهار أحيانا ، وفى ظلام الليل آنا ، وهو خائف فى مشيته ، يبدو عليه الحذر فى لفتته ؛ ولقد يخيل إلىّ فيما توسمته فى معارف وجهه ، واستقرأته من حالته ، أنه دخل فيما يدعو إليه محمد ، وانخرط فيما تهاوى فيه كثير من قومنا فى هذا الدين .

قال أمية لمحدّثه : أحقا ما تقول ، وعلى بينة أنت مما تروى ؟ قال الرجل : نعم ، ولهذا نفضتُ عليك الخبر ، وأفضيت إليك بما أرى ؛ لتهذب هذا العبد ، وتقضى على هذه الفتنة ، التى توشك أن يندلع لهيبها بين الموالى ، وقد أخذتْ سبيلها بين الأشراف .

وانفتل أمية من مجلسه إلى داره ، وإن قلبه ليحتوى على الغيظ ، ويُعدّ لبلال الشرّ والمكروه .

وجاءه بلال ، ووقف بين يديه يضطرب ويرتعد ؛ أن رأى الشر يلمع فى عينيه ، ونار الغيظ تكاد تخرج أُوراها من بين جنبيه ، قال له أمية : ماهذا الذى بلغنى عنك ، وترامى إلىّ من أمرك ؟ أحق ما يقال إنك تختلف إلى محمد تحت رواق من الظلام ، أو ستار من قائلة النهار ؛ وإنك

---

* القرآن الكريم - سورة الليل .

آمنت بدعوته، واستجبت إلى أوهامه وضلاله، كافراً باللات والعزى، صابئاً عن آلهة قريش والعرب؟

قال بلال: أما إذ وصل إليك علمى، وانتهى إليك إسلامى، فإنى لا أكتمك أنى قد جئت محمداً فآمنت برسالته، وصدقته فيما يدعو إليه؛ ولا علىّ بعد أن حدثتك بمكنونى أن يعلم الناس جميعاً أمرى.

قال أمية: أوما علمت أنك مملوك فى يمينى، وعبد رقيق كبقية متاعى؛ وأنى من يوم أن اشتريتك إنما اشتريت جسمك وعقلك، وتملكت روحك وجوارحك، وأنه لا قدرة لعقلك أن يعتقد ما يشاء، ولا لتفكيرك أن يذهب أنّى شاء؟ فما هذا الذى تجاوز به حدّك، وتخرج به على دين سيدك!

قال بلال: أما إنى عبدك وأسيرك، وخادمك ومولاك، فهذا ما لا أنكره عليك؛ ولو أمرتنى بقطع واد مُسْبِع فى جوف الظلام لفعلت، أو كلفتنى حمل الأحجار فى رمضاء الظهيرة لما شكوت؛ أما عقلى وفكرى، وعقيدتى وإيمانى، فهذا الذى لا يقع تحت سلطانك؛ ولا يدخل فى حوزتك ولا إمكانك؛ وما يضيرك من إيمانى وإسلامى؟ وما يهمك فى أن أملك عقلى وتفكيرى، ما دمتُ قائماً على خدمتك، حافظاً لعهدك؟

قال أمية ـ وقد ثار ثائره، وهاج هائجه: لست أيها العبد إلا مملوكا لى من مَفْرق رأسك إلى إخمص قدمك، وفيما بين ذلك من عقلك وتفكيرك، حتى خلجات قلبك، وخطرات نفسك، وهمسات لسانك؛ لا تملك من

كل ذلك شيئا ؛ وسأذيقك من ألوان العذاب ، وضروب النكال ، حتى أستلّ ما تعتقده من قلبك ، وأمزق نسيج ما تتوهم بين ألفاف صدرك ؛ ثم هجم عليه ، مغيظاً مهتاجاً ، عزيزاً قادراً ، غليظ الكبد ، شديد الوطأة ، وشدّ وثاقه ، وقيد يديه ورجليه ، ودفع به إلى الصبيان فى بطحاء مكة يتلعبون به ، ويقذفون به كالكرة ، ويدفعونه كسقط المتاع .

وعاد أمية فى أعقاب يومه إلى بلال يشهد مصرع الإيمان فى قلبه ، ويرى مبلغ العذاب من نفسه وجسمه ؛ ولكن ماذا عسى أن يبلغ العذاب من نفس أسلمت لله ، ووجهت وجهها لله؟ وما القيد والأغلال ، وما الكيد والنكال بجانب حلاوة الإيمان التى ذاقها ، ونعمة الإسلام الذى ينعم قلبه بها ؟

قال له : كيف وجدت العذاب يا بلال ؟ أخيرٌ لك ما أنت فيه من هم وبلاء ، أم عودة إلى اللات والعزى ، وكفر بما جاء به محمد ، وما يزعمه من دين ؟ فنظر إليه نظرةً جمع فيها كل ما تطويه نفسه من احتمال للعذاب ، واستعداد للبلاء ، واحتقار لما يوقعه به أمية من تعذيب وإيذاء ؛ وكأنه يقول له : قد تملكُ السوط تنال به جسمى ، والحبلَ تغل به عنقى ورجلى ؛ بل لك السهمُ الذى تستطيع أن تسدده إلى نحرى ، والسيف تضرب به عنقى ؛ أما أن تملك عقلى وقلبى ، وتحتكم فى دينى وعقيدتى ؛ فهذا الذى لا يستطيع أن يناله بطشك ، والذروة التى لا تستطيع أن ترتقيها بقوّتك وسلطانك .

ثم ما زاد بعد نظرته على أن قال : «أحد ، أحد» إعلاناً لغريمه بأنه

سيظل على توحيده وإيمانه، وعقيدته وإذعانه؛ وإن ترادفت عليه ضروب المحن، واستقبلته صنوفُ البلاء.

وطلعت الشمس فى اليوم الثانى قوية ملتهبة، انبسطت أشعتها على الصحراء؛ فاستوقد أديمها، واضطرم بالنار إهابها؛ وجاء أمية ببلال؛ فأضجعه على الرّمضاء، وأتى بصخرة عاتية فأراحها على صدره، وظل بلال بين رمضاء ملتهبة، وصخرة ثقيلة قاسية، وفيما بين ذلك الشمس تقذفه بسهامها، والرياح تزجى إليه غبارها؛ ولكن كل هذا وبلال لم يغير حرفاً من الكلمة التى أصبحت شعاره وعقيدته، وعنوان إسلامه وإيمانه: «أحد، أحد»: هو الله الذى أعبده وأتوجه إليه، وهو الذى أقصده وأعتمد عليه، لا يضيرنى هذا العذاب، ولا يزحزحنى عن الإيمان به هذا العقاب.

«أحد، أحد»: هو الله وحده الذى أستدفع به البلوى، وألتجئ إليه فى المحنة الكبرى، وإن ضاقت منافذ الأمل، ورثّت حبال الرجاء.

«أحد، أحد»: هو الله وحده الذى بعث محمداً رسولا، ومرشداً أمينا؛ ومن نعماه علىّ أن كنت من تابعيه، ومن محبيه ومريديه؛ وكِفاء لهذه النعمى سأصبر على هذا البلاء، وأحمد لذلك القضاء.

ثم مازالت الأيام تتوالى وتتتابع، وألوان العذاب على بلال تترادف وتتتايع؛ وأمية مايزداد إلا غيظاً وحقداً، وما يلقى من بلال إلا صبراً واحتساباً؛ حتى كان أبو بكر يمشى يوما فى بعض شعاب مكة؛ فإذا بلال يئن من آلامه، ويتلوى فى محنته؛ وأمية واقف أمامه فى كبره

وجهله ، وظلمه وعسفه ، ينظر إليه وكأنه قد شفى من غيظه ، أو أطفأ وقدة من الحقد بين جنبيه ؛ فأدركت أبا بكر الرحمة ، وتحركت فى نفسه بنات العطف والشفقة ؛ فقال لأمية : حتّام تترك هذا المسكين غرضا لعذابك ، وهدفا لبلائك ؛ وماحظُّك من هذا الأنين تسمعه ، ومن هذه الدموع تبعثها من مآقيها ؟ أيّ جرم اقترفه ، وأى إثم أداه ؟

قال أمية ـ فى صلفه وغروره ، وعجبه وخُيلائه : هذا عبدى ، وملك يمينى ؛ أعذبه كيف أشاء ، وأُطْلِقُه متى أشاء ؛ وما أَوْقعه فى بلائه ، وجرّ عليه أسباب شقائه ، إلا أنت وصاحبك ؛ وإذا كنت مشفقا به ، وحَدِبا عليه فدونكه اشتَره وخلّصه مما هو فيه ؛ أما مادام هذا العبد فى ملكى ، فلن أرفع عنه العَذاب ، حتى يعود إلى اللات والعزى .

وانتهزها أبو بكر فرصة يخلص بها بلالا من محنته ، ويرفع عنه عذاب سيده ؛ فقال لأمية : قد اشتريته منك ، وليس لك عليه الآن من سبيل ، وأما أنت يابلال فقد أعتقتك حسبةً لله وائتجارا .

فهذا أمية وهذا أبو بكر ؛ هذا مؤمن وذاك كافر ، وهذا برّ وذلك فاجر ؛ وقد سجل الله عاقبتهما ، وفصل فى أمرهما : «فأنذرْتُكُمْ ناراً تَلظّى ، لا يَصْلَاها إلا الأَشْقَى ، الذى كَذَّبَ وَتَوَلى ، وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ، الذى يُؤْتِى مَالَه يَتزَكّى . وما لِأَحدٍ عِنْدَه من نعمةٍ تُجزَى ، إلا ابتغاءَ وجْهِ رَبّه الأَعْلى ، وَلَسوْفَ يَرْضَى» وشتان ما بين الرجلين ، ويا بعد ما بين العاقبتين !

الإسراءُ *

أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فى منزل أم هانئ، بعد أن فرغ من شؤون الناس وصلى العشاء الآخرة؛ حتى إذا ما كاد النهار ينسلخ من إهاب الليل، وتفتحت الأعين على تباشير الصباح، أهيب به أن يستيقظ للصلاة فنهَض، ودعا بالوَضوء فتوضأ، وحضرت الصلاة فصلى، ثم دعا إليه أم هانئ ليحدثها؛ إذ هو صلى الله عليه وسلم قد شهد الليلة أمراً عظيما، ورأى مشهداً عجيبا! وقد اختصّه الله بفضل، وآثره بشرف، ما يعْلَم أن قد حباه أحداً من قبله؛ ولن يتاح لأحد من بعده، ولا معدل عن الإفضاء، والتحدث عنه.

وجاءت إليه أم هانئ، وهى بنت عمه أبى طالب، ومن شيعته وأنصاره، ومن مؤازريه وأعوانه؛ فقال لها: يا أم هانئ: لقد صلَّيت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادى، ثم جئتُ بيتَ المقدس فصليتُ فيه، ثم قد صليتُ صلاة الغداة معكم الآن كما ترين. وأعلمها أنه خارج الآن ليلْقَى قريشاً، ويخبرهم بما رأى، ويقُصّ عليهم ما شاهد؛ تحدّثاً بالنعمة، وإعلانا لقدرة الله.

كانت أم هانئ مؤمنةً قويةَ الإيمان، مسلمة آكد الإسلام؛ ولهذا لم يخامرها شك فى صدق ما رأى، ولم يداخلها ريب فى صحة ما روى؛

---

* القرآن الكريم ـ سورة الإسراء.

ولكنها عرفت قريشا : مكرَهم وإيذاءهم ؛ وشاهدت قومها : كيدهم وتكذيبهم ؛ فخافت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكيد والتكذيب، وأشفقت عليه من الأذى والاستهزاء ؛ فأخذت بطرف ردائه ، وتعلقت به من ثوبه ، وقالت : إنى أذكّرك الله يا ابن عمى ، أن تأتى قوما يكذّبون رسالتك ، وينكرون مقالتك ؛ فأخاف أن يسطوا بك . وتمنّت من وراء توسلها ، وأمّلت من وراء تعلقها أن يكتم حديثه ، وأن يحفظ ما رأى بين طيّات صدره ؛ حدَبا وعطفا ، وخوفا وإشفاقا .

ولكنه صلى الله عليه وسلم يحتمل رسالة البشرية كلها : حاضرها ومستقبلها ؛ فكيف السبيل به إلى الخوف ؟ ويتنزل إليه أمر عظيم فكيف يحوطه بالكتمان ؟ إنه لا يخاف الكيد والأذى ، ولا يخشى الاستهزاء والتكذيب ؛ ولهذا جذب رداءه ، وجمع عزمه وخرج .

✡ ✡ ✡

ذهب رسول الله غير هيّاب يحدث قريشا ؛ ولكن أم هانئ تضاعف همها وزاد وجَلها ؛ فدعت إليها نبعة ـ وكانت جاريتها وموضع سرها وثقتها ـ وقالت : انطلقى خلف رسول الله ، واسمعى ما يقول ، وتعالى بعد ذلك حدثينى بما سيكون .

وذهبت نبعة تقص أثر الرسول ، ثم عادت إلى سيدتها ، وقالت : لقد أدركت رسول الله فى الحطيم ، بين الكعبة والحجر الأسود ؛ وما رآه أبو جهل حتى ابتدره قائلا ـ مستهزئا كعادته ، متعنتا كدأبه : هل كان من شىء ؟ فقال رسول الله : نعم ، أسرى بى الليلة ، قال : إلى أين ؟ قال

رسول الله : إلى بيت المقدس ، قال له : ثم أصبحت بين ظهرانينا ! قال رسول الله : نعم ؛ فعاد أبو جهل ، وقال : أرأيتَ إن دعوتُ قومك أن تحدثهم بما حدثتني ؟ قال رسول الله : نعم . وانطلق أبو جهل يعدو كالثور ، وينادي : يامعشر بنى كعب بن لؤى .

قالت أم هانئ : اجلسى يانبعة ، ثم أتمى الحديث ؛ فما أرى إلا أنه سيطول . وجلست نبعة واستأنفت الحديث ، وقالت : وما راعنى إلا القوم يتثالون من كل ناحية ، وينسلون من كل حدَب ؛ يقدمهم أبو جهل ، حتى أحاطوا برسول الله من كل جانب ، وطلب أبو جهل أن يخبرهم الرسول بما رأى ، وحسب أنه سيغير من قالته ، أو يبدل من خبره ؛ فقال رسول الله : « إنى أُسرى بى إلى بيت المقدس ، فنُشر لى رهط من الأنبياء ، منهم إبراهيم وموسى وعيسى وصليت بهم وكلّمتُهم » .

قال أبو جهل ، ممعناً فى هزئه ومكره : إن كنت قد رأيتهم فصفهم ، قال رسول الله : « أما عيسى ففوق الرّبعة ودون الطويل ، تعلوه حمرة كأنما يتحادر عن لحيته الجمان ، وأما موسى فضخم آدم[1] طويل كأنه من رجال شنوءة ، وأما إبراهيم فإنه والله لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ، ولا صاحبكم أشبه به منه » .

ثم عادوا فطلبوا منه آية تدل على صدقه ، فقال : آيةُ ذلكَ أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حسّ الدابة فَنَدّ لهم بعير ، فدللتهم عليه وأنا مُوَجّهٌ إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان[2]

(١) أسود (٢) ضجنان : جبل بمكة .

مررت بعير بنى فلان ، فوجدت القوم نياما ، ولهم إناء فيه ماء ، وقد غَطَّوْا عليه بشىء ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ؛ وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم البيضاء ، يقدمها جمل أورق[1] ، عليه غرارتان إحداهما سوداء ، والأخرى بَرْقَاء[2] » .

وابتدروا إلى الثنية ؛ فوجدوا العير كما ذكر الرسول ، يقدمها جمل أورق كما أخبر .

قالت أم هانئ : هيه يانبعة ، وماذا كان من أمر القوم بعد هذه الآيات البينات ؟

قالت : لقد رأيتهم لَوَّوْا رءوسهم ، وغمزوا بعيونهم ، ثم صاحوا منكرين بملء حناجرهم ؛ وقد اجترأ المطعم بن عدى ، فقال : كان أمرك قبل اليوم أمراً يسيراً ، فإذا بك اليوم تُعجب وتُغرب ! نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس نصعد شهراً ، وننحدر شهراً ، تزعم أنك أتيته فى ليلة واحدة ! واللات والعزى لا أصدقك ، ولقد أشهد أنك كاذب .

وما وصلتْ نبعة فى الحديث إلى هذا المقدار ، حتى علت وجه أمّ هانئ سحابةٌ من الهم ، وتحيرت فى عينيها دمعة من الإشفاق .

ولكن نبعة استأنفت حديثها وقالت : أما أبو بكر فإنه نطق من فوره ، وقال لرسول الله : أشهد أنك صادق . فقال له المطعم بن عدى :

(١) الأورق من الإبل : مافى لونه بياض إلى سواد .

(٢) برقاء : كل شىء اجتمع فيه سواد وبياض .

أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ؟ قال أبو بكر : نعم، إنى لَأُصدّقه فيما هو أبعد من ذلك : أنا أصدّقه فى خبر السماء ، فى غُدُوّه ورواحه ، أفأكذبه فى إكرام الله له بأن ينقلَه مسيرة شهر ؟ وتبع المسلمون أبا بكر ؛ ولكن وا أسفاه ! لقد ارتد نفر قليل منهم ، لم تتسع عقولهم لأن تدرك قدرة الله ، ولم تسترح قلوبهم لما اختص به رسول الله .

قالت أم هانئ : لا بأس على دين رسول الله من هؤلاء النفر الذين ارتدوا ؛ فلعل من الخير أن يبتعدوا عن صفوف المسلمين ، ويُمّحوا من صحيفة المؤمنين ؛ إذ لا خير للمسلمين فى ضعيف متردّد ، ولا نفعَ لهم فى مذبذب مضطرب .

الهجرة *

قالت الأوس : إن الحرب قد ضرّستنا ؛ وألقت بصدْرها علينا ، وهؤلاء بنو عمنا الخزرج قد حالفوا اليهود علينا ؛ ليشتد بهم أزرهم فى القتال ؛ فالتمسوا لنا عليهم حلفًا عند بعض قبائل العرب .

وكانت الأوس والخزرج قبيلتان تنحدران عن أصل واحد ، وتقيمان فى المدينة ، ولكن نار الحرب ماكانت بينهما تنطفئ ، ولا ثورة الخلاف تهدأ ؛ وما زال ما بينهما يشتد حتى كان يوم « بُعَاث [1] » ففنى فيه رؤساء القبائل ، وزعماء العشائر ، ثم وقعت بينهما هدنة حالفت الخزرجُ فيها اليهود ، وأخذت الأوسُ تلتمس الحِلف عند العرب .

وفَصَل عن المدينة رهط من الأوس : أبو الحيسر ، وإياس بن معاذ وآخرون ، وولوا وجوههم مكة يلتمسون الحلف عند قريش على بنى عمهم من الخزرج ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف موسما يقام ، أوجمعا يَحْتشد ، أو نفرا يفد ، إلا أذاع فيهم دَعْوَته ، ونشر رسالته ، لا يبالى الكيد ولا الأذى ، ولا الصد ولا الإعراض ؛ فلهداية البشرية يدعو ، وفى سبيل الله ما يلقى .

وسمع بهؤلاء الرهط ؛ فأتاهم وجلس إليهم ، وقال لهم : « هل لكم

---

* القرآن الكريم ـ سورة الأنفال : آية ٣١

(١) بعاث : من أيام العرب المشهورة بين الأوس والخزرج .

فى خير مما جئتم له » ؟ فقالوا له : وماذاك ؟ قال : «أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل علىّ الكتاب » . وتلا عليهم القرآن ، ثم ذكر الإسلام ؛ فقال إياس ــ وكان غلاما حَدَثا : أى قوم ؛ هذا والله خير مما جئتم له . فأخذ أبو الحيسر حَفْنَة من البطحاء فضرب بها وجه إياس ، وقال ؛ دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا ؛ نصمت إياس ، وقام رسول الله ، وانصرف القوم .

* * *

وفى الموسم من هذا العام وفد على مكة نفر من الخزرج ، ولقيهم رسول الله ؛ فقال لهم : «من أنتم» ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : «من موالى يهود ؟» قالوا : نعم ، قال : «أفلا تجلسون أكلمكم ؟ » قالوا : بلى ؛ فجلسوا معه ودعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال بعضهم لبعض : ياقوم ؛ تَعَلَّمُوا(١) والله إنه للنّبى الذى توعدكم به اليهود ، فلا يَسْبِقُنّكم إليه ؛ ثم أجابوه فيما دعا إليه ، وصدقوه فيما بلغ ، وقَبِلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قومَ بينَهم من العداوة والشرّ ما بينهم ؛ وعسى أن يجمَعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجلَ أعز منك ؛ ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة ؛ وهناك دعوا قومهم إلى الإسلام ، فلقى فى نفوسهم

(١) تعلموا : اعلموا .

الكريمة قبولا ، ومن سويداء قلوبهم استئناسا ؛ وفشا بينهم الإسلام ، ولم تبق دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله .

واستبشر صلى الله عليه وسلم خيرا بإيمانهم ، وفرح بإسلامهم ، واتّسعت أمامه رقعة الأمل ، وامتدت خيوط الرجاء ؛ فهؤلاء قريش ما فتئوا يسفّهون رأيه ، ويحولون دون قصده ؛ وهم ما برحوا أيضاً يَقْعدون لأنصاره كل مَرْصَد ، ويؤذونهم فى كل مكان ؛ ثم هو صلى الله عليه وسلم قد عرض نفسه على القبائل ، وأعلن دعوته فى العشائر : أعلنها فى ثقيف وكندة ، وفى بنى عامر وبنى حنيفة ؛ فلم يكونوا خيراً من قريش رأيا ، ولا أقلّ منهم صدًّا أو إعراضا ؛ أما هؤلاء القوم من الخزرج فلم يجد عُسرا فى إيمانهم ، ولم يلق جهدا فى إقناعهم ؛ إنهم آمنوا مخلصين ، وهُدوا مطمئنين ؛ ومن يدرى ؟ لعلهم يكونون من أنصاره وأعوانه ، ومن شيعته وخلصانه .

✿ ✿ ✿

ومضى عام وترقب رسول الله الموسم ، موسم الحجيج ، وإذا اثنا عشر يفدون مُسْلِمين : اثنان من الأوس ، وعشرة من الخزرج ؛ وأعلنوا للرسول إسلامهم ، ومد يده الكريمة لبَيعَتهم ؛ فبايعوه وعاهدوه على ألا يشركوا بالله شيئا ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوا الله فى معروف ؛ فإن وفَّوْا فلهم الجنة ، وإن غشوا من ذلك شيئا ؛ فأمرهم إلى الله : إن شاء عذَّب

وإن شاء غفر ؛ ثم عاهدهم على كتمان أمرهم عن قريش ، وواعدهم اللقاء فى العام المقبل .

وأرسل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير : يفقههم فى الدين ، ويقرئهم القرآن ، ويعلمهم قواعد الإسلام .

وعادوا إلى المدينة ونور الله يضىء بين جوانحهم ، وسِمات الإسلام تعلو وجوههم .

ومضت الأيام ؛ ودعوة الرسول تصادف فى نفوسهم مكانا خصيبا ، وصدراً رحيبا ، وذهبت من نفوسهم الأحقاد ، وذابت الأضغان ؛ وصَفَت منهم القلوب ؛ حتى كان العام المقبل ؛ فوفد على المدينة ـ فيمن وفد عليها ـ سبعون رجلا وامرأتان من مسلمى الخزرج والأوس ؛ وعلم الرسول بقدومهم ، فواعدهم العقبة من أوسط أيام التشريق .

ولما كان الموعد ، ومضى من الليل ثلثه ، خرجوا من رحالهم مستخفين، يتسللون تسلُّلَ القطا ، حتى اجتمعوا فى الشّعب عند العقبة ؛ ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه العباس بن عبد المطلب ؛ وهو وإن كان لا يزال على دين قومه ، إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثّق له .

قال العباس : يامعشر الخزرج (١) ؛ إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ؛ فهو فى عزة من قومه ، ومنَعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحاق بكم ؛ فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه

(١) العرب يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج : خزرجها وأوسها .

فى عزة ومنعة من قومه وبلده .

فقالوا له : قد سمعنا ماقلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ماأحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ثم قال : «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» .

فقام البَراء بن مَعْرور ، وقال : نعم ! فوالذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه ذرارينا ؛ فبايعْنا يارسول الله ؛ فنحن والله أبناء الحروب ، ورثناها كابراً عن كابر .

وقال العباس بن عبادة : يامُعشر الخزرج ؛ هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ! قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ؛ فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة ، وذهبت أشرافكم قَتْلًا أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خِزْى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابسط يدك نبايعك ؛ ثم بايعوه .

واعترض أبو الهيثم ، فقال : يارسول الله ؛ إن بيننا وبين اليهود حبالا ، وإنا قاطعوها ؛ فهل عَسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل

الدم الدم ، والهدم الهدم (١) ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . ثم قال لهم : أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيبا . ولما انتخبوا نقباءهم قال لهم : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى وأنا كفيل على قومى .

٭ ٭ ٭

وشاع فى مكة أمر البيعة ، وعلمت قريش بظهور الإسلام فى المدينة ؛ فاضطرب حبلهم ، وزاد غيظهم ، واشتدت الحفيظة فى صدورهم ؛ ثم ضاعفوا الأذى بالمسلمين ، وأخذوا يوقعون عليهم ضروب المحن ، ويَصُبُّون فوق رءوسهم ألوان العذاب : من تنكيل واستهزاء ، إلى سخرية وإيذاء ؛ وهم فيما بين ذلك مضيَّق عليهم فى العبادة ، مضطهدون فيما يعتقدون ؛ فساءت حالهم ، وكثرت أحزانهم ، ورأى رسول الله ماهم عليه من محنة وفتنة ؛ فأذِن لهم بالهجرة إلى المدينة ، وقال لهم : إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها . فاستجابوا لله وللرسول ، وهاجروا إلى المدينة أرسالا ، ونزحوا إليها جماعات ووحدانا ، تاركين ـ ابتغاء مرضاة الله ـ ديارهم وأوطانهم ، وأولادهم وأموالهم .

وما عليهم لو هاجروا ؟ أليسوا قد امْتُحِنوا بأنكى ألوان الأذى ، وفُتِنُوا بأشدّ صنوف الآلام ؟ أو لم يضيَّقْ عليهم فى العبادة ، وتسد

(١) كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمى دمك ، وهدمى هدمك يعنى ماهدمت من الدماء أهدمه أنا .

عليهـم منافذ الطرقات ؛ فاضطروا لِلزوم الدور أحياناً ؛ وللهجرة إلى الحبشة أحيانا ؟

وذلك رسول الله ـ وهو أكرم من طلعت عليه شمس، وأفضل من أظلته سماء ـ ألم يَضَعْ واحد منهمُ الثوب فى عنقه حتى كاد يميته خَنْقًا ؟ ألم يحْملْ واحدٌ منهم الحجر ليشجَّ به رأسه، ولولا أن عناية الله لاحَظَتْهُ لأرْدَاهُ قتيلا ؟

هذه مكة وقد أصبحت دارَ بلاء وعذاب ؛ فما المقام على دار الهوان، وهم العرب أبَاة الضيم والإذلال ؛ وهم المسلمون، والإسلام دين العزة والمنعة والحرية والكرامة ؟

ثم هو الإسلام دين عامّ شامل، ليس دينَ مكة وحدها، وليس دين قريش وحدها ؛ بل هو دين البشر كلهم : حاضرهم ومستقبلهم، ودين الخلق أجمعين : عربيهم وعجميهم، أسودهم وأحمرهم ؛ من تلك الساعة التى هتف فيها محمد داعيا إلى الله، إلى يوم تتبدل الأرض فيه غير الأرض والسموات .

وإذن فليخرج هؤلاء المسلمون مهاجرين إلى المدينة يضربون أحسن الأمثال، ويُلْقُونَ درسا على من يضطهد فى عقيدته، ممن يأتى بعدهم من الأجيال . وكذلك خرجوا، واستقبلهم الأنصار بالمدينة، ولَقُوا فيها أهلا بأهل، وجيرانا بجيران .

* * *

عَلمَ رجال قريش خروج المسلمين إلى المدينة ؛ فَسُقِطَ فى أيديهم ،

ورأوا أنهم إن لم يتدبّروا فى أمورهم ، وينظروا فى غَدِهم ، فإنّ أمر محمد غالب ، وشأنهم فى ذهاب ؛ فاجتمعوا فى دار النّدوة يتشاورون ويتدبرون ، ويُبرمون ويَنْقضون ـ وكذلك كانوا يفعلون حين يحزبهم الأمر ، وتشتبه عليهم الآراء ـ واجتمع أشرافهم وبهاليلهم ، ورؤساؤهم وغطاريفهم ، ثم قام واحد منهم ، فقال :

لقد جمعناكم اليوم ، ليدلىَ كل واحد منكم برأيه فى محمد؛ فهو كما علمتم قد ظهر أمره واتضح ، وقد جاوز مكة وامتد إلى يثرب ، وربما امتدّ إلى غيرها من البلدان ؛ واعلموا قبل أن تتشققوا بالآراء ، أنا قد فَتَنّاه بأنواع الأذى ، فوجدناه صابراً جليدا ؛ وأنا بلونا أصحابه بصنوف المحن ؛ فوجدناهم صامدين أقوياء . ولقد ارتاحت نفوسنا حينما علمنا مالقيه من خذلان عند بنى حنيفة ، ومن كيد وأذى فى ثقيف ، ومن تكذيب عند غيرهما من أحياء العرب ؛ بل تنفسنا الصُّعَداء حين مات أبو طالب : ذلك الذى كان يؤويه وينصره ، ويحميه ويخفره ؛ ولكن وا أسفاه ! لقد وجد اليوم عند الخزرج عضداً ونصيرا ، ووليا وظهيراً ؛ بل لقد أصبحوا بعد دعوته فيهم إخواناً وكانوا أعداء ، وأقوياء وقد كانوا متخاذلين ضعفاء ؛ وذهبت من صدورهم الإحَن ، وامّحت الأحقاد ؛ وليت المصيبة وقفت عند هذا الحدّ ، ولم تجاوز ذلك المقدار ؛ فهاهم أولاء أصحابه قد هُرعوا إليهم ، وانثالوا عليهم ؛ غير مبالين أوطانهم أوديارهم ، ولا عابئين بأموالهم ولا أولادهم ؛ وأكبر الظن أن محمدا سيلحق بهم ؛ وإذن تكون المصيبة أشدّ ، ويكون الخطب أنكى ، وما تأمَنون أن يثب علينا بهم : فيسقط

الأمر من أيدينا، وتعود الدائرة علينا .

قال أبو البَخْـتَرى بن هشام : احبسوه فى الحديد ، وغلِّقوا عليه الأبواب، حتى يصيبه ما أصاب غيره من الشعراء .

قالوا له : ليس هذا برأى ، وقد علمتم أصحابه : حـبّهم له ، وتعلقهم به ؛ وإنه ليوشك ـ لو علموا ـ أن يكاثرونَا ، ويُطلقوه من أيدينا ؛ فلا نكون قد صنعنا شيئا .

وقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو : نخرجه من بين أظهرنا ، وننفيه من بلادنا ؛ فاذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع .

قالوا : والله ما هذا لـكم برأى ؛ ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بمـا يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حَىّ من العرب ؛ فيغلبَ عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم ، حتى يطأكم بهم ؛ فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . أديروا فيه رأيا غير هذا .

وقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى ، شابا جليدا ، نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمد هؤلاء إليه ؛ فيضربوه بها ضربةَ رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ؛ فانهم إذا فعلوا ذلك، تَفَرّق دمه فى القبائل ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ؛ ثم يرضون منا بالعقل فنعقل [1] لهم .

(١) عقل له : اكتفى بالمـال عن القتل .

فصفقوا للرأيه، واستراحوا لقوله، وتفرّقوا على ذلك.

* * *

وكان أبو بكر رجلا رضىّ القلب، سخىّ النفس، حلو الشمائل؛ أحب رسول الله من كل قلبه، وآثره على خاصة نفسه، وودّ لو يفديه بروحه وماله؛ وعرف رسول الله فيه هذه الصفات: فقرّبه إليه، وأدناه منه، وسمّاه صدّيقا، ودعاه من النار عتيقا.

وأذِن رسول الله للمسلمين بالهجرة إلا أبا بكر، فإنه كلما استأذنه فى الرحيل، واستشاره فى الذهاب إلى المدينة يستبقيه، ويقول له: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا؛ فيطمئن أبو بكر، ويودّ لو يكون الرسول صاحبه فى هجرته، ورفيقه فى سَفْرته؛ ولهذا اشترى راحلتين أعدّهما ليوم رحيل.

ويوم أن اجتمعت قريش فى دار ندوتها، وأعدّت مَكْرَها، وهيّأت كيدها، أوحى الله إلى رسوله: أن القوم قد أجمعوا لك كيدا، وبيّتوا لك مكرا؛ ولكن الله عاصمك من كيدهم، وحافظك من مكرهم، فخذ عزمك للسفر، وهيئ نفسك الرحيل إلى المدينة.

فتوجه الرسول من ساعته لأبى بكر، وقال له: يا أبا بكر؛ إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؛ فقال رسول الله: الصحبة. وواعده العَتَمة [1]، وفرح أبو بكر، وراح يهيئ الراحلتين.

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى داره، وهو عالم أن القوم سيحيطون به، وفى أيديهم سلاحهم، وبين جوانبهم كيدهم ومكرهم؛ وجاء

(١) العتمة: ثلث الليل الأول.

القوم ، وتربّصوا خروج رسول الله ؛ ولكنه لم يعبأ بجمعهم ، ولم يبال كيدهم ؛ لأن الله وعده العصمة ، ومنّاه النجاة ؛ وما انتصف الليل حتى خرج عليهم بعد أن أمر عليًّا أن ينام فى فراشه ، وأن يتسجى ببُرده . وألقى الله عليهم النوم فناموا ؛ وخرج رسول الله فلم ينتبهوا ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين .

وذهب رسول الله إلى دار أبى بكر ، وخرجا من خَوْخة [1] هناك ، وسارا حتى بلغا غار ثور ؛ وهناك كمنا فيه .

أما القوم الذين ظلوا يترقبون خروج الرسول ليقتلوه ، فقد كشف لهم الصباح أنهم إنما باتوا يحرسون علىّ بن أبى طالب ، لا محمد بن عبد الله ! وعندئذ ذُعِرُوا وهُرِعوا إلى أشرافهم ؛ وهؤلاء أدركتهم الحيرة ، وعلاهم الوجوم ؛ وذهب أبو جهل إلى منزل أبى بكر ، وسأل أسماء بنته : أين أبوك ؟ فقالت له : لا أدرى ؛ فلطمها على وجهها ، ثم خرج مع قومه يقتفون الأثر ، حتى وصلوا إلى الغار !

ولكن الله ردّهم على أعقابهم ، وخذلهم فى كيدهم ؛ إذ بان لهم أنه غار مهجور ، وأنه مكان لم تطأه قدم منذ أزمان !

ثم عادوا إلى مكة ، وجعلوا لمن يدل على محمد مائة ناقة ؛ وعرض سراقة الكنانى لهذا الأمر ، وأعدّ نفسه لتلك الغاية ، على أن يوفوا له بالشرط ، ويأخذ النياق إذا دلّهم عليه .

ومكث رسول الله وصاحبه فى الغار ثلاثة أيام ؛ يمر عليهما عامر بن

(١) الخوخة : كوة تؤدى الضوء إلى البيت .

فُهَيرة مولى أبى بكر بالأغنام فى أعقاب اليوم ؛ فيحتلبان ويذبحان ، ويأتى لهما عبـد الله بن أبى بكر بالأخبار ؛ حتى سكن الطلب ، وغفل عنهما الناس .

وجاءهما عبـد الله بن الأرَيْقط بالراحلتين ؛ وخرجا متوجهين إلى المدينة ، وأبو بكر لا يفتأ يذكر الطلب فيتلفت خلفه ، ويخاف الرَّصَد فيتلفت أمامه ، حتى أدركهما سراقة ؛ وما اقترب منهما حتى عَـثَرَ به فرسه ، وساخت قوائمه فى الأرض ، ثم ثار من حوله الدخان والإعصار ؛ فأدرك سراقة أن محمدا رسول الله ممنوع منه ؛ ولهذا استغاث واستنصر على ألا يخبر قريشا بشىء مما رأى ؛ فدعا له الرسول ، وعاد سراقة ، ولم يقل لقومه شيئا .

* * *

ونعود إلى المسلمين من أهل المدينة ؛ فاذا بهم يخرجون إلى ظاهر البلد كل يوم ، من ساعة أن علموا بخروجه عن مكة ، لا يعودون إلى منازلهم حتى تغلـبهم الشمس على الظلال ؛ حتى كان يوم سَفعَـتْهم الشمس ، وتحرّقت منهم الأقدام ، فرجعوا إلى منازلهم ؛ وما راعهم إلا صائح يهتف بهم : إن محمداً قد جاء ؛ فخرجوا إليه مهرولين ؛ وإذا به ورفيقه أبو بكر يتفيآن ظلال النخيل ؛ فأحلوه فى قلوبهم ، وحاطوه بنفوسهم ، حتى نزل على بنى عمرو بن عوف ، وأقام فيهم أياما وأسس المسجد بقُباء .

ثم خرج بناقته ، وقد وَضَع لها زِمامها ؛ وكلـما مرت بقوم تهافتوا عليها ، وقالوا للرسول : هلمّ يارسول الله إلينا ، إلى العدد والعُدة والمَنعة ؛

ولكن رسول الله يقول : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » . وما زالت تسير حتى إذا أتت دار مالك بن النجار بركت على باب المسجد ، وهو يومئذ مِرْبَد تمر لسهل وسهيل ابنى رافِع بنِ عَمْرٍو ، وهما يتيمان في حجر أسعد بن زُرَارة ؛ ثم سارت وهو صلى الله عليه وسلم عليها ، حتى بركت على باب أبى أيوب الأنصارى ، فقال عليه السلام : هاهنا المنزل إن شاء الله ، « رب أنزلنى مُنزلا مباركا وأنت خير المنزلين » . فاحتمل أبو أيوب رحله ، ووضعه فى منزله ، وجاء أسعد بن زرارة ، فأخذ بزمام ناقته ؛ فكانت عنده .

ثم دعا من جاء من مكة ، وسماهم مهاجرين ، ومن أسلم من أهل المدينة ، وسماهم أنصارا ؛ وآخى بينهم ، وجمعهم على المحجة الواضحة ، والصراط المستقيم ؛ ثم بدأ يستأنف الدعوة إلى الله بعزم جديد .

بدر *

١

ما كاد يستقرّ أمر المهاجرين بالمدينة ، حتى عقدت أواصر المحبة بينهم وبين الأنصار ؛ فعاشوا بها إخوانا متآلفين ، وجيرانا متعاونين ؛ غير أنهم لم ينسوا ماحاق بهم من إيذاء خصومهم بمكة ، ومابرحوا يتطلعون إلى نشر دينهم ، ويستشرفون إلى وطنهم ، ويهيمون بواديهم الذى فيه نشئوا ، ومن مائه شربوا ، ومن هوائه تنفسوا ، وفيه أبناؤهم وأقاربهم ، وخئولتهم وعمومتهم ، وطريفهم وتليدهم .

ورأى هؤلاء ـ الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة ، بسبب ماعانوا من الاضطهاد ، وما لاقَوْا من الأذى ـ أن لابد من التعرض لتجارة قريش ، فى ذهابها ورجوعها ، حتى يحس هؤلاء قوتهم ، ويشعروا ببأسهم ؛ وحينئذ يخافون على تجارتهم أن تبور ، وقوافلهم أن ينقطع بها الطريق ؛ فيزول مابينهم وبين المهاجرين من إحَن ، ويصفوا مابينهم من كدر ، وينفسح المجال أمام المسلمين ؛ لنشر دينهم ، والدعوة إلى عقيدتهم .

فى السنة الثانية من الهجرة ، بعث(١) رسولُ الله عبدَ الله بن جحش ، ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع إليه كتاباً ، وأمره ألّا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره أحداً من أصحابه .

---

* القرآن الكريم ـ سورة البقرة : آية ٢١٧ و ٢١٨ وسورة الأنفال :

(١) هذه هى سرية عبد الله بن جحش .

ويمضى عبد الله فى طريقه ، وهو لا يعرف له وجهة ، ولا يقصد إربة ؛ ولكنه يندفع فى سيره ، طوعا لأمر الله ، وتنفيذاً لإشارته ؛ ثقة بالله ، واطمئناناً إلى رأى رسوله .

سار يومين كاملين ، ثم فتح الكتاب ، فإذا فيه : «إذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل نخلةَ بين مكة والطائف فترصَّدْ بها قريشاً وتعلَّم لنا من أخبارهم » .

وأعلن فى أصحابه أمرَ الرسول ، وقال لهم : أمرنى رسول الله أن أمضى إلى نَخْلة ؛ أرصد بها قريشاً ، حتى آتيه منهم بخبر ؛ وقد نهانى أن أستكره منكم أحداً ؛ فمن كان منكم يريد الشهادة ، ويرغب فيها فلينطلق . ومن كره ذلك فليرجع ؛ فأما أنا فماض لأمر رسول الله .

فاستجابوا لدعوته ، واستعدوا لمعاونته ، وساروا جميعا نحو غرضهم الأسمى ؛ تدفعهم الثقة بالله ورسوله ، وتحدُوهم عناية الله ، وتشدّ من أزرهم قوته ، ولكن اثنين منهم ، ضل منهما بعير ، كانا يتعقبانه ؛ فتخلفا فى طلبه ، فأسرتْهما قريش .

ومضى عبد الله وبقية أصحابه ؛ حتى نزل بنخلة [1] ، ومرت به عير لقريش تحمل تجارة لهم ؛ وماإن رأوه حتى فزعوا لتلك المفاجأة ، ودهشوا لهذه المقابلة ، وتشاور أصحاب عبد الله فيما بينهم . فقال قائل منهم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ، ليدخلُنَّ المسجد الحرام ؛ فليمتنعُنّ منكم به . ولئن قتلتموهم لتقتلُنّهم فى الشهر الحرام .

---

(١) نخلة : موضع .

فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، وخافوا أن يقاتلوهم ؛ ولكنهم مالبثوا أن أقدموا على الاشتباك معهم ، وأجمعوا أخذ مايحملون من مال و نَشَب .

التقى الخصمان ، فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ؛ وأفاء الله على المسلمين ما كانوا يحملون من أموال ، وخلص لهم ماجمعوا من تجارة .

٢

أقبل عبدُ الله بنُ جحش وأصحابُه بالعير وبالأسيرين ، حتى قدموا بهما على رسول الله فى المدينة ؛ فلما رآهم ، وعلم أنه قد التقى الفريقان ، فانهزم المشركون ، وفاز المسلمون بالغَلَبة والنصر ، قال : ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام !

ووقف العِيرَ والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، حتى يفصلَ الله فى أمرهما بحكم ، ويقضى فى شأنهما بِوَحْى .

وسُقِط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ؛ وثارت ثائرة قريش ، حين علموا بالتعرض لتجارتهم ، وإيذاء قومهم ، فقالوا : قداستحلَّ محمد وأصحابُه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخَذُوا الأموال ، وأسروا الرجال .

ولكن الله أنزل على هؤلاء المجاهدين رحمته ، وأظلهم بعطفه ورعايته ،

وأوحى إلى نبيه الكريم: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ؟ قُلْ: قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ؛ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وكُفْرٌ بِهِ والْمَسْجِدِ الحَرَامِ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ، والفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ».

فلما نزل القرآن بهذا الجواب، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق [1]، سُرّى عن أصحاب هذه السّرية، وانقشعت غياهب الحزن عن تلك الفئة المقاتلة، وقبض رسول الله العير والأسيرين.

ثم بعثت إليه قريش، تطلب منه فداء أسيريها؛ ولكنه أبى إلا أن يكون ذلك برد صاحبيه اللذين أسروهما؛ وقال: لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا؛ فإنا نخشاكم عليهما؛ فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم.

فنزلوا على رأيه، واستسلموا لشرطه، وردوا إليه أسيريه، وأتم الله نعمته على المسلمين، وأنجز لهم وعده، وأيدهم بنصره.

أما عبد الله بن جحش وأصحابه، فما تجلى عنهم ما كانوا فيه من الحزن، وانقشع ما غمرهم من اليأس، حتى طمعوا فى الأجر، وتطلعوا إلى الثواب، فقالوا: يا رسول الله؛ أنطمع أن تكون لنا غزوة، نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله فى شأنهم: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ؛ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ، واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

بذلك انجابت أحزانهم، واطمأنّت قلوبهم، وشاع السرور فى نفوسهم؛ إذ غمرتهم نعمة الله، وأظلّتهم رحمتُه.

* * *

(١) الشفق: الخوف.

كانت هذه السرية مفترق طرق فى سياسة الإسلام ، وأول دعامة استقر بها نظامه ، وقام عليها عماده : فيها أجيب المشركون على تساؤلهم عن القتال فى الشهر الحرام ، بأنه كبير ؛ ولكن هناك ما هو أكبر منه ، وهو الصد عن سبيل الله ، ورد المسلمين عن دينهم : بالوعد والوعيد ، والخوف والتهديد ، والكفر بالله ، وإخراج أهل المسجد الحرام منه . وهذا هو ما ارتكبه المشركون ، وما اقترفه أعداء المسلمين ؛ لذلك شرع بعد ذلك قتال من يصدّون عن دين الله ، ويفتنون الناس عن عقيدتهم التى رسخت فى نفوسهم ، وتمكّنت من قلوبهم .

٣

شعرت قريش بالحط من كرامتها وعزتها ، والنيل من بأسها وقوّتها ، إذ أُغير على أموالها ، و قتل أبناؤها ، وأسر رجالها .

لذلك حاولوا إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه : أن قتلوا فى الشهر الحرام ؛ حتى لقد أيْقَنَ المسلمون ، أن لم يبق فى مصانعتهم ، أو الاتفاق معهم رجاء .

وكان يوم أخبر فيه النبيّ المسلمين : أن أبا سفيان بن حرب ، قد أقبل من الشام ؛ فى عِير لقريش ، فيها أموالهم وتجارتهم ؛ وندبهم إليها ، وقال لهم : هذه عير لقريش ؛ فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .

فخف بعضهم ، وثقل بعضهم ؛ لأنهم ما كانوا يظنون أن رسول الله يلقى حربا .

أما أبو سفيان، فقد كان يتحسّس الأخبار، ويتسمّع الأنباء، ويسأل من لقى من الأعراب: تخوفا على تجارته، وحرصا على أمواله؛ فأصاب خبرا من بعض الركبان: أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك؛ فخاف العاقبة، وحذر الأمر، وأراد أن يأخذ للأمر عُدّته؛ فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى، وأرسله إلى مكة، وأمره أن يأتى قريشا، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدا قد عرض له فى أصحابه.

٤

قال العباس بن عبد المطلب، وقد لَقِى الوليد بن عتبة بمكة: إن عاتكة قد رأت رؤيا أفزعتها، ولما قصّتها علىّ تخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة؛ قال الوليد: وماذا رأت؟ قال: رأت راكبا أقبل على بعيرله حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يالغُدُر[1] لمصارعكم فى ثلاث. ثم دخل المسجد والناس يتبعونه؛ فبينما هم حوله مثل به[2] بعيره على ظهر الكعبة؛ ثم صرخ: إلا انفروا يالغُدُر فى ثلاث. ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس؛ فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل، ارفضت، فما بقى بيت من بيوت مكة، ولا دار إلا دخلها منها فلقة.

ها هى ذى رؤياها؛ فاكتم منى ما أحدّثك به.

ولكن الوليد حدّث أباه بها، وفشا أمرها؛ حتى أصبحت حديث

(١) غدر: جمع غدور: اى إن تخلفتم فأنتم غدر لقومكم (٢) مثل: قام منتصبا.

قريش فى أنديتها ، ومثار الجدَل فى مجالسها .

* * *

وغدا العباس يطوف بالبيت ؛ وأبو جهل فى رَهط من قريش ، قعود يتحدّثون برؤيا عاتكة أخته ؛ فلما رآه أبو جهل قال : يا أبا الفضل؛ إذا فرغت من طوافك ، فأقبل إلينا .

فلما فرغ جلس معهم ؛ فقال له : يابنى عبد المطلب ؛ متى حدثَتْ فيكم هذه النبيّة ؟ قال العباس : وماذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التى رأتها عاتكة . قال : مارأت ؟ قال أبو جهل : يابنى عبد المطلب ، أما رضيتم أن يتنبّأ رجالكم حتى تتنبّأ نساؤكم ؟ قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث . فسنتربّص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول ، وإلا كنتم أكذبَ أهل بيت فى العرب .

فأنكر العباس أن تكون قد رأت شيئاً ، ثم افترقوا .

* * *

وأمسى المساء ؛ فلم تبقَ امرأةٌ من بنى عبد المطلب إلا أتت العباس ، وصِحْنَ به ، فقلن له : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقعَ فى رجالكم ، ثم قد تناول نساءكم ، وأنت تسمع ؟ ثم لم يكن عندك غيرة لشىء مما سمعت ! قال العباس : قد والله فعلت ؛ ما كان منى إليه من كبير ؛ وأيمُ الحق لأتعرضنّ له ، فإن عاد لأكفيَـنَّكُه .

وغدا إلى المسجد فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وهو حديدٌ مغضب ،

يرى أنه قد فاته أمر يجب أن يدركه، ودخل المسجد، فرأى أبا جهل. ومشى نحوه يعترض له؛ ليعود لبعض ماقال؛ فيقع به.

ولكنه رأى أبا جهل يتجه نحو باب المسجد؛ فظنه قد فَرِق منه أن يشاتمه؛ ولكنه كان قد سمع صوتا لم يسمعه، ورنّ في أذنه صَدًى لم يعهده؛ فشُغِل به، وخرج إليه.

٥

كان ضمضم بن عمرو الغفاري رسولُ أبي سفيان قد وصل إلى مكة، ووقف على راحلته، وقد جدع أنف بعيره، وحوّل رحله، وشق قميصه من قُبُل ومن دُبُر، وجعل يصيح: يامعشر قريش: اللطيمة[1] اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه؛ لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث!

وشُغل الناس بهذا الأمر، واجتمعوا يُجيلون قداحَ الرأى، ثم أجمعوا على أن يتجهزوا سراعا، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلا، وأوعبت[2] قريش؛ فلم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أبالهب، فقد بعث مكانه من استأجره بأربعة آلاف درهم، كانت دينا عليه

✿ ✿ ✿

ولما أجمعوا سيرهم، وفرغوا من جهازهم، ذكروا ماكان بينهم وبين كنانة من إِحَن، وماوقع بينهما من حروب، وقال قائل منهم:

(١) اللطيمة: المال والتجارة (٢) أوعب: جمع.

إننا نخشى أن يأتونا من خلفنا؛ وكاد ذلك يَثنيهم، ويقعدبهم عن الخروج؛ ولكن سُرَاقة بن مالك - وكان من أشراف كنانة - قال: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

إذ ذاك رجحت كفةُ رأى الدعاة إلى الخروج، ولم يبق بمكة متخلّف قادر على القتال.

٦

أما محمد فقد خرج (١) من المدينة وأمامه رايتان سوداوان: إحداهما مع على بن أبى طالب يقال لها العُقاب، والأخرى مع الأنصار.

وسار مع أصحابه يتعاقبون فى (٢) الإبل: حتى إذا لقى رجلا من الأعراب سأله عن الناس؛ فلم يجد عنده خبرا، فواصلوا السير والسُّرى، حتى إذا كانوا قريباً من الصَّفْراء (٣) بعث رسول الله من يتحسّس أخبار أبى سفيان ابن حرب؛ وسار حتى كان بذَفِران (٤) نزل به؛ فأتته العيون تخبره أن قريشاً قد سارت إلى أبى سفيان؛ ليمنعوا عيره.

استشار النبي أصحابه فيما عرض لهم من أمر قريش؛ فقد تغيّر وجهُ الأمر، وصار أمام عدوٍّ لا بد أن يلتحم معه فى حرب، ويشتبك معه فى قتال!

قام المقداد بن عمرو؛ فقال: يارسول الله؛ امض لما أراك الله؛

---

(١) هذه هى بدر الكبرى (٢) يتعاقبون فى الإبل: يختلفون عليها، أى يركبونها واحدا بعد واحد (٣) الصفراء: قرية بين جبلين.
(٤) ذفران: واد قرب وادى الصفراء.

فنحن معك، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتِلا إنا ههنا قاعدون؛ ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون؛ فوالذى بعثك بالحق، لو سِرْتَ بنا إلى بَرْك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلُغَه.

فقال له النبي خيراً، ودعا له به.

ثم قال: أشيروا علىّ أيها الناس ـ وإنما يريد الأنصار: فقال سعد ابن معاذ: والله كأنك تريدنا يارسول الله! قال: أجل. قال: قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض يارسول الله لما أردتَ فنحن معك؛ فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك، ماتخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تَلْقى بنا عدوّنا فى الحرب؛ إنا لصُبُر فى الحرب، صُدُق فى اللقاء ولعل الله يريك منا ما تَقرّ به عينك. فسر بنا، واستمد العون والتوفيق من الله.

وما إن أتمّ كلامه، وانتهى من حديثه، حتى أشرق وجهُ الرسول، وشاع السرور فى نفسه؛ ثم قال: سيروا وأبشروا؛ فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين[2]، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم! وارتحلوا حتى نزلوا قريباً من بدر.

***

(١) برك الغماد: موضع باليمن، أو أقصى معمور الأرض.

(٢) إحدى الطائفتين: العير أو قريش.

وبعث النبي بعض أصحابه إلى ماء بدر[1] ؛ يلتمسون الخبر له عليه ؛ فأصابوا رجلين يستقيان لقريش؛ فأتوا بهما، وسألوهما : إلى أين يذهبان؟ وإلى أى قبيلة ينتسبان ؟ وأى غرض يقصدان ؟ فقالا : نحن سقاةُ قريش، بعثونا نسقيهم من الماء ؛ فكره القوم خبرهما ، وقد رجوا أن يكونا لأبي سفيان ؛ فانهالوا عليهما ضربا، وأشبعوهما لطما ؛ فلما أذلقوهما[2] قالا : نحن لأبي سفيان ؛ فتركوهما .

ولما رأى النبي ما كان من أصحابه ، وقد كان يصلى ، أقبل عليهم ؛ يقول : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإن كذباكم تركتموهما ! صدقا والله ؛ إنهما لقريش .

ثم التفت إليهما يقول : أخبرانى عن قريش ، قالا : هم والله وراء هذا الكثيب ، الذى ترى بالعُدْوة[3] القصوى ، فقال رسول الله : كم القوم؟ قالا : كثير . قال: ماعدّتهم ؟ قالا : لاندرى . قال : كم يَنْحرون كل يوم؟ قالا : يوما تسعا ويوما عشراً .

فقال الرسول لأصحابه : القوم فيما بين التسعمائة والألف ؛ ثم أقبل على الناس ؛ فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها !

٧

هذا أبو سفيان قد تقدم عيرَه ؛ حذراً من أن يفاجئه أصحاب محمد ؛ ولما علم بمكانهم ، وأفضت إليه عيونه بمستور أمرهم ، رجع إلى

(١) بدر : ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوما فى السنة .
(٢) أذلقوهما : أضعفوهما (٣) العدوة : شط الوادى .

أصحابه سريعا ، وغيّر وجهة سيره ، وجانب الطريق بِعِيره ، وترك بدراً يساراً ، وانطلق حتى أفلت من محمد وأصحابه ، واستخلص عيره من بين أظفارهم .

ولما رأى أنه قد استحوذ على عيره ، وأحرز تجارته ، ونجا بأمواله ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتمُ ، لتمنعوا عِيركم ورجالكم وأموالكم؛ وقد نجوتُ بها ؛ فارجعوا .

فقال أبو جهل : والله لانرجع حتى نَرِدَ بدرا ؛ فنقيم ثلاثا ؛ فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ؛ فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها ، فامضوا .

ولكن الأخنس بن شريق عارض رأيه ، ونقض حجته ، وقال لبنى زهرة ـ وكان حليفا لهم : يابنى زهرة ؛ قد نجت أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم ؛ وإنما نفرتم لتمنعوه وماله ، فارجعوا ؛ فإنه لاحاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضَيْعة (١) لا مايقول هذا .

وقد كان الأخنس فيهم مطاعا ؛ فلم يشهدها زهرى واحد . ومضت قريش حتى نزلوا بالعُدْوة القصوى من الوادى .

* * *

وأسفر الصباح ، والمسلمون فى انتظار مرور العير بهم ، فإذا الأخبار تَصِلُهم أن أبا سفيان قد فاتهم ، وأن مقاتِلة قريش هم الذين مايزالون على مقربة منهم ؛ فذوى فى نفوس جماعة منهم الأمل ، الذى كانوا ينعمون به ،

(١) الضيعة : العقار والأرض المغلة وتجارة الرجل .

وجادل بعضهم النبي ، كى يعودوا إلى المدينة ، ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم ؛ فأنزل الله عليهم : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ ، وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكافِرِينَ » .

فأجمع المسلمون أن يَصْمُدُوا للعدو إذا اشتبكوا معه فى القتال ؛ وبادروا إلى ماء بدر ، وبعث اللهُ السماء ، فأصاب الوادى ماء ، لبَّد لهم الأرض ، ولم يمنعهم عن السير ، وأصاب قريشا منها ماء ، فلم يقدروا أن يرتحلوا معه ؛ وخرج رسولُ الله ، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به .

٨

استقرَّ بهم المقام ؛ فقال الُحباب بن المنذر : يارسول الله أرأيتَ هذا المنزل ؟ أَمَنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدَّمه ، ولا نتأخر عنه ؛ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال النبي : بل هو الرأىُ والجهاد . قال : يارسول الله ، ليس هذا بمنزل ؛ فانْهض بالناس ، حتى تأتىَ أدنى ماء من القوم ، فتنزله ، ثم نُعَوِّر (١) ماسواه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ؛ فنشرب ولا يشربوا . فقال رسول الله : لقد أشرتَ بالرأى .

فساروا حتى إذا أتوا أدنى ماء من القوم ، نزلوا عليه ؛ ثم أمر بالقُلُب فغوِّرت ، ثم بنوا عليه حوضا وملئوه ماء .

* * *

(١) نعور : نردم حتى ينضب الماء .

بنوا الحوض ، وأخذوا أعدتهم للقتال ؛ وبينما هم يتحدثون ويتشاورون ، تقدم سعدُ بن معاذ قائلا : يانبي الله ، ألا نبني لك عريشا تكون فيه ، ونعدّ عندك ركائبك ؟ ثم نلقى عدونا ؛ فان أعزّنا الله ، وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك ؛ فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوام يانبي الله ، مانحن بأشدّ لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ماتخلّفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى رسول الله على سعد ، ودعا له بخير ، ثم بنى العريش للنبي ؛ حتى إذا لم يكن النصر فى جانبه وجانب أصحابه ، لم يقع فى يد عدوه ، واستطاع اللحاق بأصحابه فى يثرب ، يؤذن فيهم بدعوته ، وينشر بين غيرهم من أبناء العرب دينه .

٩

ونزلت قريش منازل القتال ، ثم بعثوا من يقصّ لهم خبر المسلمين ، وجاء رائدُهم يُنْبئهم بأن أصحابَ محمد ثلثمائة أو يزيدون أو ينقصون ، وليس لهم كمين ولا مورد ، ولكنهم مع ذلك قوم لاملجأ لهم إلا سيوفهم ، ولا مَنعة لهم إلا إيمانهم الثابت ، ويقينهم المكين .

وداخل الرعب قلوبهم ، وخاف بعض ذوى الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم ، فلا تبقى لمكة مكانتها ، فقام عتبة بن ربيعة ، وقال : يامعشر قريش ؛ إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو

أو رجلا من عشيرته ؛ فارجعوا وخلُّوا بين محمد وسائر العرب : فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم تتعرض منه لما تكرهون .

وبلغت أبا جهل مقالته ؛ فاستشاط غيظاً ؛ وذكّر القومَ بما بينهم وبين المسلمين من إِحَن ، وما فشا بينهم من عداوة ؛ وما وقع من دماء : فأعجل ذلك القتال ، وتزاحف الناس ، والتقى الجمعان .

١٠

ورأى رسول الله كثرةَ أعدائه ، ووفرةَ عدّتهم ؛ فخرج إلى أصحابه يشدّد من عزمهم ، ويعدل صفوفهم ، ويأمرهم ألا يحملوا عليهم حتى يأمرهم وقال لهم : « إن اكتنفكم القوم فانْضَحوهم [١] عنكم بالنَّبْل » .

وعاد إلى العريش ، معه أبو بكر ، وهو أشدُّ ما يكون خوفا من مصير أصحابه ، وأكثر ما يكون إشفاقا مما سيؤول إليه أمرُ الإسلام والمسلمين .

فلجأ إلى الله يستمدّ منه النصر ، ويستنجزه الوعد ، وجعل يضرع إليه ويقول : اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها وفخرها ، تحادّك وتكذبُ رسولك ، اللهم فنَصْرَك الذى وعدتنى ؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبَد .

ومازال يدعو ربه ، باسطا يده ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه ، وجعل أبو بكر من ورائه يردُّ على منكبيه رداءه ويهيب به : يانبى الله ، بعض مُنَاشدتك ربك ، فإن الله منجزٌ لك ماوعدك من النصر .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ظل فيما هو فيه من ضراعة إلى الله

(١) نضح فلان بالنبل : رماه .

واستغاثه بربه ؛ حتى أخذته سِنَةٌ ، رأى خلالها نصر الله إذ أوحى إليه : «يَأَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» .

فخرج النبي إلى أصحابه يحرضهم على القتال ؛ فقال : والذى نفسُ محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل ؛ فيقتلَ صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . ثم أخذ حَفْنة من الحصباء ، فرمى بها فى وجوه القوم ، وقال : شَاهَتِ الوجوه ، ثم نفحهم بها ، وأمر أصحابه ، فقال : شدوا ، فازداد المسلمون قوة ، وصاحوا مهللين : أحد . أحد !

وأمدهم الله بالملائكة يبشرونهم ، ويزدادون بهم يقينا و إيمانا ، ووقف النبي وسط المعمعة ؛ يُقوّى من عزيمتهم ، ويشدّ من أزرهم ، ويبشرهم بنصر الله لهم .

١١

ازداد المسلمون قوة بتحريض النبي لهم ، ووقوفه بين صفوفهم ، وأمدّهم الله بملائكته ؛ فأكثروا فى قريش القتل والسبي ، وخاضوا وطيس المعركة ؛ فثار النقع [١] ، وامتلأ الجو بالغبار ، وجعلت هام قريش تطير من أجسادها .

ورأى بلالٌ أميةَ بن خلف يخطر فى صفوف المقاتلين ، ويسير وسط هؤلاء المشركين ، وقد كان يغريه بمكة ، أن يترك الإسلام ؛ فيخرجه إلى رَمْضاء مكة إذا حميت ، ويضجعه على ظهره ، ثم يأمر

(١) النقع : الغبار .

بالصخرة العظيمة ؛ فتوضع على صدره ، ثم يقول: لاتزال هكذا حتى تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد . أحد .

رآه بلال ، فاقتحمته [١] عينه ، وأقبل نحوه ، وقال : رأس الكفر أمية ابن خلف ! لانجوتُ إن نجا ؛ وحاول غيره أن يأسره ، ولكنه صرخ بأعلى صوته ، وأقبل عليه بسيفه فأرداه قتيلا .

١٢

وتبدد الغبار ، وانجلت المعركة عن جثث هامدة ، وأشلاء متناثرة ، وولى أهل مكة الأدبار ، كاسفا بالهم ، خشعاً من الذل أبصارهم .

وأمر رسول الله بالقتلى أن يُطرحوا فى القليب ، ووقف عليهم ؛ فقال : ياأهل القليب ؛ بئست العشيرة كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فهل وجدتمُ ماوعد ربكم حقا ، فإنى قد وجدت ماوعدنى ربى حقا .

فقال له أصحابه : يارسول الله ؛ أتنادى قوما قد جيَّفوا [٢] ؟ فقال لهم : ماأنتم بأسمعَ لما أقول منهم ، ولكنهم لايستطيعون أن يجيبونى .

***

وبينما النبى فى حديثه مع قومه فى شأن قَتْلى قريش ، إذا أبو حذيفة ابن عتبة كئيب قد تغيَّر ، فقال : ياأبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟ فقال : لا ، والله يارسول الله ، ماشككت فى أبى ولا فى

(١) اقتحمه : احتقره (٢) جيفوا : أنتنوا .

مَصْرَعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأيا وحلماً وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرتُ ما مات عليه من الكفر ، بعد الذي كنت أرجو له ؛ أحزنني ذلك .

فَطَمْأنه الرسول ، ودعا له بخير .

وانصرف المسلمون إلى الغنائم يجمعونها ، وإلى الأسلاب يضمّون أشتاتها ، وهم بِنَصْرِ الله فرحون ، ولنعمته شاكرون

العتب في الفداء *

عادت قريش يوم بدر كسيرةَ الفؤاد مقصوصة الجناح ، يطأطئ الذلّ هاماتهم ، ويصدع الأسى أكبادهم ، ويأكل الحقد لفائفَ صدورهم ؛ فقد اشتبكوا مع رسول الله في يوم ، ثار فيه النَّقْع ، واشتبك القنا ؛ وتلاقت الأبطال بالأبطال ، ثم تكشّف القتام ، وتجلّى اليوم عن عشرات القتلى وعشرات الأسرى ، دع الغنائم والأسلاب ، والخيل والركاب ؛ ولو أن أولئك القتلى وهؤلاء الأسرى كانوا من عامتهم ودَهْمائهم ، أو صغارهم وسوادهم ، لهان الخطب ، وخفّ المصاب ؛ ولكنهم - ويابؤس لهم - فقدوا رءوسهم وشجعانهم ، وبهاليلهم (١) وأعلامهم ، فهم اليوم أشد مايرون ذلة ، وأعظم مايكونون مهانة وانكسارا .

أما رسول الله - وقد عقد الله له النصر ، واختار له التوفيق - فقد أمر بالقتلى أن تُلقى في القليب أجسادُهم ، وأن توارى بالتراب أشلاؤهم ؛ وعمد إلى الغنائم فقسمها عدلا ، ووزّعها إنصافا . وجاء دور الأسرى . ماذا يفعل بهم ؟ وكيف سلوكه معهم ؟ وليس عنده - صلى الله عليه وسلم - فيهم أمر صريح ، أو حكم منزل . عمد إلى صحابته يستشيرهم ، ويتعرّف الصواب في ضوء آرائهم - وكذلك كان دأْبُه صلى الله عليه وسلم في كثير مما كان يعرض له من أمور الحرب والجهاد - وإن كان أوفرهم عقلا ، وأنفذهم في المشكلات رأيا ، وأمضاهم في الحادثات عزما : ليضع

---

* القرآن الكريم - سورة الأنفال : آية ٦٨ ومابعدها .

(١) البهاليل : جمع بهلول : السيد الجامع لكل خير .

سنناصالحة يستنها ملوك الأنام ، ومن يكون بيدهم زمام الأمور والأحكام .

قال لهم : ماتقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ قال أبو بكر : يارسول الله ؛ قومك وأهلك ، استبقهم واستأن (١) بهم ، لعل الله أن يتوب عليهم ؛ وخذ منهم فِدْية تقوّى بها أصحابك . وقال عمر : يارسول الله؛ أخرجوك وكذّبوك ، قرّبهم فاضرب أعناقهم ؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وإن الله أغناك عن الفداء .

فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأييهما ، وأصاخ إلى غيرهما ؛ ولكنه دخل مخدعه ، لم يبد رأيا ، ولم يتخذ حكما ؛ واشتجرت الآراء بين المسلمين ، من قائل يقول : إنه سيأمر بقتلهم ، ومن قائل يقول : إنه سيَفُكّ إسارهم ؛ وما هو إلا أن طلع عليهم فقال : « إن الله ليُلين قلوب رجال فيه حتى يكونوا ألين من اللبن ؛ وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك ياأبا بكر كمثل إبراهيم ، قال : « فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى ، وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ؛ وإن مثلك ياأبا بكر كمثل عيسى قال : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . وإن مثلك ياعمر كمثل نوح ، قال . « رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا » ؛ وإن مثلك ياعمر كمثل موسى ، قال : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ » . أنتم عالة ، فلا يبقين أحد إلا بفداء أو ضربة عنق .

---

(١) استأن بهم . تثبت .

وشاع فى جنبات مكة وبين أندية قريش أن محمداً قد أعلن فى الأسرى : أنه خيَّرهم بين القتل والفداء ، فخفّوا سراعا إلى المدينة ، ودفعوا المال ، وفكوا عن أسراهم الأغلال .

وما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر هؤلاء الأسرى ، حتى أوحى الله إليه يعاتبه فى إيثار الفداء على القتل ؛ إذ كان المسلمون فى بدء دولتهم ، ومطلع ملكهم ، حاجتهم إلى إذلال عدوهم بالقتل أشد : ليعظم شأنهم ، ويعلو فى الأرض سلطانهم ، وتستقر فى نفوس الأعداء هيبتهم ، وتضعف شوكة أعدائهم ، وهم فى عُنْفوان قوتهم وكثرتهم . أما المال فهو نفع عرضى ، ومرتبة ثانية بعد إضعاف العدو بالقتل ، على أنه سبحانه وتعالى ، قد جرت سنته ، واقتضت رحمته وحكمته ألا يؤاخذ مجتهدا وإن أخطأ ، ولا متأوّلا وإن أضله رائد التوفيق ، فقال : «ما كان لنبى أن يكون له أَسْرى حتى يُثْخِنَ[1] فى الأرض تريدون عَرَضَ الدنيا ، والله يُرِيدُ الآخِرَةَ والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، لَوْلَا كِتَابٌ[2] من الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عذابٌ عَظِيمٌ »[3] .

---

(١) يثخن فى الأرض : معناه يقوى ويشتد ويغلب (٢) كتاب : أى حكم (٣) روى أنه لما نزلت هذه الآية دخل عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو وأبو بكر يبكيان فقال : يارسول الله أخبرنى فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت ، فقال : ابك على أصحابك فى أخذهم الفداء ، ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة .

أُحُدٌ ☆

فى السنة الثانية بعد الهجرة ، والصراع قائم بين الكفر والإيمان ، غُلب كفارُ قريش ، ورجع فَلُّهم إلى مكة مذموماً مدحورا ؛ بعد أن هُزِموا يوم بدر ، فقُتل منهم من قُتل ، وأُسِر منهم من أسر .

فهذا أبو سفيان بن حرب زعيمهم يعود الخيْزَلى[1] بحزبِ الشيطان ، وقلوبهم تصطلى نارا ، وتتقد أُوَارًا ، بما أصابهم يوم نصر الله المسلمين ببدر .

وهذا رسول الله الكريم فى صحابته يقبل فداء الأسرى ، ويترفق بضعيفهم ، ويمنّ على فقيرهم ؛ ومن بين هؤلاء (أبو عزة الجمحى) يقول : يارسول الله ؛ إنى فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها ، فامننْ علىّ . ويفيض كرم الرسول فيمنّ عليه

استمرت قريش سنةً تُعِدّ سلاحها ، وتؤلّب عديدها ، حتى إذا كانت السنة الثالثة بعد الهجرة مشى عبد الله بن ربيعة ، وعِكْرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، يحرضونهم على القتال والأخذ بالثأر ، فينادون : «يامعشر قريش ؛ إن محمداً قد وتركم ، وقتلَ خيارَكم ؛ فأعينونا بهذا المال على حَرْبه ؛ فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا» .

يدبّ هذا النداء فى آذان القوم ، فيتبارون فى حشد الجنود ، وبذل

☆ القرآن الكريم ـ سورة آل عمران : آية ١٢٣ ومابعدها .

(١) الخيزلى : المشى فى تثاقل .

الأموال : فهذا جُبَير بن مُطْعَم يقول لغلامه : إن قتلت حمزة عمّ محمد بعمّى قتيلَ بدر فأنت طليق . وهذا غيره من طُغاة القوم يقدّمون أموالهم وعبيدهم وعَتادهم للقاء هذا اليوم العظيم . «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، والَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» .

بهذا وعدهم الله ، ومن أصدق من الله قِيلا ؟ ولقد صدق الله وعده ، ونصر جُنْدَه يوم الفتح العظيم .

اجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقودها أبو سفيان ، ومعهم جمع من كِنانة وأهل تهامة ، وانبثّ شياطينهم ، ينفّرون المقاتلين لحرب الله ؛ فهذا صفوان بن أمية يقبل على أبى عزة طليق بدر ، فيقول : «يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ؛ فأعنّا بلسانك ، فاخرج معنا» ؛ فيرد أبو عزة قائلا : إن محمداً قد منّ علىّ فلا أريد أن أظاهر عليه ؛ فيقول صفوان : «فأعنّا بنفسك ، فلَكَ اللهُ علىّ إن رجعتَ أن أغنيكَ ، وإن أصِبْتَ أن أجعل بناتك مع بناتى ، يصيبهن ما أصابهن من عُسْر ويسر» .

خرج كبار قريش ومعهم نساؤهم ؛ فهذه هند بنت عتبة زوج أبى سفيان احتشدت فى نساء من أشراف قريش ، تحمّس الجيش ، وتنفّر المقاتلين ، وهم يخبّون فى سيرهم ويُوضِعون ، حتى يستقر رحالهم بجبل أحد مقابل المدينة .

وهذا رسولُ الله الكريم فى جمع من صَحابته يشاوِرُهم فى الأمر ،

ويجيل معهم قِداح الرأى، إذ يقول : فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مَقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها؛ فينطلق عبد الله بن أبىّ بن سلول مجيبا رأىَ رسول الله، داعيا إلى الأخذ بما يراه؛ إلا أن نفراً ممن حبّب الله إليهم الاستشهاد فى سبيله، قالوا: يارسول الله؛ اخرج بنا إلى أعدائنا؛ لايرون أنّا جَبُنّا عنهم وضَعُفْنا، فيردّ دعوتهم عبد الله بن أبى : أنْ يارسول الله أقم بالمدينة لاتخرج إليهم؛ فوالله ماخرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولادخلها علينا إلا أصبنا منه.

وما زال القوم فى أخذ وردّ حتى قام رسول الله بعد صلاة الجمعة؛ فلبس لَأْمته [1]؛ وتهيّأ للقتال؛ فقال القوم يارسول الله استكْرهْنَاك، وليس لنا ذلك؛ فإن شئتَ فاقعد؛ فيقول عليه الصلاة والسلام : «ماينبغى لنبىّ إذا لبس لَأْمته أن يضعَها حتى يقاتل».

ثم خرج الرسول فى ألف من أصحابه بعد أن خلّف بالمدينة ابن أم مكتوم يَؤُم الناس فى الصلاة. حتى إذا كان الجيش بين المدينة وأحد، انخذل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس، وهم بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس؛ متعللا بأن الرسول قد أطاع غيرَه وعصاه، ثم قال: لو نعلم قتالا لاتبَعْناكم؛ ماندرى علَامَ نقتلُ أنفسنا هاهنا أيها الناس؟ ولكن عبد الله بن عمرو اتبعهم يقول: «ياقوم أذكّركم الله ألاّ تخذلوا قومكم ونبيكم»، ولكنهم ولوا عنه

(١) اللأمة : الدرع .

مدبرين؛ فكان هذا جلاءً لسرّ كشفه رب الأرض والسموات. «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشِّعْبَ من أُحد في عُدْوَة الوادي إلى الجبل، ثم جعل ظهره وعسكره إلى الجبل، وقال: «لا يقاتلنّ أحد منكم حتى نأمره بالقتال».

وتعبّأ رسول الله للقتال، وهو في سبعمائة رجل، وتعبّأت قريش، وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فارس، جاعلين على مَيْمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى مَيْسرتها عِكْرمة بن أبي جهل.

قام الرسول ممسكا سيفا، فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقال أبو دُجانة: وما حقّه يارسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني قال: أنا آخذه يارسول الله بحقه، فأعطاه إياه؛ فلما أخذ السيف من يد الرسول أخرج عصابة له، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال الرسول عليه السلام حينما رآه: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

وهذا أبو سفيان يتقدم إلى أصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرّضهم على القتال ويقول:

«يابني عبد الدار؛ إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ماقد رأيتم،

وإنما يؤتى الناس من قبَل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفُونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه » .

فهمّوا به وتواعدوه وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ؟! ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؟

وهذه هند بنت عتبة فى النسوة اللاتى احتشدن معها أخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال محرضات على القتال .

التحمت الموقعة ، واستعر القتال ، وحميت الحرب ، وأبو دُجانة يقاتل بسيف الرسول ؛ وبينما هو فى كِفاحه وجِلَاده إذا بإنسان يحرض الناس ويدفعهم دفعاً شديدا إلى قتال المسلمين ؛ فصمد له أبو دُجانة ، حتى إذا حمل السيف ، فَسلَّه على رأسه وَلْوَلَ وانتحب ، وضج وصَخب ؛ فإذا هى هند بنت عتبة ؛ فأكرم أبو دجانة سيف الرسول أن يضرب به امرأة .

وهذا وَحْشى الحبشى يتحيّن الفرص ؛ لينفذ إلى قتل حمزة حتى يَعتق ، فإذا به يراه صائحا كالجمل الأورق (١) ، فيقدم عليه وحشى ، فيطعنه بحربته ؛ فيخرّ صريعا شهيدا فى سبيل الله .

اشتدّ القتال يوم أحد ، وجلس الرسول تحت راية الأنصار يقوى عزم المسلمين ، ويَرْبُط على قلوبهم بالصبر والتقوى ، ويحذرهم المخالفة فلا يتركون مراكزهم ، ولا يغترون ببوادر النصر ، ولا يؤخذون ببريق من متاع الحياة ، ولا يحرصون على جمع الغنائم ، وتعقبِ المشركين ؛ طمعا فى زينة الحياة .

أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، حتى أزالوا المسلمين

(١) الأورق : ما فى لونه بياض إلى سواد .

عن عسكرهم ، وكانت الهزيمة منهم قاب قوسين أو أدنى ، وولى الكفار الأدبار ؛ إلا أن نَزْوة من النزوات الشيطانية ، وهَفْوة ما تزال تعترى النفس الإنسانية ، صرفت جموعَ المسلمين عن متابعة النصر ، وموالاة المشركين حتى النهاية ، وأنستهم نصح نبيّهم ، وقد كان فى أُخْراهم يدعوهم « إلىَّ عباد الله ، إلىّ عباد الله » ؛ فانصرفوا عنه وانكبّوا على الغنائم ، وانخذلوا عن مواقفهم ، وعصوا أمر الرسول : « إنَّ الّذِينَ تَوَلّوْا مِنْكُمْ يومَ الْتَقى الجَمْعانِ إنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » .

بعد أن كان النصر معقوداً لواؤه للمسلمين ، وكان لواء الكفار مع غلام لأبى طلحة ، فقاتل به حتى قُطِعتْ يداه ، ثم أخذه بصدره ، وبَرَك عليه حتى قُتِل ؛ فأسرعت إليه عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فلاذت به قريش ، واجتمعت تحت ظلاله .

تراجع المسلمون ، وخضدت شوكتهم ، وغشيهم فتور وضعف ، وداخل قلوبهم الهم ، وشغلوا عن ذكر الله ؛ فرجع عليهم القوم ، وكان اليوم يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله فيه من أكْرَم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدوّ إلى رسول الله عليه السلام ؛ فأصيبت رُبَاعيّته ، وشُجّ وجهه ، وكُلِمت شفته .

ثم شاع أن محمداً قد قُتل ؛ فاضطرب أمر المسلمين ، وانفرط عقدهم ، « وَمَا مُحَمَّدٌ إلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ، وَمَا كَانَ لِنَفسٍ أنْ تَمُوتَ إلا بِإِذْنِ اللهِ

كِتَاباً مُؤَجَّلاً ومن يُرِدْ ثوابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ومن يُرِدْ ثَوَاب الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنها وسَنَجْزِى الشاكِرِين » .

ثم أبصر كعبُ بن مالك الرسول ، وعيناه تزدهران تحت مِغْفره [١] ؛ فنادى بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما عرف المسلمون الرسول نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشّعب ، ومعه أبو بكر وعمر ، وعلى و طلحة بن عبد الله ، والزبير بن العوام ورهط من المسلمين ؛ فأدركه أُبَىّ بن خلف ، وهو يقول : أى محمد لانجوتُ إن نجوتَ ؛ فقال القوم : يارسولَ الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال الرسول : دعوه ؛ فلما دنا تناول الرسول عليه السلام حربة ضرب بها عنقه فكانت سبباً فى موته .

ثم قَدّمَ علىٌّ للرسولِ ماءً ؛ فغسل دمه ، ثم أصابه عليه السلام ضعفٌ ؛ فكان يصلى من قعود .

* * *

وقفت رَحَى الحرب بين المسلمين والكفار فى أُحد ، وقد هُزم المسلمون فيها ، واستشهد منهم سبعون من الأخيار الطاهرين ، بعد أن لمسوا النصر بأيديهم ؛ ولكن هكذا قدّر الله وهو خير الحاكمين ؛ ولقد صدقكم الله وعده إذ تَحُسونهم [٢] بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ؛ وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على

---

(١) المغفر : حلقه يتقنع بها المتسلح (٢) تحسونهم : تستأصلونهم قتلا .

المؤمنين . إذ تصعدون ولا تَلْوُون على أحدٍ والرسولُ يدعوكم في أخراكم فأثابكم غماً بغمّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمَّتْهم أنفسهم ، يظنون بالله غيرَ الحق ظَنّ الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمرِ من شيء ؟ قل إنّ الأمرَ كلَّه لله ، يُخْفُون في أنفسهم مالا يُبْدُون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هٰهُنَا ، قل لو كنتم في بيوتكم لَبَرَزَ الذين كُتِب عليهم القتلُ إلى مضاجعهم ، وليَبْتَلىَ الله ما في صدوركم ، وليمحِّصَ ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور » .

انتهت الموقعة ، وأراد أبو سفيان بن حرب الانصرافَ ؛ فأشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : إن الحرب سجال ؛ يوم بيوم ، فقال الرسول قم ياعمر فأجبه ، فقال : الله أعلى وأجل . لا سواء ؛ قَتْلانا في الجنة وقتلاكم في النار . فلما أجاب عمر ، قال له أبو سفيان : هَلُمّ إلَيّ ياعمر . فقال الرسول : لعمر : ائته ؛ فانظر ماشأنه ؟ فجاءه . فقال أبو سفيان : أنشدك الله ياعمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

ولما انصرف أبو سفيان بعث الرسولُ علياً أن اخرج في آثار القوم : فإن جنّبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ؛ فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ؛ فهم يريدون المدينة ؛ والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ، ثم لأناجِزَنّهم .

ولكن أبا سفيان وقومه رجعوا إلى مكة بعد أن مثّل المشركون بكثير من قتلى المسلمين ؛ فكانت نساؤهم يَجْدَعن الأنوف ، ويقطعن

الآذان ، ويتخذنَ منها قلائد . وبقرت[1] هند بطن حمزة عَمِّ رسول الله عليه السلام ، ثم أخذت كبده ، وجعلت تلوكها ؛ فلم تُسِغْها فلفظتها ، وقد أمر رسول الله بحمزة فَسُجِّي ببردة ، ثم صلى عليه ، ثم أتى بالقتلى إلى جانب حمزة ؛ فصلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة ، ثم أمر بدفنهم جميعاً . ثم خرج عليه السلام فى أثر العدو ، واللواء معقود لم يحل ، حتى وصل (حمراء الأسد) ، على ثمانية أميال من المدينة ؛ ليُرْهِب قريشا ، وليعلموا أن قوة الله لا تغلب ولا تُفَل .

فلما علم بذلك أبو سفيان وأصحابه فُتّ فى عضدهم ، فمضوا سراعا إلى مكة ، ينتظرون بطش محمد فى كل حين ؛ « إن الذين اشتَرَوا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم ، ولا يحسبن الذين كفروا أنما نُملى لهم خيرٌ لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين » .

(١) بقرت : شقت .

بنو النضير *

من أين أقبلتَ ياعمرو ؟ وماذلك الأمر الذى يتخالجُ بين عينيك ؟ ليُخَيَّلُ إلىَّ أنك فعلتَ عظيما ، وأنك تحمل فى طيات صدرك شيئا كبيرا !

قال عمرو بن أمية الضمْرى ، فاتك الجاهلية وفارس الإسلام : أجل ! لقد أصبتَ مافى نفسى ولم تبعد : صادفتُ فى طريقى إلى المدينة غِرَّة من رجلين من بنى عامر فقتلتهما ورَويتُ الثرى بدمائهما ؛ ولعلى أكون قد أطفأتُ وقْدَة غيظ تتسعر فى صدور المسلمين ، مما أصاب فينا بنو عامر يوم بئر مَعُونة .

قال محدِّثه : يابؤسَ لما صنعت ، وياخرقَ مارأيت ؛ لقد فعلتَ شرا من حيث حسبتَ أنك أردت الخير ، وركبت مركبا حراما من حيث أردت الثأر ؛ إنك بما فعلت قد أوطأتَ المسلمين العَشْوة ؛ وأردْتَهم على الحَسَك (١) والسَّعْدان ؛ ذانك العامريان اللذان قتلتهما ، وحسبت أنك أدركت الثأر فيهما ؛ إن هما إلا رجلان معهما من رسول الله عهدٌ وجوار ، ولهما حرمة وذِمام . انطلق إليه تجد عنده الخبر اليقين .

وأدرك عمرو أنه قد ضلَّ فيما أراد ، وأنه ارتكب خطأ فيما فعل فخاف عاقبة أمره ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خائفاً يترقب .

---

* القرآن الكريم ـ سورة الحشر : آية ٣ وما بعدها .

(١) الحسك والسعدان : من النبت ذى الشوك .

قال يارسول الله : لقد قتلت العامريين اللذين صادفانى فى طريق إلى المدينة ، وحسبت أنى أصبت فيهما من بنى عامر ثأراً . . . وما نفض على الرسول هذا الخبر ؛ حتى رآه قد تربَّد وجهه ، وانعقدت سحابة من الهم بين عينيه ، وقال : «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لَأَدِيَنَّهُمَا [1]» .

ولكن رسول الله فى ضَنْك من المال ، وخصاصة من العيش . فماذا يفعل ، ودية القتيل عاجلة لاتحتمل النسيئة ، والدمُ الفائر لاينفع فى تسكينه التسويف ؟

ليذهب إلى بنى النضير ؛ إنهم حلفاؤه ومعاهدوه ، ولقد عقد معهم يوم حضر إلى المدينة عقداً : ألا يحاربهم ولا يحاربوه ، وألا يؤذيهم ولا يؤذوه ، وإنهم بعد ذلك حلفاء بنى عامر ، فليس مايمنع أن يستعين بهم على دفع دية القتيلين .

ودعا رسول الله نفراً من صحابته ، وذهبوا حيث يقيمُ بنو النضير فى أطراف المدينة .

* * *

قال حُيَيّ بن أخطب زعيم بنى النضير : ذاك محمدٌ مقبل فى بعض صحبه ، ولأمرٍ ما قدم ، ولأمرٍ ما وطئت قدماه هذه الديار ؛ لننهض جميعاً للقائه ، ولنتعرف ماوراء قدومه .

وقاموا إليه هاشين باشين ، وحيوه معظمين ؛ وإن قلوبهم لتنحنى على المكر والكيد ؛ وإن أنفاسهم لتصاعد بالغيظ والحنق .

---

(١) أدفع ديتهما .

قال حُـيَيّ : خيرٌ ماجاء بك يامحمد، لقيت أهلا ، ومكانا سهلا ؛ قال الرسول : لقد قتل واحـد من المسلمين اثنين من بنى عامر ، حسب أنه أصاب فيهما عدوا ، وأدرك ثأراً ؛ ولـكنهما كانا معنا فى حلف ، ولهما ذِمام ؛ وقد جئناكم نستعين بِمَـالِكمُ على دِ يَة هذين القتيلين ، بما بيننا من حِلْف وعهد .

* * *

قال حُيىّ بن أخطب : لك ماتريد يامحمد ، وهوناً ماأردت ، استَرِحْ إلى هذا المكان ، وأنظرنا قليلا ، حتى نجمعَ المـال ، ونأتى بمـا تريد.

وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جدار ، وجلس معه صحبه انتظاراً لمـا وُعدُوا : أما هم فسرعان ماألف الشَّرُّ بين جموعهم داخل الدور ، وسرعان ماأقبل بعضهم على بعض يتذامرون ، ويتآمرون : كيف لا يفتـكُون بمحمد ، وهو بين أظهرهم ، وحاضر فى رحابهم ؟ هاهو ذا قد مكَّن لهم من نفسه ، وهيأ لهم الفتك به ، ليس معه من ينصره ، ولا يوجد حوله من يعصمه ، إلا نفرا ضعافا ، عزلا من السلاح ؛ قالوا : لئن قتلتموه لتستريحن ، وتستريح العرب من همٍّ ناصب ، وبلاء واقع ؛ ولئن أفلت منكم اليوم ، فلن تظهروا عليه أبدا ... من منكم ينتدب نفسه لقتله ، ويتطوّع للتنكيل به ؟

قال عمرو بن جحاش : أنا بذلك زعيم ؛ دعونى أقتله ، وأشفى غيظكم منه ؛ وانطلق يعد صخرة يرضخه [1] بها ؛ وتسلّق الجدار ، وأعدّ الحجر ،

---

(١) يرضخه : يرميه .

ولكنه نظر فإذا برسول الله قد انصرف ، وخذل الله الكيد والمكر .

* * *

وعاد رسول الله إلى أصحابه ؛ فأعلن فيهم أن بنى النضير قد غدروا ونكثوا ، وأنهم قد أرادوا له قتلا ، وبه شرا ؛ ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إليه بسوء نيتهم ، وخُبْث دَخيلتهم ، لناله منهم شرٌّ وكيد ، والمسلمون بعد ذلك فى حلٍّ من عهدهم ، ولا جُنَاح عليهم فى حربهم ؛ إذ لم يعد أمان لجوارهم ، ولا عهد لميثاقهم .

وانتدب صلى الله عليه وسلم محمد بن سلمة ؛ لينذرَهم الخروج من ديارهم والجلاء عن أوطانهم ؛ وإلا عوجلوا بالحرب ووقع عليهم النَّكال .

وذهب إليهم محمد بن سلمة ، ونادى فيهم : يابنى النضير ؛ قد علمنا مكركم وغدركم ، وأَطْلع اللهُ رسولَه على مؤامرتكم ، وقد قدّرنا مواثيقكم وأيمانكم ؛ فلا بقاء لكم بعد اليوم فى ديارنا ، ولا نأمنكم على رجالنا فارحلوا عن هذه الديار سالمين بأنفسكم ، موفورين فى حياتكم ، ولكم أسوة فى إخوانكم بنى قينقاع .

وأدرك بنو النضير حرَجَ موقفهم ، وعاقبة فَعْلتهم ، وكادوا يصيخون للقول ، ويستمعون للنذير ، ويتهيئون للخروج ؛ لولا أن كتب لهم عبد الله ابن أبىّ[1] الذى قال لهم : لا تخرجوا من دياركم ، وإياكم والجلاء عن أوطانكم ، وإننا سنكون فى حزبكم ، ومن أنصاركم ، لَئِنْ أُخرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

(١) رأس المنافقين بالمدينة .

وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

وعلم رسول الله كفرهم وعنادهم؛ فتهيأ لحربهم، ونهض لقتالهم، وحاصرهم ليالى؛ فلم يفتحوا له بابا، ولم يلقوا إليه يدا؛ ولكنهم ماراوا المسلمين يقطعون النخيل، ويتهيئون للغارة حتى خار عودهم، وانخذلت قواهم، والتجئوا إلى الرسول يسألونه أن يجليهم، ويكف عن دمائهم، على ألا يأخذوا من أموالهم، إلا ماحملت جمالهم.

وأجابهم رسول الله إلى طلبهم، واحتملوا إثم غدرهم ومكرهم؛ فتركوا الديار، ورحلوا عن الأوطان. «وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ»، «وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

الأحزاب *

حُيَي بن أخطب زعيم بنى النضير ، وعظيم من عظماء اليهود ، وهو الآن منبوذ طريد ، منفيّ شريد ، يقيم فى أرض خيْبَر ، مَهيض الجناح ، مُغْمد السلاح ، ذليل الرأس ، وقيذ مابين الجوانح .

ومذ أجلاه رسول الله مع قومه عن المدينة ، جزاءً وفاقا لما ارتكبوه من نكث فى العهد ، وحنث فى اليمين ! لايزال عليه حنيقا ، موغر الصدر ، ملتاع الفؤاد ، يتربص به الدوائر ، ويتوقع للمسلمين غائلة السوء ، ويودّ لو انتصر الكافرون ، وتخاذل المسلمون ، ويود لو يهلكُ رسول الله بالمدينة ؛ فيستطيع أن يعود إلى وطنه ، وأن ترجع إليه فى قومه سابق زعامته ، ولكنه لِعثار جَدّه ، ولما كتبه الله له أن يموت بغيظه ، لا يسقط فى أذنه إلا مايكرهه من نُصرة المسلمين ، وهزيمة الكافرين ، فيَغص بريقه ، ويتسعر فى غيظه ، ويتأوه من آلام الحقد والحسد ، كما يتأوّه السليم .

وصاحبُ الثأر لايسكتُ عن وتْره ، والمنفى أبداً يحن إلى وطنه ، ثم هو يتعلق بالرّثِّ البالى من الآمال ، ويجرى وراء مايدهن له الوهم من معسول الخيال .

ولقد أصبح حُيي يوما على زعمٍ زَخْرَفه له الشيطان ، ووهْم زينته له

---

* القرآن الكريم ـ سورة الاحزاب : آية ١٠ وما بعدها .

خوادعُ الآمال: أن يجمع إليه نفراً من قومه، ممن جَلَوا عن أوطانهم، وأكل الحقد قلوبهم، ويحزبوا على محمد أعداءه فهم كُثر، ويؤلبوا عليه القبائل جميعاً فهم منه على وِتْر؛ ومن يدرى؟ لعل محمداً تذهب دولته، وتسكنُ حركته، ويعود أمرهم من الزعامة والعزة كما كان.

وجمع إليه حُييّ على هذا الزعم سلام بن الحقيق، وكنانة بن الربيع: وهما من بنى النضير، وهوذة بن قيس وأبا عمار وهُمَا من وائل، ونفراً غير هؤلاء ممن ذهب مذهبهم، وانطلقوا إلى قريش.

قالت لهم قريش: يامعشر يهود: دعونا مما جئتم فيه الآن، وأخبرونا عما نسألكم عنه؛ إنكم أهلُ الكتاب الأول، وإليكم ينتهى علمُ ما نختلف فيه، وقد أصبحنا فى أمرنا مع محمد على ريبة، ومن ديننا فى شك. فماذا ترون: أديننا خير أم دينه، وآلهتنا حق أم إلهه؟

قالوا لهم: أوَ أنتم فى شك من دينكم، وفى ريب من عقائدكم؟ تالله إن دينكم للحق، وإن دين محمد لَلْخرافة، وإن آلهتكم لهى التى تضر وتنفع، وتعطى وتمنع، وإن إلهه لا يدفع شراً، ولا يجلب خيراً؛ فحَذَارِ أن يدخل الشك إلى نفوسكم، أو يجرى الظن إلى عقائدكم، فلا تتقاعسوا عن مناهضته، ولا تعدلوا عن محاربته؛ وسنجمع عليه معكم القبائل، وندعو العرب؛ سنحرض غطفان، ونهيب بأشجع، وندعو بنى قريظة، وباتحادكم مع هؤلاء وهؤلاء لا تدعون شأن محمد يرتفع أبداً.

ثم ذهبوا إلى غطفان وحرّضوهم؛ فوجدوا للتحريض عندهم مَرْتَعاً

خصيباً ، وذهبوا إلى أشجع فوجدوا عندهم صدراً رحيباً ، ثم انطلقوا بعد ذلك إلى بنى قريظة .

وكانت بنو قريظة تُساكِن رسول الله بالمدينة على عهد بينهم وبينه : ألا يحاربَهم ولا يحاربوه ، وأن يهادنَهم ويهادنوه ، وأن يكونوا بعد ذلك على غيرهم أحلافاً . . . وظلوا قائمين على العهد ، حافظين للميثاق ، حتى وفد عليهم حيّ بن أخطب ومعاونوه . . وسمع بمجيئهم كعب بن أسد القرظى ـ وكان رئيسهم ـ فقال لقومه : ياقوم لم يَقْصِدْكم هؤلاء إلا لشر ، غلّقوا أبوابكم ، وصُمّوا آذانكم ، فوالله ما يدفعونكم لخير أبداً .

وغلّقوا الأبواب ، وجاء حُيَيّ ، وقال : ويحك يا كعب ! افتح لى ، فما أنا إلا ابن عمك ، وعلى عقيدتك ، ولقد جئتك فيما أرجو أن يكون فيه صلاحُك ، وصلاحُ قومك جميعا .

قال كعب : إنك لأشأم الطلعة ، متّهَم النصيحة ، مزوِّر فى الكلام . .

لقد عاهدت محمداً فلم أر منه إلا سِلما وأمنا ، وإلا صدقا ووفاء ؛ ونحن بنى قريظة ، نعيش اليوم فى سلم من الأحقاد والأضغان ، وفى مأمن من المكايد والحروب .

قال حُيي : إن محمدا وإن عاهدك ليس على دينك ، وإن صانعك فهو على بُغْض من جوارك ، وهو يودّ لو أجلاك . . . ولقد جئتك بعزّ الدهر ، وبهزيمة محمد على الأيام ؛ هذه قريش بقادتها وسادتها ، ما زلت بها حتى جئت بها تحارب محمدا ، وهى الآن بمجتمع الأسيال فى طريقها إلى المدينة ؛ وهذه غطفان ، وهذه أشجع فى طريقهم إلى المدينة ، وإنهم

فى حملتهم لصادقون ، وإنهم من نُصْرتهم لواثقون .

قال كعب : جئتنى والله بذُل الدهر ، وخيبة الرجاء ، وبجَهام [١] قد هَرَاق ماءه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شىء ؛ دَعْنى من حرب محمد ، فما أنا بناقض العهد ، ولا حَانث فى الميثاق .

ولكن حُيَيًّا مازال بكعب يزوّر له الغدر ، ويزخرف له الفجور ، حتى لانت عريكته ، ونقض العهد ، وخرج بقومه لقتال المسلمين !

* * *

ووفدت الأخبار على رسول الله : أن قريشا قد جمعت جموعها ، وظاهَرَتْها غطفان ، وتابعتها أشْجَع ، وأنهم جميعاً قد خرجوا لغزو المسلمين بالمدينة .

فتلقّى رسول الله هذه الأخبار بحزمه وعزمه ، وإيمانه ويقينه ، وأمر المسلمين بحفر خَنْدَق حول المدينة .

وبينا المسلمون يتهيئون لصدّ قريش ومَنْ حالفهم ، إذا بوافد آخر يُلْقِى إلى رسول الله : إن بنى قريظة قد نكثت عهودها ، ونقضت وعودها ، وإنهم حسبوها فُرْصة ، وتخيّلوها نُهزة ، يطعنون من ورائها المسلمين .

وعلم المسلمون بما هم عليه ، وبما وقعوا فيه ، من تحزّب الأحزاب عليهم ، وإحاطة العدو بهم : من فوقهم ، ومن أسفل منهم ؛ فزاغت أبصارهم ، وهلعت قلوبهم ، وعظم أمامهم الكرب ، واشتد البلاء ،

(١) الجهام : السحاب قد هراق ماءه .

وأخذوا يظنون بالله الظنون . أما المؤمنون فحسبوا أن هذه مِحْنة الله ، وأنها امتحان لهم ، وابتلاء لمقدار جهادهم؛ فهم يخافون الزَّلل ، ويخشون ضعف الاحتمال . وأما المنافقون فقد قالت طائفة منهم : لقد كان محمد يَعِدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ؛ وإن أحدنا لا يملك أن يذهب الآن لقضاء الحاجة . «مَاوَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ إلاَّغُرُورًا» .

وهمّت طائفةٌ بالفرار ، وإيقاع الضعف فى صفوف المسلمين ، وجاءت تستأذن رسول الله كذبا ونفاقا ، وخَتْلا وخداعا ؛ يقولون : «إنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ [١] وَمَاهِىَ بِعَوْرَةٍ إنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَارًا» .

ووقف رسول الله بين أعداء من الأمام ، وأعداء من الظهر ، وأعداء فى الصفوف .

ولو كان همًّا واحدا لاتَّقيتُه ، ولـكنه هَمٌّ وثان وثالث

* * *

وفى هذا الليل الحالك من الفرَق والفزع ، وفى ذلك العِثْير [٢] المنعقد من الخوف والهلع ، ساق الله إلى المسلمين نعيم بن مسعود ، وهو رجل من رجال غطفان ؛ قال يارسول الله : إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ؛ فمرنى بما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت فان الحرب خدعة» .

وذهب نعيم أعزلَ من سلاحه ، مفرداً عن قومه ، ولـكن بما وهبه الله له من قَبَس الإيمان ، وماانفخ فيه من روح اليقين ، كان يحمل عزيمة

(١) العورة فى الثغر والحرب : خلل يخاف منه (٢) العثير : الغبار .

أمضى من السيف ، وهمةً أثبتَ من الطّود . ذهب لا يحمل سيفا ، ولا يتنكّب قوسا ؛ ولكنه يرجو بما رخص له رسول الله من خِدَاع ، وبما أباح له من نَسْج خيوط الدّهاء ، أن ينال من الأعداء مالا ينال بالسيوف ، ويصيب فيهم مالا تصيبه السهام .

ذهب إلى بنى قُرَيظة ، وكان نديما لهم فى الجاهلية ، وقال لهم : يابنى قريظة ؛ لقد عرفتم ودّى إياكم ، وحبى لخاصتكم وعامتكم . قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتّهم .

قال : إن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم ، البلدُ بلدُكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تَحُولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن رأوها نُهْزة[1] أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلّوا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقةَ لكم به إذا خَلَا بكم .

قالوا : وما الرأى ، وقد عاهدناهم على أن نحارب معهم ، ونسلك فى عداوة محمد سبيلهم ؟ قال : أنْ تأخذوا رَهْنا من أشرافهم يكونون بأيديكم حتى تُنَاجزوه ؛ وبذلك تكفلون صدقهم ونصرتهم .

قالوا : لقد أشرت بالرأى .

وتركهم نعيم بعد أن بعث خديعته فيهم ، وذهب إلى قريش ؛ فقال لهم : لقد عرفتم ودّى لكم وبُغْضى محمداً ، ولقد بلغنى أمرٌ قد رأيت حقا أن أبلغكم إياه ؛ نصحا لكم ، وخشية عليكم ؛ فاكتموه عنى : تعلّموا أن

---

(١) نهزة : فرصة .

بنى قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد ، ولقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ؛ فهل يُرْضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نعم ؛ فإن بعثوا إليكم يلتمسون رَهْنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم أحداً .

ثم تركهم وذهب إلى غطفان ، وحدّثهم بمثل ما حدث قريشا ، وانخدعوا له كما انخدعت قريش ، وترك نعيم الجميع ينظر ما يكون !

* * *

وفى ليلة السبت من شوال أوفدت قريش وغطفان عِكرمة بن أبى جهل فى نفر منهم إلى بنى قريظة يستنفرونهم للقتال .

قال عكرمة لرؤسائهم : إنا لسنا بِدَارِ مقام ، قد هلك الخُفّ والحافر ؛ فاغْدُوا للقتال ، حتى نناجزَ محمدا ، ونفرغ مما بيننا وبينه ... فقالوا له : إن اليوم يوم سبت لا نعمل فيه شيئا ؛ ولو فعلنا لعاد الخِزى والخذلان علينا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً ، حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا حتى نناجز محمدا ، فإننا نخشى إن ضَرَّسَتْكم الحرب ، واشتد عليكم القتال ، أن تَتَشمَّروا(١) لبلادكم ، وتتركونا ومحمدا ، ولا طاقة لنا بقتاله .

ورجعوا إلى قريش وغطفان ، وحدّثوهم بما قالت بنو قريظة ، فقالوا : والله إن ما حدّثكم به نعيم بن مسعود لحق . وعادت الرسل

(١) تشمر للأمر : تهيأ ، وجد .

إلى بنى قريظة ، وقالوا لهم : والله لا ندفع إليكم من رجالنا أحدا ؛ فإن كنتم تريدون القتال ؛ فاخرجوا وقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت إليها الرسل بهذا : والله إن ماذكره نعيم لحقٌّ ، وحينئذ وقع التخاذل فى صفوف الأحزاب ، ودبَّ الرعب فى قلوبهم .

أما قريش فقد بعث الله عليهم الريح فى ليل شاتٍ فكَفَأَتْ قدورهم ، وطرحت آنيتهم ؛ وزادت فى تخاذلهم ، وقفلوا إلى مكة راجعين مذعورين ، « وَرَدَّ الله الذين كفروا بِغَيظهم لم يَنالُوا خيرا ، وكفى اللهُ المؤمنينَ القتالَ ، وكان الله قويًّا عزيزا » .

ورجع رسول الله إلى الذين ظاهروا قريشا وغطفان من بنى قريظة ، فوجدهم أيضا قد قذف الله فى قلوبهم الرُّعب ، وأوْقع عليهم الفزع ؛ فانتقم منهم ، وأنزلهم من حصونهم وصَياصيهم (١) ، ثم عاقب رجالهم بالقتل ، ونساءهم بالسَّبْيِ والأسْر ، وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم . « وكان الله على كل شيء قديرا » .

---

(١) الصياصى : الحصون .

قصة الإفك *

ضرب الليل رواقه على الصحراء، وكساها رداءً من السكون؛ فصارت قطعةً سوداء مظلمة، لا يكاد السارى فيها يرى رفيقه، وهى فضاءٌ هادئ، حتى لتكادُ الأذن تسمع دبيبَ الدابة، وحركة النملة إذ تسير.

ويظهر فيها بدوىّ ملتَفٌّ فى ردائه، يُعمل الناقة، ويجتهد فى السير؛ وكأنه مطلوب هارب، أو طالب مجد...

كان صفوانُ بن المُعَطّل السلمى قد تخلف لبعض حاجته عن جيش الرسول، وهو عائد من غزو بنى المصطلق إلى المدينة؛ وهو الآن يطلب القوم ليلحقهم، ويقفوَ أثرهم ليسير معهم؛ ولكنه يلمح فى سيره شخصا ملتفّا فى ثيابه، مطويا على نفسه، وهو غارق فى نومه، وكأنه ذاهب فى أحلامه؛ فنزل عن ناقته، واتجه صوبه، يمشى على أطرافه، خشية أن يفزعه أو يخيفه.

وما كان أشد ذهوله، وأعظم دهشته، حينما تبيّن الشخص، فإذا هو عائشة (١) أم المؤمنين!! مغرقةً فى نومها، ملتفةً فى ثوبها، فى هذا المَهْمَه القفر، والظلام الحالك، ولم يستطع أن يملك صيحته، أو يكتم دهشته؛ فصاح: إنا لله وإنا إليه راجعون! ظعينة (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم!

---

* القرآن الكريم ـ سورة البقرة: آية ١٢ وما بعدها.

(١) كان صفوان قد رآها قبل أن يضرب الحجاب.

(٢) الظعينة: المرأة مادامت فى الهودج.

فاستيقظت عائشة مذعورة على ترجيعه وصوته ، وخمّرت وجهها بجلبابها. فقال لها : ماخطبك، يرحمك الله ؟ فما استطاعت أن تردّ عليه جوابا ؛ حياء وخجلا ؛ ثم قدّم إليها راحلته فركبتها ، وأخذهو بزمامها ، وانطلق يطلب رسول الله ؛ وظلّ طريقه ما التفت إليها ، ولاحدثته نفسه بحديثها، حتى أدرك القوم مُعَرِّسين (١) فى نحر الظهيرة .

وسألها رسول الله ماخطبها ؟ وفيم تخلّفها ؟ قالت : سمعتُك ليلة الأمس تؤذن فى القوم بالرحيل ، فذهبت لقضاء بعض شأنى ، ولما عُدْتُ إلى رحلى تفقّدت عقدى ؛ فإذا هو قد انسلّ من عنقى ؛ فذهبت فى طلبه ، ولما عُدْت وجدت القوم قد ارتحلوا ، مافيهم داع ولا مجيب ؛ فتلففت فى ثيابى، ولزمت مكان رحلى ؛ لعلكم إذ تتفقدونى فلا تجدونى ، تعودون فى طلبى؛ ثم ضرب الله على أذنى فنمت ، وما استيقظت إلا على صوت صفوان .

وصدّقها رسول الله فى حديثها ، ولم يخالطه الشك فى أمرها ؛ إذ هى عائشة بنت أبى بكر فى شرف منبتها ، وطهارة عرقها ، وهى هى عائشة زوج رسول الله فى عفة أديمها ، وكرم دِخلتها .

حَصانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ (٢) بريبة ... وتُصبِحُ غَرْثَى (٣) من لحوم الغوافل

عقيلة حىّ من لؤى بن غالب ... كِرام المساعى مجدُهم غيرُ زائل

مهذبة قد طيّب الله خِيمها (٤) ... وطهّرها من كل سوءٍ وباطل

(١) معرسين : مقيمين

(٢) تزن : تتهم

(٣) غرثى : جائعة

(٤) خيمها : سجيتها .

أما عُصْبة الكذب وجماعة السوء : فإنهم مارأوا عائشة يقود راحلتها صفوان مقبلَيْن من الصحراء ، حتى أخذوا يتخرّصون الكذب ، ويقعون فى شرف عائشة ، ويتهمونها فى صفوان !!

قال عبدالله بن أبىّ حينمارآهما : والله مانجتْ منه ، ولانجا منها !! وفشت هذه القالة بين الناس ، وتبع مسطحَ ابنَ أبىّ ، وتبعهما حسان وزيد بن رفاعة وحَمْنَة بنت جحش ؛ ثم أخذوا يهضبون (١) فى القول ويزيدون ؛ حتى بلغ الخبر رسول الله ، وسَقَط فى أُذنى أبى بكر ، وتحدّث به الصغير والكبير ، والدّانى والبعيد .

وظل القوم فى هرْجِهم ومرجهم ، واتهامهم ودفاعهم ، وشكهم ويقينهم ، حتى وصلوا إلى المدينة ؛ كل هذا وعائشة لاتعرف شيئاً مما فى نفس القوم ، ولم يقع لها كلمة مما خاض فيه الناس ، ولكنها حين ذهبت إلى بيتها تخوَّنتها الحمى ومسّها المرض ؛ فلزمت الفراش ، وتلمست الشفاء ... وترقبت من رسول الله ــ كما اعتادت ــ قلبا عطوفا ، ورحمة مبسوطة الجناح . فما ظفرت منه إلا بنظرة خاطفة ، وسؤال قصير : « كَيْفَ تِيكُمْ » ؟ لايزيد على ذلك ؛ فأهمها وأكربها ، وزاد من سقمها ، وضاعف من عِلتِهَا . مابال رسول الله لايَرِقّ لحالها ، ولا يرثى لمرضها ، ولا يحفل بشأنها ؟ ذلك مالاتعرفه عائشة ، ولا تستطيع أن تربط فيه علة بمعلول ، أوسبباً بمسبب ؛ ولهذا استأذنت رسول الله لتذهب إلى بيت أبيها ؛ لعل فى البعد مايثير حنانه ، ويعطف من قلبه .

(١) يهضبون : يفيضون .

وأذن لها ، وقضت فى بيت أبيها بضعا وعشرين ليلة ؛ تعانى المرض، وتحتمل الداء ؛ حتى بلَّتْ من مرضها ، واستفاقت من علتها .

وخرجت يوما إلى فسح المدينة ومعها أم مسطح بنت أبى رهم ؛ وإنهما ليمشيان إذ عثرت أم مسطح فى مِرْطها (١) ، فقالت : تعس مسطح ! قالت عائشة : بئس لعمر الله ماقلت لرجل شهد بدراً ؛ قالت لها : أوما بلغك الخبر يابنت أبى بكر ؟ قالت عائشة : وما الخبرُ ؟ فحدثتها بما كان من أصحاب الإفك ، وما تَقَوَّل به مسطح وحسان ، وما أذاعه ابن أبىّ ، وما تزيدت فيه حَمْنة بنت جحش . . .

قالت عائشة : أوكان هذا ؟ قالت أم مسطح : نعم والله كان ؛ قالت عائشة : هيا بنا نعود ؛ وانكفأت إلى البيت تبكى ما تَرْقَأُ لها دمعة ، ولا تسكن منها لوعة ، ثم قالت : ياأمَّاه ، يغفرُ الله لك ؛ تحدّثَ الناس بما تحدثوا به ، ولا تذكرين من ذلك شيئاً ؛ قالت : أى بنية ، خفّضى عليك الشأن ، فوالله لَقَلَّما كانت امرأة حسناءُ عند رجل يحبها ولها ضرائر ، إلا أكْثَرْن عليها .

* * *

ومضى شهر ورسول الله فى حيرة من أمرها ، وريب من قضيتها ؛ يتطلع إلى الوحى ، ويتشوّف إلى الرؤيا ، عَلَّه يجد فيهما مخرجا من أمره ، وسكونا من حيرته ، وكشفا لشُبْهته ؛ ولكن لم ينزل الوحى ، ولم تُتَح له الرؤيا ؛ فرأى أن يستفتى ويستشير ؛ فسأل زينب بنت جحش ـ وكانت

(١) المرط : كساء من صوف أو خز .

ضَرّتها . وتزحمها فى مكانتها ـ فقالت : أحْمِى [١] سمعى وبصرى ، والله ماعلمت عليها إلا خيراً ؛ وسأل أسامة بن زيد ، فقال : أهلك يارسول الله ، وما علمنا إلا خيرا ؛ وسأل علىّ بن أبى طالب فقال : سل بَرِيرَة جاريتها تصدقك الخبر ؛ وجاءت بريرة ؛ فقال لها الرسول : هل رأيت شيئا يريبك؟ فقالت : لا والذى بعثك بالحق ، مارأيت منها أمراً أغمِصه [٢] عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن العجين ، فتأتى الدواجن فتأكله .

وفرغ رسول الله من استشارة من استشار ، ولم ير فى حديثهم شيئا يزِنّ عائشة أو يَصِمها ، فخرج إلى الناس مغضبا ، وقال : « أيها الناس : مابال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ؟ والله ماعلمت منهم إلا خيراً ، وقد ذكروا رجلا ماعلمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى » .

ثم ذهب إلى عائشة فى منزل أبيها ؛ فوجدها تبكى ، ووجد امرأة من الأنصار تبكى معها ، وعندها أبواها ؛ فسلَّم عليها ، وقال : ياعائشة ؛ إنه قدكان مابلغك من قول الناس ، فاتقى الله ؛ فإن كنت قَارفتِ سوءً مما يقول الناس ، فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده . . . ولكنها لم تستطع جوابا ، ثم التفتت إلى أبيها ، وقالت : أجب عنى رسول الله ؛

---

(١) أحمى سمعى وبصرى : أمنعهما من أن أنسب إليهما مالم يدركا . ومن العذاب لو كذبت عليهما (٢) غمصه : عابه .

فقال : والله ماأدرى ما أقول. فالتفتت إلى أمها ، وقالت : أجيبي عنى رسول الله ، فقالت : والله ماأدرى ماأقول .

ولما لم تر من أبويها قولا ينفح عنها ، أودفاعا يمزّق خيوط الشك التى نُسِجت حولها ، قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم مادخل على أبى بكر فى هذه الأيام ، ثم استعبرت ، وقالت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا ، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أنى منه لبريئة - لأقولن مالم يكن ، ولئن أنكرت ما يقول الناس لا تصدقوننى ؛ ثم أجهشت بالبكاء . والتمست أن تذكر اسم يعقوب فغاب عنها ، فقالت : ولكنى أقول لكم كما قال أبو يوسف : فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون .

فأطرق رسول الله . ووجم أبو بكر ، وتنهّدت أم رومان [1] ؛ وبيناهم على هذه الحال ؛ إذ تغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشّاه حين نزول الوحى ، فَسُجِّى بثوبه ، ووُضِعت وسادة تحت رأسه ؛ وعند ذلك علمت عائشة أن الوحى سيفصل فى أمرها ، وسيزيح الشكّ عن قضيتها ، فترقبت ربيطة الجأش ، ساكنةَ الجوارح ؛ إذ كانت عارفة بنفسها ، واثقة من نزاهتها ، وطهارة ذيلها . أما أبواها فإنهما ما أحسّا رسول الله يتلقى الوحى ، حتى انماث [2] قلبهما من الفزع ، وكادت تتزايل أعضاؤهما من الجزع ؛ أن يأتى الوحى بتصديق ماقال الناس .
ثم سرى عن رسول الله ؛ وإن قطرات العرق لتتحدّر من جبينه مثل

---

(١) أم رومان : أم عائشة (٢) انماث : ذاب .

الجمان ، وقال : أبشرى ياعائشة ؛ لقد أنزل الله براءتك فى قرآن يتلى بين الناس ، ثم أخذ يقرأ :

إن الذين جاءُوا بالإفكِ عصبةٌ منكم ، لا تحسَبوه شرا لكم ؛ بل هو خيرٌ لكم ، لكلِّ امرئٍ منهم ما اكتَسَب من الإثم ، والذى تولّى كبرَه منهم له عذابٌ عظيم . لولا إذ سمعتموه ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا : هذا إفكٌ مُبين ، لولا جاءوا عليه بأربعةِ شهداءَ ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ؛ لَمسّكم فيما أفَضتُم فيه عذاب عظيم . إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم ، وتحسَبونه هيّنا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلمَ بهذا ، سبحانك هذا بُهتانٌ عظيم . يعظكم الله أن تعودُوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشةُ فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم . يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكَى منكم من أحد أبدا ، ولكن الله يزكى من يشاء ؛ والله سميعٌ عليم .

المنافقون *

ظهرت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فغزت المشاعر وشقت القلوب ، وتغلغلت فى قرارة النفوس ، واطّرد سبيلُها فى الأرجاء ، وانتشر أمرها فى كل مكان .

ولكن ثلاثةً من صنوف الأعداء أخذوا يقاومونها ، ويتوقعون النّكاية بها ، والكَيْد لها ؛ خوفاً على زعامتهم ، أو حرصاً على رياستهم ، أو حسداً من عند أنفسهم : مشركو قريش بمكة ، واليهود بالمدينة ، والمنافقون بين الإسلام والكفر .

أما المشركون فقد أعلنوا كُفْرهم صريحاً ، وأبدَوا عداوتهم جهارا ، وأقاموها حربا لا تنطفئ جَذْوتها ، ولا تسكن وقدَتُها . وأما اليهود بالمدينة فإنهم ما كادوا يرون رسول الله بين ظَهْرَانيهم حتى نفِسوا عليه رسالته ، وحسدوه نعمته ، وأنكروا زَعامته ، وسلكوا سبيل أشباههم من كفار قريش ؛ كفرا وعنادا ، وحربا وعداء .

فأصبح رسول الله من بين هؤلاء وهؤلاء على المحجة الواضحة ، والعداوة الصريحة ، يحاربهم أحيانا ، ويعاهدهم أحيانا ، وهو فيما بين ذلك يرجو أن يغلبهم ، أو ينتهى بهم إلى الإسلام والإذْعان .

وأما المنافقون فقد كانوا قوما من الأنصار أبناء عمومة ، أبطَنوا الكفر وأضمروا العداء ، ثم أعلنوا الإسلام وتَظَاهروا بالمحبة الصافية ،

---

* القرآن الكريم : سورة المنافقين .

وانتحلوا الإخاء المصفّق (١) ، واصطنعوا الود المنخول ، وإن قلوبهم لتنطوى على المرض والحقد ، والغدر والمكر ؛ زعموا أن سيوفهم مع المسلمين ؛ صدقوا ، ولكن قلوبهم كانت مع الكفار ، وزعموا أنهم خالصون خيّرون ؛ كذبوا ، هم جنباء أخساء أشرار ؛ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون .

لم يقولوا كلمة الإسلام فى صدق فينتظموا فى عقد الأنصار ، ولم يعلنوا الكفر واضحاً فيجرى عليهم الرسول حكم الكفار ؛ مُذَبْذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ ولهذا كانوا أشد ضررا ، وأبلغ فى الأذى أثرا ؛ إذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما كان فى استطاعته إلا أن يكتفى بظاهرهم ، ويَكِلَ إلى الله ما فى سرائرهم وكان ظاهرهم السلم والإسلام ، وكان باطنهم الكُفر والكُفران ، وظلوا على هذا شوكةً فى جنب المسلمين ، وقذًى فى العيون ، وقُرْحة فى الأكباد ، حتى كان يوم بنى المصْطَلق ، وعلى ماء المرَيْسيع (٢) ؛ إذ هتك الله أستارهم ، وكشف مخبآت ضمائرهم ، ودمغهم بآياته ، وأظهر زائفهم بكلماته .

* * *

بعد أن فرغ رسول الله من أمر بنى المصطلق ، وردَتْ واردة من الناس تستقى الماء ، وتذود الخيل والإبل ، حول ماء يسمونه المرَيْسيع ، وازدحم الشّرب ، وتدافعت الدواب ، وضاق المكان ، وتلاقى على الماء

(١) الود المصفق : الصافى (٢) ماء لبنى خزاعة .

جهجاه بن مسعود الغفاری ، أجيرُ عمر بن الخطاب ، وكان يقود فرسه ؛ وسنان بن مسعود الجهنی ، حليف بنی عوف من الخزرج ؛ ووقع بينهما ما أثار الشر ، وأضرم الغيظ ، وهاج البغضاء ؛ فنادى الغفاری : يا لَلمُهاجرين! ونادى الجهنی : يا للأنصار! ودعوا إلى جاهليةٍ قَضَى عليها الإسلام ، وأهابا بعصبية مُنْتِنَةٍ عفى عليها القرآن .

اثنان من عداد المسلمين اقتتلا : واحد من المهاجرين وواحد من الأنصار ، وشجر بينهما عداء ، فما شأن المهاجرين ، وما شأن الأنصار ؟ وقد أصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وأحبابا وأعوانا ، يدٌ على من سواهم ، وأمرهم جميع على من عداهم ، وُدّهم غيرُ مُتهم ، والعهد بينهم غير مُضَاع .

ولكن ما أسرع ما وجدت هذه القَالة عند المنافقين رواجا ، وفی قلوب المترددين استئناسا وقبولا .

وكان عبد الله بن أُبَیّ بن سلول رأسَ الكفر ، وكَبْش الضلال ، وزعيم جماعة المنافقين ؛ فما سمعها حتى هشَّ لها وبش ، ثم راح ينفثُ سموم مكره ، ويعلن مكنون غيظه ، ويفصح عن مخبآت حقده ؛ وجمع رَهْطاً من قومه ممن لفّ لفه ، ونهج سبيله ؛ وقال لهم : ما رأيت كاليوم مذلة ، أوقد فعلوها ؟ نافَرُونا فی ديارنا ، وكاثَرُونا فی بلادنا ، ما نحن والمهاجرين إلا كما قال الأول : سمّن كلبك يأكلك ؛ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل . هذا ما فعلتم بأنفسكم ؛ وصنعتم لأقوامكم ؛ أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم ، ونزحوا لغير بلادكم ؛ أولا ترون إلى أنفسكم ؟ جعلتم منكم دون محمد أغراضا للمنايا ؛ وأهدافا للرزايا ؛

وطلائع للخيول ؛ ثم عُذتم بالولد اليتيم ، والطفل اللطيم ! ياقوم لو أردتم الخير لأنفسكم ، لا تنفقوا على هؤلاء المهاجرين حتى ينفضّوا ؛ ولا تلاقوهم بوجوه حتى يَظْعنوا .

وكان حاضراً مجلسه زيد بن أرقم ، فتى حديث السن ، حسن الإسلام ، شديد الحب للرسول ، شديد الغَيْرة على جمع كلمة المسلمين ؛ فقام إليه غير عابئ بزعامته ، أو هيّاب لمكانته . وقال : أنت والله الذليل القليل ، المبغض فى قومك ، المَشْنُوء فى عشيرتك ، ومحمد إنما هو فى عزّ من الرحمن وقوة من المسلمين .

ثم قام من فوره إلى رسول الله ، ونفض عليه ماقال عبد الله ؛ فظهرت الكراهية فى وجه رسول الله ، واختلج الهمّ بين عينيه ؛ أن رأى قرن الفتنة بين المسلمين يطلع ، وأصبع الشيطان تلعب ، ونار الشر تسرى وتدب .

قال الحاضرون من شيوخ الخزرج : يارسول الله ؛ شيخنا وكبيرنا ، لا تصدق عليه كلام غلام ، عسى أن يكون قد وَهِم ! فتلفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زيد بن أرقم وقال له : لعلك غضبت عليه . قال لا ؛ قال : فلعله أخطأ سمعك . قال : لا ؛ قال : فلعله شُبِّه عليك . قال : لا .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبيّ وقال له : أنت صاحبُ الكلام الذى بلغنى ؟ فقال ــ فى غير تحفظ ولا استحياء : والله الذى أنزل عليك الكتاب ماقلت شيئا من ذلك ، وإن زيداً لكاذب ! وهكذا حلف كاذبا ، واتخذ يمين الله جُنّة وشعاراً ؛ والله يعلم إنه لكاذب ، ومعارف وجهه تتحدث بأنه كاذب .

وقال عمر بن الخطاب : يارسول الله ؛ مُرْ بقتله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف ياعمرُ إذا تحدَّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ ولكن أذّن بالرحيل .

وارتحل الناس فى ساعة مُنْكرة ، لم يكن رسول الله يرتحل فيها ؛ وذلك ليشغل الناس عن الفتنة ويصدَّهم عن دعوى الجاهلية ؛ وإذ كان رسول الله فى طريقه لقيه أُسَيْد بن الحُضَير ؛ فدهش أن رأى القوم قد ارتحلوا فى ساعة منكرة ، وقال : يانبىَّ الله ؛ والله لقد رحلتَ فى ساعة منكرة ، ما كنتَ تروح فى مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ماقال صاحبكم ؟ قال : وأى صاحب يارسول الله ؟ قال : عبدالله ابن أبىّ ، قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينه أخرج الأعزُّ منها الأذلَّ . قال أسيد : فأنت يارسول الله والله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل ، وأنت العزيز ؛ ثم قال : ارفق به يارسول الله ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ، ليتوّجوه ؛ وإنه الآن لَيرى أنك قد استلبت منه ملكا ، ونزعت منه رياسة ؛ وهو أبداً من الحسد فى همّ ناصب ، وقلب حانق .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيره حتى انتهى إلى المدينة ، وما استقرّ فيها حتى نزل عليه : « إذا جَاءَكَ المُنَافِقون؛ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، واللهُ يَعْلمُ إنكَ لَرَسُولُه ، واللهُ يَشهدُ إن المُنَافِقِين لَكاذبُون؛ اتخَذُوا أيْمانَهم جُنَّةً فصَدّوا عن سبيلِ اللهِ إنّهم سَاءَ ما كانوا يعْمَلُون . ذلك بأنّهم آمنُوا ثم كفروا فَطُبِعَ عَلَى قلوبِهِم فَهُمْ لا يَفقَهُون ؛ وإذا رأيتَهُمْ

تعجبُكَ أجسامُهم وإنْ يقولوا تسْمَعْ لقولهم كأنّهم خُشُبٌ مُسَنَّدَة يحسَبون كلَّ صَيْحَة عليهم هُمُ العدُوّ فاحْذَرهُمْ قاتلهم اللهُ أنّى يؤفكون، وإذا قيل لهم تَعَالَوْا يستغفرْ لكم رسولُ اللهِ لوَّوْا رُءوسهم ورأيتهم يَصدّون وهم مستكبرون، سواء عليهم أستغفرْتَ لهم أمْ لم تستغفرْ لهم، لَنْ يَغفِرَ اللهُ لهُم، إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القومَ الفاسقين. هُمُ الذين يقولون لا تُنْفِقوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رسُولِ اللهِ حَتى يَنفضّوا، ولِلهِ خزائنُ السمٰواتِ وَالأرْضِ، وَلٰكنّ المنافقين لا يفقَهُون، يقولون لئِنْ رَجَعْنا إلى المدينة ليُخرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ ولِلهِ العزّةُ ولرسولِهِ وللمؤمنينَ ولٰكنّ المنافِقين لا يَعلَمُون».

فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين، ثم قرب إليه زيدا، وعرك أذنه، وقال له: «وَفَتْ أذنك يا غلام، إن الله قد صدقك وكذب المنافقين».

أما عبد الله فقد اعترضه ابنُه خارج المدينة ـ وكان مسلما خالص الإسلام ـ وقال له: وراءك! والله لا تدخلها حتى تشهدَ على نفسك بالذلة وبالعزة لله والرسول والمؤمنين؛ ولكن رسول الله قال له: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا، وأمره أن يُخَلِّيَ سبيله؛ علّه أن يتوب.

نبأ الفاسق *

غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى المُصْطَلِق، وقُتل فى الغزو مَنْ قتل منهم: ثم أصهر إليهم، وتركهم بعد ذلك مسلمين؛ ولما رجع إلى المدينة أرسل إليهم الوليد بن عقبة؛ ليأخذ الصدقات من أغنيائهم، فيردّها إلى فقرائهم؛ ولما سمعوا بقدومه تهيئوا لاستقباله، وخرجوا للاحتفاء به؛ وكان بين الوليد وبين بنى المصطلق إحنٌ قديمة؛ وغِلٌّ موروث؛ فحسب أنهم إنما خرجوا يريدون به شراً، ويبغون به كيدا؛ فرجع إلى رسول الله يزعم أن القومَ قد ارتدّوا عن الإسلام، وامتنعوا عن إيتاء الزكاة، وأنهم وقعوا فى الجلّى، والخطيئة العظمى.

فغضب الرسول، وغضب لغضبه المسلمون، ثم تهيّأ لغزوهم، وردهم على أعقابهم؛ ولكن الخبر سرى إلى بنى المصطلق، وهم برآء مما رماهم به الوليد، بعيدون عما وصل من أمرهم إلى الرسول؛ إذ مابرحوا مسلمين حقا، قائمين على قواعد الإسلام صدقا؛ ثم ألفوا وفدهم، فذهب إلى الرسول؛ فألفاه متهيئاً للغزو، متحفزاً للمسير.

قالوا: يارسول الله؛ سمعنا برسولك حين بعثته؛ فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدى إليه ماعندنا من الصدقة، فانشمر (1) راجعا؛ ثم بلغنا أنه زعم إليك

---

* القرآن الكريم ـ سورة الحجرات: آية ٧ ومابعدها.

(1) انشمر: جد فى الرجوع.

أنا خرجنا إليه لنقتله، وأنا ارتددنا عن الإسلام، وامتنعنا عن الزكاة؛ ولكننا ما كفرنا بالله منذ آمنا، ولا انسلخنا عن الإسلام منذ دخلنا فيه.

فوقف رسول الله بين خبر الوليد وخبرهم، لا يقضي بأمر، ولا يفصل بحكم، حتى نزل عليه: «يأيُّها الذين آمَنُوا إن جاءكُمْ فاسِقٌ بنَبَأٍ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجَهالة فتُصْبِحُوا على ما فعلْتُم نادِمينَ، واعْلَمُوا أنَّ فيكُمْ رسولَ اللهِ لو يُطِيعُكُم في كثير من الأمْر لعَنِتُّم[1] ولكنَّ الله حبّبَ إليكُمُ الإيمانَ وزَيّنَه في قلوبكم، وكَرّهَ إليكُم الكفرَ والفُسوقَ والعِصْيانَ. أولئك هُمُ الرّاشدون».

---

(١) لوقعتم في العنت وهو الجهد والهلاك.

الفتح *

الـــرؤيا

انتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه على طَبْع مرتاح ، وصدر مشروح ، وعزم نشيط ؛ ثم دعا إليه بِطَانته وصَحْبه ؛ فرأوه جميعاً بارق الأسارير ، طَلْق المحيَّا ، واضح البِشْر والسرور ؛ تُرى ماوراء هــذه النفس الراضية ، وما وراء ذلك الوَجْه المتهلِّل؟ لعل هناك خبرا بهيجاً ، أو نبأ عظيما .

وما اطمأنّ بهم المكان ، وامتلأت بهم رَحبة المسجد ، حتى أفضى إليهم برؤيا ضاءت لها نفوسهم ، واهتزَّتْ منها مَشَاعرهم ، وغرّدت خواطر آمالهم : « لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَـرَامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ؛ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ » . فاشحذوا عَزْمكم للسفر ، وخُذُوا أُهبتكم للرحيل ، ولتكن غايتكم العمرةَ والطواف ، ولا يفوتنكم أن تصحبوا البُدْن وتُشْعِروا الهدى ؛ تكريماً للبيت العتيق .

واعتلنت هذه الرؤيا فى كل مكان ، وتُنُوقِل ذِكْرها فى كل واد ؛ وإذا المسلمون يُقْبِل بعضهم على بعض مهنئين ، فرحين مستبشرين ؛ أليست هذه هى رؤيا الرسول ؟ وما رأى صلى الله عليه وسلم فى حياته رؤيا إلا

---

* القرآن الكريم ـ سورة الفتح .

جاءت مثل فَلَقِ الصُّبح وضوحا، ومثل الشمس المتألقة بيانا وظهورا...
أليس هذا خبرَه؟ وهم قد عهدوه صادقا إذا أخبر، غير ملبّس فى قوله إذا بلّغ؛ إذَنْ هم قد أصبحوا قَابَ قوْسين أو أدنى من بلدهم الكريم، ووطنهم الحبيب: مهوى الفؤاد، ومجمع الآصِرَة والأنداد؛ وإذن هم عما قريب سيشمّون هذه التربة، ويتنشقون عَبَق هذا الوطن العزيز، وهم أيضا فى رؤيا نبيهم الصادق الأمين، سيطوفون بالبيت؛ ويستلمون الركن، ويسعون بين الصفا والمروة، ويضعون أقدامهم حيث وضعها أبوهم إسماعيل وجدّهم إبراهيم. ومن يدرى؟ لعل الله بعد ذلك يرغم أنف قريش ويُذِلّ أبيّها، ويقهر حَميّها، وتظهر كلمة التوحيد بين مكة والمسجد الحرام.

وتنفّس الصباح من اليوم الثانى، وهبّت نسائمه حلوة عذبة، تُدَاعِبُ آمال قوم يسوقون بُدْنا تسيل بأعناقها البِطَاح، وظهرت تباشيره مشرقة لَمَّاعة، تبعث فى عزائمهم النشاط والارتياح: شَمْلهم جميع، وأمرهم حازم، وشعبهم ملتئم، لم يفرق لفيفهم هؤلاء الذين استنفرهم الرسول؛ فقالوا: «شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا». ولم يَصْدَعْ صَفاتهم هؤلاء الذين راحوا يغمزون الرسول ويشيعون قالة السوء بين الناس: أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا»؛ بل ساروا آمنين مطمئنين، يسوقهم الأمل ويدفعهم الإيمان، ويُحصّد عزائمهم اليقين.

ولكنهم ما بلغوا منتصف الطريق، حتى سمعوا بشْرا الخزاعى يتحدث

إلى الرسول: أى رسولَ الله؛ لقد دلفتُ - كما أمرتنى - إلى قريش، أتندَّس[١] أسرارها، وأتعرف أخبارها؛ وما راعنى إلا أن خبر مسيرك قد ترامى إليهم، وحديثَ رؤياك قد هبط عليهم؛ ولا أدرى كيف وقع عليهم الخبر، ولا كيف استنشوا حديثَ الرؤيا؟

هِيهِ يابشر! وبماذا قابلوا هذا الخبر، وماذا أعدوا للقاء؟ قال بشر: إنهم يارسول الله قد خرجوا ومعهم العُوذُ[٢] المطافيل، ولبسوا جلود النمور، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخل عليهم مكة أبداً؛ وهذا خالد بن الوليد، وهو من يعدونه بُهمَتَهُم[٣]، وفارسَ حَلْبتهم، قد خرج يستقبلك بخيله، ولعله الآن فى كَراع الغَميم[٤].

فأرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم زفرة من قرارة نفسه، ثم قال: «يَاوَيْحَ قُرَيْشٍ! قَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ؛ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِى وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِى كَانَ ذَلِكَ الَّذِى أَرَادُوا؛ وَإِنْ أَظْهَرَنِى اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِى الإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ.. فَمَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟ وَاللهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى هٰذَا الَّذِى بَعَثَنِى اللهُ بِهِ، حَتَّى يُظْهِرَنِى اللهُ أَوْ تَنْفَرِدَ عَنِّى هٰذِهِ السَّالِفَةُ[٥]؛ وَمَاذَا يُرِيدُ خَالِدٌ؟ نَحْنُ مَا خَرَجْنَا

---

(١) أتندس: أتسقط الأسرار.
(٢) العوذ المطافيل: النياق معها أولادها.
(٣) البهمة: الشجاع الذى لا يهتدى من أين أتى.
(٤) كراع الغميم: موضع على ثلاثة أميال من عسفان.
(٥) السالفة. صفحة العنق، وانفرادها كناية عن القتل.

مقاتلين ولا محاربين ، بل خرجنا مسالمين موادعين ؛ وماذاك يوم اشتباك القَنَا ، ولا تقابل الأقران ؛ من يخرج بنا إلى طريق غير طريقهم ، ويدفع بنا إلى مكان بعيد عن عيونهم وطلائعهم ؟

فتقدم رجل[1] من أسلم - وكان بصيراً بالطرق ، مستدقاتها ومنعرجاتها ، عليما بمنحنياتها وليّاتها - ثم أمسك بخِطام القَصْواء[2] ؛ وأحزن بها فى مكان وعر ، وطريق صعب ؛ ومازال بالقوم يجهدهم ويضنيهم حتى أفضى بها وبهم إلى طريق سهل فسيح .

وساروا وبين جوانحهم قلوب ترصد آمالا ، وفى رءوسهم عيون تَشِيم رجاء ، والرسول يحيي هذا الأمل ، ويضاعف هذا الرجاء ؛ ولكنهم فجأة لمحوا أن ناقة الرسول امتنعت عن السير ، ووقفت فى عرض الطريق .

عجبا ! لماذا وقفت الناقة ؟ أشىءٌ ثنى الرسول عن عزمه ، أم أوحى إليه بأن يغير وجهه ؟ لا ؛ ولكن هو ذا الرسول يدفع الناقة للقيام فلا تقوم ، ويستنهضها للسير فتمتنع ؛ إذن ، فقد خلأت[3] القصواء ! ومَا أسرع ما انتشرت هذه القالة ، واضطربت الألسنة ، حتى دارت بين القوم ، ثم علمها رسول الله فقال : « وَاللهِ مَا خَلَأَتْ وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُق ؛ وإنها لذلول مِطواع ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ » ، وإن وراء ذلك لشيئا ، وإن فى وقوفها لسرًّا ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُنِى قُرَيْشٌ خطَّةً يُعَظِّمُونَ

(١) هو ناجية بن جندب الأسلمى

(٢) القصواء : ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٣) خلأت : امتنعت عن المسير .

فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا » . وأدرك رسول الله أنه مصروف عن السير ، موحًى إليه بالتريّث والتلبّث ، فأمر القوم أن يتربّصوا مكانا فسيحا ، ويلتمسوا مناخا رحيباً ، فكانت الحديبية ، وفيها أناخوا جمالهم ، ونصبوا خيامهم ، وأقاموا الصّوى والأعلام .

* * *

رجل يُلمح فى الظلام ، ويضرب برجليه فى الطريق !

انتظروا قليلا فإنه قادم إلينا ، وأغلب الظن أنه يقصدنا .

هذا بديل بن ورقاء الخزاعى ؛ لا بأس بقدومه ؛ إنه من خُزاعة ، وهى من عَلِمْناها صدقاً وولاء ، وإخلاصا ووفاء ؛ إن كان قادما من مكة فإنه سيصدقنا الخبر ، ويَقْبِسُنا أمر قريش .

ولما توسّط بديل جمعهم ، تهافتوا على حديثه من كل ناحية ، وسقطت عليه الأسئلة من كل جانب : من أين ؟ وإلى أين يا بديل ؟ هل من مُغَربةِ خَبَرٍ (١) ؟ إن كنتَ قادماً من مكة فما حالُ قريش ؟ وكيف استعدادها للقاء ؟ وما شأن خالد خرج ثم عاد ؟

قال بديل : كفوا عن تساؤلكم ، وخفّضوا من لجاجكم ؛ لستُ مجيبا عن سؤال ، ولا مطارحا بكلام ، حتى ينتهى مقامى عند محمد ؛ ثم أخذ سَمْتَه إلى خيمة الرسول ، وجلس إليه ينفض خبره ، ويفتح بين يديه عَيْبة سره .

قال : يا محمد ، لقد جئتك هذه الساعة ، وقريش لا تعلم من أمرى شيئا ،

---

(١) أى هل من خبر أتيت به من بعيد .

ولكنى سمعتُ قولا خشيت عليك من عاقبته، ورأيت شرا وَدِدْتُ عنك دفعه؛ لقد غدوت بالأمس - كدأبى - على قريش فى متحدَّثهم، فوجدتهم جلوسا، يخوضون فى حديثك ويعيدون؛ حديث كله غيظ وسخط، وكله حَنَق وحقد؛ وإن أنوفهم لَتَرْمَعُ [1]، وإن قلوبهم لتكاد تتمزّع؛ أن علموا أنك مقبل وصحبك إلى مكة تطأ حصاها، وتجوز حماها.

وانتهى بهم الحديث أن أخذوا للحرب عُدّتهم، وشدّوا أوتارهم، ورَاشُوا سهامهم، وأقسموا جَهْدَ أيمانهم؛ ألا تدخل عليهم مكة أبدا؛ ثم أشْهَدوا على أنفسهم اللات والعزى، وهُبَلهم الأعلى.

وقد خشيت عليك أن تؤخذ منهم على غِرّة، أو ينالوك على غفلة؛ فخذ لنفسك ولقومك ما تريد.

قال الرسول: إننا يا بديل ما جئنا نتحرَّف [2] لقتال، أو نقصد إلى حرب؛ ولكننا جئنا للبيت زائرين، ولحرماته معظمين؛ وها أنت ذا ترى السيوف فى أغمادها، والبُدْن مُشعرة، والقوم معتمرين؛ إن شئتَ يا بديل فاحمل إليهم نبأنا، وأفصح لهم عن وجوه مقاصدنا؛ لعل الله يحقن بك الدماء، ويذيب ضغائن الصدور.

وعاد بديل إلى مكة، فوجد القوم قد عادوا إلى متحدَّثهم، يخوضون فى حديث محمد ويعيدون: هم أقسموا أن يصدّوا محمدا؛ ولكنهم ودّوا لو عاد من غير قتال، وهم أخذوا للحرب عُدّتهم؛ ولكنهم تمنّوا لو كُفُوا

(١) ترمع: تتحرك من الغضب.

(٢) نتحرف: المراد نستعد.

جهد الحرب والكفاح؛ فهم لذلك اجتمعوا ثانية يُجِيلُون قِداح الرأى، ويُصَرِّفُون طرق الخلاص؛ وماعلموا أن بديلا قد وفد على محمد وجاء، حتى هُرعوا إلى لقائه، والاستماع لما عنده.

تعال يابديل، هات ماعندك من حديث محمد؛ أرأيت أن محمدا يريد أن يغزونا فى دارنا، ويَغُضّ من عزتنا؟ ألم يكفه ما كان من قتل صناديدنا، وذوى الرأى فينا؟ إن ذكريات عتبة وشيبة وحنظلة وابن هشام لاتزال أمامنا، وإن دموع الباكيات على ابن وُدّ لاتزال تجرى سخينة حارة؛ وهاهو ذا يجىء اليوم ليعيدها جَذَعة، ويقيمها حربا ضَرُوسا؛ فما عندك؟ وماترى؟

قال بديل: إنكمُ تبعدون فى الوهم، وتُسرفون فى الظن؛ لقد جئت محمدا، وعرفت رَضْخا [1] من خبره، ومُجْمَلا من قصده؛ ثم إنى حمّلت قولا ورأيت شيئا؛ فإن شئتم بلغتكم ماحملت، وبصرتكم بما رأيت.

قالوا: هات ماعندك، وإن لنا وراء قولك قولا، وبعد حديثك رأيا.

قال بديل: لقد جئت محمدا واستنبأته عن رأيه، وتحدث إلىّ عن عزمه ونيّته؛ إنه لايريد بكم حربا، ولا يبغى عليكم عدوانا؛ وإنما جاء معتمرا، وللبيت طائفا ومعظما، ولقد أفضى إلىّ برأى ارتاح إليه طبعى، ووافق هوى عندى، وفيه - لو حفظتموه - صلاح ذات البين، وإطفاء لِوَقْدة الأحقاد، وسلٌّ لسخائم النفوس: أن تخلوا طريقه للبيت يطوف ويعود، ثم تهادنوه

(١) الرضخ: خبر غير موثق به صاحبه.

ويهادنكم، وتتركوا شأنه مع العرب: يظهر عليهم أو يظهرون عليه؛ وأنتم بعد ذلك بالخيار: تدخلون فيما يدخل فيه الناس، أو تكونون بنَجْوة عن قتاله، وعافية من معاداته؛ وإنى لكم فيما أقول لمخلص السريرة، أمين المغيَّب.

فقالوا إذ سمعوا رأى بديل: هذا رأى فائل، ومذهب خادع فاسد، إن بديلا يريد أن يوطئنا العَشْوة[1]، ويشبِّه علينا وجوه الرشد، ويلبِّس صور السَّدَاد، تنصحنا يابديل أن نغمد سيوفنا، ونطأطئ رءوسنا، وندع السبيل إلى محمد يدخل مكة، ونحن صاغرون أذلة؟ إن فى نصحك لِريقَ الحية وسمّ الأساود!!! ألست من خُزاعة وشأنك مع محمد اليوم معروف، وشأن آبائك مع آبائه مشهور؟ ليخرسْ لسانك، وإياك أن تخوض بعدها فى هذا الحديث.

قال بديل: شأنكم وما تفعلون، وغداً تعلمون.

واتجهت عيون القوم إلى أبى سفيان، زعيمِ ندوتهم، وقائد جماعتهم؛ يعلمون رأيه، ويتعرفون ماعنده.

قال أبو سفيان: هذا الحليس بن علقمة، سيد الأحابيش[2] حاضر جمعنا، وهو حليفنا، وعليه حق جوارنا، وفوق ذلك فإن له رأيا يمزق ظلمات الإشكال، ويطبقُ مَفَاصل الصواب[1]؛ ليذهبْ إلى محمد رسولا أمينا، ومبلّغا كريما؛ لعله يصده عن عزمه، ويحوّله عن قصده، ولننظر بعد ذلك ما يكون.

---

(١) أوطأه العشوة: حمله على أمر غير رشيد.

(٢) الأحابيش: قوم تحالفوا بينهم على غيرهم مارسا حبشى (جبل).

ورأى الرسول الحليس مقبلا من بعيد ، فقال : هذا الحليس مقبلا ، يظهر أن قريشا قد أرسلته سفيراً ، وهو من قوم يتألهون[1] ؛ فابعثوا الهَدْى فى وجهه حتى يراه ؛ وماراع الحليس إلا الإبل تسيل من عرض الوادى مُشْعَرة[2] ، قد أكلت أوبارها من طول ما حبست . فما استطاع أن يتحدث حتى عاد إلى قريش مَغِيظا ، يقول : أيها القوم ؛ بئس والله ماطاش سهمكم ، وفال رأيكم ؛ أتصدون عن البيت قوما أَتَوْا مُعْتَمِرين ، وله معظمين ؟ أتحج إلى البيت جُذَام وحمير ، ويُمنع عن البيت ابن عبد المطلب وله فيكم شرف ينطح النجوم ، ولأجداده عز يعلو أجنحة النسور ؟ هلكت قريش ورب الكعبة ، إن القوم أَتَوْا معتمرين ؛ والله ما على البَغْى عاهدناكم ، ولا على العدوان حالفناكم ؛ لئن صددتم محمداً عن البيت لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

قالوا : مهلا يابن علقمة ، وأنظِرْنا نصنع لأمرنا .

* * *

وعلا وجوهَ القوم وجومٌ ، وغشيتهم حيرة وسكون ، ثم أخذوا يديرون حديثا ، فيه مرارة وألم ، وفيه حزن وامتعاض .

ذاك محمد واقف على ثنيّات مكة ، ويوشك أن يدخلها ؛ حقا لقد تعاهدنا على الحرب ، وشحذنا عزائمنا للدفاع ؛ ولكن ما غناء الحرب ؟ وما فائدة الدفاع ؟

---

(١) التأله : التعبد والتنسك

(٢) أشعر الناقة : شق جلدها حتى يظهر الدم ، ليعرف أنها هدى للبيت .

إن محمدا يقدم علينا اليوم فى قوم حاربناهم وجالدناهم ، واشتبكت القنا فيما بيننا وبينهم ؛ فوجدنا فيهم صبرا على القتال ، وجَلَدا على الاستبسال ، مافيهم إلا ابنُ كريهة ، ومانعُ حريم؛ لقد اخْتَرَمَت المنية أبطالنا، وطوَّحَتْ الحرب بفتياننا .

ولقد لقيناهم يوم بدر ؛ فكان يوما منحوسا أغبر ! وحسبنا أننا هزمناهم يوم أحد ، وخضدنا منهم الشوكة ؛ ولكن ماأسرع ماأندملت القروح ، والْتَأَمت الصفوف ، وعادوا يوم الخندق أشد مايكونونَ منَعة ، وأعظم ماأوتوا نصرا !

وهاهم أولاء يعودون اليوم طالبين بعد أن كانوا مطلوبين ، ومهاجمين بعد أن كانوا مدافعين ! إننا لو دفعناهم فأكبرُ الظن أن الدائرة علينا ، والهزيمة تأخذ سبيلها إلينا ؛ وإن خليناهم يدخلون البيت فإنما هو عار نَعْصب به رءوسنا ، ومَسَبَّة نخدش بها وجوه أحسابنا ، لايكون لنا شأن بعدَها . إنه لرأى مضطرب ، وحيرة جائلة ، وأمر لاندرى أشرٌّ آخره أم أوّله ؟

ورآهم نعيم بن مسعود يضطربون فى حيرتهم ويصطرعون فى أمرهم؛ فأراد أن يُدْلِيَ برأى، ويصدع بمقول؛ قال: أى قريش؛ لقد علمتمونى من أشرف العرب نسباً ، وأبعدهم محتداً ، وأكرمهم أرُومَةً ونِجَادا ، ولى فى ثقيف رياسة ، وفى الطائف مُلك، ثم إنى ــ وإن كنت بعيداً فى الوطن عنكم ــ من صميمكم، وأجرى على عرق فى أنسابكم ؛ وقد استبطنت سرادكم ، وتعرفت دخائلكم ، وفطنت إلى أموركم ؛ ولقد جربتمونى من

قبل فما اتهمتمونى فى نصيحة ، ولا تعلّقتم على بِكَذْبة ؛ وتذكرون أنى استنفرت لكم أهل عكاظ من قبل ، فلما بَلَحُوا [1] علىّ ، جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ؛ وإن لى عليكم لمشورة ورأياً ، وعندى لكم نصحاً وبيانا : دعونى أذهب إليه سفيرا عنكم ، ورسولا منكم ، أنافثه [2] وأناقله ، وأجادله وأصاوله ؛ فإن جئت إليكم من عنده بخطة فاقبلوا ، واعلموا أنى سأرمى عن قوسكم ، وأصدر عن رأيكم ، وأرجو أن أكون موفقا مجدوداً .

فقالوا : إننا ياأخا ثقيف مااغتمزنا فيك رأيا ، ولا عهدنا عليك كذبا : فاذهب حافظاً للأمانة ، مُفَوّضا فيما ترى .

وجاء مسعود إلى الرسول ؛ فوجده فى هَالَةٍ من صحبه ، أجلسوه على عرش من قلوبهم ، وحاطوه بسياج من نفوسهم ؛ مايأمر بأمر إلا ابتدروا إليه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم ، وإذا نظر غضّوا من أطرافهم ؛ وقد قرَتْ مهابته فى الصدور ، وارتفعت منزلته فى العيون ؛ فتلجلج فى مشيته ، وتردّد فى رسالته ؛ ولكنه جمع نفسه ، واسترد عازب حلمه ، وشق الصفوف ، حتى انتهى إلى الرسول ، ثم قال : يامحمد ؛ ماهذا الذى جمعت إليه جمعك ، وحشدت إليه جندك ؟ أراك قد جمعت أوشاب الناس ، وزُمَر لقبائل ، ثم غدوت بهم على قومك من قريش ؛ تحاول أن تذلهم ، وتنتهك حرمتهم . إنها والله لقريش ، قد علم الناس صِدْقَها عند اللقاء ، وصبرها على اللأواء ، وكفاحها فى البأساء ؛ هم مَسَاعِرُ حَرْب ، وأحلاس خيول ؛ ولقد ترامى إليهم أنك جئت غازيا ديارهم ، قاصدا الكيد بهم ؛ ألا فلتعلم

(١) بلحوا : أبوا (٢) المنافثة والمناقلة : المناقشة .

أنهم عاهدوا الآلهة ألا تدخلها عليهم أبداً . وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ، وبقيتَ وحدك ؛ فلا أنت تحوّطت لنفسك ، ولا احتفظتَ بقومك ؛ فتدَبَّرْ أى شر أنت قادم عليه ، وأى أمر أنت مُتَصَدٍّ له !

قال له الرسول : لقد تحدَّثتُ إلى بديل ، وتحدثتُ إلى الحليس : إنى ماجئت أبغى حربا ، أو أريد قتالا ؛ وإنما جئنا معتمرين ، وللبيت الحرام طائفين ومعظمين ؛ فإن شاءوا خلوا لنا الطريق ، وإلا فإن لنا معهم شأنا ، نترقب فيه أمر الله .

وعاد مسعود إلى قريش لم يلق نجاحا ، ولم يصادف فلاحا ؛ فاستشرفوا لحديثه ، وتطلَّعوا إلى نهاية سفارته ، كما استشرفوا من قبله لبديل ، وكما استشرفوا للحليس ؛ ولكنهم كانوا لمسعود أكثر اطمئنانا ، وأشد استئناساً ، وأطول آمالا ، وقالوا : هاتِ ماعندك يامسعود ؛ فلعلك جئت بما يحقن الدماء ، ويحفظ الذماء ، ويحمى البيت ، ويحفظ لقريش مقامها بين العرب .

قال مسعود : اسمعوا ياقوم ؛ والله لقد وفدتُ على الملوك : وفدت على قيصر فى ملكه ، وعلى كسرى فى عزه ، وعلى النجاشى فى عرشه ؛ فوالله مارأيت رجلا يعظمه قومه كما يعظم محمدا قومه ؛ وقد ألقوا إليه بمقاليدهم ، وأمكنوه من قيادهم ؛ وإنهم لايرجعون له قولا ، ولا يردّون عليه رأيا ؛ فروّوا رأيكم ، واقتدحوا زناد عقولكم ، والأمر نهايته بين أيديكم .

فقالوا وقد أدركتهم الحميّة : إن قريشا جسر لا يُعبر ، وكنفٌ لا يوطأ ، وعقبة لا ترتقى ؛ ودون مايبغى محمد شيبُ الغراب ، ومخّ النعام .

الصلح

قالت قريش: يظهر أن محمدا صادقُ العزم، ماضى العزيمة؛ وهؤلاء السفراء لم يستطيعوا أن يُحيلوه عن قَصْده، أو يصرفوه عن عزمه، أو يخذِّلوه فى رأيه ... فقم يابن مُكْرَز بما عهدناه فيك من شجاعة وحزم، وما بلوناه فيك من قوّة وبأس، واختر لنفسك نفراً ممن تراه ثَبْتَ الجَنَان، صادق اللقاء، رابط الجأش، وطُفْ بعسكر محمد: فلعلك تُكَسِّر سهامهم، وتلقى الرعبَ فى صدورهم؛ فينكثوا ما أَمَرُّوا[1]، وينقضوا ماغَزَلوا...

وفى ساعة من الليل، والظلامُ قد ضرب الرِّواق وشدَّ الأطناب، أخذ حفص بن مُكْرَز يطوف بعسكر المسلمين؛ ولكنه ذعر فجأة، ثم التفت إلى من معه قائلا: قفوا يارفاق! من هذا الذى يخفر أصحاب محمد؟ تبيّنوه معى، كأنى به محمد بن مسلمة! إنه هو، أعرفه والله بقامته وسِمَته، وبشَيِّته وعلاماته، وبحذَرِه ويقظته ... احذروه، فوالله ما هو إلا ليث غابة، ومسْعر حروب، إنه لكالذئب ينام بإحدى مقلتيه، وكالأسد الخادر[2] إذا كشر عن نابه؛ فإن فَتْكه لا يصدّ، وعزمه لا يردّ...!

وماعلموه ابن مسلمة حتى نَخِبتْ[3] قلوبهم، ومشت الرِّعْدَةُ فى مفاصلهم، وجبن الجرىء، وخار عود الشجاع؛ وأرهف ابن مسلمة أذنه، فإذا

---

(١) أمرّ الحبل: شدّ فتله (٢) الأسد الخادر: المستكن

(٣) نخب قلبه: كأنما نزع.

همس كلام ، ووقع أقدام؛ مَن يكون هؤلاء غير قريش: إذن هم قد أبدَوا نَاجِذَى الشر ، وصرَّحوا بالعدوان ، وإذن هم يريدون حربا ، ويبغون كيدا ... أيها القوم : سُلُّوا السيوف من أغمادها ، وابعثوا العزائم من رُقَادها ؛ نهذه قريش قد برزت بطلائعها ؛ ونَشَر العزائم ، وأحمس النفوس ، وما هى إلا جَوْلة ونِزَال ساعة ، حتى وقع القومُ أسرى فى يد المسلمين .

ولكنه صلى الله عليه وسلم ما جاء يُذْكى ضِرَام حرب ؛ أو يثير نوازى شر ؛ وإنما جاء معتمرا ، وللبيت مُطَوِّفا ومعظما ، فما له ولِلأَسرى ؟ وماله وللقتال ؟ أطلقوا سراح هؤلاء الأسرى ، وفُكّوا أصْفادهم ، ودعوهم يرجعوا إلى أوطانهم ؛ فلعلهم يطمئنون إلى وجهنا ، ويؤمنون بغايتنا ؛ واذهب أنت ياخِراش[1] بعد فى إثر القوم ، وتعرّف ما بنفس قريش بعد أن أطلقنا أسراهم ، وتجاوزنا عن مساءتهم .

وذهب خراش ورجع ، فقال : يارسول الله ، إن قريشا ما زالت على مَكْرها وحنقها ، وما زالت الحفيظةُ تملأُ قلوب عاتها ؛ إنهم أذلوا وفادتى ، وعقروا ناقتى ، ولولا الأحابيش لأطَلّوا دمى[2] .

وسمع هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفطرق ، ولكنه لم يتعكر صفوُ حلمه ، ولم تستَتَرْ قَطَاةُ حكمته ، بل قال : سنصابر القوم بالحلم ،

(١) هو خراش بن أمية الخزاعى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة وحمله على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له فعقروا الجمل ، ولولا الأحابيش لقتلوه (٢) سفكوا دمى .

ونعالجهم بالصفح ؛ فلعلنا بهذا نستل سخائم صدورهم ؛ وننزعُ الغِلّ من قلوبهم ؛ وربما كان قد هان عليهم أمر خراش ، واستخفوا بالسفير من خُزاعة ؛ فقم يا بنَ الخطاب ؛ فإن فيك رأياً وعقلا ، ولك فى قريش منزلة ومقاماً ، اذهب إليهم ونَاضِلْ عن قصدنا ، واشرح ما غُمّ عليهم من أمرنا ، وما لُبّس من مسألتنا .

قال عمر : أى رسول الله ؛ سمعاً لقولك ، وطاعةً لأمرك ؛ ولكننى أخاف هؤلاء القوم على نفسى ، ولا آمنهم على حياتى ، وليس فيهم إلا من يضمرُ لى حسيكة (١) ، أو يخفى ضِغناً وغِلا ؛ وقد نَزح عن مكة من كان يشدّ ظهرى من بنى عدى (٢) ؛ فليس من يحمينى ، أو يدفع الشرّ عنى ؛ ولكن هذا عثمان بن عفان ، لايزال له فى مكة من أمية رَحِم ، ولا يعدم أن يصادف عندهم حامياً ؛ فهناك معاوية وأبو سفيان ، وهناك عقبة وأبان (٣) ، وحَسْبُه منهم حُمَاة .

* * *

وسمع أبان بن سعيد طارقاً يقرع الباب ؛ فخرج فإذا هو عثمان بن عفان ، قال : مرحباً بك يا بنَ عمى ، كيف جئت فى هذه الساعة وخلّفت صاحبك محمداً !

قال : لقد قدمت سفيراً عنه ، ورسولا من عنده إلى قريش ، أبيّنُ لهم ماخفى عليهم من أمره ، وأكشف القناعَ عن قصده ؛ فلعل الأفهام

(١) الحسيكة : الحقد والعداوة (٢) قوم عمر
(٣) أبان بن سعيد بن العاص .

تتقارب ، والأرواح تتعارف ؛ ولكننى أخاف على نفسى الإيذاء ، وأتوقَّعُ من قريش المكروه ؛ فاقبَلْنى فى جِوَارك ، وأدخلنى فى حِمَاك ، بما بيننا من عصَب مشتبك ، ورحِم ماسة .

فغَدَا به أبان على الرؤساء من قريش ، وقال : هـذا ابن عمى عثمان ابن عفان ، ورسول محمد ؛ يحمل رسالته ، ويريد أن يلقى إليكم كلمته ، ثم هو فى جوارى وحماى . فقبلوا جِوَاره ولكن على مضض ، واحتملوا ظله ولكن على كُرْه ؛ ثم قالوا : أما أن يدخل محمدٌ مكة ويطوف بالبيت فدون ذلك عِزَّة تملأ نفوسنا ، ونخوة تدوِّى فى جوانحنا ؛ ولكنك إن أردت أنت الطواف فدونك وما تريد .

فتأذَّن (١) عثمان ألا تطأ قدماه البيت مادام محمدٌ رسول الله ممنوعاً ، وما دام المسلمون يُحال بينهم وبين ما يشتهون ؛ وانطلق إلى المستضعفين من المسلمين الذين مُنِعوا الهجرة ، وهَمَس فى آذانهم : إن يوم الفتح قريب ، وساعةَ الخلاص آتية ؛ وبلغ قريشاً قولُ عثمان ؛ فخافوا الفتنة وحبسوه .

٭٭٭

وبينما رسول الله يرقب بريدَ النجاح ، ويشيم مخايل الرجاء ، جاءه نبأ أن عثمان قد قتل ! واستطار هذا الخبر فى المسلمين ، وتُسُومع فى خيامهم ؛ فذُهلوا ووجموا ، ثم ساروا وسخطوا ، ثم شمَّروا عن سواعدهم للقتال واستعدوا ؛ أما رسول الله فقد وقفت آمالُه من السلم على شفا اليأس ، وكادت تَقَطَّع أمام

(١) تأذن : أقسم .

عيليه خيوط الرجاء، وأعلن للمسلمين أن لا بَرَاحَ من مكانه، حتى يناجز القوم الحرب؛ وجلس إلى شجرة ينظر ما يكون من عزم المسلمين.

جاءه أبو سنان الأسدى، وقال: امدد يديك أبايعك يارسول الله؛ قال: علام تبايعنى يا أبا سنان؟ قال: على ما فى نفسك يارسول الله؛ من تَفْدِيَةٍ للنفس، وبذلٍ للرُّوح، وما شئت من صَبْر واستبسال، وجِلَاد وكفاح... وتابع المسلمون أباسنان، ورضى الله عنهم، وعلم ما فى قلوبهم، وأنزل السكينة عليهم، ووعدهم فتحا قريبا.

✡ ✡ ✡

المسلمون قد استعدوا للقتال، وشَهَروا سيوفَهم للحرب؛ وإنهم لكذلك إذ رأوا رجلا يقدم نفراً... مَن هذا الرجل؟ ثم أخذوا يديرون فيه الطَّرْف، ويتعرفون الشَّخْص؛ وصاح أحدهم قائلا: أنا أعرف الأرنب وأُذُنَيْهَا[1]: ذاكم سهيل بن عمرو؛ وانطلق يعدو إلى رسول الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كان سهيل بن عمرو حقا فقد أراد القوم الصلح؛ فإنى أعرفه كيّسا حصيفا، فَطِنًا لبيبا.

وصدق حَدْس الرجل فى سهيل، وصدق رأى رسول الله فى نية القوم؛ فقد قال سهيل، وقد جلس إلى الرسول: يا محمد: إنه قد بلغنا خبر البيعة، جُملتها وتَفاريقها، وإن قريشاً قد اسْتَوْبلوا[2] عاقبة أمرهم، وندموا

(١) أنا أعرف الأرنب وأذنيها: مثل يضرب فى معرفة الشىء.

(٢) استوبل الشىء: لم يوافقه.

على ماوقع بأيدى أشرارهم ؛ وعثمان لم يُقتَل ، ولكنه حبس ، وما حبس إلا عن حلم طائش ، ورأى فائل .

وقد جئت رسولا من قريش ؛ رسول موادعة وسلام ، وصُلْح ووئام ؛ علَّنا نُضيّق مسافة الخلاف ، ونُسكّن فَوْرَة النفوس ؛ وعثمان بعد ذلك بين يديك .

ورسولُ الله مابرح يبغى السلام ، ويريد الوئام ، ويتجنّب مافيه إراقة الدماء ، ويجيبُ إلى كل مايعظِّمُ حرماتِ البيت الحرام ... ألم يرسل لهم بديلا وخِراشاً وعثمان فى سبيل هذا الصلح ؟ ألم يحدث نُعيما بما لا يَدَع فى نفس متردّد خيطاً من الشك ، أو يترك فى الأفق غيمة من الريب ؟ وما دامت قريش قد ثابت إلى رُشْدها ، واستفاقت من سَوْرَةِ حُمْقها ، ومدّت يدها للصلح ، وأرسلت رسولها للسلام ، فتعالَ يا سهيل ننتبذ مكانا نتحدث فيه عن شأن هذا النزاع .

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهيلا ساعة يَتَنَاثّان (١) الحديث ، ويتنافثان الكلام ؛ ثم طلعا على القوم بما انتهيا إليه : أن يرجع المسلمون بغير عُمْرة هذا العام ، فإذا كان العام المقبل ، جاء النبي وأصحابه إلى مكة ، وقد خَلَتْها قريش ؛ فيقيمون فيها ثلاثاً يعتمرون وليس معهم من السلاح إلا السيوف فى القُرُب (٢) ، وأن تضع الحرب بين الفريقين أوْزَارها عشر سنين ؛ ومن جاء إلى المسلمين من قريش يُردُّ عليهم ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لايلزمون ردّه ؛ ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد دخل فيه .

---

(١) نث الخبر : أفشاه (٢) القرب : جمع قراب : مايوضع فيه السيف .

وما علم المسلمون بهذا العهد ، حتى حَصِرَت صدورهم [١] ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : إذن فلسنا بمعتمرين هذا العام ؟ وإذن فقد نَفَذ سهم قريش فى حلوقنا ، وارتفعت كلمتهم فوق كلمتنا ، وبلغوا منا مايريدون ؛ كيف نردّ من جاءنا مسلما ، ومن جاءهم منا مرتداً تركناه ؟! إن هذا الأمر يضطرب فيه رأينا ، ويَتِيه فيه رُشْدنا .

أما عمر ، فقد نبض نابض الغضب فى قلبه ، وغلا مرجل الغيظ فى صدره ، ولم يلبث أن وقف على أبى بكر . وقال : نشدْتُك الله يا أبا بكر ! أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى ، قال : فعلام نعطى الدَّنيَّة فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : ياعمر ؛ الْزَمْ غَرْزَه [٢] ؛ فإنى أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ؛ ولكنى أشهدك أيضاً أنى منذ الساعة التى رأيتنى فيها مسلما بدار ابن الأرقم ، ما شككتُ إلا الساعة ، ولا اضطربَتْ فى قلبي العقيدة إلا الآن ؛ وقد تخالجنى الريب ، وأخذت تدِبّ فى صدرى عقارب الظنون .

قال أبو بكر : لادواء لما قام بنفسك ، ولا مُهَدِّئ لفورة غضبك ، إلا أن تبسط خوالج نفسك بين يدى رسول الله ؛ فدونك كلِّمه ؛ وما بينك وبينه حجاب .

وعمر بن الخطاب طبَعَه الله سليمَ الفطرة ، طاهر السريرة ، نقى الضمير ؛ لا يُبالى أن يجهرَ بما يعتقده ، وأن يعلن الرأى الذى يراه ؛ لا يخشى فى

---

(١) ضاقت . (٢) الزم غرزه : أى أمره ونهيه .

الحق لَوْمَة لائم ؛ وإن خالف ـ فيما يظنه الحقّ ـ رسولَ الله ؛ وبهذه النفس الكريمة الصافية ، وبذلك الإيمان الصادق المتين ، حادث رسول الله ، وقال : ألستَ برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ، قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعَلَامَ نُعْطى الدَّنِيَّةَ فى ديننا ؟ قال رسول الله : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالفَ أمره ، ولن يُضيِّعَنى .

قال عمر : أولستَ كنتَ تحدِّثُنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فإنك آتيه ومُطَّوِّفٌ به ؛ فوجدتْ هذه الكلمات سبيلا إلى وَقْدة غيظه فسكَّنَتْها ، وإلى خوالج الشك من نفسه فانتزعتها .

وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهيلا ، ودعَوَا عَلِيًّا ليكتب العهد ؛ فأصلح لِيقَة دَوَاته ، وأعدّ قلمه ، وتهيأ للكتاب ... اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، قال سهيل : هذه فاتحةٌ لا أعرفها ، وعبارة لا أستريح إليها ؛ ولكن ليكتب : « باسمك اللهم » ، فكتب علىّ ، ثم رفع القلم يستوحى عبارة العهد من رسول الله ، فقال : اكتب ، هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فأمسك سُهيل بقلم علىّ ، وقال : لا تفعل ، ثم التفت إلى رسول الله ، وقال : لو شهدتُ أنك رسول الله ماقاتلتك ، ولكن اكتب اسمَك واسمَ أبيك .

فقال رسول الله : اكتب « هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويَكُفّ بعضهم عن بعض ؛ على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأنه بيننا

عيبة مكفوفة [1]، وأنه لا إسلال ولا إغلال [2]، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن محمدا يرجع عامه هذا فلا يدخل مكة؛ فإذا كان عام قابل خرجت منها قريش ودخلها بأصحابه، فأقام بها ثلاثا معه سلاح الراكب، السيوف فى القُرُب».

وفرغ علىّ من الكتاب، وشهد عليه رجال من الفريقين، وقرأه المسلمون؛ وكأنهم دُفعوا به إلى أمر عظيم ليس لأحد منهم فيه يَدان.

وبينماهم فى تلك الحيرة إذ بصروا برجل مُنْفَلِت إليهم يرسُف فى الحديد، ويئنّ تحت أغلال القيود... لم يكن هذا الرجل إلا أبا جندل بن سهيل جاء صارخا فَزِعا، مستجيرا بالرسول مستنصرا، وقال: يارسول الله؛ لقد وصَلَتْ إلىّ دعوتك فأسلمت، وبلغنى قرآنك فآمنت؛ ولكن ماعرفتْ قريش أنى صَبَأتُ عن دينهم، ومرَقت عن آلهتهم، حتى أوسعونى كيدا وتعذيبا، وزادونى رَهَقا وتنكيلا؛ وكم حاولت أن أهاجر إليك، فسدّوا فى وجهى المسالك؛ وكم حاولت أن أرحل عن مَكَّتِهم؛ فحالوا بينى وبين ماأريد، حتى خفت أن أُفتن فى دينى، وأوذى فى نفسى؛ وأنت ترانى الآن مقيدا مغلولا، فخذنى إليك مهاجرا مسلما، مجاهدا فى سبيل الله مقاتلا.

ورأى سهيل ابنه، وسمع قوله؛ فسهم ووجم، ولكنه قال: يامحمد؛ لقد انتهينا من العقد قبل أن يأتيك هذا، وإذن فليس هناك مايحول دون

(١) عيبة مكفوفة: أى صدور منطوية على مافيها لاتبدى عداوة.
(٢) الإسلال: السرقة والخلسة. والإغلال: الخيانة

أن أردّه إلى مكة ؛ راضيا أو ساخطا ، طائعاً أو مكرها ؛ قال رسول الله : صدقتَ ، ولك ماتريد .

وأخذ سهيل أبا جندل ، ولبّبه (١) بمُخَنَّقه (٢) ، وجرّه من عنقه ، ودفعه إلى مكة ؛ فأخذ يصيح : يامعشرَ المسلمين ، أأردّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟ فنفذت هذه الصَّيْحَةُ إلى أعماق النفوس ولمست قرارة القلوب ، وهزّت أوتار الحزن والأسى؛ ولكن مايصنع المسلمون ، وذلك قضاء الله ؛ ورسول الله إنما يصدر عن أمر الله ؟ على أن رسول الله قد طَمْأَنَ أبا جندل ، وقال : ياأبا جندل : اصبر واحتسب ؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومَخْرَجا ، إنَّا عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم وأعطَرنا عهداً ، وإنا لانغدر بهم .

ثم صاح صائح فى أحياء مكة : مَنْ أراد أن يدخلَ فى عهد أحد الفريقين فليدخل؛ فتواثبت بكر ودخلت فى عهد قريش، وتواثبت خُزاعة ودخلت فى عهد المسلمين .

ثم نادى المنادى عن رسول الله : لقد قُضِى الأمر ، وعُقِد العهد ، فتَحَلّلُوا من إحرامكم ، وانحَرُوا بُدْنكم ، واحلقوا أو قصِّروا شعوركم ، ثم شدّوا إبلكم للرحيل ؛ والتفت المنادى فإذا نفوسٌ مُعْرِضة ، وعزائم متردّدة ، وعيون زائغة ، وقلوب حائرة ؛ وصاح الثانية فلم يجيبوا ، ودعا الثالثة فلم يلبوا !!

فانطلق إلى الرسول يحدثه أمر هذه النفوس ، التى ماتعودت إلا تلبية الدعاء ، وما عُهِد فيها استخفاف بالنداء . . . فكبر الأمر على

(١) لببه : جمع ثيابه عند نحره فى الخصومة ثم جره
(٢) المخنق : موضع حبل الخنق .

الرسول ، ودخل على أم سلمة مُطْرِقاً مُهْتَماً ! قالت : ما خَطْبُك يارسول الله ؟ قال : هَلَك القوم ؛ دعوتهم للإحلال والحلْق والنَّحْر فلم يجيبوا ؛ قالت : يارسول الله ؛ إن لهم فيك لأسوةً حسنةً ، وقدوةً كريمة ؛ فاخرج إليهم وانحر واحلق ؛ وما أظن إلا أنهم سيسيرون فى نهجك ، ويقلّدونك فى فعلك .

وخرج رسول الله إلى الناس ، يقول : أما ما أهمّكم من العهد ، فإن من ذهب إليهم فلا حاجة لنا به ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ؛ وأما البيت فإنكم إن شاء الله مُطَّوِّفون به فى قابل ، وما فعلتُ ما فعلت عن أمرى ، وإنما عن أمر الله ؛ وهو نصيرى ولن يُضَيِّعَنى ؛ ثم دعا الحلاق فحلق ، وعمد إلى البُدْن فذبح ، وتحلّل من الاعتمار .

وما سمع القوم قولَ الرسول ، وما رأوا فعاله ، حتى لانَتْ عريكتهم ، وثابت إليهم حُلُومهم ، وطابت نفوسُهم ، وأقبلوا على رءوسهم مُحلِّقين ومُقَصِّرين ، ثم نحروا البُدْن ، وتحلّلوا من الإحرام ، وانكفئوا إلى المدينة راجعين ؛ لم يَمْسَسْهم سوء ، ولم يُصابوا بأذى ؛ ولكنهم ما برحوا عِطاشا إلى مكة ، متشوقين إلى البيت ، وهم بين تلك اللهفة وهذا الاشتياق ظلوا ينتظرون قضاء الله .

نقض العهد

وعاد المسلمون إلى المدينة موفورين ، وانقلبوا إلى دورهم آمنين ؛ ولكنهم لم يطوّفوا بالبيت كما كانوا يطمحون ، ولم يَنْشقوا عبير الوطن كما كانوا يتشوقون ؛ تغشى وجوههم حيرة ، ويبدو فى معارفهم الوجوم !

أجل! إن رسول الله قد وعدهم أنهم لا بد داخلون مكة ، طائفون حول البيت ؛ ووعْدُه صِدْق ، وقولُه حقّ ، وما ينطق عن الهوى ، وما يبلّغُ إلا عن روح أمين ؛ ولكنّ لواعجَ الشوق إلى البيت ، وتباريح الحنين إلى الوطن ، والرغبة فى القتال والجهاد : كل ذلك أقلق نفوسهم ، وأقضّ مضاجعهم .

لقد كانوا قبل اليوم أحسنَ حالا ، وأعز شأناً ، وأقوى سلطانا ؛ أما اليوم فواحَرَباه ! من جاء إلى المدينة قرشيا ، راغبا فى الإسلام ، زاهداً فى عبادة الأصنام ، لا يجد فيها ظلا ولا مَقيلا ؛ ولا يستطيع أن يُنزل فيها رَحْلًا ، أو يشُدَّ طُنُباً ؛ فالعهد المأخوذ يرده إلى مكة ، والميثاق يرجعه كاسفاً بين الكفار ، وما يأمَنُ من أن يفتنوه فى دينه ، أو يضيقوا عليه فى عبادته ، أو ينالوا منه فى بدَنه وعافيته ؛ ومن ذهب إلى الكفار مرتدا عن الإسلام ، صابئا عن كلمة الإيمان ، فليس للمسلمين عليه سلطان ، وليس لإرجاعه إليهم سبيل .

ثم إنهم ما كادوا ينسون يوم أبى جندل ، حينما جاء مؤمنا يَرْسُف فى القيد ، مستجيراً يطلب المُجير ، فلم يجد معيناً ولا مجيرا ، ولم يلقَ وليًّا

ولا نصيراً ،حتى هيّأت الأحداث أمرا جديدا ، مزّق خيوطَ النسيان ، وجدّد الأسى ، وبعث كامن الآلام ؛ والأسى يبعثُ الأسى ، وبعيدُ الهم يَنْشُرُهُ دانيه .

ذاك أبو بصير قدم إلى المدينة ، زائغَ البصر ، واجفَ القلب ، مستطار الفؤاد ؛ وفى رجليه أثر من قيد ، وفى يديه سِمَةٌ من غُلّ !!

قالوا : لا تُرَع ياأبا بصير ، وليُفرِخ رُوعُكَ ، وليهدأ بالك : مابك ؟ وما شأنك ؟ ولِمَ اضطرابك؟ وفيم قدومك ؟

قال أبو بصير ، وقد عاد إليه بعض الاطمئنان ، وسكن فى نفسه طائر الأمان : اسمعوا ! لقد هاجر محمد عن مكة ، وما كان أبغض إلىّ من دعوته ، ولا أثقل على نفسى من رسالته ؛ وكنت أحسبه خارجا عن قومه ، متجنّياً على عشيرته ؛ حتى أُتيح لى مرة فى إحدى سبحاتى بالليل أن سمعتُ رجلا يتلو شيئا من الكتاب الذى جاء به ؛ فوجدت فى طبعى إليه ارتياحا ، وله فى نفسى قبولا ؛ فأسلمتُ وأزْمَعْتُ الهجرةَ إليه ؛ ولكننى ما جهرت بإعلان ما اعتقدت ؛ وما عرفوا مااعتزمت ، حتى وضعوا فى رجلى القيود ، وصَفَّدُونى تحت أعين الرقباء ، ولَقِيتُ من صنوف البلاء والأذى ماينوء به كاهل الشجاع ؛ ولكننى فى ساعة من غفلتهم ، واشتغالهم بشؤونهم ، حطّمْتُ قيدى ، وفككت أسرى ، وفررت بنفسى ودينى ، لِأشركَكُم فى الحظوة ، وأكون معكم فى الجهاد . . .

قال ذلك أبو بصير ، وحسب أنه قد زالت عنه همومُه وأحزانه ، وأقبلت عليه أيامُ دهره ؛ وظن أنه من اليوم سيعبد الله كما يريد ، ويتوجه

إليه متى شاء؛ وما درى أن هناك عهداً يحول بينه وبين ما يريد.

وأخذ سبيله إلى الرسول، وقبل أن يتشقق بالحديث وجد اثنين من قريش سبقاه إليه، كانا قد جاءا في أبي بصير يَسْتَعْدِيان عليه الرسول، ويذكّرانه العهد والميثاق، قال أحدهما: يا محمد: ما عرفناك غادراً صغيراً، فكيف بك كبيراً! هذا أبو بصير قد أبَق عن ديننا: وانسلخ عن جمعنا، وجاءك فارًّا مسلما؛ وقد عاهدناك أن ترد من جاءك منا مسلما، وتدفع إلينا من التجأ إليك فارا؛ وقد أوفدتنا قريش لترى مقدار قيامك على العهد، ورعايتك للميثاق. قال رسول الله: ما نقضتُ العهد، ولا حنِثْت في اليمين، ودونكما الرجل فخذاه؛ ولعل الله يجعل له من أمره يسرا، وفي دينه فرجا.

ومضى أبو بصير أسيراً بين سَمْع المسلمين وبَصَرِهم، يشيّعونه بنفوس مِلْؤُها الأسى، وقلوب حَشْوُها حزن عميق؛ ولكنه لم يبعد في السير طويلا، حتى رأوه قادما! قالوا له: أين غريماك؟ قال: لقد قتلت أحدهما وألجأت ثانيهما إلى الفرار؛ ولقد وفيت بذمة الرسول، وبررت بما قام به من عهد، ولا عليّ أن أقيم بينكم.

قال رسول الله، وقد بلغه صنيع أبي بصير: «وَيْلُ أمه مِسْعرُ حَرْب لو كان معه رجال»؛ ولكن لا بقاء له في المدينة، فأي أرض يذهب يجد مُراغَما (١)؛ وفي أي مكان يُصَلِّ يلق الله.

وخرج أبو بصير، كما خرج في المرة الأولى، كاسفَ البال، ساهمَ الطَّرْف، ملتاع الفؤاد، حائراً أين يذهب؟ وخلّف وراءه — كما خَلّف في المرة

(١) المراغم: المذهب والمهرب.

الأولى - نفوسا ثائرة، وأفئدة تنطوى على همٍ طويل .

* * *

ومضت أيام، وتصرّمت شهور، وكلما تذكّر المسلمون ما هم فيه مع قريش - من عهد جائر، وظلم واقع - سالت نفوسهم أسى، وصعدت أنّاتهم حسرة وأسفا، حتّى هبط عليهم فى المدينة قرشى جديد .

قال أحدهم : هذا مسلم فارّ، ومؤمن مستجير؛ إنه قدم ليجدّد الأسى ويضع الإصبع فى جرح لا يزال وجيعا .

وتقدم إليه آخر، وقال : أمسلما جئت يا هذا ؟ إن المدينة ليست بدارك، ولا محطاً لرحالك، ولا موضعاً لأمانك؛ لقد علمتَ أن بينكم وبين الرسول عهدا : ألا يحمى قرشياً مسلم، وألا يؤوى عنده رجلا منكم، وإنه لقائم على العهد، أمين على الميثاق؛ ولئن طال مقامك لَتُوشِكَنّ قريش أن تُرْسل فى أثرك؛ فلا تستطيع فَكَاكا، ولا تملك لنفسك حولا ولا طولا؛ فخيرٌ لك أن تطلب داراً غير المدينة، وحِمًى غير هذا المكان، ونرجو الله أن يجعل لك فرجا قريبا .

فضحك الرجل وأغرب، ثم قال : إنكم حزرتم[1] فأخطأتم، وتوهمتم وما صدقتم؛ لستُ مسلما حضرت، ولا فارا التجأت، وما ابتغيت عن دين قومى دينا، ولا اتخذت غير مذهبهم مذهبا؛ ولكن جئت محمدا فى أمر؛ والإفصاح عنه رهين بلُقْياه .

قال المسلمون : ما هذا الأمر الذى دفع قريشا إلى أن ترسل هذا الرسول ؟ انطلقوا لننظرَ ما يقول .

---

(١) الحزر : التقدير .

ولما دخلوا المسجدَ وجدوا الرجل يتحدث إلى الرسول بعبارات مطمئنة: لقد أرسلتني قريش فيما حَزَبها من أمر أبي بصير ، وما يترصد لها من النكال: لم يكفه أن قتل غيلةً وغدرا رجلا من خير رجالنا، وفتى من أشجع فرساننا ، حتى وثب إلى سيف البحر فاتخذه مقراً، يلجأ إليه كل هارب من قريش، ويقيم عنده كل مسلم لم تتّسعْ لدينه جَنَبَات مكة... وما كان يهمنا أمرهم، أو نعبأ بجمعهم، لولا أنهم أقاموا علينا حرباً، وسلوا دوننا سيفاً، وهم لا يسمعون بقافلة منا تذهب إلى الشام أو ترجع إلى مكة، حتى يُنَاوِئُوها في سيرها ، ويبدِّلوا أمنها خوفاً ، ويُوسعوا رجالها رعباً وفزعاً ؛ ولسنا نرى - دفعاً لشرهم ، أو رداً لجماعتهم - إلا أن تعفينا من شرط أخذناه على أنفسنا، وحسبناه خيراً لجماعتنا ؛ فإذا هو بلاء وشر ، وإذا هو محنة وعناء ؛ فلتضم إليك من جاءك منا مسلما، أو خرج عنا فاراً...

وسمع المسلمون هذا العرض من قريش ؛ فأزاحوا بعض الهمِّ عن نفوسهم ، وارتاحت - هَوْناً مَّا - ضمائرهم، وانْسَلَتْ عنهم بعض همومهم، وعادوا أخفَّ أحزانا، وأيسر بَلْبَالًا ، وأشدَّ اطمئنانا .

ولكن كلما مضى الزمن اشتد نزوعهم إلى البيت ؛ يشوقهم إليه لامع البرق ، ويهيج حنينهم وافد النسيم. أجل ! إن قريشاً قد وفَتْ بعهدها ، وبرَّت بيمينها ، وأخلَتْ للمسلمين مكة في أيام الحج ؛ فدخلوها معتمرين ، وطافوا بالبيت معظمين ؛ ولكن هي إلْمَامة ما أشبهها بإلمامة الطّيف ، وزورة ممزوجة بالخوف ؛ يطوفون وعيونُهم تتلفت إلى الوراء خوفَ

الغدر، وقلوبهم تتوجّس حذرَ المكر؛ ثم هم ممنوعون بعد ذلك أن يسلوا سيفاً، أو يقيموا عليهم حرباً، أو يثيروا قتالا . . . لو طال بهم الأمر على هذه الحال؛ أكبر الظن أن همّهم سيطول، وحزنهم سيستمر.

* * *

وانفلت فريق منهم يوما من صلاة العشاء، والتجئوا إلى سقيفة لهم يسمرون ويتحدّثون، وأخذوا يتذاكرون سِقَاط الحديث، ويتشقق بهم القول فى كل مجال؛ حتى انتهوا إلى الحديث فيما كان بين خزاعة وبكر من عداء، وماسال بين هذين الحيّين من دماء . . . قال واحد منهم، وكان أخباريا حِدْثَ ملوك[1]: إن عندى من قديم أخبارهما، مالو نفضته عليكم لاجتذب أسماعكم، واستهوى ألبابكم؛ لولا أن التهويم قد ابتدأ يلعب بأجفانكم، والنوم يأخذ سبيله إليكم.

قالوا: لسنا قائمين إلى فراش، أو ذاهبين إلى رقاد حتى تحدثنا بأخبارك، وتروى لنا من مكنون روايتك؛ قال: لقد حدّثنى أبى فيما كان يحدثنا به فى ليالى سمره، أنه لم يكن بين الحيّين فى قديم عهدهما إلا صلات موثّقة العُرَا، متينة الأسباب؛ يتزاورون ويُصهرون، ويسافرون ويتّجرون؛ وكم مرة كانوا أحلافا على غيرهما، وكانوا نصراء على من يعتدى على أحد منهما؛ وما زالوا على هذا الخلاط المؤكد، والود المصفّق؛ حتى خرج مالك بن عباد حليف بكر تاجراً فى أرض خُزاعة؛ فاعتدى عليه سقيط[2] أحمق، وأرْدَاه قتيلا؛ ومن يومها استوقدت

(١) حدث ملوك: سمير ملوك (٢) السقيط: الأحمق.

نار الفتنة ، واستطار شرر العداء ، ورنَّقَ ما كان من الود صافيا ، وتغير ما كان من القلوب سليما ؛ وكم سعى رجال من كرام العشائر ليستلّوا السخائم فلم يفلحوا ، وكم تقدم الوسطاء لإطفاء وقدة النفوس فخابوا . . . واستمر الثرى بينهما يابسا ، والجوّ عابسا مظلما مكفهرا ، حتى ظهر محمد رسول الله بمكة ، فتلفتت إليه القلوب ، وشغل به الناس .

ولكن عادت تلك العداوة إلى الظهور ، واتخذت سيرتها الأولى في الوجود ، حينما وقع صلح الحديبية ، وحينما دخلت خزاعة في عهد المسلمين ، وبكر في عهد قريش ؛ إنهما بحلفهما على هذا النحو قد أثارا كامن عداوتهما ، وبعثا راقد حقدهما ؛ ومن يدرى ماذا تتمخض عنه الأحداث ؟

وانتهى الرجل من حديثه ، وإذ همّوا بالانصراف ، سمعوا الكلب ينبح طارقا غريبا ! قالوا : مَن الطارق الغريب في جنح هذا الليل ؟ ليذهب أحدكم فلينظر ، لعله ضال يتخبط الطريق ، أو لعله عابر سبيل يتلمس القِرى والثَّواء .

وذهب رجل وعاد ، ومعه عمرو بن سالم الخزاعى ، فسلم عمرو وجلس تعبان قد أدركه الأين ، ونال منه السرى في الظلام ، وكأنه يحمل على ظهره أثقالا من الهمّ ، ويَخفِى بين جنبيه داء وجيعا ماله براء .

مابك ياعمرو ؟ وما وراءك ؟ لأمر مّا جئت إلى المدينة ، ولأمر مّا طرقت بليل ، ولأمر مّا هذا الهمّ الذى يظهر في سهوم وجهك ، وحيرة أجفانك ، وتقطيع كلامك ! لَمِنْ غريبات الأصداف ، وعجيب التوفيق

أن نخوض الليلة فى أحاديثكم ، ونتحدث فيما بينكم وبين بكر من عداء مستمر ، وقتال مستحر .

قال عمرو : إن ماجئتُ فيه الليلة ليس بعيداً عن هذا الحرب وويلاتها ، وليس قصيًّا عن هذه العداوة ومايجرى فى سبيلها ؛ لقد بدأ بنا فى العداوة خطب جديد ، وأضافنا همّ طريف ؛ أصابت بكر فينا غِرة مُصْبَح يوم عند الوَتِير[1] ، فأسالت دماء ، ومزقت أشلاء ، وهممنا أن نأخذ لثأرنا ، وننتقم لقتلانا ، لولا أن قريشاً نقضت العهد ، ورفدت بكراً بالسلاح ، وأمدتها بالرجال والكراع ؛ فكثر الجمع ، وغلب العدو ، واستحرّ فينا القتال ؛ ولقد التجأنا إلى الحرم نستجير بحرمته ، ونحتمى إلى جواره ؛ ولكنهم مارعوا له مقاما ، ولاحفظوا فيه جواراً ؛ ولولا من التجأ منا إلى دار بديل بن ورقاء لفنى مَن بمكة من خزاعة أجمعين .

* * *

وطلعت الشمس ، وانتشر الخبر مع شعاعها فى كل مكان : إن قريشاً نقضت العهد ، وفَجَرت فى اليمين ؛ وأعانوا ـ غدراً ـ بكرا على خزاعة ، ونصروا حليفا على حليف ؛ فدلف الناس إلى المسجد يلتمسون رؤية الرسول ، أو يتعرّفون ماعنده من رأى ؛ فإذا هو جالس وعمرو بن سالم ينشد بين يديه بصوت متهدج ونبر متوجع :

يارب إنى ناشــد مُحَمَّدا ... حلف أبينا وأبيــه الأتْلَدا
قد كنتم ولداً[2] وكنا والدا ... ثمّت أسلمنا فلم نَنْزِعْ يدا

---

(١) الوتير : ما بين عرفة إلى إدام .

(٢) يشير إلى أن بنى عبد مناف أمهم من خزاعة .

فانصر هَدَاك الله نَصْرا أعتَدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسولُ الله قد تجردا إن سِيمَ خَسفا وجهه ترَبّدا
فى فيلق كالبحر يجرى مُزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوالى فى كَداء (١) رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
وهم بيتونا بالوتير (٢) هُجّدا وقتلونا ركعاً سجدا
فانصر هداك الله نصراً أيِّدَا

فقال الرسول : نصرت ياعمرو بن سالم ؛ ثم توجه إلى الله قائلا : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها .

---

(١) كَداء : موضع بأعلى مكة .
(٢) الوتير : الموضع الذى وقع فيه غدر قريش بخزاعة .

نصر مبين

لم تدرك قريش خطأها إلا حين تمزقت خيوط الظلام، وانفلق عمود الصباح؛ نصروا بَكْرًا على خزاعة، وأعانوا حليفاً على حليف؛ ما أوخم العاقبة، وأسوأ المصير! سيسير الخبر مع الشمس، وينتقل مع الريح، ويبلغ محمداً أن قريشاً فَجرت فى يمينها، وعبثت بعهدها، وسيلقاها المسلمون ثُلمةً ينفذون منها، وفرصة ينتهزونها؛ وإنهم مااستعدوا الحرب، ولا تهيئوا لقتال.

انتدَوْا دار واحد منهم؛ يقلِّبون الرأى، ويتلَمَّسون الخروج، ويتعرفون المصير؛ وتشعبت الآراء، وعلت الأصوات، واضطربت المذاهب؛ ثم انتهَوْا إلى رأى لعله يحسم الداء، ويدفع البلاء: أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة؛ وهو شيخ قريش وغِطريفها؛ إليه تومئ الأصابع، وتمتد الأعناق، قبل أن يعتلن الخبر، وينتشر فى الأنحاء، وليأت محمداً؛ فيوثّق العهد، ويزيد فى المدة، فلا يجد محمد سبيلا إلى الغزو، أو سبباً لنقض العهد.

وسافر أبو سفيان، وانعقدت عليه الآمال، والتمعت بروق الرجاء؛ سافر عن قريش يحمل أعباءها، ويصلح ما أفسد حمقاها... وما وصل إلى المدينة حتى رأى حديث بكر وخزاعة قد ملأ الأسماع، واضطربت به الألسنة، وانتشر فى كل مكان؛ والمسلمون بعدُ قد أخرجوا مكنونَ سخطهم، وراشُوا نبال غيظهم، والأمر على غير ما يحبّ ويرجو...

فوجم الشيخ ، وارتاع فؤاده ، وتوقع الخطب والمكروه.

والآن أيعود إلى مكة ، خائبَ الرجاء ، طائش السهم ؟ ولكن فيم كانت مشيخته فى قريش ، وزعامته فيها ؟ أم يجدّ ليلقى محمداً يبسط عنده العذر ، وينتحل الأسباب ؟ لِيُجرب الثانية ؛ فلعلها أنجح الرأيين وأحسن الطريقتين.

ويذهب أبو سفيان إلى بيت الرسول ، ويقف فى ساحته ، حائر الطرف ، مبلبل الرأى ، مُوَزّع الفؤاد ، ثم يتحدث إلى بنته أم حبيبة أم المؤمنين ؛ فتُغلظ له فى القول ، وترده ردا غير كريم ؛ فيخرج متعثراً فى ذيل اليأس ، متلفعاً بمئزر الصغار ؛ ثم يلتقى بعد برسول الله ؛ فما يصيب عنده إلا سخطاً وامتعاضا ، وما يلقى إلا صدًّا وإعراضا ؛ ويرجو الشفاعة من أبى بكر فلا تعدو آماله أحلام نائم ؛ ويلتمس الخير عند عمر فلا يظفر عنده إلا بقلب حانق ، وسخط هائج ، ثم ينتهى الأمر عنده إلى خيبة الرجاء ، والتواء الطريق : فيعود إلى مكة منذراً أهلها أمراً شَفّت عنه الدلالات ، وأسفرت العلامات .

أما رسول الله فقد أمر المسلمين بالاستعداد والتهيؤ ، وأعلن فى الأعراب : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليشهد رمضان بالمدينة .

وأُسرِجتْ الخيول ، وأعد السلاح والكُراع ، ووفدت القبائل من مزينة وغفَار ، وأشجع وسليم ، والتأم جيش من المسلمين ، فى جمع من قبل لم يعرف ، وحماس لم يؤلف . وصدر عن رسول الله أمر كريم : أن يحفظ المسلمون أسرارهم ، ويضنوا بمخبآت ضمائرهم ؛ فلعلهم يصيبون قريشا على غير استعداد ، ويدخلون مكة من غير كيد أو عناد ؛ فرسول الله

حريص على ألا يسفك فى البلد الحرام دما ، ولا يزهق روحا ، ولا يثير حرباً ، ولا يذكى ضرام عداء .

وساروا جميعاً ترفرف فوقهم العُقاب [١] ، وتكلؤهم رعاية الله .

ويطلع عليهم فى الطريق رجل مهيب الطلعة ، أبلج الغرة ، طويل بادن فى نفر من الناس ؛ تبيّنوه ، فإذا هو العباس بن عبد المطلب .

قال : يارسول الله ؛ لقد علمتَ أنى أسلمت من عهد ، ولكننى ما استطعت أن أجهر بالإيمان ، وما استطعت أن أصبر بعد ذلك على الكتمان ؛ وقد خرجت مهاجراً إلى الله وإليك بنفسى ، وهاهم أولاء زوجى وولدى .

قال رسول الله : مرحباً بك ياعم ؛ ليَهْنِئْك الإسلام . وليبارك لك الله فى الإيمان ؛ أرسل إلى المدينة أهلك وولدك ، وارجع معنا إلى مكة حتى تشهدَ مايكون بيننا وبين قريش .

ورمى العباس ببصره فى الجيش ، فإذا بقوم ملء السمع والبصر ، والسهل والجبل ، فقال : وارحمة الله لقريش إن دخل هذا الجيش مكة عنوة ، فإنه سوف لا يبقى فى قريش طفلا ولا كهلا ، ولا امرأة ولا رجلا ... وخاف العباس ، وأشفق من مصير قريش ؛ فخرج إلى الصحراء لعله يلقى حطّاباً ، أو لبّانا ، أو ذا حاجة ؛ فيحمله رسالته إلى قريش : أن يحضر كبراؤها ورؤساؤها إلى محمد يؤامنونه على نفوسهم ، ويعاهدونه على تسليم حرمهم ؛ فيكون هذا أحْقَن لدمائهم ، وأبقى لحياتهم .

---

(١) العقاب : اسم راية الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبينا هو يشــيم وينظر ، ويتطلع ويتنوّر (١) ، سمع همس رجلين يتراجعان ... قال أحدهما : تلفتْ إلى هذه النار ، وأدرْ طرفك فيها ، ثم ارجع البصر إلى هؤلاء العسكر ، فإنى ما رأيت نيراناً قبلُ كهذه النار ، ولا جنداً أحشد من هذه الجنود .

قال الثانى : هـذه والله خُزاعة قد حَمَشَتْهَا (٢) الحرب ، وهاجها يوم الوتير .

وقال الأول : اسكت فوالله لَخزاعة أذل نفوسا ، وأضعف جنوداً من أن تـكون هذه نيرانها ، وتلك جنودها .

وبينا الثانى يتهيأ للكلام وجد العباس بينهما ، قال العباس : عجبا ! أأنت أبو سفيان ؟ ماجاء بك فى هذا الظلام يا أبا حنظلة ؟ قال : هَمّ العشيرة وأفداحُ القبيلة ، ورزء الزمان ... لقد خرجت أتحسس خبَرابن أخِيك ، وأتطلع طلْع المسلمين ، وقد حزرت قريش الحرب ، وتوقعت الشر من يوم أن انتقض العهد ، وفَجرنا فى اليمين .

قال العباس : ويحك ياأبا سفيان ! هذا محمد رسول الله قريب منك ، فى جند كعديد الرمل ، ولئن ظفر بك لأخْشَيَنّ أن تضرب عنقك ؛ وشديد علىّ أن أرى رأس قريش مجندلا ، وشـيخها مقتولا ؛ اركب معى هذه البغلة ، لعلى آتى بك رسول الله ، أطلب لك الأمان ، وأستوهب لك الحياة

* * *

(١) يتنور : يطلب النور (٢) أغضبتها .

وشاهد الناس أبا سفيان رديفا للعباس ، ورآه عمر بن الخطاب ؛ فوثب على قدميه ، وقال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك من غير عقد ولا عهد ، وانطلق يعدو إلى رسول الله .

قال يارسول الله : هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ؛ فَدَعْنى أضرب عنقه ؛ ليخبو ضرام غيظى ، وتهدأ ثائرة ضلوعى.

قال العباس : يارسول الله ؛ إنى قد أجرت أبا سفيان ، وأعطيته الأمان ، وهيهات للرسول الأمين ، الكريم الحليم ، أن يردّ جوارى ، ويرجعنى فى أمانى .

قال عمر : ذاك يا رسول الله شيخ قريش يوم بدر ، ومحرّضها يوم أحد ، وزعيمها يوم الأحزاب ، وقد أمكن الله منه بعد عهد نقضوه ، وحلف ضيّعوه ، وإن فى قتله لراحةً للمسلمين ، وشفاء لما فى الصدور .

قال العباس : على رِسْلك ياعمر ؛ فوالله لو كان من قومك من بنى عدىّ ماقلت هذا ، ولكنكَ قد عرفت أنه من رجال عبد مناف .

قال عمر : لقد جاوزت الحد ياعباس ؛ فوالله لساعة إسلامك يوم أسلمت ؛ أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ وما بى إلا أن عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم . . .

وهمّ العباس بالكلام ، ولكن رسول الله حجز بينهما حجزاً كريما ، وفصل بينهما فصلا حكيما ، ثم قال : ياعباس ؛ اذهب به إلى رحلك ، ودعه يقضى عندك هذا المساء ، ثم ائتنى به الغداة .

وأخذ العباس بيد أبى سفيان ، وانطلق به إلى قبّته ، وبات محدثا له

حتى السَّحَر ، وهو يرجو أن يطمعه فى الإسلام ، ويأفكه[1] عن الأصنام ؛ ولما نهض من نومه ، رأى القوم يقفون خاشعين ، ويتمتمون بعبارات لا يفهمها : ثم يركعون بظهورهم ، ثم يعفرون بالتراب وجوههم ، فقال : مايفعل هؤلاء ياأبا الفضل ؟ فقال : إنها الصلاة ، قم ياأبا سفيان وتطهر ، وانطلق معى إلى رسول الله . فتطهر أبو سفيان متلكئاً ، وقام متثاقلا ، وذهبا حتى جلسا بين يدى الرسول .

قال الرسول : ويحك ياأبا سفيان ، ألم يَأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك ، وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا .

قال : ويحك ياأبا سفيان ! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس حتى الآن منها شيئا !

قال العباس : ياأبا سفيان ، لقد وضَح الصبح لذى عينين : فإن كان على عينيك غمامة فارفعها ، وإن كان على قلبك غشاوة فمزِّقها ، وأسلمْ إبقاءً على حياتك ، وحرصا على دنياك وآخرتك ؛ فاضطرب أبو سفيان ، ثم تلعثم ، ثم تردد ، ثم قال : شهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وابتهج الرسول ، والتمع البشر فى وجه العباس ، ثم أخذ بيده ، وعلَّمه الوضوء والصلاة ، وبصَّره بمبادئ الإيمان .

ثم عاد العباس إلى الرسول يقول : يارسول الله إن أبا سفيان كما أعلمه رجل يحب الفخر ، وتميل به الخيلاء ، وإنه حتى هذه الساعة لا يزال

---

(١) يصرفه .

الإسلام غريبا فى قلبه ، والعقيدة غير مستقرة فى نفسه ؛ فاجعل له شيئا يقضى به حاجة نفسه من الزهو والخيلة ، ويجعله فى الإسلام أثبت قدما ، وأكبر يقينا . . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . من دخل دار أبى سفيان من مكة فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

ويسمع أبو سفيان قول رسول الله ؛ فيذهب صائحا فى عرصات مكة : يامعشر قريش ؛ قد جاءكم محمد بما لاقِبَل لكم به ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . . . فقامت إليه زوجه هند ، وقالت : اقتلوا الحَمِيت[1] الدسم الأحمس ، قبحت من طليعة قوم ! قال : ياقوم لاتغرنّكم هذه عن أنفسكم ، وقد نصحتكم ، وما أردت إلا حقن دمائكم ، وحفظ أرواحكم ؛ ولقد جاءكم محمد بما لاقِبل لكم به ؛ فارتاع القوم وقالوا : ويلك ! وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ؛ فهرع الناس إلى المسجد والدور . . .

ودخل رسول الله مكة حانياً ظهره شكراً ، غاضا طرفه حمداً ، لابساً عمامته السوداء ، متعجراً شقة برد حمراء ، لم يلق سيفا قائما ، ولا رجلا شاكياً ؛ وهو يتلو : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ٭ ليغفرَ لك اللهُ ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتمّ نعمته عليك ويهديَكَ صراطا مستقيما ٭ وينصُرَكَ الله نصراً عزيزاً ٭ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما

(١) الحميت : السمين ؛ والأحمس : من لاخير فيه .

حكيما * ليُدْخِل المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويُكَفِّرَ عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما * ويُعذِّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانِّين بالله ظن السَّوءِ عليهم دائرةُ السَّوْءِ وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً * ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ».

ثم توجه إلى البيت طائفاً ؛ وذهب إلى الركن مستلما ، واحتشد الناس فى المسجد ، وتدافعوا ينظرون مايقول محمد وما يصنع .

هذا الذى أخرجوه وصحبه من ديارهم ، وافتنّوا فى إيذائهم ، ونالوا من عافيتهم وراحتهم ، هو ذا قد عاد اليوم ظافراً بهم ، قادراً عليهم ، ليت شعرِهم ماذا سيقول ؟ وليت علمهم ماذا يصنع ؟

ووقف الرسول على شرف فى المسجد ، وتهيّأ للقول وقال : « يامعشر قريش ؛ ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ؛ أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

---

*

يوم حنين*

المسلمون بين الهزيمة والنصر

قال دريد بن الصمة ، وكان ذا علم فى الحرب ، وصاحب رأى فى أساليب القتال ؛ خبّ فيها ووضع [1] ، وشبّ واكتهل ؛ وهو وإن كان اليوم قد أصبح شيخا متهدما ، وعجوزاً فانيا ، ليس لقومه من بنى جشم فيه من عون ، ولا عليه من معوّل ؛ فإنه مازال فيصلا فى الأحكام ، ومرجعا فى المشكلات .

قال لقومه ، وقد حملوه فى شجاره [2] ، وقادوه بزمام جمله : بأى واد أنتم ؟ قالوا له : نحن بأوطاس [3] ؛ قال : نعم مجال الخيل ؛ لا حزن ضرِسٌ [4] ، ولا سهل دهسٌ [5] ؛ ولكن مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار [6] الشاء ؟ . . . قالوا : لقد ساق مالك بن عوف الناس للحرب ؛ وحشد وراءهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم . . . قال دريد : دلونى عليه ! ؛ فوالله ما أراه إلا دَبَرى الرأى ؛ أفيل الفكرة ؛ أهكذا تكون الحرب ؟ وأمسك غلامه بخطام جمله حتى وقف به على مالك . . .

قال دريد : يامالك ؛ لقد أصبحت بعدى رئيس القوم ، وزعيم الجماعة

---

* القرآن الكريم ـــ سورة التوبة : آية ٢٥

(١) الخب والإيضاع : نوعان من السير ، والمراد أنه مرن على الحرب .

(٢) الشجار : الهودج (٣) مكان (٤) ضرس : صعب

(٥) دهس : سهل (٦) اليعار : الشديد من أصوات الشاء .

فحدثني عن هذا الحشد. قال مالك: هؤلاء قومى وقومك، دفعت بهم إلى لقاء محمد؛ لقد علمت أنه قد دخل مكة فى جيش لم تر العرب مثله، ولم يلق فيها صادًا ولا رادًّا، ولم يصادف عقبة ولا عثرة: فذلت له قريش، ولم تعد لهم بعدُ فى مكة كلمة... وإنه ليوشك إن لم نَغْزُه أن يغزوَنا؛ وما يبعد - إن لم نستعد له - أن تذل له هوازن؛ وتخضع نصر وجشم، وتدين ثقيف؛ ويصبح محمد ملك العرب جميعا... ولكننى - كما ترى - أعددت له قبل أن يعد لنا، وأزمعت المسير إليه قبل أن يسير إلينا.

قال دريد: هؤلاء الرجال، وهؤلاء الفرسان؛ ولكن ما هذا الذى أسمعه من رغاء البعير ونهاق الحمير؛ وبكاء الصغير؛ ويعار الشاء؟..

قال مالك، وحسب أنه طبق من الرأى المفصل، وأصاب شاكلة الصواب: لقد خشيت هزيمة القوم، وهم قلة بجانب أصحاب محمد؛ ولهذا سُقْتُ وراءهم أموالهم وأبناءهم ونساءهم، ليقاتلوا، ولعلهم بهذا يكونون أصدق لقاء، وأثبت أقداماً.

فهزّ دريد رأسه، وقال: راعى ضأن والله [1]؛ وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه؛ وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك. يامالك؛ إنك لم تصنع بتقديم البيضة، بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئا. ارفعهم إلى متمنع بلادهم، وعليا قومهم؛ ثم الق الصباة [2] على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت

(١) قصد بذلك تجهيله.
(٢) التاركون دينهم، وبهذا كان الكفار يسمون المسلمين.

عليك ألفاك ذلك، وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال مالك: يادريد؛ لقد كبرت فى السن، وكبر علمك؛ فدعها لمن يعرفها، واترك من سيخوض غمارها يدبر خطتها ... ثم عاد إلى القوم؛ وقال: يامعشر هوازن؛ لتطيعننى أو لأتكئن على سيفى هذا فيخرج من ظهرى ...

قال زعماء القوم وعرفاؤهم: دونك يامالك وما تريد.

وطار الخبر إلى رسول الله فى مكة، وهو يتهيأ للعودة إلى المدينة: أن مالك بن عوف قد حشد هوازن، واستنفر ثقيفا، ودعا إليه نصراً وجشم، وأنه يوشك أن يشتبك مع المؤمنين فى قتال ...

فدعا رسول الله المسلمين ألا يلقوا سلاحهم؛ وألا يريحوا أبدانهم؛ حتى يلقوا مالكا؛ فلعل يومهم آخر يوم لغزو العرب، وشوكتهم آخر شوكة فى المشركين. فاستجابوا الله والرسول فى جيش لم يهيأ لهم من قبل: عشرة آلاف ممن قدموا مع الرسول من المدينة؛ وألفان ممن دان يوم الفتح؛ إنه لعدد يدعو إلى الزهو، ويدعو إلى الإعجاب؛ أين الرسول الآن وهو فى قوم من المسلمين كعديد الحصى، منه يوم أن خرج من مكة تحت جنح الظلام، مطلوباً، لاعون له ولا ناصر؟ وأين عديد المسلمين اليوم، من عديدهم يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق؟ إنه جيش غرّ قائلهم فقال: إنهم لا يغلبون اليوم من قلة.

ولكن ما خطر الكثرة إذا لم تؤيد بنصر الله؟ وأين هذا الجيش الذى يضم صفوان بن أمية على شِركه؛ وأبا سفيان والأزلام فى كنانته،

وكلدة بن الحنبل وقتل رسولِ الله ضالته ؟ أين هذا اليوم من يوم بدر ، وما في المسلمين إلا مؤمن قوى الإيمان ، مجاهد صادق في الجهاد ! إنها لكثرة لم تبعث إلا غروراً ، ولم تهيئ لهم إلا عجبا وخيلاء.

* * *

وخرج المسلمون في عماية الصبح ، وانحدروا بجموعهم إلى وادى حنين ؛ كما ينحدر السيل إلى الحدور ؛ وما راعهم إلا المشركون قد سبقوهم إليه ، وكمنوا في شِعابه ، واختبئوا وراء أحنائه ومضايقه وظهروا عليهم فجأة !

فإذا كثرة المسلمين ماخرجوا إلا طامعين ، ولا ذهبوا إلا مترددين ، يخورعودهم ، وتنخب قلوبهم ، ويلشمرون منهزمين ، ويرجعون متقهقرين ، ثم يقع الذعر في سائر الجيش ، ويغزو الرعب قلوب المسلمين .

وينكشف القتام عن رسول الله منحازا إلى ذات اليمين ، راكبا بغلته البيضاء وهو يصيح : أين أيها الناس ؟ هلموا إلىّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . ولكن لا شيء غير قوم مذعورين ، وفلول منهزمين ، ويتلفت الرسول فلا يلقى إلا أبا بكر وعمر ، وعليا والعباس : وقليلا من خاصته وأهل بيته ، وأبو سفيان يبرز مكنون حقده ، ويعلن مابين ألفاف صدره ؛ ويقول : إن هزيمتهم لا تنتهى إلا إلى البحر ، ويصيح كلدة بن حنبل : الآن قد بطل السحر ؛ ثم يعود الرسول فيدعو العباس ويأمره أن يهتف بالأنصار ، وكان العباس فارعا بادنا ، صيتا جهير الصوت فنادى : يامعشر الأنصار ياأصحاب السمرة[1] هذا رسول الله يدعوكم ويستنصر بكم على عدوكم ؛ وإذا بصوته

(١) السمرة : الشجرة والمقصود شجرة البيعة .

يشق الصدور ، ويصل إلى قرارات النفوس ، ويجيب الأنصارُ هاتفين : لبيك يارسول الله لبيك . . . وإذ كان الله قد بلغ بالمسلمين ماأراد من أن يريَهم عاقبة غرورهم ، ومقدار كثرتهم ، وخطأهم فى تعبئة جيوشهم ؛ فإنه عاد فثبت أقدامهم ، وربط على قلوبهم ، وأنزل سكينته عليهم ، وأمدّهم بجنود لم يروها ؛ فانقلبت الهزيمة إلى نصر ، وولّت هوازن وأحلافها ، تاركة للمسلمين أسلابها وغنائمها .

الثلاثة الذين خلفوا *

المسلمون فى عُسرة من المال ، وضيق من العيش ، ولفح شديد من الحرّ ؛ ولكنهم كانوا يعقدون آمالهم بيوم قريب ؛ يجنون فيه الثمر ويحصُدون الزروع ، ويروّحون عن نفوسهم بفرح مقبل ، وخيرات .

وبينما هم يرجون ذلك الأمل ، ويترصّدون هذا اليسر ، وهم أشد مايكونون رغبة فى البقاء ، وأزهدُ ما يُرَوْن ميلا عن السفر : إذ برسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم للجهاد ، ويؤذّن فيهم بالنفير العام : « انْفِرُوا خِفَافًا وِثقَالًا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفُسِكم فى سبيل الله » ... من استطاع منكم الإنفاق عن سعة وفضل فلينفق ، ومن استطاع أن يحمل غيره فليحمل ، واعلموا أن وِجْهَتنا غزو الروم ؛ فلا يتخلف أحد منكم ما استطاع إلى الجهاد سبيلا .

أقبل المسلمون بعضهم على بعض يتساءلون : ما بالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا للجهاد فى وقت الحرّ ، ولَفْح ِ الهاجِرة ، وقبل أن نجنى الثمار ، ونحصدَ الزرع ؟ ثم ما باله يجرى اليوم فى الجهاد على غير عادة مألوفة ، ويسلك طريقاً غير معروفة : فيعلن الجهة التى يقصدها والقوم الذين سيغزوهم ؛ والعهدُ به يخفى ولا يصرح ، ويكنى ولا يفصح ؟ .

ولكنهم ما علموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهيأ ليصد

---

* القرآن الكريم ـ سورة التوبة : آية ١١٨

بنى الأصفر[1] الذين أعدّوا جموعهم ، وحشدوا جيوشهم لغزو المسلمين ، وهم أقوى ما يكونون عُدّة وعَدَدا ؛ وأنه قد آثر إعلامهم وإيذانهم ؛ ليتهيّئوا لسفر بعيد ، وشُقّة طويلة ، حتى استطابت نفوسهم للجهاد واستعدّوا للبلاء .

* * *

ودعوة للجهاد ، فى عُسرة من المال ، وعسرة فى الإنفاق ، وعسرة فى الظّهر[2] ؛ تتلقاها النفوس بحسب ما قدّر لها من الهداية والتوفيق ، وبمقدار ما خالطها من الإيمان واليقين ؛ فالنفوسُ الفيّاضة بالتقوى ، الطامحة إلى الجنة ، المتطلعة إلى رضوان الله ؛ لا تبالى الجهادَ صيفا أو شتاء ، حرا أو قرًّا ؛ وإنما هى كلمة يلقيها الرسول ، فإذا أموالهم وأنفسهم بين يديه ، وطاعتهم منتهية إليه ؛ ذلك لأنهم علموا أنه لا يصيبهم ظمأ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سبيل الله ، ولا يَطَئُون مَوْطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدوّ نَيْلًا إلا كُتِب لهم به عمل صالح ... ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وَاديا إلا كُتِب لهم ؛ ليَجزِيَهم الله أحسن ما كانوا يعملون .

وأما أصحابُ النفوسِ المتردّدة بين الإيمان والكفر ، المُذَبْذبةِ بين الشك واليقين ، فإنهم ما يسمعون بكلمة الجهاد ، ولا يرون قوما يتهيئون للغَزْو ، حتى يُعَظّموا الشُّقّة ، ويُكْبِروا النفقة ، ويُرجِفوا بسوء العاقبة والمصير ...

(١) بنو الأصفر : الروم (٢) الظهر : وسائل النقل .

فما دَعَا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التجهز إلى تبوك ، حتى تطوّع المسلمون بأموالهم وأنفسهم ، وظهر منافقون حاولوا أن يخذِّلُوا المسلمين فلم ينجحوا ، ويثنوهم عن عزمهم فلم يفلحوا .

* * *

وماجت الصحراء بالغُزاة والمجاهدين ، مبتهجين مُؤَمّلين ؛ ولكن أربعة لم ينتظموا فى الصفوف ، ولم يأخذوا مكانهم بين الجنود ؛ فكانوا موضع العجب والسؤال ؛ إذ كانوا ذوى غنى ويسار ، وإيمان وإيثار : أبو خَيْثَمَةَ أخو بنى سالم بن عوف ، وكعب بن مالك أخو بنى سلمةَ ، ومَرارة بن الربيع أخو بنى عمرو بن عوف ، وهلال بن مُرة أخو بنى واقف ...

أما أبو خيثمة : فإنه ذهب إلى أهله ، بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما فى يوم حار ، فوجد امرأتيه فى عريشين لهما فى حائطه (١) ، قد رشّت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيّأت طعاما .. فلما دخل وجد شرابا باردا ، ولحما غَرِيضا ، تحت ظلّ وارف ، ونسيم بليل عليل ؛ وامرأتين تتهيآن لخدمته وإسْعَاده ؛ فتذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ، فى غزوهم وجهادهم ، وشُقّتهم وبلائهم ؛ وهم الآن قد يبحثون عن الماء فلا يجدونه ، وعن الطعام فلا يظفرون به ؛ فما أبعد ما بينه وبينهم ، وما أظْهَر الفرق بين حاله وحالهم ! ثم أعلن الحرب على نفسه ، والكَيْدَ لهواه .

وقال : رسولُ الله فى الضح والريح ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام

---

(١) الحائط : البستان .

مهيّأ ، وامرأة حسناء ، وهو فى ماله مقيم ! ماهذا بالنَّصَف ؛ ثم قال لامرأتيه : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله . . . وهيّأ راحلته وطعامه ، ولحق برسول الله .

أما الثلاثة : كعب ومرارة وهلال ، فقد قعدت بهم همتهم فى أول أمرهم فلم يذهبوا ، ثم عادوا فاستشعروا الندم ، وأحسّوا ما تورّطوا فيه ؛ فهمّوا باللحاق به ، ولكن ثناهم الخجل ، وصرفهم التردّد . . .

وتفارطت الأيام ، وأمعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغزو ؛ فلم يجدوا للحاق به سبيلا . .

وأظلّتهم بالمدينة ليال نابغيّات ، وساعات نحسات : يخرجون نهارهم يجوسون خلالها ، ويروحون ويغدون بين لابَتَيْها ، ويتلفّتون فلا يرون فيها إلا رجلا مغموصاً (١) عليه بالنفاق والرياء ، أو ممن عذرهم الله من الضعفاء ؛ فتتصاعد أشجانهم ، وتفيض أحزانهم ، وتتحدّر شئونهم ؛ إذ لم يكونوا منافقين ولا مرائين ، ولا مستضعفين ولا معذورين ؛ ولم يكونوا أقلّ حبًّا فى الجهاد ممن سبقهم ، ولا أرغب فى الموت فى سبيل الله ممن تخلّفوا عنهم . . . ولكن هكذا لَعِبت بهم الأقدار ، وصنعت لهم صُرُوف الحدَثَان ؛ وكانوا كلما اقتربت أيامُ عودة الرسول ضاقت عليهم نفوسهم ، وكُثر همُّهم ، وأقِضّت مضاجعهم ، فكيف يلقونه ؟ وماذا يعتذرون به وهم ما برحوا فى صحة أبدانهم ، وبَسْطَةِ أرزاقهم ، ورفاهية عيشهم ، وصدق إيمانهم ؟

(١) مغموص عليه : مطعون عليه .

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهاده ، وذهب إلى المسجد كعادته يصلى ركعتين ، ثم يستقبل الناس ... وجاءه قوم مخلفون أخذوا يبسطون له المعاذير ، وينتحلون الأسباب ، ويقسمون بالله جَهْد الأيمان ؛ فقَبِل علانيتهم ، وبايعهم ، ووكل إلى الله سرائرهم ؛ ثم أقبل كعب يتعثّر فى مِشْيته ، ويضطرب من فَعْلته ؛ فتبسم إليه رسول الله تبسُّمَ المغضب ، ثم قال له : ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ابْتَعْتَ ظَهْرك ؟

فقال : بلى يارسول الله ، والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ؛ ولقد أعطِيتُ جذلا ، ولكنى والله لقد علمت أنى لَئِنْ حدثتك حديثاً فيه كذب ترضى به عنى ، ليوشكن الله أن يُسْخِطَكَ علىَّ ، ولئن حدثتك حديثَ صدق تجد علىّ فيه ، إنى لأرجو عَفْو الله ؛ والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلّفْتُ عنك ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ؛ فقم حتى يقضى الله فيك .

وجاء مرارة ، وجاء هلال ، فتحدثا بمثل ما تحدّث به كعب ، وتركهما رسول الله لقضاء الله وقدره ، كما ترك كعباً لقضاء الله وقدره .

* * *

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامهم ، أو الاختلاط بهم ، حتى يفصل الله فى أمرهم : يعذّبهم إن شاء أو يتوب عليهم .

ومرت عليهم بعد ذلك أيام تقسّمتهم فيها الهموم ، وجَالُوا فى أودية الغموم ، ولقوا من جفوة رسول الله جهداً وبلاء ، ومن عُزلة أصحابه عنتا وعناءً ..

أما مرارة بن الربيع، وهلال بن مرة، فإنهما قد استكانا إلى بيتهما يبكيان ويتحبان؛ انتظاراً لقضاء الله؛ وأما كعب فقد كان شابا يخرج إلى الأسواق ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس، ويشهد الصلاة، ويغشى الطرقات، ولكن لا يكلمه أحد، ولا ينظر إليه أحد، ويقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ينفلت من الصلاة: فيلقى عليه السَّلامَ ولا يدرى من اضطرابه: أتوجّه إليه أم أعرض، ردّ عليه أم سكت؟

وضاق به الأمر، واشتدت به جفوة الناس، فتوجه إلى أبى قتادة ـ وكان ابنَ عمه وأحبَّ الناس إليه ـ وتسوّر عليه جدار حائطه، وسلم عليه فلم يرد السلام؛ فقال: ياأبا قتادة؛ أنشدك الله، هل تعلمنى أحبّ الله ورسوله؟ فسكت فعاد مرة ثانية، فقال أبو قتادة: الله ورسوله أعلم! ففاضت عيناه وتولى...

ومشى يوماً فى الطريق زائغَ البصر، موزَّع الفكر؛ وإذا بنبطى من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه فى المدينة، يقول: أين كعب؟ فطفق الناس يشيرون إليه؛ فدفع إليه كتاباً من ملك غسّان، ملفوفا فى حرير، ففتحه؛ فإذا فيه: «أما بعد؛ فقد بلغنى أن صاحبَك قد جَفَاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة؛ فالحق بنا نُواسِك...»

ولما قرأ هذه الرسالة بكى وأعول؛ أن كان كعب قد هان أمره، وانحط قدره، وأصبح ممن يُطمع فى دينه ويرجى تنصره!! ثم أخذ الرسالة ودفع بها إلى التنّور...

* * *

وانقضت أربعون يوما لم يتلق الرسول فى هؤلاء شيئاً من الوحى،

ولم يستطع أن يفصل فى أمرهم بشىء؛ فأرسل إليهم أن اعتزلوا أهلكم، حتى يقضى الله بالأمر فيكم ...

أما هلال؛ فقد دَلَفَت امرأتُه إلى الرسول، فقالت: يارسول الله؛ إن هلالا شيخ ضائع، ليس له خادم؛ فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك؛ قالت: إنه والله مابه من حركة إلى شىء، وإنه مازال يبكى منذ كان من أمره ماكان إلى اليوم.

وأما كعب؛ فلما جاءه رسولُ النبى يأمره أن يعتزل امرأته قال: أُطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها: فقال له بعض أهله: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال أن تخدمه؟ فقال: والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وما يدرينى ماذا يقول رسول الله، وأنا رجل شاب؟ ثم سرّحها.

* * *

وظل أمرهم معلقا، والحديث معهم محظوراً، حتى انقضت عليهم خمسون ليلة، وماصلى بعدها رسول الله صلاة الصبح، حتى أطرق برأسه وغاب بروحه عمّن حوله؛ ثم أقبل على صحبه متهلل الوجه منشرح الصدر، وأعلن فيهم أن الله قد قبل تَوْبَةَ كعب ومرارة وهلال؛ فاذهبوا إليهم مهنئين مبشرين.

نخفّ الناس إليهم مسرعين بعضهم على فرس يركض، وبعضهم فوق جبل يصيح ... ووافى البشير كعبا، فنزع له ثوبيه خِلْعة، وما كان يملك

غيرهما ، واستعار ثوبا ، وجرى إلى الرسول ؛ فألفاه جالسا وحوله الناس في المسجد ، فقال له : أبشر بخيرِ يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك .. ثم أقبل هلال ، وأقبل مرارة فهنّأهما ، وتلا عليهم جميعا : « لَقَدْ تَابَ اَللّهُ على النبي والمهاجرين والأنصار الذينَ اتَّبَعُوه في ساعةِ العُسْرةِ من بعدِ ما كادَ يزِيغ قلوبُ فريقٍ منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رَءوفٌ رحيم ، وعلى الثَّلَاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضَاقَتْ عليهمُ الأرضُ بما رَحُبَت ، وضاقَتْ عليهم أنفسهم وظَنّوا أنْ لامَلْجأَ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليَتُوبُوا ، إن الله هو التَّوَّابُ الرَّحيم » .

....

مَسجد الضِّرار *

لفّ الظلام المدينةَ بردائه ، واشتملها بسكونه وهَدْأته ، وأوحش الطريق ، وسكنت الدور ، وأسلم الناس إلى نوم عميق ؛ ولكن داراً مازال أهلها فى يَقَظة وحذر ، وهمّ وقلق ، اجتمع أهلوها يبثون شكواهم ، وينشرون مكنون همومهم ، وقد أمِنوا على الظلام من يراهم أو يسمع سرّهم ونجْواهم ...

قال مُعتِّب بن قُشَير ، يشكو بثّه لمن دلف إليه من المنافقين ؛ ممن ذهب مذهبه من الكيد والأذى ، ومن رجع مرجعه من الحسرة والإخفاق ، ومن لبس قناعه من المداهنة والنفاق : أى همّ ذلك الذى يسرى فى أحشائى؟ وأىّ نار من الغيظ تلك التى تشتعل بين جوانحى وضلوعى ؟ إننى والله كلما لَمحْتُ فى طريق هذا المكانَ الذى تهيّأ لبنى عمرو بن عوف ، ودعَوه مسجد قُباء ، وزعموا أن محمداً قد وضع لهم أساسه ، وأقام قواعده ، أُغضّ طَرْفى على الأذى ، وأحنى ضلوعى على الأسى ! كل من فى المدينة يهتف الآن ببنى عمرو بن عوف ، ويتحدث عن مسجد قُباء ، ما نحن وبنى عمرو ؟ وأى قدم يفرَعو ننافيها ؟ ونحن وإياهم أبناء عمومة وأغصان نَبْعة .. لست أكتمكم ذات نفسى ، وما تحتويه لفائف صدرى : إن الحسد ليملأ أعطافى ، والغيظ ليتسعّر فى نفسى ، ولست أدرى دواء لما أحس ، وعلاجا

---

* القرآن الكريم ـ سورة التوبة : آية ١٠٧

لما أشعر به، إلا أن أرى مسجدَهم مقوّضا، ومجدهم داثراً، ورسمهم عافيا؛ ولكن أنى؟ وكيف؟ وقد قلّ العدد، وضعف الجند، وعزّ النصير، وانقطع الرجاء فى خذلان المسلمين!!

قال ثعلبة بن حاطب - وقد استوى فى جلسته، واعتدل فى قعدته: إن همّك من بنى عَمْك لَهَمٌّ يسير، وخطْبٌ هين؛ إنما الهمُّ الذى يبعث الأحزان، ويثير كامن الأشجان، هذا الدين الذى لا تخمُد جذوته، ولا تسكن حركته، ولا ينقطع دخول الناس فيه؛ أو ما رأيتهم وقد صاح فيهم بلال صيحةً يشق بها صدورهم، ويغزو مشاعرهم، فإذا هم جميعاً يُهْرَعون إلى هذا المسجد، ويزدلفون إلى ذلك البناء، فيتأكّد جمعهم، وتقوى آصِرَتهم، وتزكو المودة بينهم؛ فإذا كانوا فى يوم تالٍ، عادوا ومعهم جديد ممن يدخل فى دينهم، أو ينحدر إلى عقيدتهم؛ إنّ اجتماع محمد وصحبه على النحو الذى أراه كل يوم، لما يرد النفس حسرة، ويذيقها أسفاً وكمداً.

فقام وديعة بن عامر، وقال: دعكما مما تفيضان فيه من الحسرة، وما تبعثان من همّ دفين؛ لقد جاءنى اليوم كتاب من أبى عامر[1] الراهب، وهو من علمتم كراهيته لمحمد، وحنَقَه على دينه، وهمّه من ظهور أمره،

(١) أبو عامر الراهب: خزرجى، كان قد تنصر فى الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، ولما قدم رسول الله إلى المدينة شرق بريقه وبارز بالعداوة، ولما انتصر المسلمون يوم بدر ذهب إلى مكة فارا وألب المشركين على رسول الله حتى كان يوم أحد، وفيه امتحن المسلمون ولما رأى صبرهم وإيمانهم ذهب الى هرقل ملك الروم.

قال : إنه من يوم أن ترك المدينة مازال يسير ويكمن ، ويُنجِد ويُتهم ؛ حتى انتهى بعد طول ماطوّف إلى هرقل ملك الروم ، فوجده ملكا متعصباً للنصرانية ، مغيظاً محنَقًا مما سمعه عن أمر محمد والمسلمين ؛ ثم حدثه بما يقع لمحمد كل يوم من فتح ، وما ينتقل فيه من نصر إلى نصر ... ولقد ذَكَر لى ـ فيما كتب ـ أنه قد استنصره فوعده النصر ، واستنفره فمنّاه بالنفر ؛ وإنه ليوشك أن يعود إلى المدينة ؛ ولكنه يلتمس منا أن نُهَيِّئَ له معقلا خفيا ، ومكاناً تحت جنح الظلام ؛ يدبر فيه الكيد ، ويخيط نسيج المكر ... فماذا أنتم صانعون؟ وبماذا تشيرون ... ؟

إن عندى لرأياً قد زوَّرته[1] فأحكمت تزويره ، وخطّةً دبرتها ، وأظننى أحسنت تدبيرها ؛ فإن شئتم سمعتموها ، وإن شئتم رددتموها ؛ فاستشرف جمعهم إليه . وقالوا : هات ماعندك ، وأتِ على غاية مافى نفسك ... قال : لقد علمتم أن محمداً قد أصبح من القوة بما لا نستطيع صده ، أو القيام فى وجهه ؛ وإننا ما استطعنا أن نُسَاكِنَه فى المدينة ، إلا بفضل ما نُظْهِرُ من مَلَق ، وما نرتديه من ثوب النِّفاق ؛ وقد رأيتم كيف كان يَلْحَنُ[2] لأمرنا ، ويتنبه لغمزات عيوننا ؛ فهوَ منَّا أبداً على ريبة ، وهو من أمرنا دائما فى شك .

والرأى عندى أن نعمد إلى مكان فسيح نبنى فيه مسجداً ، ونتوهمه مصلى ؛ ثم نقيم له من بيننا إماما ، ونذهب إلى محمد ندعوه للصلاة فيه مداهنين ، ونحلف له كاذبين ؛ فإذا مااستجاب دعاءنا ، وصدّقنا فى أيماننا ،

(١) أعددته (٢) يفطن .

فقد استطعنا أن نفرق الجماعة، ونصدع الوحدة؛ ثم يكون المسجد بعد ذلك فى الظلام ملاذاً لأبى عامر؛ وملجأ لما يريد؛ وها هوذا مجمع[1] ابن جارية، واحد منا قارئ للقرآن، عارف بالفرائض، ندعوه لإمامتنا، ونوهمه حسن قصدنا. فما عندكم مما رأيت؟ فكلهم آمن برأيه، وأثنى على تدبيره وحزمه، وغدوا يضعون الأساس، ويعدون البناء؛ يحدوهم الرجاء، ويزين لهم الشيطان خوادع الآمال؛ حتى استوى مسجداً، قائم الجدران، متين العماد، واضح المعالم والحدود.

وانصرفوا إلى رسول الله، فوجدوه متهيئا لغزو الروم، قالوا: يا رسول الله؛ لقد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة، والليلة المطيرة والشاتية، ثم لتقام فيه الصلاة، وتؤدى شعائر الله؛ وقد اخترنا له مجمع ابن جارية إماماً، وهو من عَلِمتَه حفظاً للقرآن، وعلما بالفرائض، وبصراً بما فى كتاب الله، وقد دعوناك للصلاة فيه، فإن فعلت فقد نالنا الخير، وحفت بنا البركة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا على جناح سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله. وعاد رسول الله من غزو الروم، حتى إذا لم يبق بينه وبين المدينة إلا يومان، هبط عليه الروح الأمين، مبلغاً عن رب العالمين: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،

(١) كان مجمع بن جارية اذ ذاك غلاماً حدثا قد جمع القرآن، فقدموه إماماً لهم وهو لا يعلم بشىء من أمرهم، وقد ذكر أن عمر بن الخطاب فى أيامه أراد عزله عن الإمامة، وقال: أليس بإمام مسجد الضرار؟ فأقسم له مجمع أنه ما علم شيئاً من أمرهم وما ظن إلا الخير، فصدقه عمر وأقره.

وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ؛ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ، أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »[1] .

فعرف الرسول كيدهم ، وعلم ما كان وراء معسول كلامهم ، ومدهون أمانيهم ؛ وما وصل إلى المدينة حتى بعث رجلين بإحراق المسجد وتقويضه وهدمه .

وأصبح مُعتّب بن قُشَير ، وتلفّت : فإذا المسجد قد تهدم ، والبناء قد تقوض ؛ فعلم أن الله قد فضح أمرهم ، وأفشى سرهم ؛ وعاد وصحبه إلى ما كانوا فيه من هم وقلق ، وحزن وكمد . « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

---

(١) قيل إنه لما نزلت هذه الآيات مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس ؛ فقال: أمؤمنون أنتم ؟ فسكت القوم ، ثم أعادها ، فقال عمر : يا رسول الله ، إنهم لمؤمنون وأنا معهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أترضون بالقضاء ؟ قالوا : نعم ، قال: أتصبرون على البلاء ؟ قالوا: نعم ، قال: أتشكرون في الرخاء ؟ قالوا نعم ، قال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة .

المباهلة *

قال أبو الحارث أسقفُ نجران لغلامه : ادع لى الساعة شرحبيل ، فما لِمَا يهمّنى الآن من أمر سواه ، وكان شرحبيل هذا خازنَ أسراره ، وموضع مشورته ، وأمين مابين جوانحه ... وذهب الغلام وعاد ومعه شرحبيل .

قال أبو الحارث : دعوتك الساعةَ ياشرحبيل ، لأمر راعنى وأفزعنى ، ما استطعت أن أختزل [1] به ، أو أستقل بالرأى فيه : جاءنى اليوم كتاب من محمد بن عبد الله يدعونى فيه لدين يسميه الإسلام ، ثم يخيّرنى - إن أبيتُ - بين الجزية أو الحرب ! ولا أكتمك أنى دُهشت ممايدعو، وذُعرت مما يتوعّد ، وقلقت من مصائر الأمور ؛ ولقد حاولت أن أفصِل فى ذلك برأى ، أو أصيب من الحق مقطعا ، فما تبيّنت المعالم ، ولا اتضحت لى الحدود ؛ فاقتدِحْ لى زنادرأيك ، وأشر علىّ بماعندك .

قال شرحبيل : لستُ فى هذا يامولاى بصاحب رأى ، ولو كان أمراً من أمور الدنيا ، أو حادثاً مما يجرى بين الناس ، لرجوت أن آخذ فيه بنصيب ، أو أدلى برأى . . على أنى قد علمتُ ماوعدَ الله به من النبوة فى ذرية إسماعيل ؛ فما تؤمن أن يكون هذا هو ذاك ؛ ولكنى - كما حدّثتك - ليس لى فى النبوة رأى .

---

* القرآن الكريم - سورة آل عمران : آية ٦٠ وما بعدها .

(١) أختزل به : أنفرد .

قال له أبو الحارث : تنحّ عنى قليلا ، وسألتمس الرأى عند سواك .

ودعا إليه آخر من أهل نجران ، واستعانه فى الرأى ؛ فما زاد على أن صدر عما قال شرحبيل ، ثم دعا إليه ثالثا ؛ فرمى عن قوس الاثنين .

ولما رآهم قد استقاموا فى رأيهم على عمود واحد ، أمر بالنواقيس أن تدق ، والنيران أن تُوقد ، والمسوح أن تعلق فى الصوامع ؛ إيذاناً بالدعوة ، وإعلاناً لِلِائتِمار ؛ وكذلك كانوا يفعلون حينما يغم عليهم الرأى وتستعجم الأمور .

وتَسلوا من كل مكان ، وُهرِعوا من كل صُقع ؛ حتى إذا ما اجتمع لفيفهم ، وتألف جمعهم ؛ قام الأسقف وعَالَنهم بكتاب محمد ، وفاوضهم فيما يفعل ؛ فأداروا قداح الرأى ، وقلبوا وجوه الأمور ، وانتهَوْا إلى أن يذهب وفدٌ منهم إلى لقاء محمد ؛ يحاجّونه ويجادلونه ، ثم يرجعون بما يرون .

* * *

وصدر الوفد عن نجران ، يزعمهم شرحبيل ، ولما وصلوا إلى المدينة ، نَضَوْا عن أنفسهم ملابس السفر ، وتلفّعوا بالحَبَرات وأرْدية الحرير ، ووضعوا فى أصابعهم الخواتم ، وانطلقوا حيث يلقون الرسول .

ولما اطمأنوا إليه ، قدّموا هدايا هم فلم يَر بأساً من قبولها ، وصلّوا صلاتهم فلم يزْجُرْهم عنها ؛ ثم قال شرحبيل زعيمُهم وصاحبُ كلمتهم : يامحمد ؛ لقد علمتَ أنا نصارى ، وليَسُرّنا إنْ كُنتَ نبيا أن نسمع ماتقول فى عيسى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماعندى فيه شىء يَومِى هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله فى عيسى .

ولما أصبح الغد، نزل عليه: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ ٱللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ، فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ ٱللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

فدعاهم وأعلنهم أن قد جاء الفصلُ فى أمر عيسى من الله، فإن لم يُذْعنوا ولم يعتقدوا فليجتمع المسلمون والمحاجّون من أهل الكتاب، فى صعيد واحد، رجالا ونساء وأطفالا، ثم يبتهلوا، ويستنزلوا لعنة الله على من كان كاذباً...

فقالوا: دَعْنا نَتَشَاوِر فيما بيننا، ثم نفضى إليك بما ينتهى إليه رأينا، ولما اجتمعوا قال لهم شرحبيل: لقد علمتمونى بينكم صادق المنزعة، بعيد مراد الفكر؛ وإن الوادى إذا اجتمع أعلاه وأسفله، لا يردون إلا عن على، ولا يصدرون إلا عن رأيى: إنى والله أرى أمراً ثقيلا: لئن كان هذا الرجل ملكا، فإنا أدنى العرب منه جواراً، وأقرب منازل، ولا نأمن أن نصاب منه بجائحة؛ وإن كان نبيا مرسلا فلاعنّاه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هالك...

قالوا له: فما الرأى يا أبا مريم؟

قال: رأيى أن نحكّمه؛ فإنى أرى رجلا لا يحكم شططاً أبداً، قالوا له: أنت وذاك، ودونك وما تريد.

وذهب شرحبيل إلى رسول الله ، فقال : إنى رأيت خيراً من ملاعنتك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما هو ؟ قال : حكمك اليوم إلى الليل ، وليلتك إلى الصباح ، فما حكمت فينا فهو جائز . . . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعلّ وراءك أحداً يثرب [1] عليك . فقال شرحبيل : سل أصحابى ، فإن الوادى ما يرد وما يصدر إلا عن رأيي . . .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا على أن تعودوا فى الغد ، وعادوا فعرض عليهم الإسلام فامتنعوا ، والحربَ فقالوا : مالنا طاقة ، والجزية فقالوا : ماتريد . فشرط عليهم رسول الله ألفى حلة : ألف تؤدى فى رجب ، وألف تؤدى فى صفر ؛ على أن يظل كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لهم ، ولهم بعد ذلك جوار الله ورسوله ؛ لا يغير أسقف من سقيفاه ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يغيَّر حق من حقوقهم ، ولا يتحيف شيء من سلطانهم ، غير مبتلين بظلم ولا ظالم ، ماأصلحوا ونصحوا . . .

فرأوه حكما عدلا ، وقولا فصلا ، ورجعوا إلى قومهم يحمدون محمد ابن عبد الله .

---

(١) يثرب : يلوم .

المجادلة *

كانت خَوْلَةُ بنت ثعلب الخزرجية ، قد تزوجت بأوْسِ بن الصامت ، وهى فى مقتبل عمرها ، وريعان شبابهـا ؛ صبيحة الوجه ، حسنة القوام ؛ وعاشامعاً عمراً طويلا ، نعما فيه بحياة سعيدة ، وعيشة رافغة [1] ؛ ثم تقدمت بهما السنون ، ولكنّ خولة ما زالت تحتفظ بشىء من فتنتها وجمالها .

وفى يوم مّا قامت تصلى ، ورآها زوجها تقف فى اعتدال ، وتركع فى خشوع ؛ وتسجد فى أناة ورفق ، فتاقت نفسه إليها ؛ فلما سلّمت داعبها فى خفة وطيش ، فنفرت ؛ فاستحوذت عليه الدهشة ، وتملّكه الغضب ، وثارت ثائرته ، وحرّمها على نفسه كما حُرّمت عليه أمه ، فقال لها : أنت علىّ كظهر أمى .

ولما سألت زوجها عما يعنيه بقولته ، قال لها : ما أظنك إلّا حرمتِ علىّ !

وكان الظهار من أشد طلاق الجاهلية ، لأنه فى التحريم أوْكد ، وفى قطع الصلة أبين ؛ فأسقِط فى يدها ، وحارت فى أمرها ، وشقّ عليها أن تبين منه ، وهو أبو أولادها ، وحبيبُ نفسها ، ومؤنس وحشتها ، وزوجُها الذى سكن إليها ، وسكنت إليه أعواماً طوالا .

فذهبت إلى النبى صلى الله عليه وسلم تبثه شَجْوها ، وتفضى إليه بما أهمها ؛ علّها تجد عنده مخرجا من مأزقها ، وجبراً لصدعها ؛ وتقدمت إليه تشكو حالها قائلة له : إن أوساً قد تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ ، فبعد أن كبرت

---

* القرآن الكريم — سورة المجادلة .

(١) عيشة رافغة : واسعة

سنى ، وكثر أولادى ؛ أقدم على أن جعلنى كأمه ، وإن لى منه صبية صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ؛ ثم توسلتْ إليه أن يصلح ما فسد من أمرها ، ويقوم ما تأود من حالها .

وما كان للنبي أن يقضى بأمره ، أو ينطق عن الهوى ؛ فهو رسول الله مَوْئله الوحى ، ومرجعه السماء ؛ وهو لم يتلقَّ فى الأمر وحيا ، ولم يعرف لهذا السؤال جوابا ؛ لذلك قال لها : ما عندى فى أمرك شيء .

فازدادت حسرتها ، واشتد حزنها ، وقالت : يارسول الله ، ماذكر طلاقا ! وإنما هو أبو ولدى ، وأحب الناس إلىّ ؛ ترجو بذلك أن تلين قناته لتضرعاتها ، وتأخذه الرحمة بأولادها .

إن النبي قد علم حقيقة حالها ، ووقف على دخيلة أمرها ؛ ولكن ماذا يفعل ، وهو لم يتلق بعدُ وحيا فى مثل شأنها ، وهو الفَيْصل إذا اختلط الأمر ، وادلهمّ الخطب ، وأظلم الطريق ؟ لذلك أعاد عليها جوابه قائلا لها : ما عندى فى أمرك شيء .

فالتجأت إلى من تسعُ رحمته كل شيء ، واتجهت نحو مرسل الوحى ، ومبدع السموات والأرض ؛ ترجوه أن يزيل غمتها ، ويفرّج كُربتها ، وقالت : « أشكو إلى الله فاقتى ووجدى » .

طال بها الوقوف ، وأكثرت من التضرع ، وكلما قال لها النبى : ما عندى فى أمرك شيء ؛ جأرت إلى الله بالدعاء ، وهتفت شاكية إليه حالها ؛ فتفتحت لدعائها أبواب السماء ، وسمع الله شكاتها .

فبينما هى فى حيرتها واضطرابها ؛ ترفع وجهها إلى السماء مرة ، وتخفض

طرْفها نحو الرسول أخرى ؛ غَشِى النبي ما كان يغشاه حين نزول الوحى ، ثم نطق لسانه بالذكر الحكيم ؛ وهنالك أخبرها بأن الله قد سمع محاورتها ، واستجاب لدعائها ، وأنه ليس على المظاهر بعد الآن إذا أراد التحلّة من أيمانه إلا أن يعتق رقبة ؛ فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً .

قرت عينها ، وعاودها سكونها ، وانفرجت أسارير وجهها ؛ فقد حقق الله رجاءها وأجاب سؤلها ؛ فصلح أمرها ، ورُئِب صدعها ؛ وهاهى ذى سترجع إلى عُشها ؛ فتطعم فراخها ، وتدبر شؤون بيتها ، وتسكن إلى زوجها ، وتتصل سعادتها ، وتعود سيرتها الأولى .

أرسل النبي إلى أوس ، فلما حضر إليه ، قال له : ما حملك على ما صنعت ؟

قال : إن الشيطان لعب بعقلى ؛ وأضاع صوابى ، فركبت متن الشطط ، وأبعدت فى الغىّ ؛ فهل من وسيلة أسترجع بها شريكة حياتى ومنية نفسى ؟

قال النبي : نعم . وقرأ عليه قوله تعالى : « قد سَمِعَ اللهُ قول التى تُجَادِلُكَ فى زوجها ، وَتَشْتَكِى إلى الله ، واللهُ يسمع تَحَاوُرَكُمَا ، إن الله سميع بصير . الذين يُظَاهِرُون منكم من نسائهم مَا هُنَّ أمهاتِهم إنْ أُمَّهَاتُهُمْ إلا اللّائى وَلَدْنهم ، وإنّهم لَيَقُولون مُنْكراً من القول وَزُوراً ، وإن الله لعفوٌّ غفورٌ . والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا فَتَحْرِيرُ رقبةٍ من قبلِ أن يَتَمَاسَّا . ذلكم تُوعَظُون به ، والله بما تعلمون خبير . فمن لم يَجِد فصِيام شهرين مُتَتَابِعَين من قبل أن يتماسّا ، فمن لم يستطعْ فإطْعَامُ

ستين مِسْكينا ، ذلك لتؤمِنوا بالله ورسولِه، وتِلْكَ حدودُ الله ؛ ولِلْكافرين عذابٌ أليم » .

ثم قال له النبي : هل تستطيع عتق رقبة ؟ فقال: لا والله . فقال : هل تستطيع الصوم ؟ فقال: لا والله ، لولا أنى آكل فى اليوم مرة أو مرتين لكلّ بصرى ، ولظننت أنى أموت . فقال له : هل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا ؟ فقا لا . إلا أن تعينني منك بصدقة .

فمدّ النبي إليه يد المساعدة حتى استطاع أن يُطعم ستين مسكيناً ، وبذلك صارت زوجته حلالا له ، وجعل الله للمسلمين وسيلة للتحلل من هذه العادة الجاهلية ؛ وهكذا سار ضوء الإسلام فى تلك الأرجاء المظلمة ؛ ينير جوانبها ، ويبدد سحب الضلال فى أنحائها ، ويحسم ما استهجن من أخلاق أهلها ؛ فطهّرت مبادئه أرجاسهم ، وقامت على أسسه المتينة صروح حياتهم ، وضرب لهم مثلا واضحا فى يسر الإسلام وسماحته ، ورفع الحرج والمشقة ، وتيسير الأحكام ؛ فجعلهم بذلك مُثلا عليا ، وأسوة تحتذى ، إن الله بالناس لرءوف رحيم .

التحريم *

التقت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم محاط العظمة ، واشتبكت لديه وشائج القربى من الله ، والحظوى فى الدنيا والآخرة ، وتطلعت إليه أنظار الخليقة أجمعين ؛ يتنسمون أريجا من شذاه ، ويرمقون زهرة من جناه ، فهو ملء السمع والبصر ، محط العين والفؤاد .

وكان من أشد الناس التصاقا بالرسول ، وتزاحما إلى حوضه ، وتنافسا إلى حماه : أمهات المؤمنين ؛ وليس بدعا أن تسلك إلى قلوب هؤلاء النساء الطاهرات عقارب الغيرة ؛ حباً فيه ، وأثرةً عليه ؛ فتدب دبيبا خفيفاً ، وتسرى إلى الفؤاد ؛ فتورى فيه ناراً لا ينطفئ لظاها إلا بالقرب من نبي الله الكريم ؛ أَلَسْنَ من النساء اللاتى غلبتهنّ قوّةُ العاطفة ، وتملكتهُن دوافع الغيرة والأثرة فى كل عصر وزمان ؟ أو ليست قلوبهنّ تصبو ، ونفوسهن تحنو ، وآمالهن تتدافع ، ورجاؤهن يفيض لخير الناس أجمعين .

كان النبي الكريم يفيض قلبه بعاطفة الأبوة ، وتحنو نفسه إلى بنته (زينب) فإذا رآها أنس بها واطمأن إليها ، وانشرح صدره لأنها ثمرة نفسه وحبة قلبه ؛ حتى إذا أفل نجمها ، فذهبت إلى جوار ربها استوحش إليها ، وامتدت آماله إلى الولد : ليمسح عن قلبه انقباض الوحدة وأثر الفاجعة .

وما زال الرسول الكريم فى وحشته وانقباضه ؛ يدفعه شوق أن يكتحل

---

* القرآن الكريم ـ سورة التحريم .

بسَنَا نور ابنٍ كريم؛ وهو فى حنينه ووحشته، تدب فى قلبه حسرة وأسى؛ لأنه بلغ الستين من عمره، وأوشك مصباح حياته أن ينطفئ؛ فما هو ببالغ أملا يشيمه كل والد، ولا ينتعش برَوْحٍ يتنسمه كل أب يفيض قلبه بالعطف والحنان.

* * *

وحُملت إلى النبي الكريم من المقوقس والى مصر هدايا، ومن بينها مارية القبطية؛ فقبلها النبي، وأنزلها منزلة السرارى، ولم يهبها ماوهب لأزواجه؛ فلم يخصص لها منزلا بجوار المسجد كغيرها من أمهات المؤمنين؛ بل أنزلها بالعالية من ضواحى المدينة، فى منزل يُحيط به الكَرْم والزرع والنخيل.

وظل الرسول العظيم يختلف إليها، ولها منه ما يحل لرجل فيمن ملكت يمينه.

حتى إذا حملت مارية، وولدت إبراهيم، تفجرت ينابيع البِشْر والسرور فى قلب أبيه، وأنِسَت نفس الوالد عطفا ورحمة وحنانا بولده الأغرّ الميمون، وارتفعت مكانة مارية؛ فصارت إلى مصاف الزوجات المقربات، وازدادت بذلك حظوة عنده، ومكانة ملأت قلبها بالمسرّة، وانقلبت إلى ربّها بالشكران والتسبيح.

وكان النبي حفيًّا بولده، قرير العين به، رضىّ النفس له، مطمئن الفؤاد لمولده؛ فصار يختلف إلى منزل مارية يطالع كل يوم فى أفقه مشرق هذا الغلام، وينعم بابتسامته البريئة الطاهرة، ويفيضُ عليه فيضا كثيراً من حنان الأبوّة، وطهارة النبوة، ويغمُره بهذا الفيض الإلٰهى العميم.

وقد حمله يوماً بين ذراعيه إلى عائشة ؛ فنفست عليه ، وحجبتها الغيرة أن تهش و تبش للغلام الكريم .

كذلك كانت الأثرة والغيرة تدبّ فى قلوب نساء النبى ، كلما رأين منه إقبالا على مارية ، وحبا و تعلقاً بولدها .

وكان الرسول الكريم يخص نساءه بمكانة محترمة ، ويُنزلهن منزلا عزيزاً ، وينفحهنّ أبداً بعطف وإجلال وتكريم ، على غير عادة العرب فى الجاهلية ؛ فلما رأينه يفيض عليهنّ من عظمته وكرمه ، جنحت نفوسهن ، فتغالَيْن فى الاستمتاع بحريتهن ، واتخذْن من بعض الحوادث مسلكا إلى إغضاب الرسول :

كان النبي فى بيت حفصة ؛ فاستأذنته أن تذهب إلى أبيها فأذن لها . وفى غضون غيبتها . جاءت مارية ، فأقامت مع النبي زمناً ؛ فلما حضرت حفصة ، رأتْ مارية فى بيتها ، فانتظرت خروجها ، وقلبُها يشتعل وجداً وغيرة . ولما خرجت مارية ، دخلت حفصة على النبي ، فقالت : « لقد رأيت من كان عندك ؛ والله لقد سبيتنى ، وما كنت تصنعها لولا هوانى عليك » .

وأدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إذاعة مارأت ، والتحدث بها إلى غيرها من الأزواج ؛ وفى ذلك مافيه من إثارة لغيرتهن ، وتحريك لحفيظتهن ؛ فأراد إرضاءها ، فحلف لها أن مارية حرام عليه إذا هى لم تذكر ما رأت شيئاً . فوعدته أن تكف عن إذاعة ما كان .

لكن الطبيعة النسوية كانت أقوى جماحا ، إذ تحركت الغيرة تأكل

صدرها ؛ فلم تطق كتمان ما وعدت بكتمانه ؛ فأسرّته إلى عائشة ، وذاع الأمر بين نساء النبي كلهنّ .

فأكثرن من الحديث فى شأنه ، والجدال فى أمره ؛ والنبي الكريم ليس خلياً لهذا النوع من اللجاج والغيرة ، فأراد أن يلقى عليهن درساً ليكون عبرة لهنّ وتذكرة .

عزم النبي أن ينقطع عن نسائه شهرا كاملا ؛ تأديباً وردعاً لهنّ عما تمادين فيه من ائتمار به ، وليخفف فيهنّ عوامل تلك الغيرة الحمقاء .

فأدّى به عزمه أن ذهب إلى خزانة له ، يرقى إليها على جذع من نخل ، وليس بها من فراش إلا حصير جاف خشن ، وحسْبه هناك لقيمات من شعير يقمن صلبه ، ثم هو يُجلس غلامه رباحا على سُدّتها ؛ دفعا للجاجة الزائرين .

والرسول صلى الله عليه وسلم فى خلوته يتجه بتفكيره إلى ربه ، ويدبر أمر المسلمين فى الجزيرة ، وفيما وراء الجزيرة ؛ والمسلمون فى همّ مقيم مقعد ، وشغلهم الشاغل انقطاع نبيهم فى خلوته ؛ حتى لقد شاع بينهم أنه طلق حفصة بنت عمر ، بعد أن كان من إفشائها ما وعدت بكتمانه ، أو أنه مطلق نساءه جميعا .

كانوا يهمسون بهذا ، والحسرةُ تملأ قلوبهم ، والهمّ يقض مضاجعهم ، وقد أقام الناس بالمسجد يعبثون بالحصا ، ويجيلون العيون زائغة ، لا تستقر على حال من القلق ؛ وبينما هُمْ كذلك إذ ينتفض عمر قائما من بينهم ، فيقصد إلى مقام النبي ، ويستأذن غلامه رباحا ؛ فإذا دخل الغلام إلى سيده رجع إلى عمر ، ووقف فلم يجب ، فيرفع ابن الخطاب صوته

بالاستئذان والإلحاح ؛ فيؤذن له ، فإذا هو بين يدى الرسول ، ثم يجيل بصره فى الحجرة ويبكى ، والنبى يقول له : ما يبكيك يابن الخطاب ؟ فيذكر للنبى سبب بكائه ، فيرده النبى إلى الصواب بقول رفيق كريم.

ثم قال عمر : يارسول الله : مايشقّ عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهنّ فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال ؛ وعمر وأبابكر والمؤمنين أجمعين. ثم يقبل عمر على النبى فيحدثه بحديث يسرّى عن نفسه ويضحكه.

فلما آنس عمر منه ذلك ، ذكر له خبر المسلمين بالمسجد ، وكلامهم وآلامهم ، ورجا النبى أن يفضى إليه بالقول الفصل فى أمر نسائه ؛ فذكر له الرسول أنه لم يطلقهن ؛ فنزل عمر إلى المسجد ، ونادى بأعلى صوته : إن النبى لم يطلّق نساءه ؛ فاستبشر الناس ، وسرت إلى قلوبهم الطمأنينة ، واهتزوا هزةَ الفرح والسرور ؛ وإذا النبى مقبل على نسائه تائبات بين يديه عابدات ؛ حتى نزل الروح الأمين يحمل رسالة الله الكريم :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا » .

زينب بنت جحش

هـذا زيد بن حارثة ، وقد وهبتُـكهُ يامحمد عبداً لك مطيعاً ، ووفياً أمينا . فشكر النبي الكريم زوجه خديجة ، وقَبِل منها هديتها مسروراً ، وعاش زيد رضِيًّا بصحبة رسول الله ، موفقا فى خدمته .

وبعد حين حضر إلى مكة وفد من بنى حارثة ، يطلبون شراء ابنهم زيد وفديته بتحريره من رقه ؛ ففاض سخاء النبي العربى ، وقال لهم : إن اختاركم فخذوه من غير ثمن . ولما جىء بزيد ، أنعم الله عليه ، فاختار الرق مع النبي على الحرية بين قومه ، وصار بعد ذلك يدعى (زيد بن محمد) تعظيما له وتكريما .

بلغ الفتى أشده واستوى ؛ فرغب سيده أن يزوجه كريمة من كرائم العرب ، لتكون له فى الحياة سنداً وظهيراً .

ويبالغ النبي فى تكريم زيد ؛ فيتقدم إلى زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، فيخطبها لمولاه ؛ مكافأة له ، ودليلا على رضاه .

ولكن عبد الله بن جحش يأبى ويأنف أن يزوج زيداً ؛ لأنه من غير الصرحاء ، وتشاركه أخته زينب إباءه وأنفته ؛ ضِنًّا بنسبها العربى الكريم .

ولكن . . . « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللهُ ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم » . فلا يصح لرجل ولا امرأة اختيار أمر من الأمور يخالف ماقضاه الله ، ثم بلغه الرسول .

---

* القرآن الكريم — سورة الأحزاب : آية ٣٦ وما بعدها .

إذن فليرض عبد الله ؛ ولتخضع زينب لقضاء الله ورسوله ؛ وليسعدا بزواج يخلد الله شأنه فى كتابه الكريم .

عاش زيد وزينب معيشة زوجين هانئين بما وفقهما الله الكريم ، وأرخى لهما من حبال السعادة ، ورفَّه لهما فى العيش ، ومدّ من أسباب الرخاء . وبعد حين . . . أراد الله أن تقع الواقعة ؛ سنّاً للشرائع ، وإيضاحاً لأمور الدين ، وتبياناً للعالمين ، وتصحيحاً لأوهام الناس .

وهل يقدم على مخالفة مألوف العرب ، وتحطيم أغلالهم ، ونبذ خرافاتهم إلا رجلٌ مَلك الإيمانُ نفسه ، وملأ الحق قلبه ، وخالطت الجرأة منه العصب والدم ، والمسامع والأطراف ، وتغلغلت الشجاعة الخلقية فوصلت منه إلى اللب والشغاف ؟ ؟ وهل يسمو بَشرٌ إلى تلك المنزلة الكريمة سموّ النبي الكريم ؟

وبعد حين من الدهر ، وَهَت الرابطةُ بين زيد وزوجه ، وفترت تلك العلاقة التى تجمع بينهما زوجين مؤتلفين ؛ فيتقدّم زيد إلى رسول الله شاكياً ، يستشيره فى طلاق زينب ؛ فيتجلى عطف الرسول ونبله قائلا : يازيد ؛ هذه زينب يسَّر الله لك زواجها بعد عسر ، وسهَّله بعد امتناع ؛ وعسى أن يصلح حالها لك بعد ؛ فأَمسِكْها عليك ، واتق الله لئلا تَصِمَها بأنها لا تحسن عشرة الأزواج ؛ وثُبْ إلى رشدك ؛ فلا تَنقُض أمراً أبرمته ، ولم يتم إلا بعد أن نزَلَ فيه قرآن من المدبر الحكيم .

يقول الرسول العظيم قوله هذا ، ونفسُه تفيض حناناً وعطفاً وإشفاقاً ،

لما كان قد سبق فى علم الله : من أن زيداً يطلق زينب ، ثم تتزوج النبى من بعده .

واستمر الرسول ضارعا بينه وبين نفسه إلى الله ، مبتهلا إلى رحمته ، عسى أن يمحو الله ما أثبت ؛ فيصلح الحال بين المرء وزوجه ، وينقض أمراً سبق أن ألهمه استكمالا لأسباب التشريع .

فاضت نفس الرسول بالنصح لزيد ، وبالضراعة إلى الله ؛ أملا أن ينقض الله ما أبرم ، وأن يمحو ما أثبت . ولكن أبى الله إلا أن يتم قضاؤه ؛ فأوحى الله إلى رسوله : « وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » .

وكان النبى يخفى قضاء الله ، عسى أن تنفع فيه شفاعته ، ويخشى الناس أن يضلوا بسبب اعتراضهم على أمر لم يألفوه ، وتشريع ما تعوّدوه ؛ ولكن من يهد الله فلا مُضلَّ له ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، والله أحقُّ بالخشية والرعاية من سواه ؛ لأن مألوف الناس وعاداتهم ليست أصلا لتشريع ، ولا أساساً لقانون ؛ والنبي أولُ من يهدم العقائد الفاسدة ، ويقوّض الخرافاتِ السائدة ، فيقيم بعدها صرحا من الحق ، ومناراً للشريعة السَّمحة .

انقضت عِدّة زينب بعد طلاقها من زيد ، ثم هيّأ الله زواجها من النبي الكريم ، وكانت زينب تفخر ، تتيه دلالا وتمتلئ عجباً ؛ فتقول لسائر نساء النبي : إن الله تولى تزويجى ، أما أنتن فتولى تزويجكنَّ أولياؤكنّ » .

ولقد كانت هذه الحادثة أمرا خرق مألوف العرب ، وغيّر وجهة أحوالهم ، معتقداتهم ؛ فقد ادّعوا للدّعيّ ما للابن من الحقوق : من إرث

ونسب ؛ وقد تسلّط ذلك الاعتقاد فى نفوسهم ، ورسخ فى أذهانهم ، وعسر عليهم أن يخلعوا عنهم ربقته ، أو أن يزيلوا عن أفكارهم وطأته ؛ فتقدم النبي الكريم ، بآية واضحة ، وحجة قاطعة ؛ فقام بما قام مع قيام هذه العادة ، وتمكنها من الناس . ومن أوْلى بذلك غير رسول الشريعة الحنيفية ؟ وهو الذى نادى بحرمة رِبَا الجاهلية ، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس ؛ حتى يرى الناس صنيعَه بأقربِ الناس إليه ؛ فتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم .

ولقد كانت قصة زيد وزينب مثارا لأقوال وشبهاتٍ ، جرفت كثيرا من الناس ، ممن زاغ بهم الباطل ، وران على قلوبهم حَلَك الضلال ؛ فنسبوا إلى النبي أنه اشتهى زينب بعد زواجها من زيد ؛ وما كان محمد ليمكّن لميوله ، ويمهد لهواه ، بما يخالف أمر ربه ؛ تسامى قدر الرسول وتعالى علوا كبيرا ، أمَا كانت زينب أمامه بكراً تحت سمعه وبصره ؟ وهو فى سن الأربعين ، زمن اكتمال الفتوّة والشباب ؟ أفبعد ثلاث عشرة سنة ، وبعد أنْ زالت عنها نضرة البكارة ، وهدأت فيه ثورة الشباب ، ينظر إليها نظر التشهى ؟ ألم يكن له من شواغل الدين والفتح شاغل عن أمور النساء ؟ وهو هو ابن السادة الكرام الموصوفين :

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزِرَهم ... دون النساء ولو باتتْ بأطْهَار

وهو هو النبي الكريم الذى نهاه ربه أن يمدّ عينيه إلى ما متّع الله به الناس من زهرة الحياة الدنيا !

بل لنرجع إلى الفطرة الأولى للرجل العربى ، الذى لم تعصمه النبوة ، ولم تزينه رجاحة العقل ، وسمو المعرفة ، وصدق العزيمة ، فنراه يغض الطرف عن جارته ، فهذا عنترة الجاهلى يقول :

وأغضُّ طَرْفِى إن بدت لِىَ جارتى حتى يُوارِى جارتى مَأْوَاهَا

بل هو هو الذى يقول الله فيه : « وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم » .

انتهى